

شرح

الأحاديث القدسية

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري أبو عمارة

مكتبة الصفا
المنشأة والفروع

تلفون: ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس: ٢٥١٤٧٩٧٤





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فما زال فضل الله العظيم الكريم يتوالى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا ﷺ، فقد منَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتيان في جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملاً، أو مفرقاً على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوي الشريف والتي عليها قوام هذا الدين وهي بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتي قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله ﷻ لتوصيل الدين وتبليغه كتاباً وسنةً، قولاً وفعلاً، نصاً وفهماً وعملاً.

قد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيح الإمامين البخاري ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، وشرحاً وبياناً.

وأيضاً وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التي تخدم الكتاب والسنة بشتى الأشكال. والتي قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله ﷻ في كتابه

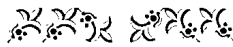
وسنة رسوله ﷺ، في صورتى ما بين المطول والمختصر - رحمتنا الله وإياهم
وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب:
«شرح الأحاديث القدسية»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتي نرجو من الله
ﷻ أن يتقبلها منا قبولاً حسناً، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.
إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

مَكْتَبَةُ الصَّفَا

جعلها الله مناراً لخدمة العلم والدين



بين يدي الكتاب

✽ إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد:

فإن الإنسان في هذه الدنيا مسافر إلى الله (جلّ وعلا) يقطع المسافات والأوقات في طاعة رب الأرض والسموات من أجل الوصول إلى النعيم والرضوان في أعالي الجنات.

والعاقل هو الذي يعلم أن السفر كله مشقة وأنه لا راحة إلا بعد الوصول... وما عليه إلا أن يُعد الزاد لهذا السفر البعيد.

✽ ولقد أخبرنا الله (جلّ وعلا) بأعظم زادٍ نتزود به في طريقنا إلى الله وإلى الدار الآخرة فقال (جلّ وعلا): ﴿وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

والتقوى هو الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ﴿٢﴾.

والتقوى أيضًا: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله.. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله ﴿٣﴾.

✽ ولن تستطيع أن تصل إلى حقيقة التقوى إلا إذا سرتَ خلف النبي محمد ﷺ فتتخذهُ أسوةً وقدوةً لك في أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ.

والسبيل إلى ذلك لن يكون إلا بالعودة إلى كتابِ الله وإلى سُنَّةِ رسول الله ﷺ من أجل إقامة مجتمعٍ مسلمٍ يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

✽ ومن أجل ذلك كان الناس بحاجة شديدة إلى أن يتعرفوا على الأخلاق والآداب والمعاملات التي جاء بها النبي ﷺ لكي يتعايشوا معها بقلوبهم وجوارحهم فيفوزوا بسعادة الدارين في الدنيا والآخرة.

✽ وسنجد ذلك كله في كتاب الله ﷻ (القرآن الكريم) وسُنَّةِ رسول الله ﷺ... وكذلك في الأحاديث القدسية التي تعتنى ببناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية والمقاصد الربانية وعلى الدعوة إلى كل الفضائل والخيرات ومكارم الأخلاق والترغيب في الجنة والتخويف من النار.

ومن أجل ذلك أحببت أن أسطر هذا الكتاب الذي أشرح من خلاله باقة عطرة من الأحاديث القدسية الصحيحة الثابتة من أجل أن يعلم المسلمون

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

(٢) هذا تعريف علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) هذا تعريف (طلق بن حبيب) رَحِمَهُ اللهُ.



معانى تلك الأحاديث ومقاصدها العظيمة وليعملوا بما فيها.. ليفوزوا في دُنْيَاهُمْ
وآخِرَتِهِمْ.

ولقد تناولت تلك الأحاديث بأسلوبٍ سهلٍ ميسورٍ سائلًا الحق (جلَّ
وعلا) أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم أُدرج في أكفاني.
وأسأل الله ﷻ أن يجمعني بكم جميعًا في الفردوس الأعلى إخوانًا على
سُررٍ متقابلين.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلح الله على نبيينا وحبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمد بن عبد الرحمن
بن عبد الرحمن

وقفات هامة

❁ وها هي بعض الوقفات الهامة التي ينبغي أن نقف عندها قبل أن نشرع في شرح تلك الباقية العطرة من الأحاديث القدسية.

❁ تعريف الحديث القدسي :

هو ما رواه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى على غير النسق القرآني ونظمه وإعجازه، ولكنه في نظمِه وأسلوبه بسائر الحديث النبوي أشبه... وهو يُعدُّ في جملة السُّنة النبوية لكن راويه هو النبي ﷺ.

❁ منزلته :

ليس للحديث القدسي قوة إعجازٍ خاصة كالقرآن الكريم، ولكنه لجلالة نسبته، ولطف موضوعه كان له موقع خاص في السمع، واستقبال مُتميِّز في النفس، وأثر ظاهر في الشعور والوجدان.

❁ طريقة نقله :

الحديث القدسي أغلبه منقول بطريق الآحاد كعامة الأحاديث النبوية، ولذا فإنه يطرأ عليه ما يطرأ عليها، من صحَّة وحُسن ووضَع، بل إنه لإقبال العامة عليه كان مجالاً لاختراع الكذَّابين واختلاق الوضَّاعين، مما يستلزم ضرورة النظر في أسانيده، وفحص متونه، ليُعرَف صحيحه من سقيمِه.

❁ صيغ الحديث القدسي :

له صيغٌ مُتعددة يُعرَف بها، وأكثر الصيغ التي يُعرَف بها الحديث القدسي وأشهرها ما كان صريحاً في بيان هذه النسبة، مثل قول النبي ﷺ: «قال الله» أو «يقول الله» أو «يقول ربكم» أو ما شابه ذلك من الصيغ التي تثبت القول للرب تبارك وتعالى عن طريق إسناد فعل القول أو ما يؤدي معناه إسناداً صريحاً إليه.



موضوعه وأغراضه :

الحديث القدسي لا يتعرض لتفصيل الأحكام الفقهية ولا لبيان الشرائع التعبدية كالحديث النبوي، ولكنه يُركز على بناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية والمقاصد الربانية، وفي التحذير من المعاصي والمنكرات، وفي الدعوة إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق وفي الترغيب في الجنة والتخويف من النار... وبالجملة فإنه يدور في فلك العقائد والوعظ والتوجيه والتربية.

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي

✽ هذا ويفترق الحديث القدسي عن القرآن الكريم من وجوه منها:

- (١) أن القرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام، بينما الحديث القدسي قد تكون الوسطة جبريل أو يكون بالإلهام أو غير ذلك.
- (٢) القرآن الكريم كله متواتر، والحديث القدسي ليس كذلك.
- (٣) القرآن الكريم لا يتطرق إليه الخطأ، وأما الحديث القدسي فقد يرد الوهم إلى أحد رواته، فيرويه على الخطأ.
- (٤) القرآن الكريم يُتلى في الصلاة، ولا يجوز ذلك في الحديث القدسي.
- (٥) القرآن مُقسَّم إلى سور وآيات وأحزاب، وغير ذلك، والحديث القدسي ليس كذلك.
- (٦) ثواب قراءة القرآن وتلاوته ثابت، والحديث القدسي ليس له نفس الفضل.

(٧) القرآن معجزة باقية على مرّ الدهور والعصور.

(٨) جاحد القرآن يكفر، بخلاف مَنْ جحد حديثاً قدسياً (لظنه أنه ضعيف

مثلاً).

(٩) تجوز رواية الحديث القدسي بالمعنى، ولا تجوز قراءة القرآن بالمعنى^(١).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية، لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تليغاً... وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله عزَّ وجلَّ.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لا سيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنى، لكان أعلى سنداً من القرآن، لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة، كما هو ظاهر السياق... أما القرآن، فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٢) وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾^(٣).

(١) صحيح الأحاديث القدسية (ص ٦-٨) للشيخ مصطفى العدوي.

(٢) سورة النحل: الآية: (١٠٢).

(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٩٣-١٩٥).



الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق، لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضى تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروقاً كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يُتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته، فلا يُثاب على كل حرفٍ منه عشر حسنات، والقرآن يُتعبد بتلاوته بكل حرفٍ منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تَحَدَّى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يَرِدْ مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) والأحاديث القدسية بخلاف ذلك، ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نُسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثر على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته - كالفاتحة - بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

(١) سورة الحجر: الآية: (٩).

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجُنُب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القُرَّاء عليه، لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية فإنه لو أنكر شيئاً منها مُدعيًا أنه لم يثبت، لم يكفُر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله، لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يُضاف إلى قائله معنى لا لفظاً، كما في القرآن الكريم، فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائلها، ونحن نعلم أنها أُضيفت معنى لا لفظاً، كما في «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة^(١) وأهل السنة في كلام الله تعالى، لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى... فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوتٍ وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرفٍ وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه... ولا شك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة، لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله، فقد اتفقا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق^(٢). أما أهل السنة والجماعة فيقولون أن القرآن

(١) فرقة من الفرق الضالة - وانظر: «منهج الأشاعرة في العقيدة» للدكتور سفر الحوالي «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبد الرحمن المحمود.

(٢) انظر: «العقيدة السلفية في كلام رب البرية» للشيخ عبد الله يوسف الجديع.



الكريم كلام الله ﷻ قديم غير مخلوق ... فقد قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(١)، ولم يقل: الرحمن خلق القرآن.. وقال تعالى: ﴿يَسَّ ۙ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾^(٢)، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق.

ثم لوقيل في مسألتنا- الكلام في الحديث القدسي-: إِنَّ الْأَوْلَى تَرَكَ الْخَوْضَ فِي هَذَا، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّنَطُّعِ الْهَالِكِ فَاعْلُهُ، وَالِاقْتِصَارِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْحَدِيثَ الْقَدْسِيَّ مَا رَوَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ وَكَفَى، لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا، وَلَعَلَّهُ أَسْلَمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ (فائدة):

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سُمِّيَ (قدسيًا)، لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سُمِّيَ مرفوعًا، وإذا انتهى إلى الصحابي سُمِّيَ موقوفًا، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سُمِّيَ مقطوعًا^(٣).

❁ فتعالوا بنا لتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع شرحٍ بسيطٍ لتلك الباقية العطرة من الأحاديث القدسية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الرحمن: الآيتان: (١، ٢).

(٢) يس: الآيتان: (١، ٢).

(٣) القول المفيد (١/ ٥١-٥٣) بتصرف.

(١) رحلة أرواح المؤمنين والكافرين

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وَجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِسْكِ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُونَ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بَأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ فَيَشِيْعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلِيِّينَ، وَأَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى؛ فَتُعَادُ رُوحُهُ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِيهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْشُرْ بِالَّذِي يَسْرُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يُجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ



فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودٌ الْوُجُوهَ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ! أَخْرَجِي إِلَى سَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ... فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْزِعُهَا كَمَا يُنْزَعُ السُّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَبِفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيُصْعِدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟! فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بَاقِحُ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحَهُ طَرْحًا فَتَعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ؛ وَيَأْتِيهِ مَلَكٌ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرَشُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتَنُ الرِّيْحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١).

✽ إِنْ أَسْعَدَ اللَّحْظَاتِ وَأَعَزَّهَا عَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا دَنَتْ سَاعَةُ الرَّحِيلِ، تِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي لَا كَرْبَ بَعْدَهَا عَلَى الْمُؤْمِنِ أَبَدًا... فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا طَفَقَتْ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ، قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَإِذَا كَرَبَ أَبْتَاهُ، فَقَالَ ﷺ: لَا كَرْبَ عَلَيَّ أَيْبِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ»^(٢) فَقَدْ لَقِيَ الْحَبِيبَ حَبِيبِهِ، وَلَقِيَ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي، والضياء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٦٢) كتاب المغازي.

المؤمن من كان يتمنى لقاءه... فكم اشتاق إلى لقاء الرحمن جلّ وعلا! وكم اشتاق إلى دار الجنان! في تلك الساعة حيث تنزل ملائكة الرحمن على ذلك العبد الصالح، تبشّره بما عند الله من المثوبة، فيحب لقاء الله، فيحب لقاءه... ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبُّ إِلَيْهِ لِقَاءُهُ»^(١)، إن العبد إذا دنت ساعته، وحانت قيامته، وبدت سكراته وزفراته، عندها إما محسن سعيد بربه، وإما مسيء شقي بعمله.

دخل أبو حازم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ سَلِيمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ! كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا الْمُحْسِنُ فَكَالْمَسَافِرِ يَقْدُمُ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَمَا الْمُسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ يَقْدُمُ عَلَى سَيِّدِهِ.

إن المؤمن إذا بدت له معالم الآخرة، تنزلت عليه الملائكة فبشّرته بما عند الله من العفو والرضوان؛ فثبتت له الجنان وأورثت في القلب حُبًّا وأورثت في القلب لهفةً وشوقاً إلى لقاء رب العالمين، واشتاق القلب إلى الجنان وإلى لقاء الصديقين والشهداء والصالحين... فلقد بشرته الملائكة بلقاء الله، فأحب لقاء الله... وقد بين الله تبارك وتعالى تلك اللحظات وقصّ بيانها في التنزيل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَهِمْ رَحْمَتُ اللَّهِ﴾^(٢).

إذا حضر الموت للمؤمن وجد الحزن والألم على فراق أبنائه... نظر إلى أبنائه فخاف عليهم العالة والفقير من بعده، وخاف ألا يجدوا اليد الأمينة التي ترعاهم بعده، وخاف أن يجدوا من ضنك الدنيا وشدتها، فعند ذلك يحزن قلبه

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) سورة فصلت: الآيات: (٣٠-٣٢).

ثم يلتفت ويُقلب عينه، ليرى ما أمامه في الآخرة فيخاف أهوالها وشدة نكالها، فعند ذلك يُبشّر بالأميرين: ألا تخافوا مما أنتم قادمون عليه، وألا تحزنوا على فراق الأبناء والذريات، فإن الله تبارك وتعالى تكفل للمطيع أن يرعى ذريته، حتى من بعد فراقه للعالم... ولذلك انظروا إلى موسى عليه السلام، يبعثه الله تبارك وتعالى مع عبد من عباد الله الصالحين، وهو نبي الله الخضر عليه السلام لكي يرفع جداراً، فيقول الخضر لموسى عليه السلام قاصّاً خبره: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(١).

قال بعض المفسرين: إنه الجد السابع لهما... فالله يحفظ العبد المؤمن في كل ما تركه في دنياه... وفي كل ما يُقبل عليه في آخرته.

✽ وتعالوا بنا لنبدأ في شرح هذا الحديث.

ففي بداية الحديث يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:

(خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار) أي إلى البقيع (فانتهينا إلى القبر) أي وصلنا إليه (ولما يلحد) أي وصلنا إلى القبر حال كون الميت لم يُحفر اللحد له بعد (فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم) في انتظار أن يُحفر اللحد (وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير) وهذا كناية عن غاية السكون أي لا يتحرك منا أحد ولا يتكلم توقيراً لمجلسه صلى الله عليه وسلم... والمعنى جلسنا ساكنين مُتأدبين في حضرته صلى الله عليه وسلم متواضعين بحيث يكاد يقعد الطير على رؤوسنا... والطير لا يكاد يقعد إلا على شيء لا يتحرك... وكانوا صلى الله عليه وسلم يراعون أوقاته صلى الله عليه وسلم فأحياناً يتكلمون عنده ويضحكون وأحياناً يتأدبون ولا يتحركون.

(وفي يده عود ينكت به في الأرض) أي يؤثر بطرف العود الأرض كالمفكر

المهموم.

(١) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

والصحابة في غاية الصمت والسكون.

فليس من السنة الصباح عند القبور أو الهتافات والدعوات الجماعية، وإنما إن وَعَظَ واعظ فليستمع له الناس، وإن لم يكن فليدعُ كل إنسانٍ في سِرِّهِ للميت.
قال: (وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس).

❖ فيخبر النبي ﷺ هنا أن العبد المؤمن الذي عاش حياته كلها على الإيمان والتوحيد والطاعة والاتباع إذا كان في انقطاع من الدنيا. أي: إدبار منها فهو في آخر لحظات حياته يُفارق الدنيا ويودعها بلا رجعة؛ لأنه في إقبالٍ من الآخرة واتصالٍ بها وانتقالٍ إلى أول منازلها كما قال النبي ﷺ: «الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ»^(١).

فما الذي يحدث للمؤمن في تلك اللحظة؟.. «نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ» وهم الملائكة الذين يسبقون ملك الموت ليجهزوا له الروح حتى يأتي ويتزعمها من ذلك الجسد.. لكن ما هي مواصفات هؤلاء الملائكة؟

«بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ» فكما كان إيمانه وتوحيده لله ساطعاً واضحاً كالشمس لا غبار عليه فكذلك تأتيه ملائكة كأن وجوههم الشمس ليستبشر بمنظرهم الجميل بكل ما هو آتٍ.

«مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ» ولك أن تتصور وتخيّل معي كيف يكون شعور المؤمن وكيف تكون سعادته وهو يرى الملائكة يحملون له كفناً من الجنة مع أنه سيلبس الآن كفناً من أكفان الدنيا لكن هذا كفنٌ لجسده أما الكفن

(١) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (١٦٨٤).

الذى مع الملائكة فهو لروحه... فسوف تكفن الملائكة روحه بكفنٍ من الجنة قبل أن يلبس ذلك الكفن الدنيوى على جسده.. ومن المعلوم أن كل ثياب أهل الجنة بما فيها أكفانهم تخرج من شجرة طوبى فى الجنة.. كما قال ﷺ: «طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةَ مِائَةِ عَامٍ .. ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»^(١).

بل ومع الملائكة أيضًا «حَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ» أى: عطر من الجنة... فالبشر يضعون فى الجنائز حنوطًا فى الأرض، ويُعدون الكفن، والملائكة معها كفنٌ للروح، والناس تجعل طيبًا مع الكفن فى البدن، والملائكة معها أيضًا حنوط، ولكن من حنوط الجنة للروح المؤمنة.

﴿حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ﴾ كأنه ينظر إلى البحر فلا يدرك آخره... هكذا يجلسون منه إلى غاية ما ينتهى بصره... وهذا غاية الإكرام من الله ﷻ لهذا العبد أن يرسل له كل هؤلاء الملائكة ليستبشر بهم وليشبتوه وليفرح بما أمامه.

ولعلَّ مَنْ حوله ييكون وهو فَرِحٌ... ولعلَّ زوجته عنده تبكى وهو مستبشر، ولعلَّ أمه تبكى وهو يطرب فرحًا بلقاء الله جلَّ وعلا... ورؤية الملائكة البيض بشارة فى الدنيا قبل دخول القبر «ثم يجرىء ملك الموت ﷻ حتى يجلس عند رأسه» ونحن لا نراه ولا نشعر به.. لكن المؤمن الذى ستقبض روحه الآن هو الذى يراه وحده فى أجمل وأبهى صورة جعلت روحه تفيض بكل سهولة شوقًا للقاء الله ﷻ... قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٢﴾».

﴿وهنا يبدأ النداء الذى يتحدد عليه مصير هذا العبد وسعادته أو غير

(١) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩١٨).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: (٨٣-٨٥).

ذلك.. فيقول ملك الموت: (أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ) اطمأنت بأى شىء؟

اطمأنت بالقرآن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١) اطمأنت ببر الوالدين، اطمأنت بصلاة الفجر، وبالسجود والركوع، اطمأنت بذكر الله جلَّ وعلا: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ» الله أكبر! يُبَشِّرُ بالمغفرة، يُبَشِّرُ بالرضوان... إنه النجاح الحقيقي الذى يجب على الإنسان أن يعمل له؛ إذ ليس يُعَقَّلُ أن الإنسان يعمل لمستقبل ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة، ثم لا يعمل لمستقبل مئاة أو آلاف السنين، والله أعلم كم سيبقى الإنسان فى قبره وما بعد ذلك من المستقبل؛ لأن يوم القيامة خمسين ألف سنة... إذا: فأين العمل للمستقبل؟ وبعد هذا الجنة أبداً أو النار أبداً.

فإذا نادى ملك الموت على روح المؤمن بهذا النداء ماذا يحدث؟

«فَتَخْرُجُ فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السَّقَاءِ».

انظر إلى هذه النقطة وهى تقع من الكأس بكل سهولة... فكذا روح المؤمن تسيل «كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السَّقَاءِ»، يعنى: تخرج كانبياى قطرة ماء من فم قربة أو إناء.

فإذا خرجت الروح أخذها ملك الموت.. فإذا أخذها أسرعت الملائكة لتأخذها من ملك الموت لتضعها فى ذلك الكفن الذى تُسَجُّ فى الجنة ولتضع عليها حنوطاً أى عطرًا من الجنة .

قال ﷺ: «فَيَأْخُذُهَا: فَإِذَا أَخْذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ»، يعنى: الملائكة الأعوان مستعدين للعمل بسرعة... ومشتاقين لتلك الروح الطيبة.

إذا... كل روح تقع فى يد ملك الموت فيأخذها أعوانه.

ولم يثبت فى حديث صحيح أن اسم ملك الموت عزرائيل، إنما هى آثار غير

(١) سورة الواقعة: الآيات: (٨٣-٨٥).



صحيحة.

فياخذها ملك الموت: «فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفْنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ» الله أكبر! وُضِعَ فِي كَفَنِ الْجَنَّةِ، وَفِي حَنُوطِ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَصَلِي عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

فإذا وضعوا الروح في الكفن ووضعوا عليها عطر الجنة (الحنوط) فإنه «يَخْرُجُ مِنْهَا» أي من الروح «كَأَطِيبٍ نَفْعَةٍ مِسْكٍ وَوَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» تخرج رائحة طيبة ساعة خروج الروح؛ لأنها كانت روحًا طيبة، وكانت في جسد طيب يعبد الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا» أي بالروح «فَلَا يَمُرُونَ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» أي الذين بين السماء والأرض «إِلَّا قَالُوا» أي الملائكة «مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟» فالرائحة الطيبة تدل على طيب صاحبها الذي طيب حياته كلها بذكر الله وشكره وعبادته. «فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا»، وذلك أنه كان له ألقاب في الدنيا بعضها حسن، مثل: عابد صائم مجاهد عالم كريم... أي أن الأسماء الطيبة التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا هي أسماء الأعمال الصالحة التي كان يفعلها، قال: «حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ».

إذًا: هناك أبواب للسماء الدنيا، كما قال عَزَّوَجَلَّ في حق الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾^(١)، ونحن قد لا نرى هذه الأبواب؛ لأن أماننا كل هذه الملايين من السنين الضوئية أو مليارات السنين الضوئية.

❁ فالشاهد أنه تُفتح له أبواب السماء الدنيا إكرامًا لهذا العبد المؤمن...

(١) سورة الأعراف: الآية: (٤٠).

«فِي شَيْعَةٍ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا» جنازة تمر في السماء، فهل تعرف مَنْ يمر بالجنازة وَمَنْ يُشِيَعُهَا؟ إنهم أفضل ملائكة في السماء، وأقرب الملائكة إلى الله، يمشون خلف هذه الجنازة، من سماء إلى سماء، ثم تستقبله ملائكة أخرى... أفضل الملائكة في كل سماء تستقبل هذه الروح لتصعد بها إلى السماء التي تليها.

«حَتَّى يَنْتَهَى إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ» فيا له من تكريم لا يخطر على قلب البشرية كلها.. احتفال سماوى ملائكى بروح عبد مؤمن.. ليس في سماء واحدة بل في السماوات السبع.. وليس من مَلَكٍ من الملائكة بل من ملائكة السماوات السبع.

«فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا» أى اثبتوا «كِتَابَ عَبْدِي» فالإضافة هنا للتشريف.. فأعظم نعمة في الوجود أن تكون عبداً لله وحده عَزَّوَجَلَّ.. «اَكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ» عليين مأخوذة من العلو.. أى: اكتبوا كتاب عبدى في مكان عالٍ في أعلى درجات الجنة فيه كتاب الأبرار والمُقربين... فكتاب المؤمنين وأرواحهم في عِلِّيِّينَ وأرواح الكفار وكتبهم في سِجِّينَ في الأرض السفلى.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر أى ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابهم في سِجِّينَ، وكتاب الأبرار في عِلِّيِّينَ، وهو مكان عالٍ مشرفٍ في أعلى الجنة... قال في التسهيل: ولفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكانٍ على رُفيع... فقد روى أنه تحت العرش^(١) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنه أى: وما أعلمك يا محمد ما هو عليون؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرَقَّومُونَ﴾ أى كتاب الأبرار كتابٌ مُسَطَّرٌ، مكتوب فيه أعمالهم،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٥).



وهو في عِلين في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة.

قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكة بالبُشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيُكتب فيه ويُختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون^(١).

❁ ثم يأمر الله ملائكته ويقول: «أَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ» أي: أعيدوا روحه إلى جسده الذي دُفن في الأرض.

«فإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرَجْتَهُمْ تَارَةً أُخْرَى؛ فَتُعَادُ رُوحُهُ»، هذا دليل على أن الروح سوف يَحْضُلُ لها اتصال بالبدن الذي يُوضع في القبر، وأن هذه المرحلة هي التي ما بين خروج الروح وبين وضعه في قبره، حيث يُشيع الناس البدن إلى القبر، والروح تُسَيِّعُ وصعدت إلى السماء، ثم أمر الله أن تُعاد الروح مرة أخرى إلى الأرض.

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ» أي: المنكر والنكير في أبهى وأجمل وأحسن صورة حتى يستبشر مرة أخرى برؤيتهما «فَيُجَلِّسَانِي» بعد أن كان في وضع النوم «فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟» أي: من أين عرفت وكيف علمت ذلك وما حُجَّتكَ؟

«فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ» أي: القرآن الذي أكثر من ذكر رسول الله ﷺ ووجوب محبته واتباعه «فَأَمَّنْتُ بِهِ» أي: بالكتاب أو بالرسول أو بالاثنتين «وَصَدَّقْتُ» أي تصديقاً قلبياً وما اكتفيت بالإيمان اللساني «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ» أي: افرشوا القبر من فرش الجنة..

ومن المعلوم أن من المؤمنين مَنْ يكون قبره مَدَّ البصر، ومنهم مَنْ يكون قبره سبعين ذراعًا في سبعين ذراعًا.. فكل ذلك يُفَرِّش من الجنة «وَالسُّوهُ مِنَ الْجَنَّةِ» أى: اكسوه من ثياب الجنة «وافتحوا له» أى لأجله «بَابًا» أى من القبر «إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيْبِهَا» أى: من نسيمها العليل أو الراحة والسرور وعطرها الجميل «وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ» أى: يُفْسَح له ويُوَسِّع له قبره منتهى بصره لو كان واقفًا في مكانٍ فسيح وليس أمامه بُنيان «وَيَأْتِيهِ» أى يأتى للمؤمن «رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ» على أحسن ما يكون وأجمل ما يكون من صورة فيقول ذلك الميت الصالح: «مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ» أنا قيام الليل، وصيام النهار... ولذلك المؤمن الصالح إذا قام في ركعة نافلة واستثقلها وأحسَّ بطولها وجاءته السامة والملافة في طاعة الله فليتذكر يوم تكون هذه الطاعة أنسًا له في القبر... ليتذكر يوم تكون له هذه الركعة والسجدة نورًا له في القبر... وليتذكر يوم تكون هذه الركعة والسجدة نورًا له على الصراط.

❁ فمن شدة الفرحة يقول: «رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ... رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».. أى: ما دام كل هذا النعيم وأنا ما زلت في قبري فكيف يكون النعيم في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فيا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى من الحور العين والخدم «وَمَالِي» من القصور والبساتين وغيرهما... وقيل المراد بالأهل أقاربه من المؤمنين.... وبمالي ما يشتمل الحور والقصور... وقيل: إنه طلب إقامة القيامة لكى يصل إلى ما أعد له من الثواب والدرجات، ويؤيده ما ذكر في الكافر حكاية عنه: رب لا تُقِم الساعة لكى يهرب به عما يُعَدُّ له من العقاب.

وقال الطيبي: لعلَّ عبارة عن طلب إحيائه لكى يرجع إلى الدنيا ويزيد في العمل الصالح والإنفاق في سبيل الله حتى يزيد ثوابًا ويُرفع في درجاته... لكنه



لَمَّا عَلِمَ أَنْ لَيْسَ الْإِحْيَاءُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَّا بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ طَلَبَ قِيَامَ السَّاعَةِ كِنَايَةً عَنِ الْإِحْيَاءِ... وَقِيلَ: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِ فِي الْقَبْرِ: حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي لِفَرْطِ سُرُورِهِ وَفَرَحَتِهِ وَيَكُونُ تَمَنِّيهِ الرَّجُوعَ إِلَى أَهْلِهِ لِيُخْبِرَهُمْ بِذَلِكَ... كَمَا يَقُولُ وَيَتَمَنَّى الْمَسَافِرُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ التَّنَعُّمُ فِي بَلَدِ الْغَرْبَةِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ لِيُخْبِرَهُمْ بِذَلِكَ.

❁ وَفِي الْمَقَابِلِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ» الَّذِي عَاشَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَصْرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ كَافِرًا «إِذَا كَانَ فِي أَنْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا» أَيْ: إِدْبَارِ مِنْهَا فَهُوَ فِي آخِرِ لِحْظَاتِ حَيَاتِهِ يُفَارِقُ الدُّنْيَا وَيُودِعُهَا دُونَ أَنْ يَغْرَسَ لِنَفْسِهِ خَيْرًا يَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. بَلْ غَرَسَ شَرًّا بِكُفْرِهِ وَجُحُودِهِ.

«وَأَقْبَالَ مِنَ الْآخِرَةِ» أَيْ: انْتَقَلَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَالتِّي يَكُونُ الْقَبْرُ أَوَّلَ مَنَازِلِهَا.

«نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ» وَهَذَا مُوَافِقٌ لِسُودِ قَلْبِهِ الَّذِي امْتَلَأَ كُفْرًا بِاللَّهِ ﷻ... وَنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ وَذَلِكَ الْمَنْظَرِ حَتَّى يَعْلَمَ الْكَافِرُ مَا يَنْتَظِرُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

«مَعَهُمُ الْمُسُوحُ» أَتَعْرِفُ مَا هِيَ الْمُسُوحُ؟ لِبَاسٍ مِنْ شَعْرِ خَشْنٍ، يَأْتُونَ بِهِ مِنْ وَسْطِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُ لِبَاسُ أَهْلِ النَّارِ... وَقَدْ تَتَعَجَّبُ أَحْيَانًا لِأَنَّكَ تَرَى بَعْضَ النَّاسِ عَلَى فَرَاشِ الْمَوْتِ يَصِيحُ، وَيَسُودُ وَجْهَهُ وَيَزُرُقُ وَيَخَافُ، وَيَصِيحُ صِيَاحًا وَلَيْسَ بِهِ شَيْءٌ، فَمَا الْخَبْرُ؟ إِنَّهُ يَرَى أَمْرًا لَا تَرَاهُ أَنْتَ.

«فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ» فَأَعْدَادُهُمْ كَثِيرَةٌ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ حَتَّى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ فَلَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرِكَ آخِرَهُمْ... وَرُؤْيَتَهُ لِأَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَكْفِيهِ لِيَعْرِفَ مَصِيرَهُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ فَمَا ظَنُّكَ بِكُلِّ تِلْكَ الْأَعْدَادِ الَّتِي تَجْلِسُ أَمَامَهُ... وَيَبْدَأُونَ فِي تَجْهِيزِ الرُّوحِ لِمَلِكِ الْمَوْتِ «ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى

يجلس عند رأسه» ولكنه يأتي للكافر في صورة مُفزعَة حتى ينخلع قلبه لرؤية ملك الموت.. ويبدأ ملك الموت في معالجة روحه ليُخرجها من جسده... ويُنادى عليه ذلك النداء الذى تنخلع القلوب من هوله فيقول له: «أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبِ» فصاحب تلك النفس الخبيثة لم يترك شيئاً يُسخط الله ويُغضبه إلا فعله.. فكان الجزاء من جنس العمل وذلك بأن يكون في انتظاره سخط الله وغضبه.

«فتفرق في جسده» أى: تنتشر في أعماق البدن وفي العروق فزعاً وكراهة للخروج إلى ذلك العذاب الذى ينتظرها.... وفي المقابل فإن روح المؤمن تخرج وتسيل، كما تسيل القطرة من فيء السقاء فرحاً إلى ما تقرب به عينه من الكرامة (فيتزعها) أى ملك الموت يستخرج روح الكافر بعنفٍ وشدة ومعالجة كما يُتزع (السفود) كتثور الحديد التى يُشوى عليها اللحم... وفي رواية لأحمد: السفود الكثير الشعب.

✽ فتخيل معى قطعة من الحديد المشرشر وهى تُتزع من قطعة صوفٍ مبلولة فلا تخرج إلا وقد قطعت الصوف وهتكت كل خيوطه.. فكذلك روح الكافر لا تخرج إلا بعد أن تتقطع عروقه وشرائينه.

«فياً أخذها» أى ملك الموت يأخذ روحه بعد خروجها.

«فإذا أخذها لم يدعوها فى يديه طرفة عين» أى أن الملائكة الذين يعاونون ملك الموت يُبادرون لتنفيذ الأمر فيما يفعل بذلك الكافر وحتى «يجعلوها فى تلك المسوح» أى: ذلك اللباس الذى أحضروه من نار جهنم.

«ويخرج منها» أى من روح الكافر «كأتن ریح جيفة وُجدت على وجه الأرض» ففى الوقت الذى يخرج فيه من روح المؤمن كأطيب نفحة مسكٍ وُجدت على وجه الأرض فإنه يخرج من روح الكافر تلك الرائحة التى تشمئز



منها ملائكة السماوات والأرض.. فهي رائحة أشد من أنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض.

«فِيصْعُدُونَ بِهَا» افتضاحاً لها وإظهاراً لرداءتها «فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَيْثُ؟!» فالرائحة الخبيثة تدل على صاحبها الذي كان قلبه كافرًا خبيثًا.. والجزاء من جنس العمل.

«فَيَقُولُونَ: فَلَنْ بُنْ فَلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا» وذلك لأنه كان له ألقاب في الدنيا بعضها أسوأ من بعض مثل: الكافر.. العاق.. شارب الخمر.. البخيل... أى أن الأسماء التي كان يُسَمِّي بها في الدنيا هي أسماء الأعمال الخبيثة التي كان يعملها.

«فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ» أى يُطلب من ملائكة السماء الدنيا أن يفتحوا الأبواب لروح هذا الكافر فلا يُفتح له حتى يُحرم من أن يُشيعه ملائكة السماوات السبع لأنه لا يستحق ذلك.

ثم قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾.

يخبر تعالى عن عقاب مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم يَنْقُدْ لأحكامها، بل كَذَّبَ وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تُفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن فلا يُؤذن لها، كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبه كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته، تُفتح

لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوى، وتبتهج بالقرب من ربها والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أى: حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسمًا، فى خرق الإبرة، الذى هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشئ بالمحال، أى: فكما أنه مُحالٌ دخول الجمل فى سَمِّ الْخِيَاطِ، فكذلك المكذبون بآيات الله مُحالٌ دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾^(١) وقال هنا ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أى: فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أى: ظلل من العذاب، تغشاهم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد^(٢). ﴿فَيَقُولُ اللَّهُ تَوَّابٌ﴾ اكتبوا كتابه فى سَجِينِ فى الأَرْضِ السُّفْلَى قيل: هو كتاب جامع لأعمال الشياطين والكفرة، وقيل: هو مكان فى أسفل الأرض السابعة، وهو محل إبليس وجنوده.

﴿فَتَطْرَحُ رُوحَهُ طَرَحًا﴾ أى تُلْقَى وترمى رميًا شديدًا من السماء الدنيا إلى الأرض وذلك بعد أن ترفض الملائكة أن يفتحوا له أبواب السماء ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أى سقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أى تسلب لحمه وتقطعه بمخالبها وتذهب به ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ﴾ أى تقذفه وترمى به. ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى بعيد لا يصل إليه أحدٌ بحالٍ... فكأنه قال: مَنْ أشرك

(١) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٢) تفسير السعدى (١/٢٨٨).



بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده هلاك بأن صَوَّرَ حالة مَنْ حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَفَتْهُ الطَّيْرُ مَتَفَرِّقًا مُوزَّعًا فِي حَوَاصِلِهَا أَوْ عَصَفَتْ بِهِ الرِّيحُ حَتَّى هَوَتْ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ البَعِيدَةِ.

﴿فَتَعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ﴾ بعد أن سقطت من السماء وارتطمت بالجسد فتحدث له ألمًا لا يخطر على قلب بشر... فيحدث اتصال بين الروح والجسد في القبر.

«وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ» أى: المنكر والنكير في صورة مُفَزَّعة وهو وحده في القبر ليس معه أنيسٌ ولا جليس.

«فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي» كلمة يقولها المبهوت المتحير في الجواب من الدهشة والخوف.

وكيف يدري مَنْ هو ربه إذا كان هو لم يعرفه ولم يعبد في الدنيا..

أما المؤمن الذى عاش حياته كلها لله عندما يُسأل في قبره: «مَنْ رَبُّكَ؟» فإنه يقول بلا تردُّد: ربي الله.

«فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟» فيرد بنفس الجواب «وَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي» فهو لم يعرف دينه في الحياة الدنيا فكيف يعرفه الآن.. إنه كان مشغولًا بحُطام الدنيا الزائل وشهواتها الفانية وكان مقيمًا على الكفر حتى آخر لحظة في حياته.

«فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي» فلقد كان يعرف كل شىء عن الفنانين والفنانات واللاعبين والراقصين ولم يتبع يومًا سيد المرسلين ﷺ.

«فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي»... كذب هذا الكافر فيما قاله.. بل عرف الله وأشرك به وتبين الدين وما تدبَّر به وظهرت رسالة النبي بالمعجزات عنده وما أطاعه «فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ» زاد في رواية أبى داود والحاكم: وألبسوه من

النار.

فالفراش الذى تحته من النار، والملابس من النار، والأغطية أيضًا من النار.. عيادًا بالله.

«وافتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ» أى: افتحوا لأجله بابًا من القبر إلى النار «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» أى يأتيه من لفتح جهنم وعذابها الحار الشديد.

«وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ» أى: تضيق عليه جدران القبر حتى تتكسر أضلعه وتتداخل في بعضها البعض... وذلك فى الوقت الذى يُفسح فيه للمؤمن فى قبره كمدّ البصر أو سبعين ذراعًا فى سبعين ذراع.

✽ أخرج ابن أبى الدنيا عن محمد التيمى قال: «وكان يُقال: إن ضمة القبر، وإنما أصلها أنها أمهم، ومنها خلَقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردَّ الله تعالى أولادها، ضُمَّتهم ضمة الوالدة التى غاب عنها ولدها، ثم قَدِمَ عليها، فمن كان لله مُطيعًا، ضُمَّته برفقٍ، ومن كان عاصيًا، ضُمَّته بعنفٍ، سخطًا منها عليه».

«وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتَنُ الرِّيحِ».. فكما كان فى الدنيا قبيح القلب واللسان والجوارح وأعماله كلها قبيحة فكان الجزاء من جنس العمل «فيقول: أبشر بالذى يسوؤك» وهل مثل هذا يُبشِّرُ به؟!.. كلا ولكنه قالها على سبيل السخرية والاستهزاء كقول الله ﷻ: «وَكَلَّمَكَ اللَّهُ الْكُفْرَانَ» ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهل العذاب يُبشِّرُ به؟!.. فهنا يريد أن يقول له: لن ترى إلا ما يسوؤك جزاءً لك على كفرك وجحودك «هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ» فكم سمعت عن لحظة دخول القبر ولم تستعد لذلك بل آثرت أن تعيش كافرًا بعد أن بلغت الرسالة وألقيت عليك الحجة.. فهنا أنت الآن فيم كنت تُوعَدُ.. أنت الآن فى قبرك لتذوق من العذاب ألوانًا.. هذا غير ما ينتظرك فى نار جهنم.

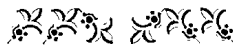
✽ فيقول الكافر: «مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟» أى: أن وجهك



الكامل في القُبْح لا يمكن أن يكون من ورائه خير.. بل لن يكون من ورائه إلا كل شر.

«فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ» أنا الكفر الذي كنت تعيش عليه.. أنا عقوق الوالدين الذي فعلته.. أنا أكل الحرام الذي عشت عليه.. أنا شهادة الزور التي شهدتها... أنا..... «فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» أى: إذا كان كل هذا العذاب في القبر الذي هو أول منازل الآخرة فكيف يكون العذاب بعد ذلك في النار.. وكأنه يُريد أن يستمرَّ مُعَذَّبًا في القبر بدلًا من أن يُعَذَّبَ في نار جهنم...

فَاللَّهُمَّ ارزُقنا نعمة الإيمان والتوحيد و ارزُقنا جميعًا حُسن الخاتمة واحفظنا من الكفر والنفاق والذنوب والمعاصي يا رب العالمين.



(٢) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ

❁ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَانَابَ عَلَيْهِ﴾ ^(١) قَالَ آدَمُ عليه السلام: أَيُّ رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تُسَكِّنِي جَنَّتِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيُّ رَبِّ أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَأَصْلَحْتُ أَرَأَجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ^(٢).

❁ لما خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الجنة كان يمشى فيها وحيداً ليس فيها من يجالسه أو يكلمه فأحس بالوحدة والوحشة فأكرمه الله عز وجل فخلق له حواء من ضلع من أضلاعه لتكون جزءاً منه لا يستغنى عنها.. وكانت من ضلعه الأيسر لتكون أقرب إلى قلبه وأحب إلى نفسه.

لقد نام آدم عليه السلام نومة ثم استيقظ فوجد امرأة عند رأسه خلقها الله لتسكن إليها نفسه تُسمى حواء... وُسِّمَتْ بهذا الاسم لأنها خُلِقَتْ من حى وهو آدم عليه السلام.

وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا).

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وقال الألباني في كتاب التوسل ص ١١٥: قال الحاكم: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي وهو كما قالنا، قلت: وقول ابن عباس هذا في حكم المرفوع من وجهين: الأول: أنه أمرٌ غيبي لا يُقال من مجرد الرأي... الثاني: أنه ورد في تفسير الآية، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع كما تقرر في محله، ولا سيما إذا كان من قول إمام المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».



﴿يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾^(١).

فسعد آدم ﷺ بأن زوجته سترافقه في الجنة.

ومما زاد من سعادته أن الله ﷻ أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة وأن يتعما بكل نعيم في الجنة ... فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾^(٢).

لكن الله ﷻ نهى آدم وحواء عن أن يأكلا من شجرة واحدة حددها لهما (سبحانه وتعالى) وحذرهما من الأكل منها أشد التحذير فقال تعالى: ﴿يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

✽ سكن آدم وزوجه الجنة وصار يتمتع بكل ما فيها من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر... وكانت زوجته حواء تشاركه كل هذا النعيم. وفي ظل هذا النعيم العظيم الذي كان يتمتع به آدم وزوجه حواء جاء التحذير من الله ﷻ لآدم.. فحذره من كيد هذا العدو اللدود الذي جهر بعدائه لآدم.. ألا وهو إبليس.

وعلى الرغم من أن الله ﷻ قد حذر آدم وحواء من عداوة إبليس إلا أنه استطاع أن يحتال عليهما ويوقعهما في المعصية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه: الآيات: (١١٨، ١١٩).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٤) سورة طه: الآيات: (١١٧-١١٩).

هكذا جاء التحذير ولكن إبليس كان يتربص بآدم وحواء، فبسبب آدم طرد من رحمة الله ﷻ، إذ عصى الله ولم يسجد لآدم كما أمره ﷻ... علم إبليس بخبثه أن العصيان سبب طرده، فأخذ يفكر كيف يُطرد آدم وزوجه من ذلك النعيم المقيم الذي جعلهما الله فيه.

✽ راح إبليس يوسوس إلى آدم على جهة الإغواء والحسد والمكر، فلم يقبل منه آدم ذلك.

كرر إبليس وسوسته يوماً بعد يوم، كما ذكر الله سبحانه في محكم التنزيل:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١).

✽ فكر إبليس في طريقه أخرى، لعلَّ آدم وزوجه حواء يسمعان إلى نصيحته المزعومة... لجأ إلى طريق الحيلة وأوهمهما أنه صادق الود لهما، وأنه لا يقصد ضررهما^(٢).

واستطاع إبليس بمكره وخبثه أن يخدع آدم وحواء وأقسم لهما بالله على أنه يريد الخير لهما: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣) أي: حلف لهما بالله.

✽ ثم قال لآدم ﷺ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٤). وقال أيضاً لهما: ﴿مَا نَهَنَّا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٥).

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٢٩ - ٣٠) باختصار.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢١).

(٤) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٢٠).



❁ وهنا نسي آدم ﷺ أن الله عز وجل حذره من الاقتراب من هذه الشجرة.. بل نسي أن إبليس هو عدوه وعدو ذريته إلى يوم القيامة فأكل آدم وحواء من هذه الشجرة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾^(١).

❁ ولم يكد آدم ينتهي من الأكل من هذه الشجرة حتى أحسَّ بالحزن والألم والخجل.. وهنا بدت له عورته لأول مرة وكان الله قد سترها عنه فلم يرها قبل ذلك.

وبدأ هو وحواء يقطعان من أوراق الشجر حتى يغطي كل واحد منهما عورته.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجِرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^(٢).

❁ أكل آدم ﷺ ناسياً، وعُوتب على نسيانه الوصية،... قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(٣).

❁ خرج آدم وزوجه حواء عن أمر ربهما بمشيئة الله سبحانه، وناداهما ربهما مُذكرًا لهما وقائلاً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٤).

❁ سمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة، وأمام النداء العلوي، تذكر آدم وحواء الوصية، فأنابا إلى الله عز وجل، وندما على فعلتهما، وطلبا العون من الله والمغفرة، ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

(١) سورة طه: الآية: (١٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).

(٣) سورة طه: الآية: (١١٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

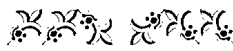
﴿نَهَضَ آدَمُ مِنْ عَثْرَتِهِ، وَأَدْرَكَتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَابَ عَلَيْهِ،﴾ ﴿فَنَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١) (٢).

لما عصى آدم ربه وأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة ثم تاب وندم على ما فعل تاب الله عليه... وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا) بهبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض التي أعدها الله وهياها ليعيش فيها آدم وذريته إلى يوم القيامة... فقد كانت فترة وجوده في الجنة كأنها فترة إعداد وتعليم وتربية وتدريب على طاعة الأمر واجتناب النهي ومقاومة الشهوات.

﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٣).

﴿لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض.. آدم وزوجه.. وإبليس وقبيله.. هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً.. وليعادي بعضهم بعضاً.. وكُتِبَ على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض، ويُمكنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين..﴾

﴿كتب عليهم ربهم أن يحيوا فيها ويموتوا. ثم يخرجوا منها فيبعثوا، ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره، في نهاية الرحلة الكبرى، رحلة الحياة الدنيا﴾^(٤).



(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).

(٢) نساء الأنبياء: (ص: ٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٦).

(٤) نساء الأنبياء (ص: ٣٦).



(٣) لقاء إبراهيم عليه السلام أباه يوم القيامة

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ أَرْزَ فِتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِدِيحٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

✽ لقد كانت البداية عندما رأى إبراهيم عليه السلام أباه أزر يعبد الأصنام من دون الله عز وجل.. بل ويصنع الأصنام لقومه ليعبدوها من دون الله عز وجل.. فما كان منه إلا أن دعاه دعوة في غاية الرحمة والأدب والتواضع... وتعالوا بنا لتعيش مع مشهد الدعوة الرحيمة من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أي ملازمًا للصدق مبالغًا فيه، جامعًا بين الصديقية والنبوة... والغرض تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(٢).
أي: لِمَ تعبد أصنامًا، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر على

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٥٠) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) صفة التفاسير (٢/٢٠٠).

شيء من الدفع؟! فهذا برهان جليٌّ دالٌّ على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مُستقْبَحٌ عقلاً وشرعاً. ودلٌّ بتنبيهه وإشارته، أن الذي يجب ويَحْسُنُ عبادة مَنْ له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَتَأْتِيَنِي إِني قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبتِ لا تحقِرني وتقول: إنني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يُعطِكَ، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيماً معتدلاً وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.

وفي هذا من لُطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنه لم يَقُل: «يا أبتِ أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء» وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إليّ لم يصل إليك ولم يأتِكَ، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

﴿يَتَأْتِيَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن مَنْ عَبَدَ غيرَ الله، فقد عبدَ الشيطان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آوَّاهُوا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَن يَدِينُوا بِالْحَدِيثِ الَّذِي نَزَّلْنَا بِتِلْكَ الْأُمَّةِ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا حُجُجٌ بَلْ يَدْعُونَ أَكْثَرَهُمْ بِحُجَّتِ الْإِسْلَامِ فَسُحْتٌ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يُدْعُوا بِالْحُرْمِ الَّذِي هُمُ الْمُجْرِمُونَ﴾. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتَّبَعَ خطواته، فقد اتخذها ولياً وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتُغلق عليه أبوابها. كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيَنِي إِني أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿فَتَكُونَنَّ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة... فتدرِّج الخليل ﷺ بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعنتي، اهتديت إلى صراطٍ مستقيم،

ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذّره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان.... فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً... فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ستسلم من خطابي إياك بالشم والسبّ وبما تكره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ﴿فَإِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ أي: رحيماً رءوفاً بحالي، معتنياً بي... فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه^(١).

✽ فإذا كان يوم القيامة لقي إبراهيم ﷺ أباه وعلى وجهه قتره وغبرة.. أي: سواد وغبار على وجهه.. ولا أسوأ أبداً من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا قَتْرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

فتأخذه الشفقة عليه ويقول له: ألم أقل لك لا تعصني؟

أي: ألم أبذل لك النصيحة الخالصة الرحيمة بأن تنتهي عن الشرك وأن تعيش على التوحيد والطاعة لتسعد في الدنيا والآخرة؟... فإذا بأبيه أزر يقول:

(١) تفسير السعدى (ص ٥٧٠-٥٧١).

(٢) سورة عبس: الآيتان: (٤٠-٤١).

فاليوم لا أعصيك!!!

وهل تنفع التوبة بعد مُعاينة أهوال القيامة؟! .. كلا وألف كلا.

فإذا بإبراهيم عليه السلام يتوجه إلى ربه عز وجل راجياً رحمته قائلاً له: «يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي» أى: لا تفضحنى «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» أى يوم يُبعث الخلائق «فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟» فأى خزى وفضيحة من أن يكون أبى هو الأبعد عن رحمتك ومغفرتك.. فالكافر بعيد عن رحمة الله لأن رحمة الله قريبٌ من المحسنين.

«فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ» فلا تجوز الشفاعة لكافر أبداً.. إنما تكون الشفاعة فى عصاة الموحدين.

«ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمَ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟. فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطَخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»: فى رواية إبراهيم بن طهمان: «فَيُؤْخَذُ مِنْهُ فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَنْتَ أَخَذْتَهُ مِنِّي، قَالَ: انظُرْ أَسْفَلَ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا ذِيخٌ يَتَمَرَّغُ فِي نَتْنِهِ» - وفى رواية أيوب: «فَيَمْسَحُ اللَّهُ أَبَاهُ ضَبْعًا» - «فَيَأْخُذُ بِأَنْفِهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي أَبُوكَ هُوَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ».

فغير صورته ليكون تسليّة لإبراهيم حتى لا يُخزِيه لو رآه قد أُلْقِيَ فى النار على صورته، فيكون خزيًا وفضيحة على رؤوس الخلائق؛ فغيره ستره لحاله فى تقبيح ماله.

وقيل: الحكمة فى مسخه لتنفّر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقى فى النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم.

وقيل: الحكمة فى مسخه ضبعًا أنّ الضبع من أحمق الحيوان وأزر كان من أحمق البشر لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات.

وَاقْتَصَرَ فِي مَسْخِهِ عَلَى هَذَا الْحَيَوَانِ لِأَنَّهُ وَسَطٌ فِي التَّشْوِيهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا دُونَهُ كَالْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَإِلَى مَا فَوْقَهُ كَالْأَسَدِ مَثَلًا .. وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَالَعَ فِي الْخُضُوعِ لَهُ وَخَفِضَ الْجَنَاحَ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَأَصَرَ عَلَى الْكُفْرِ فَعُوِمِلَ بِصِفَةِ الذُّلِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِأَنَّ لِلصَّبْعِ عَوْجًا فَأُشِيرَ إِلَى أَنَّ أَرَرَ لَمْ يَسْتَقِمَ فَيُؤْمِنُ بِلِ اسْتَمَرَّ عَلَى عَوْجِهِ فِي الدِّينِ^(١).

وَقِيلَ: هَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفٌ لظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٢). وَأَجِيبَ بِأَنَّهُ اخْتَلَفَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ، فَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لَمَّا مَاتَ أَرَرٌ مُشْرِكًا، وَقِيلَ إِنَّمَا تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَّا أَيْسَ مِنْهُ حِينَ مُسِخَ... وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بِأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ لَمَّا مَاتَ مُشْرِكًا، فَتَرَكَ الْإِسْتِغْفَارَ لَهُ، لَكِنْ لَمَّا رَأَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْرَكَتْهُ الرَّأْفَةُ، فَلَمَّا رَأَى مُسِخَ أَبِيهِ مِنْهُ وَتَبَرَّأَ تَبَرَّأَ أَبَدِيًّا، وَقِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَتَيَقَّنْ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ آمَنَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُطْلَعْ إِبْرَاهِيمَ، وَيَكُونُ وَقْتُ تَبَرُّئِهِ مِنْهُ بَعْدَ الْحَالِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) فتح الباري (٨/٣٥٨-٣٥٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١١٤).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٥١٦).

(٤) قصة موسى مع الخضر

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عليه السلام، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى عليه السلام خَطِيئًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقَدُ الْحُوتَ فَهُوَ نَمٌّ، فَاَنْطَلِقْ وَانْطَلِقْ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بَنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى آتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى عليه السلام وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَاَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام، قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَاَنْتَدَا عَلَيَّ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(١)، قَالَ: يَقْضَانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى آتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مُسْجِي عَلَيْهِ بِشُوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَيَّ أَنْ

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤).



تُعَلِّمِن مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٧٠﴾، قَالَ: نَعَمْ، فَاَنْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَىٰ يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَحَرَقْتَهَا ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غَلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَىٰ، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿٧٦﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيَّفُوْنَا وَلَمْ يُطْعَمُونَا، لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُرْحَمُ اللَّهُ مُوسَىٰ، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّىٰ يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَحْبَابِهِمَا»﴾، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّىٰ وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ يَقْرَأُ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ

(١) سورة الكهف: الآيات: (٦٦-٧٠).

(٢) سورة الكهف: الآيات: (٧١-٧٣).

(٣) سورة الكهف: الآيات: (٧٦-٧٧).

كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا» وَكَانَ يَقْرَأُ: «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا»^(١).

✽ قام موسى ﷺ في يوم من الأيام يخطب في بنى إسرائيل ليدعوهم إلى الله ويُذكرهم ويُرقق قلوبهم بالمواعظ الغالية فكان حديثه شيقًا رائعًا جذب قلوب الناس من حوله.

وبعد أن انتهى من موعظته قام واحد من بنى إسرائيل وسأله: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟! فقال موسى ﷺ: لا.

وإذا بجبريل ﷺ ينزل في تلك اللحظة ليخبر موسى ﷺ بأن الله عز وجل يعتبر عليه أنه لم يُرَدِّ العلم إلى الله ويقول: الله أعلم. ثم أخبره أن الله يقول له: إن عبدًا من عبادي بمكانٍ يُقال له: مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ هو أعلم منك يا موسى.

هنا اشتاق موسى ﷺ لرؤية هذا الرجل الذي هو أعلم منه.. واشتاق نفسه للتزود من العلم، وقال: يا ربِّ كيف أصل إلى هذا الرجل؟ فأمره الله عز وجل أن يحمل حوتًا في مكمل - أى: يحمل سمكة في سلة - ويسير في البحر فإذا جاءت اللحظة التي تعود فيها الحياة للحوت ويقفز في البحر فسوف يجد هناك هذا العبد العالم.

✽ وانطلق موسى ﷺ بعدما أخذ الحوت في المكمل وأخذ معه فتاه يوشع بن نون - الذي صار نبيًا بعد موسى ﷺ.

وحمل الفتى السَّلَّةَ التي فيها الحوت وانطلقا لبيحثا عن هذا الرجل العالم. وليس لديهم أى علامة على مكان هذا العالم سوى عودة الحياة للسمكة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٠١) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٧٠) (٢٣٨٠) كتاب الفضائل.



وهروبها إلى البحر.

✽ وكان موسى ﷺ عنده عزم وإصرار على أن يصل إلى هذا العالم ولو ظل مسافراً سنوات طويلة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^(١).

✽ المهم أنه وصل موسى ﷺ وفتاه يوشع إلى صخرة كبيرة بجوار البحر وقد تعبوا من السفر.. ونام موسى ﷺ وبقي يوشع سهراناً يحرس نبي الله موسى ﷺ.

وفجأة سافت الرياح موجة عالية على الشاطئ فجاء رذاذ الماء على الحوت فدبَّت فيه الحياة وقفز إلى البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾^(٢).. وكانت عودة الحياة إلى الحوت وهروبه إلى البحر علامة أعلم الله بها موسى ﷺ لتحديد المكان الذي سيجد فيه هذا العالم الجليل الذي جاءه موسى ليتعلم منه.

✽ قام موسى ﷺ من نومه ولم يعرف أن الحوت قد دبَّت فيه الحياة وهرب إلى البحر.. ونسى فتاه يوشع أن يخبره بما حدث.

وسار موسى وفتاه ليلتهما ويومهما حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا فقد شعرت بالتعب الشديد.

وهنا تذكَّر الفتى تلك اللحظة التي دبَّت فيها الحياة في الحوت فهرب إلى البحر وذلك عندما كانا عند الصخرة.. فأخبر موسى بما حدث واعتذر إليه بأن الشيطان هو الذي أنساه أن يذكر له ما حدث رغم غرابة ما حدث أمام يوشع فقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة على الماء وكأنه يتلوى على الرمال فيترك

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦١).

عليها أثرًا.

﴿ هنا أحسَّ موسى ﷺ بسعادة غامرة عندما علم أن الحوت هرب إلى البحر؛ لأن معنى ذلك أنه قد وصل إلى المكان الذي يريده ﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١﴾.

وعاد موسى ﷺ وفتاه يبحثان عن المكان الذي هرب فيه الحوت.

وبعد بحثٍ طويل وصل موسى إلى المكان الذي هرب فيه الحوت في البحر.

وصل هو وفتاه إلى الصخرة التي ناما عندها وهناك وجدا رجلاً مُسَجِّى بثوب ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَايَتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا كُنَّا نَبِغُ ﴾ (٢).

فسلم عليه موسى ﷺ.

فقال له الخضر: وهل بأرضك سلام؟.. مَنْ أَنْتَ؟

فقال موسى: أنا موسى.

فقال الخضر: موسى نبي بني إسرائيل.. عليك السلام يا نبي بني إسرائيل.

ثم قال له الخضر: وماذا تريد مني يا موسى؟

قال موسى: أيتك لتعلمني مما علّمت رُشدًا.

فقال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيدك يا موسى!؟

ثم قال له: يا موسى إنى على علم من علم الله لا تعلمه أنت.. وأنت على

علم من علم الله لا أعلمه أنا.

فقال له موسى: هل أتبعك على أن تُعلّمني مما علّمت رُشدًا؟

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٥).



فقال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴿١﴾.

أى: أنك ستجد في تصرفاتي أشياء لا تفهم لها سبباً ولا تدري لها علّة ولذلك فلن تصبر معي يا موسى.

✽ فاحتمل موسى تلك الكلمات وعاد يرجوه أن يأذن له بصحبته ليتعلم على يديه، فقال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٢).
- وتأمل معي كيف كان تواضع موسى ﷺ للخضر ﷺ.

✽ وهنا اشترط الخضر على موسى ﷺ شرطاً من أجل أن يكون في صحبته وهو ألا يسأله عن أى شيء حتى يُحدثه هو عنه.. فوافق موسى على هذا الشرط.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٣).

✽ وانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر يتكلمان وفجأة مرت أمامهما سفينة، فكلمّا أصحابها أن يحملوهما، فوافق أصحاب السفينة وبخاصة أنهم عرفوا الخضر ﷺ فحملوهما بغير أجر إكراماً للخضر.

فلما ركبا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

✽ وبعد أن وصلوا جميعاً إلى الشاطئ فوجئ موسى ﷺ بأن الخضر ﷺ أخذ فأسأ حين غادر الناس السفينة وأخذ يخرق السفينة فاقتلع لوحاً من

(١) سورة الكهف: الآيتان: (٦٧، ٦٨).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٠).

ألواحها وألقاه في البحر.. فتعجب نبي الله موسى ﷺ وقال للخضر ﷺ: لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر وأكرمونا غاية الإكرام، ثم أنت تخرق لهم سفينتهم التي يعملون عليها لتغرقهم في البحر فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. - لقد كان هذا التصرف الذي فعله الخضر عجباً من وجهة نظر موسى ﷺ.

❁ وهنا قام الخضر ليُذكر موسى بالعهد الذي أخذه عليه.
❁ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١﴾.

وهنا اعتذر موسى للخضر؛ لأنه فعل ذلك نسياناً وطلب منه ألا يؤاخذه على ذلك ❁ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٢﴾. فطلب منه أن يصبر عليه.

❁ ومرة أخرى يسير موسى مع الخضر ﷺ فمراً على حديقة يلعب فيها الصبيان.. ولما شبع الأطفال من اللعب وتعبوا جلسوا جانباً وناموا.. وفجأة قام الخضر بقتل غلامٍ منهم فثار موسى وظل يسأل الخضر: ما ذنب هذا الغلام وما جريمته حتى تقتله؟!

فقام الخضر يُذكر موسى للمرة الثانية بالعهد الذي أخذه عليه، ❁ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٣﴾.

- ويعتذر موسى للمرة الثانية بأنه فعل ذلك نسياناً وأعطاه العهد بأنه لن يسأله مرة أخرى.. فإذا سأله مرة أخرى فله الحق أن يفارقه هذه المرة.

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٣).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٥).

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۗ ﴾^(١).

✽ وللمرة الثالثة والأخيرة سير موسى مع الخضر عليه السلام، فدخلوا قرية كان أهلها على درجة عالية من البخل.. فلما نفذ الطعام الذي معهما طلبا من أهل القرية أن يقدموا لهما طعامًا فرفضوا أن يُضيفوهما أو يُقدموا لهما طعامًا.. ومرّت الساعات عصيبة عليهما بلا طعام ولا شراب.

فجلس موسى والخضر عليه السلام بجوار جدار مائل يكاد أن يسقط وفجأة قام الخضر ليُصلح هذا الجدار وبينه من جديد.

فتعجب موسى من فعل الخضر.. كيف يقوم ويبنى الجدار في تلك القرية التي بخل أهلها أن يقدموا لهما الطعام والشراب... قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَخَدَّتَ عَلَيْهِمْ أَجْرًا ۗ ﴾^(٢).

✽ وهنا انتهى الأمر.. وكان الفراق بين موسى والخضر عليه السلام.

قال الخضر لموسى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِثَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۗ ﴾^(٣).

✽ لقد حذر الخضر موسى عليه السلام من السؤال عن أى شىء يراه حتى وإن كان أمرًا غريبًا ولكن موسى عليه السلام كان لا يتمالك نفسه من السؤال وبخاصة أنه يرى أشياء غريبة.. ولكنه لم يعلم أن الخضر كان لا يفعل أى شىء إلا بوحي من الله (جل وعلا) ولم يكن يفعل أى شىء من تلقاء نفسه.

✽ وبدأ الخضر يكشف لموسى عليه السلام أسرار تلك الأشياء والأفعال التي كان يتعجب منها.

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٧).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٨).

✽ فأخبره أولاً عن أمر السفينة التي خرقها رغم أن أصحاب السفينة أكرمواهما وحملوهما بدون أجر.. فقد يظن موسى ﷺ أن خرق السفينة مصيبة كبيرة لأصحابها لكن الخضر ﷺ أخبره أنه فعل ذلك لأن الملك الظالم الذي يحكم البلاد كان في هذه الأيام يستولى على كل سفينة سليمة خالية من العيوب، فأراد الخضر أن يخرقها حتى يتركها الملك، ثم يُصلحها أصحابها بعد ذلك.. ومن المعلوم أن إصلاح لوح في السفينة خير من ضياع السفينة كلها.. وبذلك استطاع الخضر أن يكون سبباً في حفظ السفينة من الضياع وبذلك يبقى مصدر رزق هذه الأسرة كما هو فلا يموتون من الجوع ✽ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** ✽ (١).

✽ ثم وضع له السر في قتل هذا الغلام.. فقد يعتبر موسى ﷺ أن قتل الغلام مصيبة كبيرة بالنسبة لوالديه غير أن الخضر ﷺ وضع له أن هذا الغلام طبع كافراً وأنه كان سيرهق والديه عندما يكبرا وسيكون عاقباً لهما وأن موته سيكون رحمة لهما وأن الله ﷻ سيرزقهما بدلاً منه غلاماً يرعاهما ويحسن إليهما في سن الشيخوخة والضعف.

✽ **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** (٨٠) **فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا مِمَّنْ زَكَوَتْهُ وَأَقْرَبَ رَحْمًا** ✽ (٢).

✽ ثم وضع السر في بناء الجدار من غير أن يطلب أجراً من أهل القرية. فأخبره أن الجدار الذي بناه بدون أجر كان تحته كنز لغلّامين يتيمين في المدينة وكان الجدار يكاد أن يسقط.. ولو سقط الجدار لظهر الكنز الذي تحته، فأخذ أهل القرية البُخلاء ولم يستطع الغلامان أن يحصلوا على كنزهما فلذلك

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٩).

(٢) سورة الكهف: الآيتان: (٨٠، ٨١).



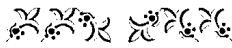
بنى لهما الجدار ليحفظ لهما كنزهما حتى يكبرا فيستخرجا الكنز بإذن الله (جل وعلا).

ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد ربُّهما أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾^(١).

✽ ثم وضع له الخضر أن هذا كله لم يفعله من تلقاء نفسه، وإنما كان ذلك كله بوحى من الله (جل وعلا).. ولذا قال له: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٢).

✽ ثم اختفى هذا العالم العابد الخضر عليه السلام بعد أن تعلم منه موسى عليه السلام درسين في غاية الأهمية:

- (١) تَعَلَّمَ مِنْهُ أَلَّا يَغْتَرُ بِعِلْمِهِ، فَإِنَّهُ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.
- (٢) تَعَلَّمَ مِنْهُ أَلَّا يَتَسَّرِعَ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَعْلَمُ^(٣).



(١) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

(٣) قصص الأنبياء للأطفال / محمود المصري (ص: ٥٠٥ - ٥١٧).

الدروس المستفادة:

(١) ينبغى على المسلم أن يُذكر إخوانه بالله فقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)... ولقد رأينا كيف وقف موسى ﷺ ليُذكر بنى إسرائيل بالله (جل وعلا).

(٢) ينبغى على المسلم أن ينسب العلم إلى الله ولا يقول: أنا أعلم الناس... فإنه من تواضع لله رفعه.

(٣) أن المسلم ينبغى عليه أن يحرص على طلب العلم... فقد رأينا كيف أن نبي الله موسى ﷺ سافر طلباً للعلم.

(٤) لا بد لطالب العلم أن يتواضع في طلب العلم وأن يتأدب بين يدي شيخه حتى ينتفع بعلمه.

(٥) أن هناك أشياء كثيرة لا يعلم العبد ما هي الحكمة من ورائها لكن الله عز وجل يعلم... فعلى العبد أن ينفذ أوامر الله دون أن يسأل عن الحكمة من وراء ذلك.

(٦) أن العبد قد يُحرم الخير بسبب تسرعه وعدم صبره.

تنبية:

الخضر ﷺ أُحيط اسمه بحكايات وروايات وآثار كثيرة، وتحدثوا في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة! حتى قال بعضهم: إنه يمر بمن يتذكره ويُقرئه السلام!! ولذلك يجب رد السلام عند تذكُّره.. إلخ.... وهذا كله غير صحيح، كما قال الحافظ ابن كثير: والصواب عند المحققين من العلماء أنه نبي من الأنبياء، وأنه مات كغيره من الرسل والأخيار.

(١) سورة الذاريات: الآية: (٥٥).

(٥) قصة موسى ﷺ والسامري وعجل بنى إسرائيل

✽ روى الحاكم في مستدرکه عن عليّ رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا تَعَجَّلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ عَمَدَ السَّامِرِيِّ فَجَمَعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُجْلِيِّ: حُلِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَضْرَبَهُ عِجْلاً، ثُمَّ أَلْقَى الْقَبْضَةَ فِي جَوْفِهِ، فَإِذَا هُوَ عِجْلٌ لَهُ خُوَارٌ فَقَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ: يَا قَوْمَ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا؟. فَلَمَّا أَنْ رَجَعَ مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَدْ أَضْلَهُمُ السَّامِرِيُّ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ فَقَالَ لَهُ هَارُونَ مَا قَالَ فَقَالَ مُوسَى لِلْسَّامِرِيِّ: مَا خَطْبُكَ؟ قَالَ السَّامِرِيُّ: قَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ: فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا وَهُوَ عَلَى شَفَى نَهْرٍ، فَمَا شَرِبَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدُ ذَلِكَ الْعِجْلَ إِلَّا أَضْفَرَ وَجْهُهُ مِثْلَ الذَّهَبِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: مَا تَوْبُنَا؟ قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَلَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا.. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لِمَنْ قُتِلَ وَتُبْتُ عَلَى مَنْ بَقِيَ»^(١).

لما انتهى موسى رضي الله عنه من ميقات ربه وانحدر من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة التي كتبها الله له وكان في قمة سعادته بتكليم ربه وتكريمه له وإذا به يعلم من ربه (جل وعلا) نبأ يسوءه فعاد إلى قومه غضبان أسفاً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾^(٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلِيٍّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى^(٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ^(٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا^(٨٦).

(١) أخرجه الحاكم (٣٤٣٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) سورة طه: الآيات: (٨٣-٨٦).

✽ لقد تذكر موسى ﷺ المعاناة التي عاشها مع بنى إسرائيل وكيف أنه تعب في تعليمهم وتربيتهم وتثبيتهم.. وكان يظن أنهم يسرون على أثره.

✽ وكانت فتنة السامرى قد وقعت بمجرد خروج موسى إلى ميقات ربه.... وتفصيل هذه الفتنة أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر أخذوا معهم الكثير من حُلَى الفراعنة وذهبهم.

فقد كانت نساء بنى إسرائيل قد استعرن هذا الذهب للتزين به فلما أردن الخروج حملنه معهن .. فلما كتب الله لهن النجاة من بطش فرعون وتعذيبه سألن العلماء عن حكم هذا الذهب الذى أخذه من الفراعنة بغير حق فأمروهن العلماء بالتخلُّص من الذهب.. فاستجابت النساء وألقين بهذا الذهب والحُلَى لأنها حرام.. فأخذها السامرى وكان أحد علمائهم وصنع منها تمثالاً على شكل عجل ... وكان السامرى عنده مهارة عجيبة فى النحت فصنع عجلاً مُجوفاً من الداخل وأخذه ووضعهُ فى اتجاه الريح فإذا دخل الهواء من الفتحة الخلفية وخرج من الأنف أحدث صوتاً يشبه صوت خوار العجول الحقيقية.

ويقال: إن السر فى هذا الخوار أن السامرى كان قد رأى جبريل ﷺ عندما نزل إلى الأرض وكان راكباً فرساً - وذلك فى معجزة شق البحر - فأخذ قبضة من التراب الذى سار عليه الفرس وخلطها بالذهب الذى صنع منه العجل الذهبى ... فلما صنعه خار العجل كالعجول الحقيقية.

وخرج السامرى على بنى إسرائيل ليريهم هذا العجل الذهبى.

فسألوه: ما هذا الذى صنعته يا سامرى؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى.

قالوا: كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه.

قال السامرى: لقد نسى موسى...، ذهب للقاء ربه هناك، بينما ربه هنا.



❁ وفي يوم من الأيام خرج هارون عليه السلام على بنى إسرائيل فوجدهم يعبدون العجل الذهبى فغضب غضباً شديداً، وأخذ ينهاهم عن هذا المنكر الأكبر ويحذرهم ويهددهم ويذكرهم بالله (جل وعلا) ولكن القوم انقسموا إلى فريقين: فمنهم القلة المؤمنة الصابرة الذين ثبتوا على الحق وعلّموا أنه ليس هناك من يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا).. ولكن أكثر الناس عبدت العجل الذهبى من دون الله (جل وعلا).

❁ وظل هارون عليه السلام ينصح لهم ويقول لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَانصِبُوا وَاطِيعُوا أَمْرِي﴾^(١).

ولكن القوم لم يستجيبوا لهارون عليه السلام.. فأخذ هارون يذكرهم بما أكرمهم الله به من إنقاذهم من بطش فرعون وإنقاذهم من البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لكنهم رفضوا كل ذلك وقالوا كلمتهم الأخيرة.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾^(٢).

❁ وقف القوم يرقصون حول العجل الذهبى.. وإذا بموسى عليه السلام يرجع وهو فى قمة الغضب والحزن فسمع صياح القوم وهم يرقصون حول العجل وما إن رآه حتى توقفوا جميعاً ودبّ الرعب فى قلوبهم وساد صمتٌ عجيب فصرخ فيهم موسى قائلاً: ﴿بئس ما خلقتوني من بعدهم﴾^(٣).

بئس ما صنعتم فى غيابى.. بئست الخيانة أن تغيروا دينكم بهذه السهولة.

❁ وفى تلك اللحظة من الغضب العارم الذى انتاب موسى عليه السلام وإذا به يلتقى الألواح غضباً على قومه الذين أشركوا بالله (جل وعلا).

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٩١).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

ثم اتجه موسى نحو هارون وهو في قمة الغضب لله (سبحانه وتعالى) وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وجذبه بشدة قائلاً له: ﴿يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(١).

كأنه يريد أن يقول: حتى أنت يا هارون!!... كيف عصيت أمري؟.. كيف تسكت على هذه الفتنة الكبيرة؟.. كيف تركتهم يعبدون العجل ولم تنكر عليهم أو تخرج وتتركهم؟

✽ وإذا بهارون يتحدث إلى أخيه موسى ويرجو منه أن يترك رأسه ولحيته وهو يذكره بأنهما أبناء أمٍّ واحدة ليكون ذلك أدعى لاستحضار كل مشاعر الرحمة والحنان.

﴿قَالَ يَبْنَومٌ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(٢).

وأخبره بأن القوم استضعفوه وكادوا أن يقتلوه عندما أنكر عليهم ذلك وطلب من أخيه موسى أن يترك لحيته ورأسه حتى لا يُشمت به الأعداء ويستخف به القوم.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وهنا أدرك موسى أنه قد تعجّل في حكمه على أخيه هارون وأنه نسي في غضبه أن هارون نبي كريم لا يمكن أن يرضى بوقوع القوم في الشرك وأنه قد أنكر عليهم لكنه لم يستطع وحده أن يُوقف هذا الطوفان من الشرك.. فترك

(١) سورة طه: الآيتان: (٩٢، ٩٣).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).



موسى رأس أخيه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(١).

﴿ ثم نظر موسى إلى القوم الذين عبدوا العجل الذهبى وقال لهم: ﴿ يَتَقَوُّوْا
أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾^(٢).

كأنه يريد أن يقول لهم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.. لقد أنعم الله
عليكم وأكرمكم ونصركم على أعدائكم وأنجاكم من بطش فرعون ووعدكم
بالجنة والنعيم المقيم إن عبدتموه فلماذا فعلتم كل هذا؟

ثم أخبرهم بالعاقبة الوخيمة لهذه الفعلة الشنيعة فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سَيَنَاءُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴾^(٣).

﴿ وهنا أحسَّ القوم بتلك الجريمة التى وقعوا فيها وكيف أن موسى ﷺ
بذل معهم الكثير والكثير من أجل أن يكونوا مؤمنين صالحين ومن أجل أن
يحملوا أمانة التوحيد فى الأرض.

وهنا علم موسى ﷺ أنه لا بد أن يقضى على الفتنة من جذورها ولذلك
توجَّه إلى السامرى الذى صنع لهم العجل الذهبى ليعبدوه وهو فى قمة الغضب
﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعِي ﴾^(٤)؟.. ما حملك على ما صنعت؟

قال السامرى بكل عجب وغرور: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾^(٥)..

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥١).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٢).

(٤) سورة طه: الآية: (٩٥).

(٥) سورة طه: الآية: (٩٦).

وهذه هي لغة أهل الكبر.. بَصُرْتُ ولم يُبصروا.. وفهمت ولم يفهموا.. وعرفت ولم يعرفوا...!!

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾^(١) .. زعم أنه رأى جبريل عليه السلام وهو راكب فرسًا ... فلا تضع قدمها على شيء إلا دبَّت فيه الحياة.. وأنه قبض حفنة من التراب الذي سار عليه جبريل وألقاها على الذهب ﴿فَبَدَّتْهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾^(٢) .

﴿ولذلك لم يناقشه نبي الله موسى عليه السلام في هذا الكلام لأنه كلام لا يستحق الرد عليه وإنما أخبره بثمرة هذا العمل الخبيث والجريمة المنكرة وأخبره بحكم الحق في هذه الجريمة: ﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخَفَّفَهُ، وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٣) .

وفي هذا الحديث بيان للكيفية التي نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كي يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذي عبده... وتحوَّل العجل إلى مسحوقٍ دقيق كان يُذرى في النهر الذي كانوا بجانبه، ومن عجيب صنع الله أن كل الذين عبدوا العجل اصفرَّت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب^(٤) .

﴿وبعد أن نسف موسى عليه السلام ذلك الصنم وأبلغ السامري بعقوبته في الدنيا والآخرة أخبر الذين عبدوا العجل أن أمامهم حلٌّ واحد للتوبة وهو أن يقتل

(١) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٣) سورة طه: الآية: (٩٧).

(٤) صحيح القصص النبوي/ د. عمر الأشقر رحمته الله (ص: ١١٠).



المطيع من بنى إسرائيل كل من عصى وعبد العجل من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ يَنْقُومُونَ إِلَهُكُمْ أَنْفُسَكُمْ يَأْتِحَازِكُمْ الْعَجَلَ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

فيقال: إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم... فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي نُشْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾^(٢) ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة البقرة: (٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٤).

(٣) قصص الأنبياء: (ص ٤٢٥، ٤٢٦) بتصرف.

(٦) المسيح الدجال ... ويأجوج وماجوج

عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ، وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْغَدَاةَ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَحْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بَعْدَ الْعَزَّى بْنِ قَطَنِ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ... إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَتِهِ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتِهِ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، أَقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ، فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَحْيُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرْوِحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَسْبَعَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ حَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفَ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِنًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جِزَلَتَيْنِ رَمِيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيُقْبَلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ».

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقَى دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَائِكَيْنِ، إِذَا



طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ... وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِيَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ.

ثم يأتى عيسى عليه السلام قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة. فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام وأصحابه عليهم السلام: أنى قد أخرجت عبادًا لى لا يدان لأحدٍ بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور ... ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءً.

ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينارٍ لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه عليهم السلام إلى الله تعالى، فيرسل الله تعالى عليهم النعف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدة، ثم يهب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه عليهم السلام إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبرٍ إلا ملأه زهمهم ونتاجهم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه عليهم السلام إلى الله تعالى، فيرسل الله تعالى طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله عز وجل مطرًا لا يكن منه بيتٌ مدرٍ ولا وبرٍ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة - وفي رواية: كالزلفة -.

ثم يقال للأرض: أنبتى ثمرتك، وردى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس.

فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحًا طيبةً، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض

رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارِجُونَ فِيهَا نَهَارُجَ الْحُمْرِ
فَعَلَيْهِمْ تَقَوْمُ السَّاعَةِ»^(١).

✽ النبي ﷺ ذكر الدجال لأصحابه ذات غداة.. يعنى فى الصباح.. فتكلم
عنه بكلام طويل وذكر الأمر بتفاصيله حتى ظن الصحابة أن الدجال فى طائفة
النخل.. أى: ظنوا أنه قد جاء إلى المدينة.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. لأن
الدجال مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل مكة والمدينة.

ثم إن النبي ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا: إنك ذكرت الدجال الغداة
وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه فى النخل. فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم»
يعنى أخاف عليكم شيئاً أشد من الدجال... ومن ذلك الرياء حيث ثبت عنه ﷺ
أنه قال: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ»، فسئل عنه فقال: «الرِّيَاءُ»^(٢) أن
الإنسان يُرائى فى عباداته: يصلى لأجل الناس، يتصدق لأجل الناس، يحسن
الخلق لأجل الناس.. فهذا رياء والعياذ بالله... والمُرَائى حابطٌ عمله،
والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ
اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قوله: «حَلَّةٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ» أى: طريقاً بينهما. وقوله «عَاثٌ»: وَالْعَيْثُ أَشَدُّ الْفَسَادِ.
و«الذُّرَى»: وهو أعلى الأُسُنَمَةِ. وهو جَمْعُ ذِرْوَةٍ. و«اليعاسيبُ»: ذكور النحل. و«جزلتين» أى:
قِطْعَتَيْنِ و«العَرَضُ»: الِهَدَفُ الذى يُرمى إليه بالنشاب، أى: يرميه رَمِيَةً كَرَمَى النَّشَابِ إِلَى
الِهَدَفِ.

و«المهْرُودَةُ»، وهى: الثُّوبُ المصبُوغ. قوله: «لا يَدَانِ» أى: لا طاقة. و«النَّعْفُ»: دُودٌ.
و«فَرَسَى»: جَمْعُ فَرِيسٍ، وهو القَتِيلُ، و«الزَّلْقَةُ»، و«رُوى الزَّلْقَةُ»، وهى المرأة. و«العَصَابَةُ»:
الجماعة، و«الرَّسُلُ»: اللَّبَنُ، و«اللَّقْحَةُ»: اللَّبُونُ، و«الفِئَامُ»: الجماعة، و«الفِخْدُ» مِنَ النَّاسِ:
دُونَ الْقَبِيلَةِ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٥).



إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾. واعلم أيها المرأى أن الله سيفضحك عن قُرب؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» (٢) يعنى أظهر مُراءاته وعبوبه عند الناس... ثم قال ﷺ: «إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُكُمْ دُونَكُمْ»: يعنى لو خرج الدجال وأنا موجود فأنا أكفيكم إياه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حاجب نفسه... يعنى كل إنسان يُحاج عن نفسه، «والله خليفتى على كل مؤمن» فاستخلف ربه ﷻ أَنْ يَكُونَ مُؤَيِّدًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَاقِيًّا لَهُمْ مِنْ فِتْنِ الدَّجَالِ الَّذِي لَيْسَ بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَقِيَامِ السَّاعَةِ فِتْنَةٌ أَشَدَّ مِنْهَا.. نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقِينَا وَإِيَاكُمْ فِتْنَتَهُ (٣).

✽ ثم بدأ النبي ﷺ يذكر لهم قصة المسيح الدجال ونزول عيسى ﷺ ليقته في آخر الزمان... وسوف أشرحها لكم مختصرة.

✽ أما الدجال: فهو مبالغة من الدجل وهو الكذب.. والدجال يعنى: كثير الكذب الذى لا يُوصف إلا بالكذب فهو يغطى الحق بالباطل.

وُسُمِيَ بِالْمَسِيحِ لِأَن عَيْنَهُ الْوَاحِدَةَ مَمْسُوحَةٌ.. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَمْسَحُ الْأَرْضَ كُلَّهَا. ✽ وأخبر النبي ﷺ أنه أكبر فتنة وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْذُ خَلْقِ آدَمَ ﷺ وَإِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا... وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ مَعَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تُبْهَرُ الْعُقُولَ... وَلِذَا كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُحْذِرُ قَوْمَهُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ مَعَ أَنَّهُمْ لَنْ يَدْرِكُوهُ أَبَدًا وَلَنْ يَدْرِكَهُمْ.. وَلَكِنْ مِنْ شِدَّةِ فِتْنَتِهِ كَانُوا يُحْذِرُونَ أُمَّمَهُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ.

✽ وأما عن صفته فلقد وصفه النبي ﷺ وَصْفًا دَقِيقًا حَتَّى إِذَا عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ لَا يُفْتَنُونَ بِهِ.

(١) سورة النساء: الآية: (١٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٨٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/٣٠٢) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن هذه الصفات أنه رجل، شابُّ أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة^(١)، ولا جحراء^(٢)، كأنها عنبة طافئة... وعينه اليسرى عليها ظفرة^(٣) غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب... ومن صفاته أنه عقيم لا يُولد له.

✽ وقد رأى تميم الدارى المسيح الدجال على حقيقته رأى العين فى إحدى الجزر وعاد وأخبر النبى ﷺ بذلك.. وقد وجدته وهو مُسلسل بالحديد فى دير بإحدى الجزر^(٤).

✽ وأما عن الإرهاصات التى تكون قبل خروج الدجال فهى كثيرة: (منها) قلة العرب وخروج الملحمة التى تكون بين المسلمين والنصارى والتى سينتصر فيها المسلمون.. ثم فتح القسطنطينية والتى بمجرد فتحها يعلم المسلمون بظهور الدجال.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُمَرَانُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرِبُ، وَخَرَابٌ يَثْرِبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَالِ»^(٥).

(١) (ناتئة) مأخوذة من التواء، وهو الارتفاع والانفخاخ؛ أى: أن عينه ليست بارزة. انظر: «ترتيب القاموس» (٣١٨/٤)، و«عون المعبود» (٤٤٤/١١).

(٢) (جحراء): أى: ليست غائرة منجحرة فى نقرتها. انظر: «لسان العرب» (١١٨/٤)، و«عون المعبود» (٤٤٤/١١).

(٣) (ظفرة): لحمة تنبت عند المآقى، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه. انظر «النهاية فى غريب الحديث» (١٥٨/٣). و(المآقى): هو مقدمة العين. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٢٨٩/٤).

(٤) راجع ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه (٢٩٤٢) كتاب الفتن.

(٥) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٦).



وقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدثُ جذبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام حيث قال: «... وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَالِ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ شِدَادٍ، يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ.. يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسَ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَى مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَى نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تَقْطُرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ، فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُنْبِتُ حَضْرَاءً، فَلَا يَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»، قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: «التَّهْلِيلُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ وَيُجْزَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مَجْرَاةُ الطَّعَامِ»^(١).

✽ ويكون المسلمون عند خروج الدجال لهم شأنٌ كبير وقوة عظمى..
بدليل انتصارهم على النصارى وفتح القسطنطينية.

✽ وأما عن كيفية خروج الدجال فإنه يخرج بسبب غصبة يغضبها فيكسر السلاسل التي رُبط بها ويخرج إلى الدنيا ليعيث فيها فسادًا وإفسادًا.

✽ وأما عن مكان خروجه فإنه يخرج من المشرق من خراسان من يهودية أصبهان.. ويُقال أنه سيخرج خلة بين الشام والعراق.. يعنى يخرج من طريق بين الشام والعراق من قبل إيران.

✽ وأول ما يخرج يدعى أنه نبي ثم يزداد الأمر ويدعى أنه رب العالمين - عيادًا بالله -.

✽ وأما عن أتباعه فإنه يتبعه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالة والبيجان.. وكأنهم يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال لأن اليهود أهل دجل وكذب وغدر وخيانة لا يؤمنون.

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

ويكون أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والتُّرك وأخلاق من الناس غالبهم من الأعراب والنساء.

❁ وأما عن القدرات والإمكانات التي ستكون مع الدجال... والتي ستكون سببًا في فتنة أصحاب القلوب المريضة فهي:

(١) **جنّته وناره:**

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذي يرونه ناريًا وإنما هو ماءٌ بارد وإن الذي يرونه ماءً باردًا فإنه ناريٌّ.

❁ قال رسول الله ﷺ: «مَعَهُ - أَى الدجال - جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ» (١).

(٢) **سرعة انتقاله بين البلدان:**

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال.

فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ» (٢).

ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) **استجابة السماء والأرض لأمره!!!**

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ويدعو المشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تُخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

❁ قال ﷺ: «... فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرَوُحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ»

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

عَنَّهُمْ، فَتَبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِينَ مَا بَأْيَدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرْبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتَّبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيْبِ النَّحْلِ...» (١)(٢)(٣).

هكذا يُمكن الله ﷻ لذلك الدجال ليكون فتنة للكافرين والمنافقين والمجرمين.. وأما أهل الإيمان فيحفظهم الله من فتنة الدجال.

هكذا يُمكن الله للدجال فيأتى القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به، «فِيَأْمُرُ السَّمَاءَ فْتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فْتُنْبِتُ»، يشاهدون ذلك بأعينهم، يقول: أيتها السماء: أمطري، فتمطر... أيتها الأرض أنبتى فتنبت، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله ﷻ... لكن الله مكن له ابتلاءً وامتحاناً، «فِيصْبِحُونَ فَتَرَوْحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ» يعنى الغنم والإبل أكثر وأوفر ما تكون ذراً وأمدتها خواصر، تمتلى بطونها، وتمتلى ضروعها، ويكون عليها الشحم، ويأتى القوم فيدعوهم فلا يستجيبون له يردونه، فينصرف، فيصبحون مُمحلين ليس لهم من أموالهم شىء... الأرض خربت، والسماء لا تمطر والمال يمور... ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب، وعاقبتهم حميدة، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت السماء وأنبتت الأرض فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون... ويأتى إلى الخربة - أرض خربة ما بها بناء وما بها أناس - فيقول: أيتها الأرض

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

(٢) قال الإمام النووي: أما (تروح) فمعناها ترجع آخر النهار، و(السارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الذرى) وهى الأعلى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغته) أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمدته خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.

قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) هى ذكور النحل هكذا فسره ابن قتبية وآخرون قال القاضى: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووي (١٨/٨٩)].

(٣) قصة النهاية / د. محمود المصرى (ص ٥٠٧-٥٠٩).

أخرجى كنوزك فتخرج كنوزها وما بها من معادن: من ذهب، وفضة وغير ذلك، فتبعه كيعاسيب النحل - أى: كذكور النحل -.

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَمَثَلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ، وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ، أَتَبِعُهُ، فَإِنَّهُ رَبُّكَ..»^(١).

✽ وأما عن المدة التي يمكنها في الأرض فإنه يمكن في الأرض أربعين يومًا: اليوم الأول طوله سنة... اثنا عشر شهرًا، (٣٦٠) يومًا.. هذا اليوم الأول. والثاني مقداره شهر (٣٠) يومًا، والثالث مقداره جمعة يعنى أسبوعًا، وباقي الأيام وهى سبعة وثلاثون يومًا كالأيام المعتادة... ولكن الله ﷻ نبه الصحابة قالوا: يا رسول الله هذا اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة واحدة؟ فيكون عليهم في هذا اليوم كم؟ خمس صلوات؟ قال لهم: «لا.. أقدرُ واللهُ قدرُهُ»^(٢) يعنى صلوا صلاة السنة كاملة في يوم واحد، وهذا مما يؤخذ على سبيل الطرفة... يُقال: إنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة في يوم واحد.. وأيضًا يؤخذ به من جهة أخرى: رجلٌ وجبت زكاة ماله في يوم واحد... وأيضًا فيقال: يصوم رمضان بعض يوم يعنى جزءًا من اثني عشر جزءًا من هذا اليوم... نقول: هذا يوم الدجال... وسبحان الله الحكيم الذى أكمل لنا الدين قبل أن يموت سيد المرسلين ﷺ... أنطق الله الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم: هل تكفى فيه صلاة واحدة أم لا؟... لأنه يوجد الآن في الأرض من يومهم ستة أشهر، وليهم ستة أشهر، عند المدار القطبى... ستة أشهر والشمس تشرق عليهم، وستة أخرى والشمس لا يرونها فكيف يصلى هؤلاء؟ يصلون صلاة

(١) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.



يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها؟ نقول: يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تماماً.. أى يحسبون أوقات الصلاة بعدد الساعات التى بينها...

اليوم الثانى من أيام الدجال كشهركيف تكون فيه الصلاة؟.. يصلون صلاة شهر، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع، واليوم الرابع وما بقى كالعادى... ثم سأله الصحابة رضي الله عنهم عن سيره فى الأرض هل هو كالسير المعتاد... كسير الإبل أو سير الأرجل؟ قال صلى الله عليه وسلم: «يسير كالعَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ»... والله أعلم كيف يكون إسرعه؟... هل يُحدث الله له آلات، أو طائرات، أو غيرها؟ ما تدرى، لكن هذا الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم أنه يكون كالعَيْثِ.

وذكر أيضاً فى هذه الأحاديث أن رجلاً شاباً مسلماً يخرج إذا سمع به ليبين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون: أين تريد، يقول: أريد هذا الرجل الذى خرج، فأخذونه ويقولون: أتؤمن بربنا؟ فيقول: لا، إنه الدجال، فيريدون أن يقتلوه، ولكن بعضهم يقول لبعض: أليس قد قال ربنا: - أى الدجال- لا تقتلوا أحداً دونى، فيتركونه، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فيغضب عليه، ويأمر بالمنشار فيُنشر من رأسه إلى ما بين رجليه... يعنى يشقه طُويلاً ويجعل كل فرقة منه فى جانب، ويمشى بينهما، ثم يدعوهم فيخرج ويقوم يتهلل وجهه، وهو يقول: والله ما ازددت فىك إلا بصيرة، ثم يريد أن يقتله ويعجز^(١).. لأن الله عز وجل يجعل ما بين رقبة هذا الشاب إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع أن يقتله.

❁ إن الدَّجَالَ سيسير فى الأرض كلها ولن يترك قرية إلا نزل فيها.. إلا مكة والمدينة فإنَّ الله عز وجل قد حفظ مكة والمدينة من الدَّجَال فلا يستطيع أن يدخلهما أبداً.

(١) بتصرف من كتاب (شرح رياض الصالحين).

❁ قال ﷺ: «عَلَى أَنْفَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ، وَلَا الدَّجَالُ»^(١).

فإذا عجز الدجال عن دخول مكة والمدينة فلا بد أن يخرج إليه المنافقون حتى يتبعوه... ولذا أخبرنا النبي ﷺ عن كيفية خروج المنافقين من المدينة المنورة فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْفَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ تَحْرُسُهَا، فَيُنزَلُ بِالسَّبْحَةِ»^(٢)، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»^(٣).

❁ وبعد خروج الدجال وإفساده في الأرض طوال هذه الفترة يُنزل الله ﷻ عيسى ابن مريم رسول الله ﷺ... ينزل واضعاً كفيه على أجنحة ملكين؛ لأن الملائكة أولو أجنحة... ينزلان به من السماء؛ لأن عيسى الآن حيٌّ في السماء، ينزل عند قيام الساعة ليقول الدجال... ينزل، وكأنه والله أعلم قد اغتسل بماء طيب، إذا طأ رأسه قَطَرَ ماءً، وإذا رفعه تَحَدَّرَ منه مثل الجمان، فيحتمل أن هذا ماء ويحتمل أنه عرق والله أعلم... ثم إنه يطلبه أي يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافرٍ يجدُ نَفْسَ عيسى ﷺ إلا مات.

- سبحان الله - نَفْسُ عيسى ﷺ يقتل الكافر... ونَفْسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه... وهذا أيضًا من آيات الله... يعني أنفاسنا نحن لا تَعْدُو إِلَّا شِبْرًا أو نحوه، لكن نَفْسَ عيسى ﷺ ينتهي حيث ينتهي طرفه.

ومعنى ذلك أنه يقتل أناسًا كثيرين من الكفار؛ لأن هذا النفس يطير في الهواء ولا يحل لكافرٍ يجد نَفْسَهُ إلا مات... ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق هكذا وصفه النبي ﷺ وهي لا بد أن تُوجَد عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ... وبعد

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨٠) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (١٣٧٩) كتاب الحج.

(٢) السبخة: الأرض الرملية التي لا تثبت لملوحتها... وبعض أراضى المدينة كذلك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط



نزوله يتبع الدجال فيدركه عند باب لُد... وهو الآن في فلسطين التي استعمرها اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة... يدرك عيسى عليه السلام المسيح الدجال فيقتله هناك، وبهذا ينتهي المسيح الدجال، ويبقى المسيح رسول الله عيسى عليه السلام.

ثم يأتي عيسى ابن مريم قوماً قد عصمهم الله عز وجل من فتنة الدجال، فيمسح على وجوههم ويبشرهم بمنزلهم في الجنة... فبينما هم كذلك - يعنى على حالهم - إذ يوحى الله عز وجل إلى عيسى أنى قد أخرجت عبداً لى لا يدان لأحدٍ بقتالهم... وهؤلاء العباد ليسوا عباد دين بل عباد قدر. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(١)، هؤلاء العباد هم يأجوج ومأجوج من كل حدبٍ ينسلون - أى من كل مكانٍ مرتفع ينسلون - لأن الشعاب والأودية لا تسعهم فتجدهم يصعدون الجبال لينزلوا إلى الأرض من كثرتهم... هؤلاء من بنى آدم ليسوا جنًّا ولا جنسًا ثالثًا بل هم من بنى آدم.

ودليل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يَقُولُ اللهُ عز وجل: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبَشِّرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمَدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمَدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.. إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(٢).

(١) سورة مريم: الآية: (٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

❁ ولقد ورد عن النبي ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًا منهم ثمانون من هذه الأمة.. المهم أن يأجوج ومأجوج من بنى آدم، شكلهم شكل بنى آدم لا يختلفون عنهم، أما ما ورد في بعض الآثار أن منهم القصير المفرط في القصر، والطويل المفرط في الطول، وأن بعضهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له... بل هم من بنى آدم ومثلهم، لكنهم أمم عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(١)، أى من كل مرتفع؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ﴿يَنْسِلُونَ﴾ أى يسرعون كأنهم مُسَلِّطُونَ على بنى آدم، فيقول الله ﷻ لعيسى: إني قد بعثت عبادًا لا يدان لأحدٍ بقتالهم -يعنى ما لأحدٍ على قتالهم من قوة - فحرّز عبادى إلى الطور - يعنى احترزوا فيه - .

والطور جبلٌ معروف، فيصعد عيسى ﷺ ومن معه إلى الطور ويحصرون فيه حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من مائة دينار... وحيثئذ يرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التى حاصرتهم فى هذا الجبل، فيرسل الله تعالى عليهم النّغف وهو عبارة عن دودٍ يكون فى أنوف الإبل والغنم... فيرسله الله فى رقابهم فيُصبحون فرسى - جمع فريسة يعنى موتى - كنفسٍ واحدة... كل هذه الأمم التى لا يُحصيها إلا الله تموت فى ليلة واحدة؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ... فهذا النغف حينما يدخل فى أعناقهم يموتون على الفور.

ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض.. وإذا الأرض مملوءة من هذه الجثث ننتأ ورائحة خبيثة، فيرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ أن يخلصهم من هذا، فيرسل الله تعالى طيورًا كأعناق البُخت - يعنى مثل أعناق الإبل - طيورًا كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتلقيه فى البحر... ومعنى هذا أنها طيورٌ عظيمة لا

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٩).

يعلم عددها إلا الله ﷻ... كل هذا بقدره الله سبحانه وتعالى؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون... لا تستغرب، لا تقل من أين جاءت الطيور؟ وكيف توالدت؟ الله على كل شيء قدير... هذه الطيور مثل أعناق الإبل تحمل الواحد وتلقيه في البحر ولا يبقى منهم أحد...

لكن كما تعلمون لا بد أن يبقى في الأرض شيء من القدر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث... فيرسل الله تعالى مطراً عظيماً يغسل الأرض لا يُكَنُّ منه مدَر ولا وَبَر.. كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزَّلَقَة! -أى: كالمرآة- تنظف تنظيفاً تاماً بإذن الله ﷻ... ويأمر الله الأرض أن تُخرج بركاتها، وثمراتها فيكون فيها الثمرات العظيمة، والخير والبركة، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى فتأماً من الناس... ومن البقر تكفى القبيلة من الناس... ومن الغنم تكفى الفخذ من الناس... وهى واحدة لكن الله يُنزل فيها البركة فتكفى أمماً، وتكثر الخيرات والبركات... وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله ﷻ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١)، بدلاً من حصرتهم في الطور لا يجدون شيئاً إذا بالأرض تنبت وتنزل فيها البركة والثمار.. وغير ذلك، كل هذا بأمر الله ﷻ.^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة الشرح: الآيتان: (٥، ٦).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/٣٠٤-٣٠٥) بتصرف كبير.

(٧) الجهاد في سبيلى هو على ضامن

❁ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِي هُوَ عَلَى ضَامِنٍ، إِنْ قَبَضْتُهُ أَوْ رَثْتُهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ رَجَعْتُهُ رَجَعْتُهُ بِأَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

❁ وفي رواية: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْا، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْا، فَأُقْتَلَ»^(٢).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَلِمُهُ يُدْمِي: اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيْحُ رِيحُ مِسْكِ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ» وفي رواية: «تَكْفَّلَ اللَّهُ» أى: أوجب الله ﷻ على نفسه فضلاً منه وإحساناً «لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ» مجاهدًا في سبيل الله ﷻ «لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي» أى: لا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ... فلم يخرج من أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا في سبيل

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٣٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخارى بعضه (٣٦) كتاب الإيمان.

«الكَلْمُ»: الجرح.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

الله وإيماناً بالله وبوعده وتصديقاً برسله وإخبارهم ورسالتهم... فالله عز وجل تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إن مات شهيداً.. أو أن يُسلمه من كل مكروه فيعود إلى منزله الذي خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ» قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَدْخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُوَاخَذَةٍ بِذَنْبٍ وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُكَفَّرَةً لِذُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مِمَّنْ كَلِمٌ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٌ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ» أَمَّا الْكَلِمُ فَهُوَ الْجُرْحُ وَيُكَلِّمُ أَى يُجْرَحُ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَا يَزُولُ عَنْهُ الدَّمُ بِغَسَلٍ وَلَا غَيْرِهِ... وَالْحِكْمَةُ فِي مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِدٌ فَضِيلَتِهِ وَبَدَلِهِ نَفْسُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَأَنْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَنَحْوِ هَذِهِ الصَّيْغَةِ مِنَ الْحَلْفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا... قَالَ أَصْحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٣٠-٣١) بتصرف.

قوله ﷺ: «لَوْلا أَنْ يُشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سِرِّيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي»، فالنبي ﷺ يود ويحب أن يخرج في كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبدًا عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبي ﷺ مؤنة تكفيهم.. فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرَج الشديد لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبي ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعْضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرَّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهْمِّهَا وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرَّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ.
قَوْلُهُ ﷺ: «لَوَدِدْتُ أَنْ أُغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أُغْزُو فَأُقْتَلَ ثُمَّ أُغْزُو فَأُقْتَلَ» فِيهِ فَضِيلَةُ الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ... وَفِيهِ تَمَنَّى الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنَّى مَا لَا يُمْكِنُ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فَرَضَ كِفَايَةً لَا فَرَضَ عَيْنٌ^(١).

❁ وفي الحديث فوائد جمّة تظهر في الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: حرص النبي ﷺ على أعمال الخير والتقرب إلى ربه ﷻ.
«لَوْلا أَنْ يُشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سِرِّيَّةٍ»، وقوله: «لَوَدِدْتُ أَنْ أُغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

الفائدة الثانية: عِظَمُ أَمْرِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ، حَتَّى إِنْ النَّبِيَّ ﷺ يَقْسِمُ بِرَبِّهِ أَنَّهُ يُوَدُّ أَنْ يَخْرُجَ فِي كُلِّ سِرِّيَّةٍ لَوْلَا إِثَارُ رَفْعِ الْحَرَجِ عَنْ بَعْضِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ.
الفائدة الثالثة: قد يريد المسلم عمل خير يتغنى به وجه الله ﷻ ولكن يُحَال



بينه وبين هذا العمل، لسببٍ خارج عنه، مثل عدم وجود المؤونة.

الفائدة الرابعة: في الحديث ما يثبت أن النبي ﷺ عبدٌ من عباد الله، يفتقر إلى الله فيما يفتقر إليه كل العباد، مثل الرزق والصحة وطلب جلب النفع ودفع الضر، إلا أنه فُضِّل على الأنبياء وجميع الناس بما ورد في الكتاب والسنة.

الفائدة الخامسة: أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.. فهو لاء لم يخرجوا لعدم الاستطاعة، ومع عدم خروجهم لم يتوجه إليهم اللوم أو العتاب... بل قعد الرسول ﷺ خلف السرية تطيبًا لخاطرهم.

الفائدة السادسة: هل الذى يقعد خلف السرية لعذر له أجر أم لا؟

نعم له أجر، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»^(١).

الفائدة السابعة: يُشترط لضمان حصول المجاهد على أجر الجهاد، ثلاثة شروط:

الأول: النية الخالصة: التى لا تشوبها شائبة، مثل الرياء، والسمعة، والحمية قال: «لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي».

الثانى: الإيمان بالله: فهو الذى دفعه للخروج يحتسب الأجر والثواب من الله.

الثالث: التصديق برسول الله: ويتضمن الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أوامرٍ ونواهٍ، والتصديق بما أبلغونا عن أجر وثواب الخروج في سبيل الله.

وهذا هو الذى دفعهم للخروج.. وهذا ينطبق على جميع الأعمال التى نتقرب بها إلى الله.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

الفائدة الثامنة: قوله: «حقُّ على الله»، أوجهه هو على نفسه، أن يكافئ المجاهد في سبيله بإحدى الثلاثة على الأقل، إما الجنة في حال موته في سبيل الله، وإما الأجر في حال عدم النصر في المعركة، وإما الغنيمة والأجر في حال النصر، وهذا من البركة العظيمة للجهاد ألا يخرج منه المسلم صفر اليدين.

الفائدة التاسعة: في الحديث عظيم حب الصحابة للنبي ﷺ إذ يُشَقُّ عليهم أن يخرج الرسول ﷺ في الغزو، ويتخلفوا عنه.

الفائدة العاشرة: في الحديث أن للخروج في سبيل الله شروطاً حتى يتكفل الله بالثواب، «لا يُخرجه إلا جهاداً في سبيلي»، وقال: «ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة»، فاشترط أن يكون لله وإن كان جرحاً يسيراً.

ولما كانت النيات لا يعلمها إلا الله، فلا يحق لنا أن نحكم لأحدٍ أنه مات شهيداً، أو نحكم على أحدٍ أنه لم يمُت شهيداً.

الفائدة الحادية عشرة: يُسْتثنى من ذلك - أي حكمنا بالشهادة على أحد من المسلمين بعينه - مَنْ حكم له الله أو رسوله ﷺ أنه مات شهيداً أو سيموت شهيداً... كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة كثير.

الفائدة الثانية عشرة: ينبني على ذلك أن الشهداء ثلاثة أقسام:
الأول: شهيد الدنيا والآخرة: وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا بإخلاصٍ ونية.

والثاني: شهيد الدنيا دون الآخرة: وهو الذي يموت سُمعة ورياء.

والثالث: شهيد الآخرة دون الدنيا: وقد عدَّهم النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الشهداء: الغرق، والمطعون، والمبطنون، والهدم»^(١) وغيرهم كثير.. فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة.

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٠) كتاب الأذان.



❁ وأحكام الشهداء على النحو التالي:

الأول: لا يُغسَّل ولا يُكفَّن في الدنيا ويدخل الجنة بحول الله.

والثاني: لا يُغسل ولا يُكفن في الدنيا، وأمره في الآخرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

والثالث: يُغسَّل ويُكفن ويُصلَّى عليه، وفي الآخرة يُرجى له الجنة بشهادته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٨٥-٣٨٨) بتصرف كبير.

(٨) موسى ﷺ .. وعجوز بني إسرائيل

✽ روى الحاكم في مستدرکه عن أبي موسى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ بِأَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَعْرَابِيُّ سَلْ حَاجَتَكَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَاقَةٌ بِرَحْلِهَا وَأَعْنَزُ يَحْلِبُهَا أَهْلِي. قَالَهَا مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

قَالَ: «إِنَّ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ صَلَّى الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاءُؤُهُمْ: نَحْنُ نَحَدِّثُكَ: إِنَّ يُونُسَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ، قَالُوا: مَا نَدْرِي أَيْنَ قَبْرِ يُونُسَ إِلَّا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبِعَثَ إِلَيْهَا فَاتَتْهُ، فَقَالَ: ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِ يُونُسَ، قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ. فَكَّرَهُ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِيَهَا حُكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ؛ مَوْضِعَ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَانْضَبُوا، قَالَتْ: احْفَرُوا وَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ يُونُسَ، فَلَمَّا أَقْلَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ؛ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ»^(١).

✽ هذه قصة عجوز من عجائز بني إسرائيل، أتاحت لها فرصة عظيمة فاهتبلتها، لا لتحصل منها على مال الدنيا ومتاعها، ولكن لتحصل على الدرجات العالية في جنات النعيم... فقد طلب منها موسى أن تدله على قبر يوسف ليأخذ جسده معه عند خروجه بني إسرائيل من مصر، فأبت إلا إذا أعطها طلبها بأن تكون معه في الجنة يوم القيامة، فأعطها الله طلبها،

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٣).



وهكذا تكون الهمم العالية، والنفوس التي ترغب في بلوغ المنازل الرفيعة، وقد تطلّع جمعٌ من الصحابة إلى بلوغ هذه المنزلة... من هؤلاء عكاشة بن محصن الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون من صفوة البشرية، وهم سبعون ألفاً أخبر الرسول ﷺ أنهم يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، فأخبر الرسول ﷺ عكاشة أنه منهم... ومنهم أبو بكر الذي تطلّع إلى أن يُدعى من جميع أبواب الجنة.

ومنهم ذلك الصحابي الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون رفيقه في الجنة، فقال له: أعنى على نفسك بكثرة السجود.

وكان سبب تحديث الرسول ﷺ بقصة عجوز بنى إسرائيل التي تضمنها هذا الحديث أن أعرابياً استضاف الرسول ﷺ فأكرم وفادته، فطلب منه الرسول ﷺ أن يأتيه، ليجزيه بالإحسان إحساناً، فلما جاءه سأله الرسول ﷺ حاجته، فطلب منه قليلاً من متاع الدنيا وعرضها... إنه يُريد ناقة برحلتها لركوبه، وأعنزاً لأهله يقتاتون بحليبها.

هنا استصغر رسول الله ﷺ حاجته وطلبه، وحدث حديث عجوز بنى إسرائيل التي طلبت من موسى ﷺ طلباً عظيماً عندما أُتيحت لها الفرصة، فقد اشترطت عليه حتى تُجيب طلبه أن تكون معه في الجنة.

لم تطلب من رسولها فضة ولا ذهباً، ولم تطلب جِمالاً أو بقرًا أو غنماً، فلو طلب هذا الأعرابي من الرسول ﷺ مثل طلبها عندما قال له الرسول ﷺ سَلْ حاجتك، لأفلح أيما فلاح . فالرسول ﷺ مُجاب الدعوة، ولو طلب منه أن يدعو له بخير الآخرة لنال خيراً كثيراً.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن سبب اشتراط هذه العجوز على موسى مرافقته في الجنة أنها كانت تعلم علمًا لا يعلمه غيرها من بنى إسرائيل، فقد كانت تعلم

موضع قبر يوسف عليه السلام، وكان يوسف قد أخذ العهد على مَنْ كان عنده من بنى إسرائيل أن يجعلوا عظامه معهم عندما يخرجون من أرض مصر إلى الأرض المقدسة.

فلما أذن الله لموسى بالخروج هو وقومه، ضلُّوا الطريق، فتعجَّب موسى من ذلك، وعلم أن في الأمر سرًّا، فسأل مَنْ كان معه عما رأى من ضياعهم، فأعلمه علماؤهم بالميثاق الذى أخذه يوسف على آبائهم، عند ذلك سأل موسى عن قبر يوسف لينفذ طلبه، فلم يجد أحدًا يعرف قبره إلا عجوزًا من عجائز بنى إسرائيل، فطلب منها أن تدلهم على قبر يوسف، فأبت إلا إذا حَقَّق لها موسى طلبها، وعندما استفسر منها عما تطلبه، وجدها تطلب أمرًا عظيمًا، إنها تريد أن تكون معه في الجنة.

فكره أن يُعطيها طلبها، إما لأنه استكثر عليها هذه المنزلة، ورأى أن هذا العمل الذى ستقوم به لا يُساوى تلك المنزلة التى تطلبها، وإما أنه لا يستطيع أن يُعطيها أمرًا لا يملكه، فأوحى الله إليه أن يُعطيها حكمها.. ومَنْ طلب من الله معالى الأمور حَقَّق الله له طلبه، وإن لم يبلغ مبلغ الذين يستحقون تلك المنزلة، فالذى يطلب الشهادة بصدق يبلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه، والذى يطلب منازل المنفقين أو العلماء يبلغه الله منازلهم، وإن لم يعمل عملهم.

وقد أخبرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن العجوز بعد أن أعطاها موسى حكمها ذهبت بهم إلى موضع مستنقع ماء، وطلبت منهم أن ينضحوا ذلك الماء.. واستخرجوا جسده من ذلك الموضع، فلما رفعوه وساروا به، أضاء لهم الطريق كأنما هم في ضوء النهار.



عبر الحديث وفوائده

(١) حثَّ الرسول ﷺ أصحابه وأُمَّته على طلب المنازل العالية كما فعلت هذه العجوز في طلبها من موسى ﷺ... وقد صحَّ عن الرسول ﷺ أنه طلب من صحابته أن يسألوا الله الفردوس، وهو وسط الجنة، وأعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن.

(٢) إخبار الرسول ﷺ ببعض الوقائع الدقيقة التي وقعت لأهل الكتاب مما لا يعرفه أهل الكتاب، ومن ذلك قصة هذه العجوز.

(٣) تصويب الحديث لبعض ما ذكر في التوراة من وقائع وأحداث.

(٤) وجود النساء الخيرات صاحبات الهمم العاليات في بنى إسرائيل.

(٥) خبر أخذ يوسف العهد على بنى إسرائيل بنقل عظامه إلى الأرض المقدسة، وخبر نقل بنى إسرائيل لها، ولكننا لا نعلم الموضوع الذي دُفنت فيه.

(٦) جواز أخذ الأنبياء والصالحين العهود على أتباعهم وأقاربهم بفعل ما فيه صلاحهم.

(٧) العهود التي أخذت على أوائل الأمم لازمة لمن جاء بعدهم، فعهد يوسف الذي أخذه على مَنْ كان معه لَزِمَ الذين جاؤوا من بعد، وكذلك عهود بنى إسرائيل التي أخذت على أوائلهم من الله أو من رسلهم لازمة لهم، وكذلك العهود التي أخذت على رسولنا ﷺ وصحابته.

(٨) قد يُحرَم العباد التوفيق إن لم يُنفذوا مراد الله وشرعه، كما ضاع بنو إسرائيل عند تركهم عظام يوسف حال خروجهم.

(٩) لا يُناقض هذا الحديث ما صحَّ عن رسولنا من أن الله حرَّم على الأرض أكل أجساد الأنبياء، والمراد بعظام يوسف في الحديث جثته، وليس المقصود أنه

بَلِيٍّ، ولم يبقَ منه إلا عظامه.

(١٠) عدم اهتمام بني إسرائيل في العهد الأول تقديس قبور الأنبياء بدلالة عدم معرفة بني إسرائيل - وفيهم نبي الله موسى - بموضع قبر يوسف عليه السلام^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ١٠٥-١٠٨).

(٩) قصة موسى مع ملك الموت ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام. فقال له: أجب ربك^(١) قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقاها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقا عيني، قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور^(٢)، فما توارت يدك^(٣) من شعرة، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟^(٤) قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، رب أمتني من الأرض المقدسة، رمية بحجر^(٥)، قال رسول الله ﷺ: «والله لو أتني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، عند الكئيب الأحمر^(٦)»^(٧).

يخبرنا الرسول ﷺ أن من كرامة الأنبياء عند ربهم (جل وعلا) أنهم يُخَيَّرُونَ عند الموت بين البقاء في هذه الحياة وبين الرحيل والانتقال إلى الرفيق الأعلى.

ومن هنا يخكى لنا النبي ﷺ قصة موسى عليه السلام أن الله أرسل إليه ملك الموت في صورة رجل فدخل عليه بيته دون أن يستأذن عليه وقال له: أجب ربك.. وكان ذلك إيذاناً بأن أجله قد حضر وأن ساعة موته قد أتت.

(١) أجب ربك: أي للموت، ومعناه: جئت لقبض روحك.

(٢) متن الثور: ظهره.

(٣) فما توارت يدك: أي ما سترت ووارت.

(٤) مه: استفهام، أي: ثم ماذا؟ أحياء أم موت؟

(٥) رمية حجر: قدر ما يبلغه الحجر إذا رُمي.

(٦) الكئيب الأحمر: الرمل المجتمع.

(٧) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٣٩) كتاب الجنائز - ومسلم (٢٣٧٢) كتاب الفضائل.

فلم يعرف موسى ﷺ أن هذا هو ملك الموت لأنه جاءه في صورة رجل.. فما كان منه إلا أنه قام ولطم وجه ملك الموت ففقا عينه - أى: عينه البشرية التي تمثل بها وإلا فلو كان ملك الموت في صورته الملائكية لما استطاع موسى ﷺ أن يلطم وجهه ولا أن يقدر عليه -.

فرجع ملك الموت إلى ربه (جل وعلا) ليشكو إليه ما أصابه من موسى ﷺ وقال له: إنك أرسلتني إلى عبدك لا يريد الموت وقد فقأ عيني. فما كان من الله (جل وعلا) إلا أن ردَّ إلى ملك الموت عينه كما كانت.

ثم أمره أن يعود مرة أخرى إلى موسى ﷺ وأن يسأله إن كان يريد الحياة فعليه أن يضع يده على ظهر ثور ثم يعد الشعرات التي غطتها يده فيكون له بكل شعرة من تلك الشعرات سنة يعيشها في هذه الحياة ويكون أجله من السنوات بعدد تلك الشعرات وبذلك يعيش حياة طويلة جداً إن كان يريد الحياة.

ولكن موسى عندما استعلم من ملك الموت عما وراء تلك الحياة المديدة قال له: الموت... فاختار الموت من قريب. فما عند الله لرسله وأنبيائه والصالحين من عباده خيرٌ وأبقى.

إذا كانت أرواح الشهداء في حواصل طيرٍ خضر، تسرح في رياض الجنة وتأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتأوى إلى قناديل مُعلَّقة في سقف عرش الرحمن، فإن حياة الرسل والأنبياء فوق ذلك كله، وماذا كان سينال موسى ﷺ لو بقى حياً إلى يومنا... كان سيعانى من مصائب الحياة وبلاياها، وسيعاصر تلك الأحداث الكبار على مرِّ التاريخ التي تشغل الفكر، وتُدمى القلب، أو ليس خيراً له أن يكون في الرفيق الأعلى مع الرسل والأنبياء يتقلب في جنات النعيم، من أن يبقى في دار الشقاء والبلاء!!؟

لقد خيّر موسى فاختار... اختار لقاء الله على حياة مديدة طويلة، فما عند الله خيرٌ وأبقى، والآخرة خير من الأولى.



وقد طلب من ربه عند قبض روحه أن يُدنيه من الأرض المقدسة حتى يكون منها رمية بحجر.

واستجاب الله دعاء موسى، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن قبر موسى هناك على مشارف الأرض المباركة عند الكثيب الأحمر، وأنه لو كان هناك لأراه أصحابه^(١).

✽ قال بعض العلماء: وإنما سأل الإذناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم، فيفتتن به الناس. وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة، والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين. والله أعلم.

✽ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ ابْنُ خُزَيْمَةَ: أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ هَذَا الْحَدِيثَ وَقَالُوا: إِنْ كَانَ مُوسَى عَرَفَهُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ لَمْ يُقْتَصَّ لَهُ مِنْ فِقْءِ عَيْنِهِ؟).

وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ مَلَكَ الْمَوْتِ لِمُوسَى وَهُوَ يُرِيدُ قَبْضَ رُوحِهِ حِينَئِذٍ، وَإِنَّمَا بَعَثَهُ إِلَيْهِ اخْتِبَارًا، وَإِنَّمَا لَطَمَ مُوسَى مَلَكَ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ رَأَى أَدَمِيًّا دَخَلَ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْتِ، وَقَدْ أَبَاحَ الشَّارِعُ فِقْءَ عَيْنِ النَّاطِرِ فِي دَارِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَقَدْ جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ آدَمِيِّينَ فَلَمْ يَعْرِفَاهُمْ ابْتِدَاءً، وَلَوْ عَرَفَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَا قَدَّمَ لَهُمُ الْمَأْكُولَ، وَلَوْ عَرَفَهُمْ لُوطٌ لَمَا خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ.

وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ عَرَفَهُ فَمِنْ أَيْنَ لِهَذَا الْمُبْتَدِعِ مَشْرُوعِيَّةُ الْقِصَاصِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ؟ ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ مَلَكَ الْمَوْتِ طَلَبَ الْقِصَاصِ مِنْ مُوسَى فَلَمْ يُقْتَصَّ لَهُ؟

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ٩٩-١٠٠) بتصرف.

ولخص الخطابى كلام ابن خزيمة وزاد فيه: أَنَّ مُوسَى دَفَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ لِمَا رُكِّبَ فِيهِ مِنَ الْحِدَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ رَدَّ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ لِيَعْلَمَ مُوسَى أَنَّهُ جَاءَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلِهَذَا اسْتَسْلَمَ حِينئِذٍ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمُوسَى فِي هَذِهِ اللَّطْمَةِ امْتِحَانًا لِلْمَلْطُومِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا لَطَمَهُ لِأَنَّهُ جَاءَ لِقَبْضِ رُوحِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخَيَّرَهُ، لِمَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيُّ حَتَّى يُخَيَّرَ، فَلِهَذَا لَمَّا خَيَّرَهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَدْعَنَ. قِيلَ: وَهَذَا أَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّهُ يَعُودُ أَصْلُ السُّؤَالِ فَيَقَالُ: لِمَ أَقْدَمَ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَى قَبْضِ نَبِيِّ اللَّهِ وَأَحْلَلَ بِالشَّرْطِ؟ فَيَعُودُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ امْتِحَانًا.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّمَا فَقَأَ مُوسَى الْعَيْنَ الَّتِي هِيَ تَخْيِيلٌ وَتَمَثِيلٌ وَلَيْسَتْ عَيْنًا حَقِيقَةً، وَمَعْنَى رَدِّ اللَّهِ عَيْنَهُ أَيْ أَعَادَهُ إِلَى خَلْقَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ... وَقِيلَ: عَلَى ظَاهِرِهِ، وَرَدَّ اللَّهُ إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ عَيْنَهُ الْبَشَرِيَّةَ لِيَرْجِعَ إِلَى مُوسَى عَلَى كَمَالِ الصُّورَةِ فَيَكُونَ ذَلِكَ أَقْوَى فِي اعْتِبَارِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ.

وَجَوَّزَ ابْنُ عَقِيلٍ: أَنْ يَكُونَ مُوسَى أُذِنَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِمَلِكِ الْمَوْتِ وَأَمَرَ مَلِكُ الْمَوْتِ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا أَمَرَ مُوسَى بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَصْنَعُ الْخَضِرُ. ❀ وَفِيهِ أَنَّ الْمَلِكَ يَتَمَثَّلُ بِصُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ، وَفِيهِ فَضْلُ الدَّفْنِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: «فَلَكْ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ» عَلَى أَنَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا كَثِيرًا جَدًّا؛ لِأَنَّ عَدَدَ الشَّعْرِ الَّذِي تُوَارِيهِ الْيَدُ قَدَّرَ الْمُدَّةَ الَّتِي بَيْنَ مُوسَى وَبَعْثَةِ نَبِيِّنَا - مَرَّتَيْنِ وَأَكْثَرَ.

وَاسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الزِّيَادَةِ فِي الْعُمُرِ وَقَدْ قَالَ بِهِ قَوْمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا



يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿١﴾ أَنَّهُ زِيَادَةٌ وَنَقْصٌ فِي الْحَقِيقَةِ.
 وَقَالَ الْجُمْهُورُ: وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ لِلْجِنْسِ لَا لِلْعَيْنِ، أَيْ وَلَا
 يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِ آخَرَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ عِنْدِي ثَوْبٌ وَنِصْفُهُ أَيْ وَنِصْفُ ثَوْبٍ آخَرَ.
 وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ أَيْ وَمَا يَذْهَبُ مِنْ عُمُرِهِ فَالْجَمِيعُ
 مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْجَوَابُ: عَنْ قِصَّةِ مُوسَى أَنَّ أَجَلَهُ قَدْ كَانَ قَرِيبَ حُضُورِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا
 مِقْدَارُ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ مِنَ الْمُرَاجَعَتَيْنِ فَأَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهِ أَوَّلًا مَعَ
 سَبْقِ عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ الْمُرَاجَعَةِ وَإِنْ لَمْ يَطَّلِعْ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَى
 ذَلِكَ أَوَّلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة فاطر: الآية: (١١).

(٢) فتح الباري (٦/٥١٠-٥١١).

ج (١٠) قصة شفاء أيوب ﷺ

✽ أيوب العبد الصالح، الذي يُضرب به المثل في الصبر، وتُروى قصته ليواسى بها المصابون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم... كان صحيحًا فمرض، وغنيًا فافتقر، وذا أهل وولد، فأخذ الله أهله وولده، فصبر على ذلك كله صبراً جميلاً، لم يشتك، ولم يتأفف، وطال بلاؤه، ولم تن عزيمته على طول البلاء، وجاء الفرج من الله عندما دعاه أيوب وناداه، فأصحَّ جسمه، وردَّ إليه ضعفى ما كان عنده من مالٍ وولدٍ، وبقي خبره من بعده حكاية تُروى، وقصة تُحكى، إنها قصة إمام الصابرين نبي الله أيوب.

✽ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ ﷺ لَيْثٌ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: أَتَعْلَمُ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحْمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ.

فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَضْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعْ إِلَى بَنِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةً أَنْ يُذَكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ.

قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتْ أَمْرَاتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، وَأَوْحَى إِلَى أَيُّوبَ أَنْ: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ^(١) فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرًا، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارِكَ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ



هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ.

وَكَانَ لَهُ أُنْدَرَانِ (أى بيدران): أُنْدَرٌ لِلْقَمَحِ وَأُنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أُنْدَرِ الْقَمَحِ أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَعَتْ الأُخْرَى فِي أُنْدَرِ الشَّعِيرِ الوُورِقِ - أى الفضة - حَتَّى فَاضَ^(١).

شرح الحديث

﴿أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ أحد أنبياء الله الكرام الذين أوحى الله إليهم فى جملة من أوحى إليه من أنبيائه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾^(٢).

وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

﴿وقد أخبرنا الله عن قصته فى موضعين من كتابه:

الأول: فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

والثانى: فى سورة ص فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ

(١) رواه أبو يعلى، وأبو نعيم، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٦٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٨٤).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٣-٨٤).

الشَّيْطَانُ يُصَبِّ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذُ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَصْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١﴾.

وقد جاء في السنة ما يزيد قصة أيوب وضوحًا وتفصيلًا... ويُسْتَفَاد من مجموع ما ورد في القرآن والحديث في شأن أيوب أنه كان قبل بلائه مُتَعَمِّمًا، يرفل في بحبوحة من العيش، وقد رزقه الله المال والأهل والولد، ثم شاء الله أن يبتليه، فأذهب ماله وولده، وأصيب في جسده، فانفضَّ عنه مَنْ جمعتهم النعمة حوله، وجفاه القريب والبعيد، ولم يبقَ بآزًا به إلا زوجته، واثنان من كرام أصحابه، كانا يغدوان عليه ويأنس بهما.

وقد تَفَكَّرَ أحد الرجلين في حال أيوب، وامتداد بلائه، فقد مضى على البلاء الذي حَلَّ به ثمانى عشرة سنة، ولم يكشف الله عنه ما أصابه به، وجال بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنبٍ عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دار في خلده، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فآلم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفي تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر في حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يُذكَر الله إلا في حق.

هنالك توجه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢).

والثانى: في سورة ص في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يُصَبِّ وَعَذَابٍ﴾ (٣).

(١) سورة ص: الآيات: (٤١-٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣).

(٣) سورة ص: الآية: (٤١).



واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شيء قدير، وإذا شاء شيئاً كان، لا يُعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماء.

وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضى حاجته جاءت زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى المكان المقصود، تركته ريثما يقضى حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تُعينه على الرجوع إلى مكان إقامته... وقد أبطأ عليها في ذلك اليوم الذي دعا فيه ربه، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الضعيفة الأرض، فانبثق الماء من موضع ضربته، فأمره الله أن يشرب من ذلك الماء ويغتسل منه، فأذهب الماء أمراضه التي في ظاهر جسده وباطنه، وعادت إليه الحيوية والنشاط في الحال، ورجعت إليه صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيوية ونشاطاً، كحاله قبل أن يُداهمه المرض، فلما رآته لم تعرفه مع أنها رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحاً مُعافى، وسألته عن زوجها النبي المُبتلى، وذكرت له ما لاحظته من شبهه به أيام كان سويّاً صحيحاً، ولم تكن تتوقع أن يصلح حاله، ويشفى من مرضه في هذه المدة الوجيزة التي غابها عنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيماً عندما رأت نعمة الله عليه في رَدِّه عافيته وصحته إليه.

وكما رَدَّ الله عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعْفَى المال الذي فقده، ووزقه ضِعْفَى ما كان عنده من الأولاد... بل وفوق ذلك فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطراً، بل ذهباً وفضة، وكان لأيوب بيدران: أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير.

وكان قد غضب على زوجته في مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة

ضربة، وعزَّ عليه بعد شفائه أن يكون جزاؤها منه على صبرها ورعايتها الضرب والجلد، وشقَّ عليه أن لا يفى لربه بنذره، فجعل الله له فرجًا ومخرجًا، إذ أمره أن يأخذ حزمة من قش القمح أو الشعير، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد وفى بنذره، ولم يضرب زوجته... قال تعالى لآيوب: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ، وَلَا تَحْنَثْ ۗ ﴾^(١).

وقد ذهب الإمام أحمد إلى جواز ضرب مَنْ أصاب حَدًّا كالزاني غير المُحصَن والقاذف بمثل ما ضرب به أيوب إن كان المحدود مريضًا يخشى هلاكه بالضرب، وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يضربوا رجلًا مريضًا زنا بجارية بعشكال من نخل فيه مائة شمروخ ضربة واحدة^(٢).

وكان أيوب ﷺ خفيف الظل، ندى الروح، فيه دعاة في صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثَى فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَعْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(٣).

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يثبُّ عُريَانًا، يجمع ذلك الجراد ويحثيه في ثوبه، ويُنَادِيه ربه: أَلَمْ أَغْنِكَ عَمَّا تَرَى، أى بما أفاضته السحابتان من الذهب والفضة في بيدريه، ويأتى الجواب: لا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ يَا رَبِّ.

(١) سورة ص: الآية: (٤٤).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم: (٢/٩٨)، والحديث المشار إليه عزاه الشيخ ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/١٢١٥) ورقمه (٢٩٨٦) إلى النسائي فى السنن الكبرى وابن ماجه، والبيهقى وأحمد وغيرهم.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل، و(٣٣٩١) كتاب أحاديث الأنبياء، و(٧٤٩٣) كتاب التوحيد - والرَّجُلُ مِنَ الْجَرَادِ: السَّرْبُ مِنَ الْجَرَادِ.



عبر الحديث وفوائده

(١) فضل نبي الله أيوب عليه السلام في صبره على ما ابتلاه الله به من فقد المال والأهل والولد، وسقم الجسد، وتفرق الأحباب عنه.

(٢) الصبر عاقبته إلى خير في الدنيا والآخرة، فقد عافى الله أيوب بعد ذلك المرض الطويل، وردَّ إليه صحته وعافيته، ورزقه المال الوفير، والأولاد الصالحين.

(٣) مدى تعظيم أيوب لربه، فقد كان يُكفِّر عن الذين يتنازعون، فيذكرون الله خشية أن يُذكر الله إلا في حق.

(٤) عِظَم وفاء زوجة أيوب لزوجها، وبرها به، وكذا صديقه، فالمصائب تكشف معادن البشر، وعلى الرغم من قلة الذين تصفو معادتهم، فإنه لا يخلو منهم عصر ولا مصر إلا ما شاء الله.

(٥) قدرة الله على إزالة البلاء وشفاء المريض، فقد أعاد أيوب إلى عافيته وصحته في لحظات.

(٦) قدرة الله على أن يرزق عباده بطرق لم يألّفها البشر، فقد جاء أيوب بالمال الوفير من الذهب والفضة سحابتان، وخرَّ عليه الجراد مصنوعاً من الذهب.

(٧) جعل الله لأيوب فرجاً ومخرجاً في نذره، فوفى بنذره، ولم يؤذِ زوجته، وقد ذكر الإمام ابن القيم أنه لم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان فيها كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خُفِّف عنه، وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يُعاملها معاملة المعذور، هذا مع

رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة^(١).

(٨) في الحديث تبرئة لأيوب مما ألصقه به اليهود من مفتريات، وتقويم وإصلاح لما حرّفوه وبدّلوه من سيرته^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) إغائة اللهفان من مصايد الشيطان (٩٧/٢).

(٢) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ١٦٠-١٦٤) بتصرف.



(١١) أيوب عليه السلام .. وجراد من الذهب

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «بَيْنَا أَيُّوبُ عليه السلام يَغْتَسِلُ عُريَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عز وجل: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عَمَّا تَرَى؟، قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ» ^(١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعل في ثوبه، فقيل له: يا أيوب: أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك..».

✽ كان أيوب عليه السلام رجلاً كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة.

فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفي مقدمتها الأراضي المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يُدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية... وقد كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام.

✽ وكان أيوب عليه السلام بَرًّا تَقِيًّا رَحِيمًا، يُحَسِّنُ إِلَى الْمَسَاكِينِ، وَيَكْفُلُ الْيَتَامَ وَالْأَرَامِلَ، وَيَكْرُمُ الضَّيْفَ، وَيَبْلُغُ ابْنَ السَّبِيلِ... وكان شاكراً لأنعم الله عليه، مُؤَدِّيًا لِحَقِّ اللَّهِ عز وجل.

✽ وكان لأيوب عليه السلام أولاد وأهلون كثير، وكانت زوجته (ليا) تَرْفُلُ فِي هَذَا النِّعَمِ، شَاكِرَةٌ عَابِدَةٌ عَارِفَةٌ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ فِي الشُّكْرِ، فَقَدْ كَانَتْ تُكْثِرُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ عَلَى اللَّهِ عز وجل، إِذْ رَزَقَهَا مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ، وَأَوْسَعَ عَلَيْهَا وَعَلَى زَوْجِهَا مِنَ الرِّزْقِ شَيْئًا مَبَارَكًا، وَفَضَّلَهُمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩) كتاب الغسل.

❁ كانت (ليا) تدرك أن سرَّ بقاء النعمة هو شكر المُنعم.. فكانت دائمة الذكر والحمد، تؤدي إلى كل ذي حقِّ حقه، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتُحسن إليهم، وتستنير بذلك في ضوء إرشاد زوجها نبي الله أيوب عليه السلام (١).

❁ وفي يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولدًا من أولاده قد مات فصبر واحتسب... ثم مات ولدٌ آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

❁ بل وفي نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيول تموت أمامه حتى فنيت جميعًا وهو صابر محتسب.

❁ وابتلى في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضوٌ سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله عز وجل في ليله ونهاره، وصبَّحه ومساءه.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبقَ أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقتة عليها، فكانت تتردد إليه فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضَعْفُ حالها، وقَلُّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتُطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً. حتى إن المثل ليُضرب بصبره عليه السلام، ويُضرب أيضًا بما حصل له من أنواع



البلايا^(١).

✽ وبعد ما قضى في البلاء سنواتٍ طوالٍ توجّه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢)، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ نُصِّبُ وَعَذَابٍ﴾^(٣).

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه... فالله على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئًا فإنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

✽ جاء الفرج الإلهي.. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب.

أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة في القرآن الكريم والذكر الحكيم في قوله ﴿وَقَالَ: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾﴾^(٤).
هكذا عادت إليه صحته وعافيته مرة أخرى.

✽ وكما رَدَّ اللهُ عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعْفَى المال الذي فقده، ورزقه ضِعْفَى ما كان عنده من الأولاد... فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرًا، بل ذهبًا وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير^(٥).

وبينما كان يغتسل عريانًا، ليس عنده أحد، أمطر الله عليه جرادًا من ذهب.

وكان هذا الجراد من الذهب كثيرًا... سمّاه رسول الله ﷺ في رواية أخرى

(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣).

(٣) سورة ص: الآية: (٤١).

(٤) سورة ص: الآية: (٤٢).

(٥) صحيح القصص النبوي (ص: ١٦١).

عند البخارى: رَجُلٌ جَرَادٌ. فقال عليه الصلاة والسلام: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُزَيَاتًا، حَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ...»^(١).

و شاء الله الحكيم أن يرزقه الذهب على صورة جراد، وصَبَّ عليه الجراد من الذهب صبًّا أثناء اغتساله، وأمطره عليه، فكأن هذا الذهب كان مطرًا غزيرًا نازلًا عليه، وكان هذا معجزة من الله سبحانه.

فلما رأى أيوب هذا الذهب مصبوبًا عليه تناول ثوبه الذى وضعه بجانبه أثناء الاغتسال، وصار يجمع الذهب بكلى يديه، ويحثوه، ويضعه فى ثوبه!!

فعجب الله من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أكن أغنيتك عما ترى؟

أى أن الله أغناه بما وهبه من رزق، فلم يجمع الذهب بثوبه؟

فقال أيوب عليه السلام: بلى. لقد أغنيتنى، ولكن لا غنى لى عن بركتك؟

أى أن هذا الذهب بركة منك يا رب، وبركة الله لا غنى عنها، فهى تبارك مال من كانت عنده... فأيوب عليه السلام ليس بحاجة إلى الذهب، وهو زاهد فى متاع الدنيا، لأن الأنبياء هم أئمة الزاهدين، وجمعه للذهب بثوبه طلبًا للبركة، وليس سدادًا للحاجة.

وفى الرواية الثانية أن الله لما عجب من فعله قال له: يا أيوب: أما تشبع؟

فقال أيوب عليه السلام: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟

لقد اعتبر هذا الذهب من مظاهر رحمة الله... ورحمة الله لا يشبع منها مؤمن... فجمعه للذهب بثوبه ليس بسبب نهمه، بل للتقلب برحمة الله.

وهذا التصرف من أيوب عليه السلام دليل على أنه يجوز للمؤمن أن يجمع المال، وأن يستكثر منه، وأن يحتفظ به، بشرط أن يأتيه من مصدرٍ حلال، وأن لا

(١) صحيح: زواه البخارى (٧٤٩٣) كتاب التوحيد.



تستشرفه نفسه، ولا يملأ عليه تفكيره، وأن يُخرج حق الله فيه. ويُعتبر هذا المال بركة من الله، ولا يستغنى أحدٌ عن بركة الله... ورحمة من الله، ولا يشبع أحدٌ من رحمة الله. ويقتدى في ذلك بأيوب عليه السلام^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) القصص القرآني / د. صلاح الخالدي (٤/٢٦-٢٧).

(١٢) إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ.. فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ بِهِنَّ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ عِيسَى: إِمَّا أَنْ يُبَلِّغَهُنَّ أَوْ تُبَلِّغَهُنَّ.. فَأَنَاءُ عِيسَى فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ فِيمَا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ فَقَالَ لَهُ: يَا رُوحَ اللَّهِ إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذِّبَ أَوْ يُخَسِّفَ بِي... فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفَاتِ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرَّكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ.

وأولهنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.. فَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ -أى: فضة- ثُمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا فَقَالَ: اعْمَلْ وَاذْفَعْ إِلَيَّ فَجَعَلَ الْعَبْدُ يَعْمَلُ وَيَرْفَعُ إِلَيَّ غَيْرَ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.... وَأَمَّرَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْبَلُ بَوَاجِهِهِ عَلَى عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.... وَأَمَّرَكُمْ بِالصِّيَامِ وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مَسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمَسْكِ وَإِنْ حُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ.... وَأَمَّرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَقْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ... وَأَمَّرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَاتَى حِصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.... وَأَنَا أَمُرُّكُمْ بِخَمْسِ أَمْرَيْنِ اللَّهُ بِهِنَّ: الْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالهِجْرَةَ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.. فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ.. وَمَنْ دَعَا

بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُنَائِ جَهَنَّمَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ»^(١).

❁ فى هذا الحديث يُخبر رسول الله ﷺ أن الله ﷻ أمر نبيه يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات.. وذلك من أجل أن يعملوا بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن.. لكن يحيى ﷺ أبطأ في تبليغ بنى إسرائيل.. ولعله كان يظن أن الأمر فيه سعة من الوقت... وكون أن يحيى ﷺ أبطأ في تبليغ بنى إسرائيل لا ينفى أنه عمل بتلك الكلمات الخمس التي أمره الله ﷻ أن يعمل بهن.

❁ فلما أبطأ يحيى ﷺ في تبليغ بنى إسرائيل تلك الكلمات الخمس أوحى الله ﷻ إلى عيسى ﷺ قائلاً له: إما أن يبلغهن أو تُبلغهن.. يعنى: إن لم يُبلغ يحيى ﷺ بنى إسرائيل بتلك الكلمات الخمس فإذهب أنت يا عيسى ﷺ وبلغهم بتلك الكلمات.. ومعنى ذلك أن الله ﷻ أخبر عيسى ﷺ بتلك الكلمات الخمس.

فما كان من عيسى ﷺ النبي الكريم صاحب المروءة إلا أن ذهب إلى ابن خالته يحيى ﷺ وقال له: إنك أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمّر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تُبلغهن.. أى: كما أمرك الله ﷻ.. وإما أن أبلغهن كما أمرنى الله ﷻ أيضاً إن لم تفعل ذلك.

فقال يحيى ﷺ: يا روح الله إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يُخسف بى... أى: إنى أخشى إن سبقتنى بتبليغ بنى إسرائيل بتلك الكلمات أن أكون قد خالفت أمر الله ﷻ أو قصّرت فى طاعته فيحقّ على العذاب أو الخسف.. فدعنى أنا أبلغهم بتلك الكلمات.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٢٤).

﴿فَمَا كَانَ مِنْ يَحْيَىٰ ﷺ إِلَّا أَنْ جُمِعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ.. فَجَاءُوا جَمِيعًا حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ فَقَعَدَ يَحْيَىٰ ﷺ عَلَى الشَّرَفَاتِ.. أَيْ عَلَى مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ يُشْرَفُ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَرَاهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُوَ يَكْلِمُهُمْ. وَبَدَأَ يَكْلِمُهُمْ.. فَحَمَدَ اللَّهُ ﷻ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَ هُوَ أَهْلُهُ ﷻ... وَهَذَا مِنْ أَدَبِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَبْدَأُونَ كَلَامَهُمْ إِلَّا بِحَمْدِ اللَّهِ... وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبْدَأُ كَلَامَهُ بِخُطْبَةِ الْحَاجَةِ وَالَّتِي فِي أَوَّلِهَا قَوْلُهُ ﷻ: إِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ.... إِلَى آخِرِهِ.

ثم قال يحيى ﷺ: إِنْ اللَّهُ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمْرِكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ... وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَأَمَّا أَنَا فَقَدْ عَمَلْتُ بِهِنَّ لَكِنِّي تَأَخَّرْتُ فِي تَبْلِيغِكُمْ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ... ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ قَائِلًا:

﴿وَأُولَئِنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا:

فهذا هو حق الله على العباد.. ولذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يَا مَعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرُهُمْ، فَيَتَكَلَّمُوا»^(١).

ولقد ذكر الله ﷻ الغاية التي خلقنا من أجلها فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، فالله خلقنا لتوحيده وعبادته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فإن فعلنا ذلك فإن حق العباد على الله أن يُدخلهم الجنة.. ولا يظن أحد أن هذا الحق قد أوجبه أحد على الله - حاشا لله - بل أوجبه الله على نفسه وألزم نفسه بذلك بفضله وكرمه سبحانه وتعالى.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٣٠) كتاب الإيمان.

(٢) سورة الذاريات: الآية: (٥٦).



﴿ ثم وضح يحيى ﷺ مغبة الشرك فقال:

«فإنَّ مَثَلٌ مِنْ أَشْرِكِ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ ثُمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا فَقَالَ: اْعْمَلْ وَارْزُقْ إِلَيَّ فَجَعَلَ الْعَبْدُ يَعْْمَلُ وَيَرْفَعُ إِلَيَّ غَيْرَ سَيِّدِهِ فَأَيْكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟» فتخيل معي لو أن رجلاً اشترى من سوق العبيد عبداً ليخدمه ويعمل عنده ويعينه على أعباء الحياة.. فاشتراه من خالص ماله الحلال بذهب أو وِرقٍ - أى فضة- أى أنه دفع ثمنه كاملاً من ماله وهو ينتظر ثمرة ما دفعه في هذا العبد.. ثم إنه بالغ في إكرام العبد بأن أسكنه داراً حتى إذا أراد أن يتزوج بعد ذلك يكون عنده دار ليتزوج فيها - بإذن سيده- وقال له: هذه دارى وهذا متجرى فاعمل هنا وأحضر إليّ كل يوم حصيلة ما تبعه في كل يوم... فما كان من ذلك العبد إلا أن ذهب ليعمل في متجر سيده وفي آخر اليوم كان يعطى المال لرجلٍ آخر.. فأيكم يرضى بذلك وأيكم يرضى أن يكون عبده هكذا.

ولله المثل الأعلى... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) فالله خلق عبده وسوّاه وأكرمه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ورزقه من الطيبات وكلفه بعبادته.. فهل يجوز بعد ذلك أن يصرف العبادة لغير الله ويشرك بالله... ولذا قال يحيى ﷺ: «وإنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».

﴿ والشرك هو اتخاذ العبد من دون الله نداً يسويه برب العالمين...

يحبّه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويلتجئ إليه، ويدعوه، ويخافه، ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، ويطيعه في معصية الله، أو يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك... قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ

(١) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).

يَا لَهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ ﴿٢﴾.

ويستوى في الخروج بهذا الشرك عن الدين المجاهر به ككفار قريش وغيرهم، والمُبطن له كالمنافقين المُخادعين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفَّاثِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾، وغير ذلك من الآيات ﴿٤﴾.

✽ وللشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من المُلْك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثاني: الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُماثلًا في شيء من الأسماء أو الصفات، أو يصفه تعالى بشيء من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب... فمن ادَّعى أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

(١) سورة النساء: الآية: (١١٦).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٣) سورة النساء: الآيتان: (١٤٥-١٤٦).

(٤) ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة (ص ٤١-٤٢).



القسم الثالث: الشرك في الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد أو صَرَفُ شَيْءٍ من العبادة لغيره^(١).

❁ وقد يسأل سائل ويقول: ما هي العبادات التي لا يجوز أن يُقصد بها غير الله؟
والجواب: أن العبادات التي لا يجوز أن يُقصد ويُراد بها غير الله أنواع:
الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وييده النفع والضرر.. الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يُقصد بها إلا الله وحده... وصرفها لغيره شركٌ: كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية: كالنطق بكلمة التوحيد... إذ لا يكفي اعتقاد معناها، بل لا بد من النطق بها... وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية: كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية: كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة^(٢).

(١) عقيدة الطفل المسلم / د. محمود المصري (ص ٦٠).

(٢) العقيدة في الله / د. عمر الأشقر (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

❁ ثم قال لهم يحيى عليه السلام:

«وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ» وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فإن الله عز وجل يُقبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت.

ولا بد أن نعلم أن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن... فهي التي أمر الله بها وهي الوصية الأخيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمنية المُعذِّبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات وهي الحادى للنعيم المقيم في الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغاً عظيماً وقدراً عالياً في قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت أعلى من نسيم الهواء الذي يتنفسه الإنسان.

وحسبنا أن نتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفرغ إلى الصلاة... ففرغ إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رضي الله عنه: «رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي سَمَلَةٍ يُصَلِّي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا حَزَبُهُ أَمَرَ صَلَّى»^(٢).

وفرغ إليها يوم بدر: ... عن (عليّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح. ❁ وكان يفرغ إليها كذلك عند تجدد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه صلى الله عليه وسلم بفتح مكة اغتسل وصلى ثماني

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٧٠٣).



ركعات شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يحب الصلاة حُبًّا جَمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يَا بِلَالُ! أَمِّمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»^(١).

بل إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في مرض الموت وفي آخر لحظات حياته كان يُعشى عليه ثم يفيق ويقول: «أَصَلَّى النَّاسُ؟» فيقولون له: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيُعشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «أَصَلَّى النَّاسُ؟»^(٢).

✽ وكان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعدُّ ولا تُحصى.

وحسبنا أنها العبادة الوحيدة التي منحها الله لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهي الفريضة الوحيدة التي فُرِضَتْ في السماء.

✽ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن يعرف قدرها وأن يعرف ما هي الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم في صلاته.

✽ وهنا قال لهم يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَآ تَلْتَفِتُوا».

والالتفات المنهى عنه في الصلاة قسمان؛ أحدهما: التفات القلب عن الله عَزَّوَجَلَّ إلى غير الله تعالى. والثاني: التفات البصر. وكلاهما منهيٌّ عنه. ولا يزال الله مُقبلاً على عبده ما دام العبد مُقبلاً على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

أعرض الله تعالى عنه.... وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ» ^(١).

وفي أثر: إذا التفت العبد في صلاته يقول الله تعالى: (إلى خيرٍ مني، إلى خيرٍ مني؟). ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً، وقد انصرف قلبه عن السلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضراً معه، فما ظنّ هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقلّ المراتب في حقّه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مُبَعَدًا قد سقط من عينيه؟... والله المثل الأعلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ^(٢).

فهذا المصلّي لا يستوى مع المصلّي الحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلاً قلبه من هيئته، وذلت عنقه له، واستحى من ربه تعالى أن يُقبل على غيره، أو يلتفت عنه. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

﴿وَأْمُرْكُمْ بِالصِّيَامِ.. وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِسْكِ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ وَإِنْ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ﴾.

فذكر يحيى عليه السلام لبنى إسرائيل أن الله عز وجل أمرهم بالصيام.. وقد ذكر الله عز وجل أنه كتب الصيام علينا وعلى الذين من قبلنا فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كِتَابَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ^(٣) وأخبر الحق (جلّ وعلا) أنه اختصّ الصيام لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سرٌّ

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥١) كتاب الأذان.

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٨٣).

بين العبد وربّه ولأنه العبادة الوحيدة التي لا يتطرق إليها رياء... قال ﷺ:

«قال الله ﷻ: كُلُّ عَمَلٍ لِبْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ. وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْتَفُتْ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسٌ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»^(١).

وهذا لفظ رواية البخارى... وفي رواية له: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ، مِنْ أَجْلِ، الصِّيَامِ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بَعْشَرِ أَمْثَالِهَا».

وفي رواية لمسلم: «كُلُّ عَمَلٍ لِبْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بَعْشَرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ: يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِ. لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ: فَرِحَ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرِحَ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفٌ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

«وَالَّذِي نَفْسٌ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله ﷻ... قَالَ الْقَاضِي: يُجَازِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَتَكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ... وَقِيلَ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ الثَّوَابِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ الْمِسْكِ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَهُ^(٢).

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين في القيامة التحجيل بوضوئهم في الدنيا فرقاً

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووي (٤٣/٨).

بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم في القيامة بصومهم طيبٌ خلوفهم أطيب من ريح المسك ليُعرفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل.. نسأل الله بركة ذلك اليوم... قال مكحول: يُروِّح على أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح.. فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

﴿وَأْمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ... وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَتَدِي نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَ نَفْسَهُ﴾.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (١).

الزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية الهامة.

وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وتارة بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق.

وفي مفتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدى كتابه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢) وفي آيات أخر من السورة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤).

وهي في معناها البسيط - معونة الفقير بجزء من المال - عبادة قديمة عرفت في الرسائل السماوية السابقة، وذكرها الله في وصايا رسله إلى أممهم.

(١) سورة التوبة: الآية: (١٠٣).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١١٠).

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٧٧).

فقال عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (٧٣) (١).

وامتدح إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٥٥) (٢).

وذكر الله في موثيقه لبنى إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٣).

وهنا يخبر يحيى عليه السلام بنى إسرائيل أن الله عز وجل أمرهم بالصدقة.. ثم ضرب لهم مثلاً على ذلك فقال: «ومثل ذلك كمثل رجل أسرهُ العدو فشدوا يديه إلى عُنقه» ولا شك أن الذى يحدث له ذلك يكون فى كرب شديد لهذا الذى فُعل به وقد يضيق صدره إذا طالت الفترة عليه وهو على ذلك الحال... ثم ازداد الأمر سوءاً بأن قدموه ليضربوا عُنقه ويقتلوه.. فما كان منه إلا اقترح عليهم اقتراحاً ينجو به من تلك المحنة فقال لهم: هل لكم أن أفدى نفسى منكم؟ والحديث لم يوضح أنهم وافقوا على ذلك لكن السياق يدل على ذلك بدليل أنه جعل يفدى نفسه منهم بالقليل فلم يرضوا فافتدى نفسه منهم بالكثير حتى رضوا وأطلقوا سراحه وكأنه قد كُتبت له الحياة من جديد.

وهذا هو حال الذى يدفع الزكاة الواجبة عليه فإنه يفدى نفسه من غضب الله وعذابه.. فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٧٣).

(٢) سورة مريم: الآية: (٥٥).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٨٣).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١﴾ .. بل إن من دفع الزكاة الواجبة عليه فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام.. فقد قال ﷺ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (٢).

﴿وَأَمْرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَاتَى حِصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى﴾.

ففي نصّ الحديث: أن يحيى ﷺ قال لهم: «وَأَمْرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ» يعنى: أعداؤه لحقوه، وأخذوا يطاردونه بسرعة شديدة «فَاتَى حِصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ» فدخل الحصن وأغلق الأبواب جيدًا وأوثقها وأحكم إغلاقها، وتحصّن بذلك من هذا العدو الذى كان يريد أن يفتك به، يقول: «وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى» فهذا أعظم ما يحمى الإنسان من كيد الشيطان، سواء بتسويل المعاصى، أو بالوساوس، أو غير ذلك من الآفات والأمراض التى تُفسد على الإنسان حياته، فإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله تعالى.

﴿ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الذِّكْرِ إِلَّا هَذِهِ الْخِصْلَةُ الْوَاحِدَةُ لَكَانَ حَقِيقًا بِالْعَبْدِ أَنْ لَا يَفْتَرُ

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٣٤، ٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.



لسانه من ذكر الله تعالى، فَإِنَّهُ لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل، وثب عليه واقتربه، وإذا ذكر الله تعالى، انخس عدو الله وتَصَاغَرَ، وانقمع، حتى يكون كالذباب، ولهذا سُمي الوسواس الخناس؛ أى: يوسوس فى الصدور، فإذا ذكر الله خنس... أى كَفَّ وانقبض.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس.

فمعك سلاح، وأنت قادر على أن تهزم شيطان الجن فى أول جولة، فإنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يُولِّى الأدبار... أما شيطان الإنس فلو قرأت عليه القرآن كله يقول لك: إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ... فأنت تغلب شيطان الجن من أول جولة، وهو مهزومٌ دائماً؛ لأنك إذا استعدت بالله منه، فَرَّ وهرب.

فإذا كنت مستيقظاً تذكر ربك سبحانه وتعالى وتستغفره، وكلما رأيت شيئاً فى هذا الكون ذكرت الله، فلن يقرب منك الشيطان، لكن حين تنام وتلقى سلاحك (الذكر)، فإن عدوك سوف يغتالك؛ لأنك قد ألقيت سلاحك؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ عَلَّمَنَا عِنْدَمَا نَأْتِي لِنَنَامُ أَنْ نَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»، وحين تقول: وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، كأنك تقول: يارب! لن أوتى وقد أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ أَبَدًا.

يارب! أنا سأنام، وقد ألقيت سلاحى، فأنت الذى ستولى حفظى، وأنا حينما كنت مستيقظاً فإننى كنت أذكرك ولا أفتر عن ذكرك... فقد أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ فَاحْمَنِى.

❁ ثم قال النبى محمد ﷺ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اللَّهُ بِهِنَّ:» فيا ترى ما هى؟... قال ﷺ: «الْجَمَاعَةَ» أى عليك بالجماعة فإنما ينال الذئب من الغنم

القاصية.. ونحن ننتمي جميعاً إلى أهل السنة والجماعة.

وأهل السنة والجماعة:

هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة.

وهم: المتمسكون بالعقيدة الصحيحة الخالية من شوائب البدع والخرافات وهي العقيدة التي كان عليها رسول الله ﷺ واتفق عليها أصحابه رضي الله عنهم.

وقد سُموا (أهل السنة) لعملهم بمقتضى سنة النبي ﷺ المبينة للقرآن.

وسُموا (الجماعة) لأنهم اجتمعوا على اتباع سنة النبي ﷺ وما أجمع عليه سلف هذه الأمة، فهم قد اجتمعوا على الحق، وعلى عقيدة الإسلام الخالية من الشوائب.

وأيضاً فقد سَمَى النبي ﷺ الفرقة الناجية المتبعة لستته وطريقة أصحابه - وهم أهل السنة والجماعة - سماهم (الجماعة) (١).

ولذلك لما سأل حذيفة بن اليمان رسول الله ﷺ عما يفعله المسلم في زمن الغربة والفتن، قال ﷺ: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».. وها هو الحديث الذي ذكر فيه النبي ﷺ ماذا يصنع المسلم في زمن الفتن.

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكِّرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ

(١) مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص ٤-٥) بتصرف.

بِالسِّتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَرِزْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

❁ «وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» يعنى: وأمرنا النبي ﷺ بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ ولأولى الأمر من المؤمنين الصالحين.. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»^(٢).

وقال ﷺ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ...»^(٣).

ففيه السمع والطاعة لولاية أمور المسلمين الذين يحكمونهم بشرع الله عز وجل... وهذا الإطلاق مُقيّدٌ في مواضع أخرى كقوله ﷺ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» يعنى فيما يُقره الشرع أما ما يُنكره الشرع فلا طاعة لأحدٍ فيه... كما قال الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه عندما استُخلف: أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

وقصة عبد الله بن حذافة رضي الله عنه الذى أمره النبي ﷺ على سرية فأغضبوه فأمرهم أن يوقدوا ناراً ثم أمرهم بالدخول فيها، فقالوا: إنما آمننا برسول الله ﷺ هروباً من النار، فلما عرض ذلك على النبي ﷺ قال: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا».

فطاعة الأمراء، والعلماء، والوالدين لا تكون في معصية الله عز وجل...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة.

(٢) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وأبو داود، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٥٤٩).

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

فطاعة الله ﷻ مطلقة، وطاعة الرسول ﷺ مطلقة ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢). أما طاعة أولى الأمر فهي مُقيّدة بما لا يخالف أمر الله ﷻ أو أمر رسوله ﷺ.

فمثلاً: لو أمر ولى الأمر أن تترك رعيته الصلاة وأن تخلع النساء الحجاب قلنا له: لا سمع ولا طاعة.. لأن الصلاة فريضة والحجاب واجبٌ على المرأة ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

لكن يجب أن يُطاع في غير هذا... يعنى ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقاً، لا... إنما تسقط طاعته في هذا الأمر المعين الذى هو معصية لله، أما ما سوى ذلك، فإنه تجب طاعته... وقد ظن بعض الناس أنها لا تجب طاعة ولى الأمر إلا فيما أمر الله به، وهذا خطأ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن ننفذه، ونفعله، سواء أمرنا به ولى الأمر أم لا.

فالأحوال ثلاثة: إما أن يكون ما أمر به ولى الأمر مأموراً به شرعاً، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلاً، فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولى الأمر. وإما أن يأمر ولى الأمر بمعصية الله، من ترك واجبٍ أو فعل محرم، فهذا لا طاعة له ولا سمع، وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعى، ولا معصية شرعية، فهذا تجب طاعته فيه؛ لأن الله قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣). فطاعة ولى الأمر من غير معصية طاعة لله ورسوله ﷺ^(٤).

(١) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (٨٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/٤٤٨).



﴿والهجرة﴾.

والهجرة وإن كانت قد انتهت منذ زمن النبي ﷺ فإنه ما زالت هناك هجرة لا تنتهى أبداً إلى قيام الساعة.. وهى هجر البدع والذنوب والمعاصى وكل ما نهى الله ﷻ عنه.

فيجب على المسلم أن يهجر كل ما نهى الله عنه من البدع والذنوب والمعاصى فقد قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١)... ويجب على المسلم أن يهجر كل ما حرم الله سواء كان مما يتعلق بحقوق الله ﷻ أو مما يتعلق بحقوق عباد الله.

ويجب عليه أن يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان لا يستطيع أن يظهر دينه وأن يُقيم شعائر دينه.

﴿والجهاد في سبيل الله﴾.

فالجهاد في سبيل الله ﷻ هو ذروة سنام الإسلام.. ولن تعود العزة للأمة إلا إذا جاهدت أعداء الله ﷻ... ولن تجد عملاً يوازي الجهاد مهما بلغ قدر ومكانة ذلك العمل الصالح.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». ثُمَّ قَالَ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَائِمِ بَأَيَاتِ اللَّهِ لَا يَقْتَرُ: مِنْ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، حَتَّى يَرْجَعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وفي رواية البخارى، أن رجلاً قال: يا رسول الله ذُنُنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة، واللفظ له.

الجهاد؟ قال: «لا أجده» ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المُجاهدُ أن تدخل مسجِدَكَ فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر» فقال: ومن يستطيع ذلك؟

❁ ففى هذا الحديث أنه قال جماعة للنبي ﷺ: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟.. فهم يعلمون أن الجهاد ذروة سنام الإسلام.. لكنه قد لا يكون هناك جهاد في كل وقت.. فهم يريدون عملاً يُعوضهم عن أجر الجهاد في سبيل الله ليس من أجل ترك الجهاد ولكن من أجل أن ينشغلوا بهذا العمل إلى أن يحين وقت الجهاد.. فلما سألوا النبي ﷺ عن الشيء أو العمل الذى يعدل الجهاد قال لهم النبي ﷺ: «لا تستطيعونه» أى أن هناك ما يعدل الجهاد لكن لا يقدر عليه أحد...

فأعادوا السؤال عليه مرتين أو ثلاثاً.. والنبي ﷺ مُشفقٌ عليهم فيقول لهم: «لا تستطيعونه».. فلما رأى إصرارهم على معرفة ذلك قال لهم ﷺ: «مثل المُجاهد في سبيل الله» أى: صفته العظيمة الشأن التى كادت أن تكون كالمثل «كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر: من صلاة، ولا صيام، حتى يرجع المُجاهد في سبيل الله» وكان النبي ﷺ يقول لهم: إن أراد أحدكم أن يعمل عملاً يوازى أو يكون قريباً من عمل المُجاهد في سبيل الله.. فعليه أن يظل صائماً قائماً مطيعاً لله تالياً لكتاب الله ﷻ منذ أن يخرج المُجاهد من بيته للجهاد وإلى أن يرجع.. وقد يمكث المُجاهد عاماً أو عامين في الجهاد أو أكثر من ذلك.

ومن في الدنيا يستطيع أن يفعل ذلك... فالمُجاهد منذ أن يخرج وإلى أن يعود له مثل أجر الصائم الذى لا يفطر والقائم الذى لا يفتر... فمن أراد أن ينال مثل أجره فليفعل مثله... وهذا دليل على أنه لا شيء يوازى أجر الجهاد في سبيل الله.

❁ ولذا جاء في الرواية الأخرى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: دُننى على عمل



يعدل الجهاد؟ قال له النبي ﷺ: «لا أجده».. فلو علم النبي ﷺ عملاً يوازيه لأخبره بذلك.. ثم قال له: «هل تستطيع إذا خرج المُجاهدُ أن تدخلَ مسجِدَكَ فتقوم ولا تفتّر، وتصوم ولا تُفطر؟». فقال الرجل: ومن يستطيع ذلك؟
 ﴿فإنه من فارق الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ﴾.

وهنا يعيد النبي ﷺ التأكيد مرة أخرى على لزوم الجماعة وهم أهل السنة والجماعة الذين يسيرون على نهج النبي ﷺ وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.. فإنما ينال الذئب من الغنم القاصية... ولو ابتعد المسلم عن الجماعة وعن منهجهم الصافي القائم على الكتاب والسنة فربما يتلقفه أهل البدع أو أصحاب الفكر المنحرف فيهلك معهم ويُضيع دنياه وآخرته.

ومعناه: أن من فارق جماعة المسلمين وخرج عليهم أو خرج عن طاعة الإمام فإنه يكون بذلك قد ضلّ وتاه... والربقة قيل: هي ما يوضع في رقبة البعير من أجل حفظه وربطه به، أو تُربط الدابة به حتى لا تذهب وتضيع، وإذا انفلتت تلك الربقة التي رُبطت بها فإنها تضيع وتذهب عن صاحبها، فيكون الذي خرج من الجماعة بمثابة تلك الدابة التي كانت محاطة بسياج الجماعة، ولما خرجت صارت عرضة للضياع وللتلف.

وبالجملة: فمن فارق الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام:

أى: فقد نزع ما يشد به نفسه من عُرى الإسلام وحدوده وأحكامه وأوامره ونواحيه فجعل نفسه عرضةً للتيه والضلال.. كالدابة التي تُربط بقيدٍ حتى لا تكون عرضة للضياع... قال صاحب عون المعبود: وهذا لا يدل على تكفير... وقوله: «إلا أن يُراجع» أى: إلا أن يرجع إلى جماعة المسلمين وإمامهم وإلى الأمر المُجمع عليه.

﴿وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ﴾.

وهنا يحذرنا النبي ﷺ من العصبية المقيمة التي تقوم على الانتساب إلى الآباء والافتخار بهم ومتابعتهم على باطلهم ومناصرتهم على غير الحق.... ولذا لما سمع النبي ﷺ بعضهم يقول: «يا للأنصار» وآخرين يقولون: «يا للمهاجرين» قال ﷺ: «دعوها فإنها مُتَنَتَة».

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةَ؛ فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ ابْنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عليه السلام أَنْ قُلْ لَهُذَيْنِ الْمُتَسَبِّينِ: أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَمِّى - أَوِ الْمُتَسَبِّ - إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ! فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُتَسَبِّ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ! فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ»^(١).

﴿إِنَّ الْفَخْرَ بِالْآبَاءِ وَلَمَزَ الْآخِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسَاوُونَهُ فِي النَّسَبِ مَرَضٌ فَتَاكَ قَاتِلٌ، يُخْبِثُ النَّفُوسَ وَيُدْنِسُهَا، وَيُشْعَلُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ الْوَاحِدِ، وَقَدْ يُوْدَى إِلَى الْقِتَالِ وَسَفْكَ الدَّمَاءِ، وَيَقْطَعُ الْأَوَاصِرَ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ اشْتَدَّ الرَّسُولُ ﷺ فِي مُحَارَبَةِ هَذَا الْمَرِيضِ الْخَبِيثِ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَيْتَهُنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ أَوْ لَيْكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ^(٢) الْخُرءُ بِأَنْفِهِ.. إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقَى أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ.. النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنَ التَّرَابِ»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩٢)، والصحيحة (١٢٧٠).

(٢) يدرجه.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٨٢).



وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نغلظ القول لمن تعزَّى بعزاء الجاهلية، فقال: «مَنْ تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ بِهَنْ أَبِيهِ، وَلَا تَكُنُّوا»^(١).

وقد ترعرعت العصبية في هذا القرن وتعددت وتكونت، وفرقت جماعة المسلمين، وأصبحت معولاً لهدم الأمة الإسلامية... لقد فشت في المجتمعات الإسلامية، بل والمجتمعات الإنسانية العصبية القومية، والإقليمية، بل وعصبية الألوان والحرف، وأشعلت هذه العصبية نيران الحروب في العالم كله، واصطلى الناس بحرّها، وذاقوا منها العلقم، وإذا كان غير المسلمين لهم شيء من العذر في الغرق في حمئة العصبية فما عذر المسلمين؟!^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخارى في الأدب المفرد، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٩).

(٢) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٣٣٤-٣٣٥).

(١٢) توبة قاتل الـ (٩٩) نفساً

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُذِّلَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فُذِّلَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ أَنْطَلِقُ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سُوءٌ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ. فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَاتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أَيْ: حَكَمًا - فَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فِقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»^(١).

وفي رواية في الصحيح: «فَكَانَ إِلَى الْقُرْبَى الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا» وفي رواية في الصحيح: «فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي وَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَعَفِرَ لَهُ». وفي رواية: «فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

هذه قصة تفتح باب الأمل لكل عاصٍ، مهما عَظُمَ ذنبه، وكبر جُرمه... قصة رجل أسرف على نفسه في المعاصي والذنوب، فقد أخبرنا رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا الرجل قتل مائة نفس، ولكن هذه الذنوب لم تقتل من نفسه كل نوازع

(١) متفق عليه: رواه البخاري، (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٦٦) كتاب التوبة.



الخير ودوافعه، بل بقى فى أعماق نفسه بصيصٌ من نور، وبقية من مخافة ربه... ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه، هل انقطعت علاقته بربه، فلا يمكنه أن يعود إليه، ويرجع إليه، أم أن هناك أملاً، وأين هو من ربه إن أب إليه؟

لم يستطع أن يُفتى نفسه، فمثله من الغرقى فى الذنوب لا علم عندهم، ولذا خرج من بيته يبحث عن عالمٍ يُفتيه، ويجيب عن سؤاله، وهو يعلم أن مسألته كبيرة، لا يستطيع أن يُفتيه فيها إلا من عَظُم علمه، ولذا فإنه لم يسأل عن أى عالم، بل سأل عن أعلم أهل الأرض.

ولم يُقدَّر لمن دلَّه على مَنْ يُفتيه أن يدلّه على أعلم أهل الأرض فعلاً، وإنما دلَّوه على رجل راهبٍ... والرهبان كثيرو العبادة، قليلو العلم، والعوام قد يُخدعون بأمثال هؤلاء، فيظنون أن كثرة العبادة، تعنى كثرة العلم، فيقبلون على هؤلاء يتعلمون منهم، ويستفتونهم... ويخطئ أمثال هذا الراهب إن خُدِعَ بإقبال الناس عليه، فأفتاهم بغير علم... والواجب على هؤلاء أن يُصرِّحوا للناس بحقيقة أمرهم، ويقولوا لهم فيما لا يعلمونه: الله أعلم، اسألوا غيرنا ممن عنده علم.

أقبل ذلك الرجل إلى ذلك الراهب الذى دلَّ عليه، واستمع الراهب لمسألته، فاستعظم ذنبه، وظن أن رحمة الله تضيق عنه، وأن مثل هذا الرجل لا تسعه رحمة الله.... وحسبُك بذلك جهلاً.

ولو كان الأمر على ما ظننه ذلك الراهب لآزداد أهل الفجور جرماً... فالمجرم عندما ييأس من رحمة الله، ويعلم أنه لا سبيل له للعودة إلى الله، فإن ذلك يُغيره بالإيغال فى الإفساد والإجرام... يَدُّلك على صدق هذا فعل هذا الرجل، فعندما علم منه أن التوبة محجورة عنه، وأن رحمة الله لا تسعه آزداد طُغياناً، ومدَّ يده إلى هذا الراهب فقتله، وأتمَّ بقتله المائة.

ويبدو أن ذلك الراهب كان مع قلة علمه، غير عارف بطبائع الرجال، ولو كان عالمًا بذلك لما سارع بالإجابة قبل أن يحتاط لنفسه بالحيلة المناسبة، كأن يُحضر حوله بعض أتباعه من الرجال الأشداء، أو يجيئه من وراء جدران صومعته... فأمثال هذا الرجل لا يُبالون بالقتل لأتفه الأسباب، لاعتيادهم القتل والولوغ في الدماء.

قتل ذلك الرجل الراهب، ولكنه لم يقتنع بجوابه، فالأمل عنده بالله عظيم... وهذا الذي أفتاه جاهلٌ بالله، ولكنه يحتاج إلى مَنْ يؤكد له ذلك، ويُعرفه بالصواب... ويبحث مرة أخرى عن عالمٍ يعرض عليه مُعضلته، فدلَّ على عالم بالله، وكان عالمًا حقًّا، ولذلك قال العالم لذلك الرجل مُستغربًا: وَمَنْ يَحُول بينك وبين التوبة؟! وهذا السؤال الذي يحمل معنى الاستنكار والاستغراب يدل على أن هذا العلم كان عنده بديهياً لا يحتاج إلى كثير تفكير، ولا يحتاج إلى سؤال... إن رحمة الله واسعة، تَسَع هذا وأمثاله، ولا يَعْظُم على الله ذنبٌ أبدًا مهما عَظُم وكَثُر.

ولم يكن هذا الرجل عالمًا فحسب، بل كان مُربيًا ومُرشدًا، ولذا فإنه لم يكتفِ بإجابته بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، بل دلَّه على الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه... فالغارق في الذنوب يجب أن يغير منهج حياته، فيترك القوم الضالين الذين يصحبهم ويعيش معهم، وعليه أن يترك ما كان عليه، وينتقل إلى بيئة صالحة، تفعل الخيرات، وتتأى عن المنكرات، وقد أمر ذلك العالم هذا التائب بأن يترك دياره فإنها بلاد سوء، ويهاجر إلى أرضٍ أخرى حددها له، فيها قوم يعبدون الله فيصحبهم، ويعبد الله معهم.

ولم يُضع هذا الرجل وقته، فقد مضى إلى تلك الديار، يطلب حياة جديدة، حياة الطُّهر والصلاح والاستقامة، ليغسل نفسًا تقدَّرت بالذنوب، ويحييها



بالإيمان والصلاح.

وعندما وصل منتصف الطريق حضر أجله، ودنّت ساعته، ولشدة رغبته في التوبة نأى ب صدره جهة الأرض الطيبة وهو في النزع الأخير، ومات مُقبلاً على الله، راحلاً إلى الديار الصالحة ليعبده، تاركاً وراءه حياة مليئة بالخطايا والذنوب... فما مصيره؟ وما موقعه من ربه؟

أخبرنا الرسول ﷺ أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختصموا فيه، كل واحدٍ من الفريقين يريد أن يلي أمره، ويتكفل به... هؤلاء يقولون: هذا قتل مائة نفس، وأولئك يقولون: لقد تاب وأناب، وجاء مُقبلاً.

فأرسل الله لهم ملكاً في صورة إنسان، فأمرهم أن يقيسوا ما بين الأرضين: أرض الظلم والفساد، وأرض الأخيار الصالحاء، فأمر الله الأرض الخيرة أن تتقارب، والأرض الظالم أهلها أن تتباعد، فوجدوه أقرب إلى أرض الصالحين بشبر... ولعله الشبر الذي تحركه عندما نأى ب صدره وهو في النزع، فتولته ملائكة الرحمة، وغفرت له ذنوبه العظيمة:

﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا نَقْنُطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

❁ ففى هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة منها:

(١) سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين، مهما كثرت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، ولذا فإن الذين ييأسون من رحمة الله جهلاء بالله، لا يعلمون سعة رحمته.

(٢) قبول توبة القاتل إن تاب توبة صادقة... وقد نازع في ذلك بعض أهل العلم، والحديث صريح في قبول توبته، وهذا ليس قصراً على الأمم السابقة...

(١) سورة الزمر: الآية: (٥٣).

ويدل له قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾.

فقد استثنى الله التائبين الذين يعملون الصالحات من الذين يُضَاعَفْ لهم العذاب من المشركين والقتلة المجرمين والزناة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن كل ذنب دون الشرك فهو قابل للمغفرة، إن شاء الله عذَّب صاحبه، وإن شاء غفر له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٢).

(٣) على العالم أن يرشد التائبين إلى الأعمال التي تُرسخ الإيمان في قلوبهم، وتخلصهم من الشرور التي كانوا يعيشونها كما دَلَّ هذا العالم الرجل التائب إلى ترك أرضه والرحيل إلى قوم صالحين يعبد الله معهم.

(٤) فضل العالم على العابد... فقد أفتى العالم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

(٥) الملائكة الموكلون بيني آدم قد يختلف اجتهادهم في الحكم عليهم، وقد يرفعون الأمر إلى ربهم للقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه.

(٦) خصص الله ملائكة يتولون أرواح المؤمنين حين تقبض أرواحهم يُسمَّون بملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يتولون أرواح الفجرة الظالمين فهم ملائكة العذاب.

(٧) قدرة الملائكة على التشكُّل في صورة البشر، كما فعل ذلك المَلَكُ الذي قضى بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

(١) سورة الفرقان: الآيات: (٦٨-٧٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).



(٨) فضل بنى آدم حيث أرسل الله المَلَك الذى قضى بين الملائكة فى صورة رجل من بنى آدم.

(٩) لا يجب على العالم الذى لم يتولَّ منصب القضاء أن يقيم حكم الله فى المجرمين، فهذا العالم اعترف له هذا الرجل بقتل مائة نفس فلم يسجنه، ولم يحقق فى أمره، بل أرشده إلى التوبة والهجرة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٤٧-٢٥٠) بتصرف.

(١٤) رحلة الإسراء والمعراج.. وفرض الصلوات الخمس

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيْتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أبيضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبُغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُتَهَيِّ طَرَفِهِ، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ ﷺ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنِي الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١)، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

(١) سورة مريم: الآية: (٥٧).



قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلَتْ إِلَيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَيَّ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، فَنَزَلَتْ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»^(١).

❁ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائمًا في بيت أم هانئ بنت أبي طالب وكان بيتهما عند شعب أبي طالب.

وفجأة انفتح سقف بيتهما ونزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فتعجب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسأل جبريل عن سبب نزوله فأخبره جبريل أنه لا بد أن يخرج معه الآن إلى المسجد.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٩) كتاب الصلاة، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

فخرج معه النبي ﷺ إلى المسجد وإذا بجبريل ﷺ يشق صدر النبي ﷺ ثم يغسله بماء زمزم ثم جاء بطست من الذهب قد امتلأ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدر النبي ﷺ ثم أغلق صدره.

ونحن نعلم يا أحبابي أن جبريل ﷺ شق صدر النبي ﷺ ثلاث مرات: المرة الأولى: وهو صغير يلعب مع الغلمان فأخذه جبريل فصرعه فشق صدره واستخرج القلب واستخرج منه علقه وقال له: هذا حظ الشيطان منك ثم غسل صدر النبي في طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاد صدره كما كان. والمرة الثانية: عند بعثة النبي... فقد فعل جبريل معه مثلما فعل في المرة الأولى لكن زاد في هذه المرة أن ختم في ظهر النبي ﷺ خاتم النبوة. والمرة الثالثة: عند رحلة الإسراء والمعراج.

النبي ﷺ يركب البراق

وبعد أن غسل جبريل صدر النبي ﷺ أناه بالبراق.

والبراق: هو دابة أبيض طويل وهو أكبر من الحمار وأصغر من البغل.

وهو سريع جداً يضع حافره عند آخر شيء يراه يبصره.

فخطوته كبيرة جداً يقطع بها المسافات الطويلة في وقتٍ قصير.

✽ فلما أراد النبي ﷺ أن يركب البراق استصعب عليه فلم يتمكن النبي ﷺ من ركوبه.. فقال جبريل للبراق: أتفعل هذا بمحمد ﷺ؟ فوالله ما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه ﷺ.

✽ وما هي إلا دقائق معدودات حتى وصل النبي ﷺ إلى بيت المقدس ثم ربط جبريل البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء (صلوات ربي وسلامه عليهم).



ثم دخل النبي ﷺ المسجد وصلى فيه ركعتين.

ثم خرج النبي ﷺ بعد ذلك وإذا بجبريل ينتظره في الخارج ومعه إناء فيه خمر وإناء آخر فيه لبن.

فنظر جبريل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله: أيهما تختار: الخمر أم اللبن؟

فاختار النبي ﷺ اللبن.

فقال له جبريل ﷺ: لقد اخترت الفطرة.

رحلة المعراج

وبعد أن انتهت رحلة الإسراء بدأت رحلة المعراج فجاء جبريل ﷺ بالمعراج العظيم الذي يصل من الأرض إلى السماء.. وهو السُّلَّمُ الكبير الذي صعد عليه النبي ﷺ في جزء يسير من الليل إلى السماوات السبع.

ويا لها من رحلة عظيمة يعجز القلم عن وصفها.

فالنبي ﷺ أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرِجَ به إلى السماوات السبع ثم عاد في جزء يسير من الليل.

المشاهد التي رآها النبي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج

لقد رأى النبي ﷺ في رحلة الإسراء مشهدًا عجيبيًا !!!

يا ترى ما هو المشهد الذي رآه النبي ﷺ في رحلة الإسراء؟

لقد رأى موسى ﷺ وهو يصلي في قبره.

قال ﷺ: « مَرَزْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةً أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكُثَيْبِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ

يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٥) كتاب الفضائل.

النبي ﷺ يرى الأنبياء ويسلم عليهم

ففى رحلة المعراج لما صعد النبي ﷺ مع جبريل ﷺ إلى السماء الدنيا فقالت الملائكة لجبريل: مَنْ هذا الذى معك.

قال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

فرحبت به الملائكة ترحيباً شديداً وفرحوا بقاء النبي ﷺ فرحاً عظيماً... فالنبي ﷺ هو حبيب أهل الأرض والسماء.

صعد النبي ﷺ إلى السماء الأولى فوجد فيها رجلاً وقوراً عن يمينه أناس كثيرون وعن يساره أناس كثيرون.

فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى.

فسأل النبي ﷺ جبريل ﷺ وقال له: «مَنْ هذا الرجل؟».

فقال جبريل: هذا آدم ﷺ وهؤلاء الذين عن يمينه وشماله هم أولاده... فالذين عن يمينه هم أهل الجنة. فإذا نظر إليهم ضحك..

والذين عن شماله هم أهل النار فإذا نظر إليهم بكى.

فاقترب النبي ﷺ من أبينا آدم ﷺ وسلّم عليه فردّ عليه السلام وقال له: مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح.

ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الثانية فسألت الملائكة جبريل ﷺ: مَنْ هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحاً عظيماً... وفتحت له أبواب السماء الثانية.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الثانية وجد فيها عيسى ويحيى ﷺ، فقال له جبريل ﷺ: هذا يحيى وعيسى فسلمّ عليهما فسلم النبي ﷺ عليهما فرداً عليه السلام وقال له: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.



✽ ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الثالثة فسألت الملائكة جبريل ﷺ مَنْ هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء الثالثة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الثالثة وجد فيها يوسف ﷺ.

فقال له جبريل ﷺ: هذا يوسف فسلم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

✽ ثم صعد النبي إلى السماء الرابعة فسألت الملائكة جبريل ﷺ مَنْ هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الرابعة فلما

صعد النبي ﷺ إلى السماء الرابعة وجد فيها إدريس ﷺ فقال له جبريل ﷺ: هذا إدريس فسلم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

✽ ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الخامسة فسألت الملائكة جبريل ﷺ مَنْ هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الخامسة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الخامسة وجد فيها هارون ﷺ.

فقال له جبريل ﷺ: هذا هارون فسلم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ عليه السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

✽ ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء السادسة فسألت الملائكة جبريل ﷺ: مَنْ هذا الذي معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء السادسة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء السادسة وجد فيها موسى ﷺ.

فقال له جبريل ﷺ: هذا موسى فسلم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

فلما جاوزه النبي ﷺ ليصعد إلى السماء السابعة وإذا بنبي الله موسى يبكي فقيل له: ما يُبكيك؟.

قال: أبكى لأن محمدًا ﷺ يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

✽ ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء السابعة فسألت الملائكة جبريل ﷺ: مَنْ هذا الذي معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء السابعة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء السابعة وجد فيها إبراهيم ﷺ فقال له جبريل ﷺ: هذا إبراهيم فسلم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والإبن الصالح.

✽ فرأى النبي ﷺ إبراهيم ﷺ مُسنَدًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة.



فسأل النبي ﷺ جبريل ﷺ: ما هذا البيت؟

فقال جبريل: هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك فإذا خرجوا لم يعودوا إليه... يعنى كل يوم يدخله سبعون ألف ملك غير الذين قبلهم.

النبي ﷺ يرى سدرة المنتهى

ثم رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ووجد أن الثمرة الواحدة فيها مثل الجرة الكبيرة التى كانت تُصنع فى قرية هجر فى البحرين... ورأى ورقها مثل آذان الفيلة.

فسأل النبي ﷺ جبريل ﷺ: ما هذا.

فقال: هذه سدرة المنتهى.

✽ ورأى النبي أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل النبي ﷺ جبريل ﷺ وقال: «ما هذا؟».

فقال جبريل: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات.

✽ ثم أتى جبريل للنبي ﷺ بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فاختر النبي ﷺ اللبن.

فقال جبريل: هذه هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك.

فرض الصلاة على النبي ﷺ وأتمه

ثم فرضت الصلاة على النبي ﷺ وأتمه خمسين صلاة كل يوم.

فعاد النبي ﷺ... وفى طريق العودة مرّ النبي ﷺ على موسى ﷺ فسأله موسى وقال: بأى شىء أمرك الله (جل وعلا).

فقال النبي ﷺ: «أمرت بخمسين صلاة كل يوم».

فقال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تستطيع أن تصلى خمسين صلاة كل يوم وإنى والله قد جربت الناس قبلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه وسأله التخفيف فوضع الله عنه عشراً فأصبحت أربعين صلاة.

فعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى موسى عليه السلام فقال له نفس الكلام وقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه وسأله التخفيف فوضع عنه عشراً فأصبحت ثلاثين صلاة.

وظل النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة حتى أصبحت الصلاة خمس صلوات... فلما قال له موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد سألت ربي حتى استحيت ولكن أرضى وأسلم».

فإذا بالحق (جل وعلا) يجعلها خمس صلوات ولكن بأجر خمسين صلاة.

النبي صلى الله عليه وسلم يرى الجنة والنار

وفي هذه الرحلة المباركة رأى النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والنار... لقد رأى النار.. ورأى بعض مشاهد العذاب لأهل النار... ورأى الجنة.. ورأى بعض مشاهد نعيم أهل الجنة.. بل وشمَّ النبي صلى الله عليه وسلم رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كأجمل وأطيب عطرٍ في الدنيا كلها.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم لا بد أن يتحمل الأذى من أجل أن يحافظ على دينه فقد رأينا كيف تحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إيذاء كفار قريش من أجل أن يحافظوا على دينهم وإيمانهم.



(٢) أن المسلم لا بد أن يُبتلى لكي يرفع الله درجته في الجنة.

(٣) أن المسلم إذا وجد أن أهل بلده لا يستجيبون لدعوته فعليه أن يبحث عن مكان آخر لدعوته.. ولقد رأينا كيف أن النبي ﷺ لما رأى كفار قريش لا يستجيبون لدعوته خرج ليدعو أهل الطائف.

(٤) أن الله ﷻ يكرم عبده بأن يجعله يرى ثمرة دعوته وسط المحن والابتلاءات.

ولقد رأينا كيف أن النبي ﷺ لما أودى في الطائف ودخل البستان فرارًا من إيذاء أهل الطائف أكرمه الله بأن يُسلم على يديه عدّاس النصراني.... بل ويُسلم على يديه جماعة من الجن.

(٥) أن رحلة الإسراء والمعراج كانت تكريمًا لشخص النبي ﷺ وتسليّة له عما تعرّض له من الإيذاء والابتلاءات.

(٦) أن مقام النبي ﷺ أعلى من مقام كل الأنبياء والمرسلين فهو سيد الأولين والآخرين.

(٧) أن الصلاة من أعظم أركان الإسلام ولذا فرضها الله (جل وعلا) على النبي ﷺ وأمته من فوق سبع سماوات.

(٨) أن ثبات المؤمن على الابتلاءات يرفع قدره عند الله.

ولقد رأينا كيف أن ثبات ماشطة ابنة فرعون كان سببًا في أن يشم النبي ﷺ رائحتها الطيبة هي وأولادها في رحلة المعراج.

(٩) أن الواجب على كل مسلم أن يصدق النبي ﷺ في كل ما أخبر عنه.

ولقد رأينا أبا بكر لما قيل له: إن محمدًا يزعم أنه أُسرى به الليلة إلى المسجد الأقصى في جزءٍ من الليل ونحن نقطع هذه المسافة في شهرٍ كامل فماذا تقول يا أبا بكر؟.. قال: إن كان النبي ﷺ قال ذلك فقد صدق.

(١٥) فضل الخوف من الله عز وجل وخشيته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرَّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُّوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

وفي رواية: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بِنَيْهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَعَلُّوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدَى مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَيَّ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ» (١).

هذه قصة رجل أنعم الله عليه في الدنيا بالمال الكثير، ورزقه الأولاد، ولكنه لم يشكر ربه على نعمه التي أولاه إياها، بل كان غارقاً في الذنوب والمعاصي طيلة عمره، فلما حضره الموت تذكر حاله مع ربه وعصيانه له، فخاف خوفاً شديداً، وعلم أنه متى قدم على الله فإنه مُعَذَّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا، فزينت له نفسه أن يهرب من عذاب الله، وتفتق تفكيره عن طريقة ظن أنه يهرب بها من ذلك العذاب، فجاء بأولاده، وخاطبهم مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَرِعَايَتِهِ لَهُمْ، وخاطبهم قائلاً: أي أب كنت لكم؟ فقالوا: خير أب.

فحدثهم بالذي يُقْلِقُهُ وَيُؤْرِقُهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِكثرة معاصيه وذنوبه، وأن الله إن قدر عليه، فإنه مُعَذَّبُهُ عَذَابًا لَا يُعَذَّبُهُ أَحَدًا، وطلب منهم أن يحرقوه ويذروه في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٥٦) كتاب التوبة.

الهواء، كى يتخلص من عذاب الله، ظاناً أنه إن فعلوا به ذلك لا يقدر الله على جمعه وإحيائه.

ورسم لهم الطريق التى يسلكونها به بعد وفاته... وخلاصة ما طلبه منهم، أن يجمعوا له حطباً، ويُشعلوا فيها النار، ثم يتركوه فيها حتى يصبح فحمًا، ثم يسحقون ما تَبَقَّى من رُفاته، حتى يصبح رمادًا، ثم ينظرون يوماً صائفاً حارًّا، ذا ريح عاصف، فيأخذون نصف رماده، فيذرونه فى البحر، ونصفه الآخر فيذرونه فى البر، وهو يظن أنه بذلك قد أحكم التدبير، فلا يستطيع ربه إعادته وإحياءه بعد كل ما فعله أولاده به.

لقد غفل هذا المسكين عن أن الله على كل شىء قدير، وأنه يبعث عباده فى يوم القيامة.... ومنهم الذى أكلته أسماك البحار، ومنهم الذى أكلته الطيور المفترسة أو وحوش البرارى، ومنهم الذى تحوّل إلى تراب، وقد يكون تغذت بترابه الأشجار، ومع ذلك فإن الله قادر على بعثهم وإحيائهم، وجمعهم من بطون الأسماك، وحواصل الطير وبطون السباع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾﴾.

وطلب ذاك الرجل من أولاده أن يعطوه عهدهم وموآثيقهم على فعل ما طلبه منهم، وتهددهم إن لم يعطوه العهد والموآثيق بحرمانهم من ميراثهم بالإيضاء به إلى غيرهم، فعاهدوه على أن يفعلوا به ما طلب، وأقسموا له على ذلك.

وقد فعلوا ما طلبه أبوهم بعد موته، فأمر الحق - تبارك وتعالى - الأرض والبحر بجمع ذرّاته، وقال لها: كوني فلاتاً، فإذا هو قائم، ولما سأله عن السبب

الذى جعله يأمر بما أمر به، قال - وهو أعلم به-: خشيتك والخوف منك، فغفر له ذنوبه بمخافته منه، وعذره في ظنه عدم قدرته على إعادته بجهله، وسبحان الغفور القادر.

فوائد القصة وعبرها

- (١) الخوف من الله من أعلى مقامات الصالحين، يغفر الله به الذنوب الكثيرة، فقد غفر الله لهذا الرجل ذنوبه العظيمة، لما وقع في قلبه من مخافة ربه.
- (٢) قد يعذر الله المرء بجهله كما عذر هذا الذى ظن أن الله لا يقدر عليه إن ذرى أولاده رماده في يوم عاصف.... ودعوى بعض أهل العلم أن هذا الرجل كان مدهوشًا لا يدرى ما يقول، مثله مثل الذى أخطأ من شدة الفرح، فقال: أنت عبدى وأنا ربك، غير صحيح.
- يدل على عدم صحته ما وصى به أهله بذلك الترتيب الذى يدل على أنه كان واعيًا لما يقول، فقد رسم لأولاده ما يفعلونه من الحرق والسحق والتذرية بدقة، وحاور أولاده، وأخذ عليهم العهود والمواثيق، وكل ذلك ينفى الزعم بأنه كان لا يدرى ما يقول، والصواب أن الله عذره بجهله، ولا يجوز تكفير الجاهلين بمثل هذا الذى ظنه هذا الرجل، وأمر به.
- (٣) قدرة الله تبارك وتعالى على البعث والإحياء، فقد أمر الله الأرض والبحر بجمع ما تفرَّق من ذرات رماده، وأمر الله تلك الذرات فعاد ذلك الرجل كما كان، وكذلك يُحىي الله في يوم القيامة الخلائق بعد أن بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم.

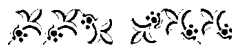
- (٤) لا يجوز تكفير العباد بالذنوب، فالمؤمن المذنب الذى لم يُتَّب أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، كما يقول أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة، وهذا ثابت في شريعتنا كما هو ثابت عند أهل الكتاب من



قبلنا، ومن ذلك غفران الله لهذا الرجل الذي أسرف على نفسه في الذنوب.

(٥) العاصى المسرف على نفسه في الذنوب قد يكون مُحِبًّا لأولاده، حريصًا على رعايتهم، وتقديم الخير لهم... فقد أقرَّ أبناء هذا الرجل أن أباهم كان خير أب لهم.

(٦) كان الواجب على أولاد هذا الرجل أن لا يطيعوه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأبوهم أمرهم بمعصية.



(١٦) ثم لتسألن يومئذ عن النعيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوَيْكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(١).

فهنا يخبر النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم الذي أنعم الله به عليه.. ومن أول ما يسأل عنه من النعيم: صحة الجسد الذي أنعم الله به عليه ليستطيع أن يعبد الله ﻋَزَّوَجَلَّ وأن يسعى لتحصيل الرزق وأن يستعمله في شؤون الدنيا والآخرة.. وكذلك يسأله عن الماء البارد الذي به قوام الحياة فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٢)... ومن المعلوم أن الإنسان يستطيع أن يعيش شهورًا بلا طعام ولكنه لا يستطيع أن يعيش أسبوعًا واحدًا بلا ماء وإلا فسوف يموت.

وهذا الحديث يذكرني بقصة حدثت مع رسول الله ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، فُومًا» فَقَامَا مَعَهُ، فَاتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرَحَبًا وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا الْمَاءَ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي فَاَنْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا، وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ» فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْ

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٣٠).



الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرِبُوا. فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»^(١).

✽ رسول الله ﷺ أفضل هذه الأمة وخيرته من خلقه، وأفضل أنبيائه ورُسُله صلوات الله وسلامه عليه... وصاحباة ووزيراة هذه الأمة بعد نبيها، يُخرجهم الجوع من منازلهم، فلا يجدون فيها ما يَسُدُّ رمقهم، ولو شاؤوا لا دَخروا فيها ما يجعل بطونهم ويطون ذويهم ملأى، ولكنهم كانوا يبذلون ما عندهم في حاجة المسلمين، وقد خَيَّرَ اللهُ رسوله ﷺ بين أن يكون ملكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، فاختر أن يكون عبدًا رسولًا يشبع يومًا، ويجوع يومًا، واستمر على ذلك صلوات الله عليه إلى أن توفاه الله تعالى.

ويُحدِّث أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج يومًا من منزله... وجاء في رواية الترمذى: أن خروجه كان في ساعة لم يكن من عادته الخروج فيها... وفي رواية الموطأ: أن خروجه كان إلى المسجد، فإذا هو يُفاجأ بقدم أبي بكر وعمر عليه في موضعه ذاك وساعته تلك.

وعندما استعلم منهما عن سبب خروجهما، وجد أن الذى أخرجهما هو الذى أخرجهم: الجوع.

فانطلق بهما إلى منزل أحد أصحابه من الأنصار... وقد حددت رواية الترمذى ورواية الموطأ اسم هذا الصحابى، وهو أبو الهيثم بن التيهان، وكان

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٨) كتاب الأشربة.

قَوْلُهَا: «يَسْتَعَذِبُ» أَى: يَطْلُبُ الْمَاءَ الْعَذْبَ، وَهُوَ الطَّيْبُ - وَالْعِدْقُ: وَهُوَ الْكِبَاسَةُ، وَهِيَ الْعُصْنُ. وَالْمُدْيَةُ: هِيَ السَّكِينُ. وَالْحَلُوبُ: ذَاتُ اللَّبَنِ. وَالسُّوَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ سُوَالُ تَعْدِيدِ النَّعْمِ لَا سُوَالُ تَوْيِيخٍ وَتَعْدِيْبٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ... وَهَذَا الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي آتَوْهُ هُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التِّيْهَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَذَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي رِوَايَةِ التَّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ.

رجالاً كثير النخل والشاء، فلم يجدوه في منزله وبستانه... فرحبت بهم زوجته
أجمل ترحيب، وأخبرتهم أن زوجها ذهب يستعذب لهم الماء.
أى: يأتى بماءٍ عذب من عينٍ أو بئرٍ يتصف ماؤه بالعدوبة.

وقد صرح الترمذى في روايته: أن أبا الهيثم لم يكن له خادم يخدمه، ولذلك
كان يقوم بحاجاته من استعذاب الماء والحرث وجنى الثمر بنفسه، ولم يَطُلْ
غياب أبى الهيثم، فقد وصل يحمل قربة الماء العذب على ظهره، فوضعها
سريعاً، وأقبل على رسول الله ﷺ وصاحبيه تبرق أسارير وجهه فرحاً، وأخذ
يلتزم رسول الله ﷺ -أى: يحتضنه- ويفديه بأبيه وأمه، أى يقول له: فداك أبى
وأمى، ويقول: الحمد لله، ما من أحدٍ اليوم أكرم أضيافاً منى، ثم انطلق بهم إلى
حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة من نخله فجاءهم بقطفٍ من
قطوفها، ويُسمى القطف في مثل هذا (القنو) وعندما قال له رسول الله ﷺ: «أفلا
تنقى لنا من رُطبه؟» قال: يا رسول الله، إنى أردت أن تختاروا، أو قال: تخيروا
من رُطبه وبُسره، ثم أخذ أبو الهيثم المُدية وهى السكين، فعرف الرسول ﷺ أنه
يريد أن يذبح لهم، فقال له: «إياك والحلوب».

والحلوب: الشاة ذات اللبن... نهاه عن ذبحها، لأنه ينتفع بلبنها، وقد يكون
ولدها حياً فيتضرر بذبح أمه لفقده حليبها، فذبح لهم شاة. وأمر لهم بشعير
فعمل منه خبزاً، فلما نضج الطعام قدّم لهم خبز الشعير ولحم الشاة فأكلوا
وشبعوا، وسقاهم من ذلك الماء العذب بعد أن برد... فقال الرسول ﷺ لأبى
بكر وعمر: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ
بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ».

وفي رواية الترمذى: أن الرسول ﷺ قال لصاحبه: «هَذَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مِنْ
النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطْبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ».



وكانت مقالته تلك بعد أكلهم الرطب وشربهم الماء، وقبل أن يأكلوا لحم الشاة.

✽ وجاء في رواية الترمذى أن الرسول ﷺ سأل أبا الهيثم: «هَلْ لَكَ خَادِمٌ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَإِذَا أَنَا سَبِيٌّ فَاتِنَا» فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ فَاتَاهُ أَبُو الْهَيْثَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرْنَا مِنْهُمَا»، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اخْتَرِ لِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي وَاسْتَوْصِي بِهِ مَعْرُوفًا»

وعندما أخذ أبو الهيثم عبده الذى أعطاه الرسول ﷺ إياه، وعرف زوجته بما وصاه الرسول ﷺ به، وكانت امرأة دينة عاقلة، نصحته بعقده، فإن قمة تحقيق وصية الرسول به لا يتم إلا بالعتق... وقد استجاب الرجل الصالح لنصيحة زوجته، وعاد ليعتمد على نفسه فى العمل فى بستانه، وعندما بلغ الرسول ﷺ خبر ما أشارت به زوجة أبى الهيثم قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بَطَانَتَانِ بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَنْ يُوقِ بَطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ»^(١).

وقول الرسول ﷺ يشير إلى سنة من سنن الله فى خلقه من بنى آدم، فلكل واحد منّا بطانتان من أهله وأقاربه ومعارفه... بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر، والسعيد هو الذى يوقى بطانة الشر... وقد كان أبو الهيثم من هؤلاء الذين يسر الله لهم زوجة صالحة تأمره بالخير، وتنهاه عن الشر^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٩٨) كتاب الأحكام.

(٢) قصص الرسول ﷺ وأصحابه/ د. عمر الأشقر (ص ٥١-٥٤) بتصرف.

(١٧) حُسن الخاتمة.. وسوء الخاتمة

عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَاقِبَةُ مِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ.. وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

وهذا الحديث أصلٌ في باب القدر والعناية بذلك، والخوف من السوابق والخوف من الخواتيم... وكما قيل: قلوب الأبرار مُعلّقة بالخواتيم. يقولون: ماذا يُختم لنا... وقلوب السابقين أو المقربين مُعلّقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟ وهذا هو الإيمان بالقدر والخوف من الكتاب السابق والخوف من الخاتمة.. هذا من آثار الإيمان بالقدر خيره وشره.

فإن هذا الحديث دَلٌّ على أن هناك تقديرًا عمريًا لكل إنسان، وهذا التقدير العمرى يكتبه الملك بأمر الله ﷻ كما جاء في هذا الحديث. إذًا... هذا الحديث مَسْوقٌ لبيان التقدير العمرى لكل إنسان؛ وليخاف المرء السوابق والخواتيم؛ وليؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه... والسوابق في عمل العبد والخواتيم متصلة... كما قيل: الخواتيم ميراث السوابق.

فالخاتمة ترثها لأجل السوابق، فما من خاتمة إلا وسببها بلطف الله ﷻ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.



ورحمته أو بعدله وحكمته. سوابق المرء في عمله وهى جميعاً متعلقة بسوابق القدر^(١).

✽ قال ابن مسعود رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ...
يعنى الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يُوحى إليه من الوحي، وفيما يُقال له من الوحي... فهو صادق لا يُخبر إلا بالصدق، مصدوق لا يُنبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وإنما قدم هذه المقدمة؛ لأنه سيُخبر عن أمرٍ غيبى باطن يحدث في ظلماتٍ ثلاث.

✽ وقول ابن مسعود هنا: وهو الصادق المصدوق... هذه تهيئة... وهذه فيها أدب للمعلم أن يهيئ العلم لمن يعلمه ومن يخبره بالعلم؛ لأن هذا الحديث فيه شىء غيبى لا يُدرك بالحس ولا بالتجربة، وإنما يُدرك بالتسليم والعلم بالخبر لصدق المُخبر به (عليه الصلاة والسلام).

ومعلوم أن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يعلمون تطور هذه المراحل بعلمٍ تجريبي أو برؤية أو بنحو ذلك، وإنما هو الخبر الذى يصدقونه... فكانوا علماء لا بالتجريب وإنما بخبر الوحي الذى ينزل على النبى صلوات الله عليه وسلامه^(٢).

✽ قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً» أى أنه إذا أتى الرجل امرأته في الحلال وألقى الماء في رحمها بقى أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه ماء... لكنه يتغير شيئًا فشيئًا... يميل إلى الحمرة، حتى يتم عليه أربعون يومًا.

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٧٣).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٧٤) بتصرف.

فإذا تم عليه أربعون يوماً... إذا هو قد استكمل الحُمْرة وصار قطعة دم علقه، فيمضى عليه أربعون يوماً أخرى وهو علقه... يعنى قطعة دم، لكنها جامدة، ولكنه يثخن ويغلظ شيئاً فشيئاً، حتى يتم له ثمانون يوماً.

فإذا تمَّ له ثمانون يوماً فإذا هو مضغعة (قطعة لحم)، هذه المضغعة قال الله تعالى فيها: ﴿مُحَلَّقَةٌ وَغَيْرِ مُحَلَّقَةٍ﴾^(١). فتبقى أربعين يوماً، تُخَلَّقُ مَنْ وَاحِدٍ وثمانين يوماً إلى مائة وعشرين يوماً، ولا يتبين فيها الخلق تبيناً ظاهراً إلا إذا تم لها تسعون يوماً في الغالب.

فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغعة، أرسل الله إليها الملك الموكَّل بالأرحام؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

فالملائكة جنود الله عَزَّوَجَلَّ.. وكُلُّ مِنْهُمْ مُوَكَّلٌ بِشَيْءٍ؛... مِنْهُمْ الْمُوَكَّلُ بِالْأَرْحَامِ، وَمِنْهُمْ الْمُوَكَّلُ بِالنَّفُوسِ يَقْبِضُهَا، وَمِنْهُمْ الْمُوَكَّلُ بِالْأَعْمَالِ يَكْتُبُهَا، وَمِنْهُمْ الْمُوَكَّلُ بِالْأَبْدَانِ يَحْفَظُهَا.. وظائف عظيمة للملائكة أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بها. فيأتى ملك الأرحام إلى كل رحم، فينفخ فيه الروح بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الروح أمرٌ لا يعلمه إلا رب العالمين... قال الله تعالى: ﴿وَسَاءَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣)

ينفخها في هذا البدن، الذى هو قطعة لحم في الرحم، ليس فيها حراك ولا إحساس ولا شىء... فإذا نفخ هذه الروح دخلت في هذا البدن، فتسير فيه كما تسير الجمرة في الفحمة بإذن الله، أو الطين في المدر اليابس، فتدبُّ في هذا الجسد حتى تدخل في الجسد كله، فيكون إنساناً، ويتحرك، وتحس الأم بتحركه بعد مائة وعشرين يوماً، وحينئذ يكون إنساناً، أما قبل هذا فهو ليس بشىء.

(١) سورة الحج: الآية: (٥).

(٢) سورة المدثر: الآية: (٣١).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٨٥).



ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا، فليس له حُكْمٌ من جهة الصلاة عليه، بل يُؤخَذُ ويُدفَنُ في أى حفرة من الأرض، ولا يُصَلَّى عليه.

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا، يعنى أربعة أشهر، حينئذ صار إنسانًا، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يُغَسَّلُ، وَيُكْفَنُ، وَيُصَلَّى عليه... ولو كان قدر اليد، فإنه يُصَلَّى عليه، ويُدفَنُ في مقابر المسلمين إن كان مُسَلِّمًا.

ويُسمَّى، وَيُعَقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة؛ لأنه يُبعث يوم القيامة.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ويؤمر» يعنى المَلِكُ «بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد».

فيكتب رزقه: وكتب الرزق يعنى: هل هو قليل، أم كثير؟ ومتى يأتيه؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص؟ المهم أنه يُكْتَبُ كاملاً^(١).

ويكتب أجله أيضًا: فى أى يوم؟ وفى أى مكان؟ وفى أى ساعة؟ وفى أى لحظة؟ وعن بُعد أم عن قُرب؟ وبأى سبب من الأسباب موته؟ والمهم أنه يُكْتَبُ كاملاً.

ويُكْتَبُ عمله: هل هو صالح، أم سيئ، أم نافع، أم قاصر على الشخص نفسه؟ والمهم أنه يُكْتَبُ كل أعماله.

ويُكْتَبُ مآله: وما أدراك ما المآل! فيُكْتَبُ هل هو شقى أم سعيد.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١٠٦) خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴿ (٢)

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٥٠-١٥١) بتصرف.

(٢) سورة هود: الآيات: (١٠٦-١٠٨).

كل هذا يُكْتَب، لكن أين يُكْتَب؟ وردت آثار أنه يُكْتَب في جبينه على جبهته.

فإن قال قائل: كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها؟

قلنا: لا تسأل عن أمور الغيب، ومَنْ أنت حتى تسأل عن أمور الغيب؟ قل:

آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ﷺ ولا تسأل: كيف.

وقد وقع الآن في وقتنا ما يشهد لمثل هذا.... كمبيوتر قدر اليد يكتب به

الإنسان ملايين الكلمات، وهو من صنع البشر. فما بالك بصنع الله ﷻ!

❁ قال ﷺ: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا

يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا».

وقد يقول قائل: وما ذنب هذا الرجل حتى يعمل عملاً صالحاً طوال تلك

السنوات ثم يُختم له بخاتمة أهل الشقاء فيدخل النار؟

أقول: يتضح ذلك في الرواية الأخرى فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ

بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» أى أنه لم يكن يعمل هذا العمل لله وإنما كان

مُرَائياً... فلذلك أخرج الله ما في قلبه قبل موته فكانت تلك الخاتمة السيئة.

❁ وهناك قصة توضح لنا خاتمة مَنْ عمل عملاً لغير وجه الله سبحانه

وتعالى... ففي الصحيحين، أن رجلاً كان مع النبي ﷺ في غزوة، وكان شجاعاً

مقداماً، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليه، فتعجب الناس منه؛ ومن

شجاعته، ومن إقدامه، فقال النبي ﷺ ذات يوم: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

أعوذ بالله... هذا الشجاع الذى يفتك بالعدو من أهل النار؟

فكبر ذلك على المسلمين، وعظم عليهم، وخافوا، كيف يصير هذا من أهل

النار؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.



فقال رجل: والله لألزمته... سوف أتابعه وأراقبه؛ لأرى نهايته كيف تكون؟ فمشى معه، وفي أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع، فأخذ بسيفه فسأله، فوضعه في صدره، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره... قتل نفسه جزعاً... فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله... قال: وبِمِ؟

قال: الرجل الذي قلت: إنه من أهل النار. حصل له كذا وكذا.

فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

وفي هذا درسٌ عظيمٌ أن نتعلم جميعاً ألا نعمل العمل إلا لله ﷻ وأن ندعو دائماً بدعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

ثم قال النبي ﷺ: «وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا».

هذا عكس الأول.

وهذا له أيضاً شاهد في الواقع... رجلٌ يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... وقع هذا على عهد الرسول ﷺ... كان هناك رجل يُقال له الأَصِيرُ من بني عبد الأشهل، كافر مُنابذٌ للدعوة الإلهية... كان ضد المسلمين، فلما كان في غزوة أُحد، وخرج الناس من المدينة يغزون، ألقى الله في قلبه الإسلام، فأسلم وخرج يجاهد.

فلما حصل ما حصل للمسلمين وقُتل منهم مَنْ قُتِلَ وذهب الناس ينظرون في قتلاهم، فوجدوا الأَصِيرُ في الرمق الأخير فقال له قومه: ما الذي جاء بك؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة... أَحَدَبٌ على قومك، يعنى عصبية، أم رغبة في الإسلام؟

(١) صحيح: رواه الترمذی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٧٩٨٧).

قال: بل رغبة في الإسلام، وأقروا الرسول ﷺ منى السلام، وأخبروه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم مات... فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة»^(١)... فهذا الرجل أمضى عمره كله في الكفر، ضد الإسلام وضد المسلمين، وكان خاتمته هذه الخاتمة.

عمل بعمل أهل النار، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع، فسبق عليه الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، فكان من أهل الجنة^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه أحمد في مسنده (٤٢٨/٥) من حديث ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في أحمد (٢٣٦٨٤): إسناده حسن.

(٢) شرح رياض الصالحين / الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/١٥١-١٥٣) بتصرف.

(١٨) طلوع الشمس من المغرب

✽ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ بَرْدَعَةٌ أَوْ قَطِيفَةٌ، قَالَ: وَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَغِيْبُ هَذِهِ؟».

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ، تَنْطَلِقُ حَتَّى تَخِرَّ لِرَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ سَاجِدَةً تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا حَانَ خُرُوجُهَا أَذِنَ اللَّهُ لَهَا فَتَخْرُجُ فَتَطْلُعُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ حَبَسَهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ مَسِيرِي بَعِيدٌ فَيَقُولُ لَهَا: اطْلُعِي مِنْ حَيْثُ غَبْتِ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا»^(١).

✽ نحن نعلم أن الشمس منذ أن خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ وهى تشرق من المشرق وتغرب من المغرب بصورة منتظمة لم تتغير ولو مرة واحدة... فقد جعل الله لها نظامًا ومدارًا لا تحيد عنه أبدًا.

قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٢).

✽ ولذلك حينما ناظر خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام هذا الكافر المتمرد (النمرود بن كنعان) حدث بينهما ذلك الحوار.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمَلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٢٨)، وأصله فى الصحيحين.

(٢) سورة يس: الآية: (٣٨).

الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

✽ ومع ذلك فإنه في آخر الزمان يصبح الناس كعادتهم ينتظرون طلوع الشمس من المشرق - كما هو حالها منذ خلقها الله - فإذا بالشمس تطلع من المغرب... وعندها يُغلق باب التوبة.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا أَنَا مُنظِرُونَ﴾.

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان، ولا صالح الأعمال. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى: إذا وجد بعض آيات الله، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك. بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك. وما كان له من الخير الموجود، قبل أن يأتى بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة... فإنه إنما كان الإيمان ينفع، إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد. فأما إذا وجدت الآيات، صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضرورى، كإيمان الغريق، والحريق،

ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أفلح عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ. ﴿

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة، عن النبي ﷺ، أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها، آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلق حينئذ، باب التوبة.

ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ، منتظراً وهم ينتظرون بالنبي ﷺ، وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ فستعلمون أيها الحق بالأمن^(١).

﴿ ومن هنا يتضح لنا أنه لا تقبل توبة العبد في حالتين :

(١) عند الغرغرة . . أي : عندما تبلغ الروح الحلقوم :

قال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ »^(٢).

(٢) إذا طلعت الشمس من مغربها . . كما جاء في الحديث :

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »^(٣).

وقال ﷺ : « إِنْ مِنْ قَبْلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابًا مَفْتُوحًا عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ نَحْوَهُ فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا »^(٤).

(١) تفسير السعدى (١/ ٤٥٢-٤٥٣) ط. مكتبة أبي بكر.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٤) حسن: رواه ابن ماجه، وأحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٢٩).

❁ قال الحافظ ابن كثير رحمته الله تعالى: «فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَدَثَ إِيمَانًا أَوْ تَوْبَةً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى اقْتِرَابِهَا وَدُنُوبِهَا، فَعُوْمِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

فجعل ﷺ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها.

❁ وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مِنَ الْمَغْرِبِ؛ أُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِيَوْمِ الطُّلُوعِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

❁ قال القرطبي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لِأَنَّهُ حَلَصَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَزَعِ مَا تَخَمَدُ مَعَهُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَتَفْتَرُّ كُلُّ قُوَّةٍ مِنْ قُوَى الْبَدَنِ، فَيَصِيرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَا يَقَانِهِمْ بِدُنُوبِ الْقِيَامَةِ فِي حَالٍ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فِي انْقِطَاعِ الدَّوَاعِي إِلَى أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ، وَبُطْلَانِهَا مِنْ أَبْدَانِهِمْ، فَمَنْ تَابَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، كَمَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَةٌ مِنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/٢١٩-٢٢٢).

(٢) «فتح الباري» (١١/٣٥٤-٣٥٥).

(٣) «التذكرة» (ص ٧٠٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/١٤٦).



(١٩) أنا الملك... أين ملوك الأرض

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ»^(١).

✽ ففى هذا الحديث يخبر الحق ﷻ عن مشهد من مشاهد قيام الساعة، وذلك حين يأمر الله ﷻ إسرافيل بالنفخ في الصور (نفخة الصعق).

فإنه بعد نفخة الصعق تموت الخلائق كلها.. يموت كل حى ويبقى الحى الذى لا يموت (جل وعلا) فيصبح الكون كله فى سكونٍ رهيبٍ موحشٍ فيطوى الله السماوات بيمينه ويطوى الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟.

قال ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(٢).

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٤﴾﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٥٠﴾﴾^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨١٢) كتاب التفسير، ومسلم (٢٧٨٧) كتاب صفة القيامة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٤) سورة القصص: الآية: (٨٨).

(٥) سورة غافر: الآيتان: (١٥، ١٦).

فلا أحد يسأل ولا أحد يجيب إلا الله عز وجل.

ثم يحيى الله إسرافيل مرة أخرى ويأمره بأن ينفخ في الصور نفخة البعث لتقوم الخلائق كلها من القبور إلى أرض المحشر للفصل والحساب بين يدي الكريم التواب (جل وعلا).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

قوله ﷺ: «يطوى»: المراد بالطى الطى الحقيقى.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك»:

يقول ذلك ثناءً على نفسه - سبحانه -، وتبنيهاً على عظمتها الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أى: أنا الذى لى الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعى فيهما أحد.

قوله: «أين ملوك الأرض؟»: الاستفهام للتحدى، فيقول: أين الملوك الذين كانوا فى الدنيا لهم السُّلطة والتجبرُّ والتكبرُّ على عباد الله؟

وفى ذلك الوقت يُحشرون أمثال الدَّر - النمل الصغير - يطأهم الناس بأقدامهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠) يا آدم... أخرج بعث النار

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبَشَرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبَشَرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبَشَرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبَشَرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٣٠) كتاب الرقائق - ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

وَإِنَّمَا خُصَّ بِذَلِكَ آدَمَ لِكَوْنِهِ وَالِدَ الْجَمِيعِ وَلِكَوْنِهِ كَانَ قَدْ عَرَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَقَدْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَعَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَنْ شِمَالِهِ أَسْوَدَةٌ فَالَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ.. وَالَّذِينَ عَنْ شِمَالِهِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ.

❦ قوله: «قَالَ: وَمَا بَعَثُ النَّارِ».

الْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى شَيْءٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ وَمَا بَعَثُ النَّارِ. أَى: وَمَا مَقْدَارُ مَبْعُوثِ النَّارِ.. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَمْ أَخْرَجُ».

❦ قَوْلُهُ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ».

ففى تلك اللحظة يشيب الطفل الصغير لهول الموقف وتضع كل ذات حمل حملها... ولذا قال النبي ﷺ: «فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» معناه موافقة الآية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (٢) وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَقْتِ وَضْعِ كُلِّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَذْكُورِ.

فَقِيلَ: عِنْدَ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا... وَقِيلَ: هُوَ فِي الْقِيَامَةِ. فَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ مَجَازًا لِأَنَّ الْقِيَامَةَ لَيْسَ فِيهَا حَمْلٌ وَلَا وِلَادَةٌ... وَتَقْدِيرُهُ يَنْتَهَى بِهِ الْأَهْوَالُ وَالشَّدَائِدُ إِلَى أَنَّهُ لَوْ تَصَوَّرَتْ الْحَوَامِلُ هُنَاكَ لَوْضَعْنَ أَحْمَالَهُنَّ... كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ أَصَابْنَا أَمْرًا يَشِيبُ مِنْهُ الْوَلِيدُ... يُرِيدُونَ شِدَّتَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) سورة الحج: الآيتان: (١، ٢).

(٢) سورة المزمل: الآية: (١٧).



وَأَقُولُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ فَتُبْعَثُ الْحَامِلُ حَامِلًا وَالْمُرْضِعُ مُرْضِعَةً وَالطِّفْلُ طِفْلًا فَإِذَا وَقَعَتْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ. وَقِيلَ ذَلِكَ لِأَدَمَ وَرَأَى النَّاسَ أَدَمَ وَسَمِعُوا مَا قِيلَ لَهُ وَقَعَ بِهِمْ مِنَ الْوَجَلِ مَا يَسْقُطُ مَعَهُ الْحَمْلُ وَيَشِيبُ لَهُ الطِّفْلُ وَتَذْهَلُ بِهِ الْمُرْضِعَةُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَقَبْلَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ وَيَكُونُ خَاصًّا بِالْمَوْجُودِينَ حِينَئِذٍ وَتَكُونُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَذَاكَ» إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ صَرِيحٌ فِي الْآيَةِ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ هَذَا الْحَمْلُ مَا يُتَخَيَّلُ مِنْ طُولِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَاسْتِقْرَارِ النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ وَنِدَاءِ أَدَمَ لِمَتَمِيزِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١) يَعْنِي أَرْضَ الْمَوْقِفِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ (٢).

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُطْلَقُ عَلَى مَا بَعْدَ نَفْخَةِ الْبَعْثِ مِنْ أَهْوَالٍ وَرَزْزَلَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْإِسْتِقْرَارِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ. وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِلَى أَنْ ذَكَرَ النَّفْخَ فِي الصُّورِ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ نَفْخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ثُمَّ يَقَالُ: «أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارِ...» فَذَكَرَهُ قَالَ: «فَذَاكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا».

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ وَغَيْرِهِ مَا يُؤَيِّدُ الْإِحْتِمَالَ الثَّانِيَّ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي بَابِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَفِيهِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا وَتَشِيبُ الْوِلْدَانَ وَتَتَطَايَرُ الشَّيَاطِينُ»: «فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تَصَدَّعَتْ

(١) سورة النازعات: الآيتان: (١٣، ١٤).

(٢) سورة المزل: الآيتان: (١٧، ١٨).

الأَرْضُ فَيَأْخُذُهُمْ لِذَلِكَ الْكَرْبُ وَالْهَوْلُ» ثُمَّ تَلَا الْآيَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْحَجِّ.

✽ وهنا فزع أصحاب الرسول ﷺ، وقالوا: يا رسول الله أئنا ذلك الرجل؟

أى: إن كان سينجو رجلٌ واحدٌ من بين كل ألفٍ من النار فمن سيكون ذلك الرجل الذى سينجو؟.. وما هو العمل الذى سينجى من النار لنعمله؟.

فما كان من نبي الرحمة ﷺ إلا أن قال لهم: «أَبْشُرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَوْلُهُ: «فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا» أَيْ: مِنْهُمْ وَمِمَّنْ كَانَ عَلَى الشِّرْكِ مِثْلَهُمْ. وَقَوْلُهُ: «وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» يَعْنِي: مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مِثْلَهُمْ.

قُلْتُ: وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: مِنْكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِ بْنِ مَسْعُودٍ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»^(١).

وهكذا ينبغى للإنسان أن يستعمل البشرى لإخوانه ما استطاع. ولكن أحياناً يكون الإنذار خيراً لأخيه المسلم، فقد يكون أخوك المسلم فى جانب تفریط فى واجب، أو انتهاكٍ لمحرّم، فىكون من المصلحة أن تُنذره وتُخوفه... فالإنسان ينبغى له أن يستعمل الحكمة، ولكن يُغلب جانب البشرى... فلو جاءك رجلٌ مثلاً، وقال: إنه أسرف على نفسه، وفعل معاصى كبيرة وسأل هل له من توبة؟ فىنبغى لك أن تقول له: نعم.. أأبشر فإنك إذا ثبت تاب الله عليك.

✽ ثم قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثَلَاثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ».. فما كان من الصحابة إلا أن قالوا: الحمد لله.. الله أكبر.

وذلك من شدة فرحهم أنه سيكون عدد المسلمين فى الجنة هو ثلاث أهل

الجنة مع أن أمة النبي محمد ﷺ هي أمة من بين سبعين أمة ستكون في أرض المحشر يوم القيامة.

قال ﷺ: «إِنَّكُمْ تَتَمُونُ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(١).

ثم قال النبي ﷺ بعد ذلك: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». أي: نصف أهل الجنة.

ولم يخبرهم ﷺ أنهم النصف ابتداءً؛ لأن التدرج أوقع في النفس وأبلغ في الإكرام، لأن الإعطاء مرة بعد أخرى دليل الاعتناء بالمُعطى، أو لتكرار منهم عبادة الشكر، ولا يبعد أن يكون قد أوحى إليه ﷺ في البداية أنهم ثلث أهل الجنة، ثم أوحى إليه بعد ذلك أنهم نصف أهل الجنة.

بل لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أخبر أن أمته ستكون يوم القيامة ثلثي أهل الجنة.

قال ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ... ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»^(٢).

فثلثا أهل الجنة من أمة النبي ﷺ.. والثلث الباقي يُقسم بين (٦٩) أمة من الأمم السابقة.. وذلك من فضل الله ﷻ على هذه الأمة الميمونة المباركة.

ثم قال ﷺ: «إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ».

فعلى الرغم من قلة أعدادنا بالنسبة لأعداد الأمم من قبلنا إلا أننا نكون ثلثي أهل الجنة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ» هِيَ بِفَتْحِ

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْقَافِ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الرَّفْمَتَانِ فِي الْجِمَارِ هُمَا الْأَثْرَانِ فِي بَاطِنِ عَضُدَيْهِ، وَقِيلَ: هِيَ الدَّائِرَةُ فِي ذِرَاعَيْهِ، وَقِيلَ: هِيَ الْهَنْئَةُ النَّاتِيَةُ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ مِنْ دَاخِلٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح مسلم للنووي (٢/١٠٠).

(٢١) يوم يكشف عن ساق

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، نَادَى مُنَادٍ: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى النَّاسُ عَلَى حَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا بَأْسَ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟ فَيَقُولُونَ: نَنْتَظِرُ إِلَيْنَا، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا عَرَفْنَا، فَيُكْشَفُ لَهُمْ عَنْ سَاقِهِ فَيَقْعُونَ سُجُودًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(١) وَيَبْقَى كُلُّ مُنَافِقٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْجُدَ، ثُمَّ يَقُودُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مشهدٍ عظيمٍ من مشاهد يوم القيامة.. وذلك عندما تُحشَرُ الخلائق كلها فى أرض المحشر للفصل والحساب... وبينما هم على تلك الحالة التى وصفها النبى ﷺ بقوله: «يُحشَرُ الناس يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرلاً» إذ «نَادَى مُنَادٍ: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ». وفى رواية: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: لَتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَتَتَّبِعُ الْيَهُودَ عُزَيْرًا، وَتَتَّبِعُ النَّصَارَى مَعْبُودَهَا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ...»... ويبقى الناس على حالهم واقفين فى أرض المحشر فى ذلك الكرب العظيم، وقد ألقى الكفار فى النار، ولم يبقَ إلا أهل الإيمان، ومعهم المنافقون الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر.

«فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا بَأْسَ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟» والمقصود بالناس هنا: هم الكفار الذين لحقوا بما كانوا يعبدون...

(١) سورة القلم: الآية: (٤٢).

(٢) صحيح: رواه الدارمى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٨٤).

فيقول المؤمنون: «نَتَنَظَّرُ إِلَيْهَا»... وكأنهم يقولون: نحن لا يشغلنا أى شىء إلا أن نرى ربنا عَزَّوَجَلَّ ونستمع بلذة النظر إلى وجهه الكريم. «فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟».. أى: هل تعرفون ربكم إذا رأيتموه. «فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا، عَرَفْنَا»... وذلك لأنهم لم يروه (جَلَّ وَعَلَا) قبل ذلك.

وفي تلك اللحظة يحدث ما لا يخطر على البال!!!

فيكشف الله عَزَّوَجَلَّ عن ساقه فإذا رآه المؤمنون وقعوا ساجدين له عَزَّوَجَلَّ وأما المنافقون فلا يستطيعون السجود لله عَزَّوَجَلَّ فقد حيل بينهم، وبين السجود... ثم يُقاد المؤمنون إلى الجنة.

❁ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْبَرُهُمْ تَرَهَّقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

❁ قال الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللهُ:

أى: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأحوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى البارئ لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التى لا يشبهها شىء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجَّار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرّون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصى البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يُدْعَوْنَ فى الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون... فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم،



وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة... ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، ويوجب التدارك مدة الإمكان^(١).

✽ ولقد سئل الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ:

هل يلزم من إثبات الساق لله ﷻ تشبيهه بالخلوقات؟

الجواب: لا يلزم من إثبات ما أثبتته الله لنفسه من الصفات شيء من التشبيه أصلاً، كما لا يلزم من إثبات ذاته تعالى التشبيه، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات وهي حقٌّ ثابت، فكذلك صفاته تعالى لا تشبه الصفات وهي أيضاً حقائق ثابتة تتناسب مع جلال الله وعظمته وتنزيهه، فلا محذور من نسبة الساق إلى الله تعالى إذا ثبت ذلك في الشرع... وأنا وإن كنت أرى من حيث الرواية أن لفظ «ساق» أصح من لفظ «ساقه» فإنه لا فرق بينهما عندي من حيث الدراية لأن سياق الحديث يدل على أن المعنى هو ساق الله ﷻ... وأصرح الروايات في ذلك رواية هشام عند الحاكم بلفظ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ مِنْ آيَةٍ تَعْرِفُونَهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ السَّاقُ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...»^(٢).

قلت: فهذا صريح أو كالصريح بأن المعنى إنما هو ساق ذي الجلالة ﷻ^(٣).

✽ وهكذا يكون إكرام أهل الإيمان والتوحيد والصلاة.. وهكذا تكون الإهانة لأهل النفاق الذين كانوا أيراءون الناس بصلاتهم أو كانوا لا يصلون.. أو

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان. بلفظ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»، والحاكم (٨٧٣٦) واللفظ له.

(٣) دروس ومحاضرات مفرغة من تسجيلات الشبكة الإسلامية - والفتوى للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

كانوا كما وصفهم الله ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢٤) مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١﴾.

❁ فمن سجد لله ﷻ هنا في الدنيا وكان عمله خالصاً لوجه الله ﷻ أذن له بالسجود لله ﷻ يوم القيامة عندما يكشف الملك (جل جلاله) عن ساقه.. ومَنْ أبى أن يسجد لله ﷻ هنا في الدنيا حيل بينه وبين السجود لله ﷻ... فيا ليتنا نعرف قدر الصلاة وقدر السجود بين يدي الله ﷻ.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ عَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ» (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكَبَائِرُ» (٣).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ - وسخه - شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» (٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ﴾ (٥) وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) سورة النساء: الآيتان: (١٤٢-١٤٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٨) كتاب مواقيت الصلاة- ومسلم (٦٦٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) طرف النهار: الصبح والعصر أو الظهر - وزلفاً من الليل: ساعات منه والمراد به: العشاء أو المغرب والعشاء.

السَّيِّئَاتِ ﴿١﴾ فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ» (٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَحَضَرْتَ الصَّلَاةَ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ حَضَرْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَكَ» (٣).

وعن حنظلة الكاتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ حَافِظَ عَلَيَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ: رُكُوعِهِنَّ، وَسُجُودِهِنَّ، وَوُضُوءِهِنَّ، وَمَوَاقِيَتِهِنَّ، وَعَلِمَ أَنَّهُنَّ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» أَوْ قَالَ: «وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» أَوْ قَالَ: «حُرِّمَ عَلَيَّ النَّارُ» (٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّلَاةُ»، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّلَاةُ» قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّلَاةُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة هود: الآية: (١١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٤) كتاب التوبة.

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٨١).

(٥) صحيح لغيره: رواه أحمد وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٧٨).

(٢٢) سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ

✽ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ، عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمَوْسَى فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُحِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أنه بعدما يُحشر الناس جميعاً يوم القيامة يُوضع الميزان... ثم ذكر النبي ﷺ سعة ذلك الميزان وأنه لو وُزِنَ فِيهِ السماوات والأرض لَوَسِعَتْ.

وقد دَلَّتْ النصوص الشرعية على أن الميزان ميزان حقيقي له كِفَتَانِ، تُوزَنُ بِهِ أعمال العباد. وهو ميزان عظيم لا يقدر قدره إلا الله تعالى.. وقد اختلف أهل العلم هل هو ميزان واحد تُوزَنُ بِهِ أعمال العباد أم أن الموازين متعددة ولكل شخص ميزانه الخاص.. فمن قال بالتعدد استدلوا بأن الميزان قد ورد في بعض الآيات بصيغة الجمع، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٢).

وَمَنْ قَالَ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ اسْتَدَلُّوا بِمِثْلِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي...». وحملوا الآية التي ورد فيها الميزان بصيغة الجمع على تعدد الموازين من الأعمال والأقوال والصحف

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).



والأشخاص. فقالوا: إنه جُمع الأشياء التي تُوزَن فيه.

❖ والقول في الموزون على أربعة أوجه:

(١) أن الأعمال هي التي تُوزَن:

وأن أفعال العباد تُجسَّم فتوضع في الميزان.. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

ويقول النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ» (٢).

(٢) أن صحائف الأعمال هي التي تُوزَن:

يدل على ذلك حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُنشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ البَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَارَبَّ فَيَقُولُ: لَا يَارَبَّ فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ... فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احضُرْ وَزَنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: فَإِنَّكَ لَا تُظَلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقَلَتِ البِطَاقَةُ فَلَا يَنْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (٣).

(٣) أن الموزون ثواب العمل:

كما جاء في حديث أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَأُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ البُقْرَةَ،

(١) سورة الزلزلة: الآيتان: (٧، ٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذى والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (١٧٧٦).

وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَانَهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ كَانَهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا... اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ»^(١).

قال معاوية: بلغني أن البطله: السحرة.

قال الترمذي رحمته الله: معنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته.

(٤) أن الموزون هو العامل نفسه :

والدليل على ذلك ما جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنت أجتني لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قالوا: من دِقَّةِ سَاقِيهِ. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهِيَ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٢) أي من جبل أحد.

وفي المقابل يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ... اقْرَأُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»^(٣)^(٤).

والذي أستظهر من النصوص والله أعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يُوزَن... بالجمع بين النصوص ولا منافاة بينهم والله أعلم^(٥).

✽ فعندما ترى الملائكة ذلك الميزان يقولون: يا رب لمن يزن هذا؟

فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي... فتشعر الملائكة بالخوف والخشية والحياء من الله عز وجل فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك...

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن سعد، والبخاري، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

(٣) سورة الكهف: الآية: (١٠٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٢٩) كتاب التفسير، ومسلم (٢٧٨٥) كتاب صفة القيامة.

(٥) معارج القبول لحافظ بن أحمد الحكمي (٢/ ١٨٢-١٨٥) بتصرف.

مع أن منهم ملائكة واقفين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة ينفذون أوامر الله عَزَّوَجَلَّ.. ومنهم ملائكة راكعين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة.. ومنهم ملائكة ساجدين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة.. فإذا قامت الساعة قاموا من تلك السجدة، وقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

✽ ثم أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أنه يُوضع الصراط مثل حَدِّ موسى فتعجب الملائكة من منظر الصراط الذي هو أحدٌ من السيف وأدق من الشعر فيسألون الله ويقولون: مَنْ تُجيز على هذا؟ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: مَنْ شئتُ من خَلقى... فتشعر الملائكة مرة أخرى بالخوف والخشية والحياء ويقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك..

يقولون ذلك وهم الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١).

وأيضاً: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢).

✽ والصراط أهواله عظيمة شديدة إلا على أهل الإيمان والتوحيد فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى في الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيق منصوب على ظهر جهنم وهي عقبة في طريق الذاهبين إلى دار السلام (الجنة) وممرٌ خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «رب سَلِّمْ سَلِّمْ»^(٣). ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم في الدنيا، فمنهم مَنْ يَمُرُّ بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف. ومنهم مَنْ يمر دون ذلك إلى أن ينجو مَنْ ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه، ويهلك مَنْ يهلك بسقوطه في جهنم دار الشقاء،

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٠).

(٢) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

والهوان، والبوار، والخسران^(١).

✽ فتأمل معي كيف كان حياء الملائكة مع ما هم عليه من العبادة فكيف يكون حياء مَنْ ترك الصلاة؟ وكيف يكون حياء من تركت الحجاب وخرجت كاشفة عن جسدها؟ وكيف يكون حياء كل من عصى الله وخالف أمر رسول الله ﷺ؟

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

الحياء عشرة مظاهر - من بينها -:

حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يُسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة استحووا وقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. فينظرون إلى نورٍ من نور الرب فيخرون له سُجَّدًا فيناديهم الرب يا عبادي ارفعوا رؤوسكم فإنها ليست بدار عمل إنما هي دار ثواب ... فيرفع الحجاب الثاني فينظرون أمرًا هو أعظم وأجلُّ فيخِرُّون لله حامدين ساجدين فيناديهم الرب أن ارفعوا رؤوسكم إنها ليست بدار عمل إنما هي دار ثوابٍ ونعيمٍ مقيم ... فيرفع الحجاب الثالث فعند ذلك ينظرون إلى وجه رب العالمين، فيقولون حين ينظرون إلى وجهه: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك... فيقول: كرامتي أمكنتكم من النظر إلى وجهي وأحلتكم داري فيأذن الله للجنة أن تكلمني فتقول: طوبى لمن سكنني وطوبى لمن يخلد فيَّ وطوبى لمن أعددت له... وذلك قوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا ابْرَأَ﴾^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) عقيدة المؤمن / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص: ٣٦٠).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (٤٢٣).

(٢٢) شهادة الجوارح والأركان على جرائم الإنسان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالَوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالَوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأُسَوَّدَكَ، وَأُزَوَّجَكَ، وَأَسْحَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي... ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَّ فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأُسَوَّدَكَ، وَأُزَوَّجَكَ، وَأَسْحَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي... ثُمَّ يَلْقَى الثَّلَاثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرِسْلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ... وَيُنْثَى بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبَعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُحْتَمُّ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلِحِمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلِحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: هَذَا الْحَدِيثُ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟»، يَعْنِي لَيْسَ هُنَاكَ سَحَابٌ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيِهَا، بَلْ هِيَ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ، وَذَلِكَ فِي مِنتَصَفِ النَّهَارِ. قَوْلُهُ: «هَلْ تُضَارُونَ؟» يَعْنِي: هَلْ يَضُرُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتِمَّ كُنُوفُكُمْ مِنْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٨) كتاب الزهد والرفائق.

رؤيتها، أم أن كُلاً يراها دون أن يكون بحاجة إلى أن يزاحم غيره بحيث يتضرر به بسبب الازدحام؟ والمعروف أنهم يرون الشمس إذا لم يكن دونها سحب بسهولة ويُسرٍ، وبدون تعب ومشقة، وبدون مضرة تحصل لأحد؛ لأنها في السماء، وهى آية من آيات الله، وإذا كان هذا في مخلوق من مخلوقات الله، فأولى أن يُرى الله ﷻ وهو الخالق لكل شيء ولا يتضرر الناس في رؤيته.

وكذلك القول بالنسبة للقمر ليلة البدر ليس في سحب... فهذا الحديث فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس تشبيه المرئى بالمرئى.

ثم إن النبي ﷺ لما قرر لهم هذا الشيء وأخبرهم أنه لا يحصل لهم تضار في رؤية الشمس ولا رؤية القمر، أقسم وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، ومعناه: أن رؤية الله في الآخرة مُحَقَّقَةٌ لكم كما أن رؤيتكم للشمس والقمر في الدنيا محققة^(١).

❁ وفي رواية:

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ عَيْنًا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»^(٢).

وعن صُهَيْبِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ»^(٣).

(١) شرح سنن أبي داود للعباد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.



❁ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَنْ لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا)... إنه أعظم نعيم في الجنة.

ولذلك يخبرنا النبي ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدي الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَنْ يدخل الجنة ومنهم مَنْ يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون في نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون في نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا.. ألم تُدخلنا الجنة وتُنجننا من النار.

وكانهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذي أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم في تلك اللذة... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت في دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت في النظر... فمنهم مَنْ يدخل بغير حساب ولا عذاب... ومنهم مَنْ يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم مَنْ يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام.. ومنهم مَنْ يكون في أعلى

درجات الجنة في الوقت الذي يكون فيه مَنْ هو أدنى منه في درجات الجنة.

✽ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون في لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبه في الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة... فكلما كان المُحب أعرف بالمحجوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»^(١).

✽ بل هناك تفاوت في عدد المرات التي يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(٢). «أى تنظر إلى ربه حسب مراتبهم: منهم مَنْ ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم مَنْ ينظره كل جمعة مرة واحدة... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذي ليس كمثل شىء».

✽ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتع بنعيم الجنة وبين التمتع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَىٰ الْأَرَآئِكِ يُنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(٣).

✽ ثم ذكر النبي ﷺ هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة حين يلتقى العبد ربه ﷻ فيقول الله له: «أَيُّ قُلٍّ» يعنى: يا فلان. «أَلَمْ أُكْرِمِكَ، وَأَسَوَّدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ» أى: أما أكرمتك وأعدقت عليك من نعمى الظاهرة والباطنة وجعلتك سيدًا على الناس وزوجتك زوجة تأنس إليها وتقضى حوائجك كلها «وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ» أى: سخرت لك الخيل والإبل لتسافر عليها وتقضى حوائجك عليها.. ولولا أنى سخرتها لك ما استطعت أن تقرب منها ولا أن تتفع بها «وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٣) بتصرف.

(٢) سورة القيامة: الآيتان: (٢٢-٢٣).

(٣) سورة المطففين: الآيتان: (٢٢، ٢٣).



وَتَرْبَعُ؟» أى: وجعلتك رئيس القوم وكبيرهم فكنت رئيسًا مُطاعًا فلا تحتاج إلى مشقة وتعب بل كنت تعيش فى سعة ونعيم وراحة وسرور.

ثم قال له تعالى بعد ذكر بعض نعمه عليه: «أَفَظَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟» فيقول العبد: لا... فقد كان هذا العبد لا يذكر الله ولا اليوم الآخر.. ولذا فقد كان يعيش حياته من أجل المتعة واللهو والانشغال بحُطام الدنيا الزائل ولم يعبد الله **عَزَّوَجَلَّ** أبدًا.

فيقول الله له: «فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي» أى: أمنعك من الرحمة كما امتنعت عن الطاعة... وليس المقصود هنا أن الله **عَزَّوَجَلَّ** ينسى - حاشا لله - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

ويلقى الله **عَزَّوَجَلَّ** الرجل الثانى فيجيب مثل ما قال الأول... وعندما لقي الرجل الثالث أشهد الله عليه جوارحه.

وهذا يذكرنا بالحديث الآخر عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ **ﷺ** فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُحَاظَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُحِرِّنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَيَّ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَا ضَلُّ»^(١).

ففى يوم من الأيام تواعد النبى **ﷺ** مع أصحابه على أن يجلسوا سويًا وقبل الموعد المحدد ذهب الصحابة إلى المسجد وجلسوا فى غاية الأدب والسكون احترامًا لشخص النبى **ﷺ**.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٩) كتاب الزهد والرفائق.

وبعد وقتٍ قصير جاء النبي ﷺ وجلس معهم ورَّحِبَ بهم.

وفجأة.. ضحك النبي ﷺ ثم سأل الصحابة: هل تدرّون لماذا أضحك؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فأخبرهم النبي ﷺ عن سبب ضحكهم فقال لهم: أضحك من مخاطبة العبد

لربه يوم القيامة!!!

فإنه سيأتي عبداً من عباد الله ويقف بين يدي الله (جل وعلا) ليحاسبه الله

على أعماله.

وإذا بهذا العبد يقول لربه (جل وعلا): يارب ألم تُحرم الظلم على نفسك

وعلى عبادك فقلت: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً

فلا تظالموا» فيقول الله (جل وعلا): بلى.. قد حرمت الظلم.

فيقول هذا العبد: فيأني لا أريد أن يشهد أحدٌ عليّ.. بل أريد أن أشهد أنا

على نفسي.

فيقول له الحق (جل وعلا): كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً.

ثم يُختم على فم هذا العبد فلا يستطيع أن يتكلم كلمة واحدة.

ثم يأمر الله عين هذا العبد أن تتكلم فتقول: يارب أنا نظرت إلى الحرام.

ويأمر أذنه أن تتكلم فتقول: وأنا استمعت إلى الحرام.

ويأمر يديه أن تتكلما فتقولوا: لقد فعلنا الحرام.

ويأمر رجليه أن تتكلما فتقولوا: لقد مشينا إلى الحرام.

ثم يأمر الحق (جل وعلا) هذا العبد أن يتكلم فيقوم ويدعو على جوارحه

التي شهدت عليه ويقول: بُعداً لَكُنَّ وُسُحْقاً فعنكن كنت أدافع وأكذب حتى

تدخلوا الجنة وتنجوا من النار.



﴿ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
 أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى
 أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ^(٣) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
 وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٤) وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا
 اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٥) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ
 يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
 تَعْمَلُونَ ^(٦) وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٧)
 فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة النور: الآية: (٤٢).

(٢) سورة يس: (٦٥).

(٣) سورة فصلت: الآيات: (١٩ - ٢٤).

﴿٢٤﴾ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا

﴿عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ^(١) قَالَ: «يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... الْبَهَائِمُ، وَالذَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ^{(٢)(٣)}.

﴿وَفِي رَوَايَةٍ: «يَقْضَى اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِهِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَاءَ مِنَ الْقُرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ تَبَعَةً عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللَّهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾» ^(٤).

﴿وَفِي رَوَايَةٍ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَوُودَنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ» ^(٥).

﴿فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُقَسَمُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ أَنَّ الْحُقُوقَ لَا بُدَّ أَنْ تُؤَدَّى إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَضِيعَ حَقُّ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ.. بَلْ حَتَّى الْبَهَائِمِ لَنْ يَضِيعَ حَقُّهَا.. فَتَأْتِي الشَّاةُ الْجُلْحَاءُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا قَرْنٌ فَيَقْتَصُّ اللَّهُ لَهَا مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ الَّتِي لَهَا قَرْنٌ فَتَنْطَحُّهَا بِهِ فِي الدُّنْيَا.. وَمَعَ أَنَّ الْبَهَائِمَ لَا تَعْقِلُ وَلَا تَفْهَمُ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ لِيُرَى عِبَادَهُ كَمَالَ عَدْلِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الْحُقُوقَ لَا تَضِيعُ بَيْنَ الْبَهَائِمِ فَكَيْفَ بَيْنَ آدَمَ عليه السلام.

(١) سورة الأنعام: الآية: (٣٨).

(٢) سورة النبأ: الآية: (٤٠).

(٣) رواه الحاكم، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) صحيح: أخرجه ابن جرير في تفسيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٦٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.



عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشِر الدواب والبهائم والوحش، ثم يَحْصُلُ القصاص بين الدواب... يُقتَصُّ للشاة الجَمَاء من الشاة القرناء نظحتها، فإذا فُرغ من القصاص بين الدواب، قال لها كوني ترابًا... قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(١).

✽ وروى أحمد بإسنادٍ صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَتَطِحَانِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ تَتَطِحَانِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا»^(٢).

✽ قال الإمام النووي: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يُعاد أهل التكليف من الأدميين وكما يُعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة... وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(٣) وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حَمْلُهُ على ظاهره...

قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المُجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة،... والجلحاء: هي الجَمَاء التي لا قرن لها^(٤).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: أمَّا القصاص فيشمَل البهائم؛ لأنَّه ثبت عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(٥)، وهذا قصاصٌ، لكنَّها لا

(١) سورة النبأ: الآية: (٤٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢١٤٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٣) سورة التكوير: الآية: (٥).

(٤) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٢٠٥، ٢٠٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

تُحَاسَبُ حِسَابَ تَكْلِيفٍ وَإِزْمَامٍ؛ لِأَنَّ الْبِهَائِمَ لَيْسَ لَهَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ^(١).

❁ وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ:

«فإن قيل: الشاة غير مُكَلَّفَة، فكيف يُقْتَصَرُ منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعَّالٌ لما يريد، ولا يُسأل عما يفعله... والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يُقْتَصَرُ حق المظلوم من الظالم»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح الواسطية (ص ٣٦٥).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤/٦١٢).

(٢٥) اتباع كل أمة ما كانت تعبد.. وسقوط الكفار

في النار.. والمرور على الصراط.. وشفاعة النبيين

والملائكة والمؤمنين وشفاعة أرحم الراحمين..

ورؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الآخرة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْنٌ مُؤَدَّنٌ: لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ... فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزْرَةَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحِطُّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ... ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحِطُّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ التِّي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارْقِنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرًا مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نَصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُودُ بِاللَّهِ

مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)، حَتَّىٰ إِنْ بَعْضُهُمْ لِيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يَضْرِبُ الْجِسْرَ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالِإِبِ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا سُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَمْخُذُوسٌ مُرْسَلٌ، وَمَمْكَدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّىٰ إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحِبُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مِنْ عَرَفْتُمْ، فَتَحَرَّمْ صُورَهُمْ عَلَىٰ النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَىٰ نِصْفِ سَاقِيهِ، وَإِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا»، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَافْرُؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظَلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ



حَسَنَةً يُضَعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتْ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ... قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفَرًا وَأَخْيَضَرًا، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضًا؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمِ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ.. هُوَ لَاءٍ عَتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم من شدة حبهم لله عز وجل وقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فبشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك سيحدث فقال لهم: «نعم».

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: قوله: «هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟».

في التقييد بيوم القيامة إشارة إلى أن السؤال لم يقع عن الرؤية في الدنيا. وقد أخرج مسلم من حديث أبي أمامة: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا».

❁ ثم قال لهم: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» فلما قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ... بَشَّرَهُمُ بِالْبُشْرَى الثَّانِيَةِ فَقَالَ: «مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ

(١) سورة النساء: الآية: (٤٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»... أى كما أنه لا يضر أحدكم أحدًا فى رؤية الشمس والقمر ولا يزاحم أحدٌ أحدًا فكذلك ترون ربكم لا يحجب أحدكم الرؤية عن أخيه ولا يُنازعه فيضيره بذلك...

ووقع فى رواية البخارى: «لا تُضامون أو تُضاهون» بالشك كما مضى فى فضل صلاة الفجر، ومعنى الذى بالهاء: لا يشتبه عليكم ولا ترتابون فيه فيعارض بعضكم بعضًا، ومعنى الضيم الغلبة على الحق والاستبداد به أى لا يظلم بعضكم بعضًا.

✽ ثم أخبرهم النبى ﷺ بمشهدٍ من مشاهد يوم القيامة.. فأخبر أنه فى يوم القيامة يؤذن مؤذن: «لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ» فكل من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب يتساقطون فى النار ولا يبقى إلا أهل الإيمان والتوحيد، وكذلك يبقى المنافقون الذين ظنوا أنهم لن تظهر حقيقتهم يوم القيامة.. وكذلك يبقى اليهود والنصارى «فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزْرِيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ».

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤).

ثم يُسألون: فَمَاذَا تَبْعُونَ؟ فيقولون: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيَسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ، فيتساقطون فى النار».

✽ ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، وَيُفْعَلُ بِهِمْ كَمَا فَعِلَ بِالْيَهُودِ وَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.. أى أن النصارى أقروا أنهم كانوا يعبدون المسيح ابن الله - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-.

✽ وهنا لا يبقى فى أرض المحشر إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجرٍ

فَيَأْتِيهِمُ الْحَقُّ (جَلَّ وَعَلَا) فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا فَيَقُولُ لَهُمْ: «فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ» فَإِذَا بِهِمْ - وَهُمْ الَّذِينَ عَاشُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَمَاتُوا عَلَى ذَلِكَ - يَقُولُونَ: فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرًا مَّا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَكَمْ نُصَاحِبُهُمْ.

فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، وَقَدْ أَتَاهُمْ ﷻ فِي صُورَةٍ أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا.. «فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا».. وَيَكْرُرُوا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ لَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَلَنْ يَتَّبِعُوا أَحَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَكُونُ.. فَهَمُ الَّذِينَ تَرَكَوا كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعِيشُوا عَلَى التَّوْحِيدِ وَيَمُوتُوا عَلَى ذَلِكَ فَلَنْ يَفْرُطُوا فِي دِينِهِمْ أَبَدًا.

وَهُنَا يَسْأَلُهُمُ الْحَقُّ (جَلَّ وَعَلَا) وَيَقُولُ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ».. وَهُنَا تَحَدَّثُ الْمَفْجَأَةَ الَّتِي لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِهِمْ أَبَدًا.. فَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ يَكْشِفُ الْحَقُّ (جَلَّ وَعَلَا) عَنْ سَاقِهِ فَإِذَا رَأَاهَا الْمَوْحِدُونَ خَرُّوا سَاجِدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ (جَلَّ وَعَلَا)... أَمَا أَهْلُ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ ظَهْرَهُ تَيَبَّسَ وَأَصْبَحَ طَبَقَةً وَاحِدَةً.. فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ... فَإِذَا رَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ رُؤُوسَهُمْ بَعْدَ السُّجُودِ رَأَوْا الْحَقَّ (جَلَّ وَعَلَا) عَلَى صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ.. وَإِذَا بِهِ ﷻ يَقُولُ لَهُمْ: «أَنَا رَبُّكُمْ» وَهُنَا تَنْشُرُ صُدُورَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ وَتُضِيءُ وَجُوهَهُمْ وَيَقُولُونَ: «أَنْتَ رَبُّنَا».

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَتَأَخَّرُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَاءً أَنْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ بِنَاءٍ عَلَى مَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ فِي الدُّنْيَا فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَمِرُّ لَهُمْ، فَمَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ إِذْ لَا غُرَّةَ لِلْمُنَافِقِ وَلَا تَحْجِيلَ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْغُرَّةَ وَالتَّحْجِيلَ خَاصٌّ بِالْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ

فِي هَذَا الْمَقَامِ يَتَمَيَّزُونَ بِعَدَمِ السُّجُودِ وَبِإِطْفَاءِ نُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ حَصَلَ لَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَحْصَلَ لَهُمُ الْعُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ ثُمَّ يُسَلَّبَانِ عِنْدَ إِطْفَاءِ النُّورِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ تَسْتُرَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا جَهْلًا مِنْهُمْ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا حُشِرُوا مَعَهُمْ لِمَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ فَاسْتَمَرَ ذَلِكَ حَتَّى مَيَّزَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ.

❁ وهنا يُضْرَبُ الصُّرَاطُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ ... فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقي في الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيق منصوب على ظهر جهنم وهي عقبة في طريق الداهيين إلى دار السلام (الجنة) وممرٌ خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١). ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم في الدنيا، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف. ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حَبَّوًا على يديه وركبتيه، ويهلك من يهلك بسقوطه في جهنم دار الشقاء، والهوان، والبوار، والخسران^(٢).

❁ ثم أخبر النبي ﷺ عن مُنَاشِدَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ ﷻ - بعد نجاتهم - على الصراط وعبورهم عليه - في أن يُخْرِجَ إِخْوَانَهُمْ مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ.. ويقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويُصلون ويحجون.. فيأذن لهم في المرة الأولى أن يُخْرِجُوا كُلَّ مَنْ يَعْرِفُوهُ مِنَ النَّارِ... فيُحْرِمُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَهُمْ فَيَدْخُلُونَ النَّارَ وَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا مِمَّنْ يَعْرِفُونَ.. ثم يرجعون ويناشدون ربهم مرة أخرى فيأذن لهم في المرة الثانية أن يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ.. فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا بَعْدَ أَنْ يُحْرِمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

(٢) عقيدة المؤمن / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص: ٣٦٠).



أجسادهم.. ولكن كيف يعرفون من كان في قلبه مثقال دينارٍ من إيمانٍ؟.. إما أن يُطلعهم الله ﷻ على ذلك أو يجعل معهم ملكًا من الملائكة ليدلهم على هؤلاء الناس.. والله أعلم...

ثم يأذن الله ﷻ لهم في المرة الثالثة في أن يُخرجوا من النار مَنْ كان في قلبه مثقال نصف دينارٍ من خيرٍ.. فيُخرجون خلقًا كثيرًا.. وهذا دليلٌ على أن الناس يتفاوتون في درجات الإيمان، وكذلك يتفاوتون في دركات العصيان.

ثم إن هؤلاء المؤمنين ما زالوا يُناشدون ربهم في خروج عَصاة الموحدين من النار.. وذلك لأنهم أصحاب قلوبٍ طاهرةٍ تحب الخير للناس جميعًا ولو كانوا عَصاة... فيأذن الله ﷻ لهم في المرة الرابعة أن يُخرجوا من النار مَنْ كان في قلبه مثقال ذرةٍ من خيرٍ.. فيُخرجون خلقًا كثيرًا... ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا.

أى أن كل مَنْ بقى في النار من عَصاة الموحدين لم يعمل خيرًا قط.
وفي رواية: أنهم يعرفون عَصاة الموحدين في النار بعلامة آثار السجود في وجوههم...

قوله: «فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ».

وفي رواية إبراهيم بن سعيد: «فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِآثَرِ السُّجُودِ».
قال الزين بن المنيّر: تُعْرَفُ صِفَةُ هَذَا الْأَثَرِ مِمَّا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ آثَرِ السُّجُودِ﴾ لِأَنَّ وُجُوهِهُمْ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا النَّارُ فَتَبْقَى صِفَتُهَا بَاقِيَةً.

وقوله: «وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ آثَرِ السُّجُودِ».

هو جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ كَيْفَ يَعْرِفُونَ آثَرَ السُّجُودِ مَعَ قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمًا أَذِنَ اللَّهُ

بِالشَّفَاعَةِ» فَإِذَا صَارُوا فَحَمًا كَيْفَ يَتَمَيَّزُ مَحَلُّ السُّجُودِ مِنْ غَيْرِهِ حَتَّى يُعْرِفَ أَثْرَهُ؟
وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: تَخْصِيصُ أَعْضَاءِ السُّجُودِ مِنْ عُمُومِ الْأَعْضَاءِ الَّتِي دَلَّ
عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْخَبَرِ، وَأَنَّ اللَّهَ مَنَعَ النَّارَ أَنْ تُحْرِقَ أَثَرَ السُّجُودِ مِنَ الْمُؤْمِنِ،
وَهَلِ الْمُرَادُ بِأَثَرِ السُّجُودِ نَفْسُ الْعُضْوِ الَّذِي يَسْجُدُ أَوْ الْمُرَادُ مَنْ سَجَدَ؟ فِيهِ نَظَرٌ،
وَالثَّانِي أَظْهَرَ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَذَابَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُذْنِبِينَ مُخَالَفٌ
لِعَذَابِ الْكُفَّارِ، وَأَنَّهَا لَا تَأْتِي عَلَى جَمِيعِ أَعْضَائِهِمْ إِمَّا إِكْرَامًا لِمَوْضِعِ السُّجُودِ
وَعِظَمِ مَكَانِهِمْ مِنَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ لِكِرَامَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي خُلِقَ آدَمُ
وَالْبَشَرُ عَلَيْهَا وَفُضِّلُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ جَمِيعَ أَعْضَاءِ السُّجُودِ السَّبْعَةِ
وَهِيَ الْجَبْهَةُ وَالْيَدَانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْقَدَمَانِ... وَبِهَذَا جَزَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ.

❁ وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول للصحابه رضي الله عنهم: إن لم تصدقوني
بهذا الحديث فاقروا وإن شئتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ
حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

❁ وهنا يقول الحق (جل وعلا): شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع
المؤمنون... ولم يبق إلا أرحم الراحمين... أى أن الله عز وجل أذن لكل هؤلاء في
الشفاعة.. لأن الشفاعة لا تكون إلا بأن يأذن الله عز وجل بالشفاعة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي
يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢)، وأن يرضى الله عن الشافع: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (٣)، وأن يرضى الله عن المشفوع له.. وذلك بألا

(١) سورة النساء: الآية: (٤٠).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٥٥).

(٣) سورة طه: الآية: (١٠٩).



يكون المشفوع له مشركًا أو كافرًا فإن الله لا يقبل شفاعته أحدٍ في مشركٍ أو كافرٍ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿فَأَنْتَعَمَهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٢)... فإذا أذن الله للملائكة والأنبياء والمؤمنين بالشفاعة وشفعوا فإنه يقول بعدها: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»،.. فَيَقْبِضُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ... وإن أردت أن تعرف قدر تلك القبضة فتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣)، وهؤلاء الذين يُخْرِجُهُم اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ النَّارِ من أهل التوحيد والإيمان ولكنهم كانوا عُصَاةً وَلَمْ يَفْعَلُوا خَيْرًا قَطُّ... فَيُخْرِجُهُم بَعْدَ أَنْ احْتَرَقَتْ أَجْسَادُهُمْ مِنَ النَّارِ... فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ فَيُخْرِجُونَ مِنْهُ كَأَنَّهُم اللَّوْلُؤُ الْمُنْضُودُ، وَفِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ.. فإذا دخلوا الجنة بعد خروجهم من نهر الحياة ورآهم أهل الجنة قال: هؤلاء عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ.

❁ ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء الناس بعد خروجهم من نهر الحياة: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ».. أى أن كل ما تقع عليه أبصاركم فهو ملكٌ لكم.. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ... يقولون هذا وهم الذين احترقوا في النار ثم أدخلهم الله نهر الحياة، ثم أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ.. لكنهم لما رأوا الجنة نسوا كل ما رأوه من العذاب في النار... ونحن نعلم أن النبي ﷺ قد أخبر أن أشد الناس عذابًا في الدنيا من أهل الجنة سينسى كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة في الجنة.

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٨).

(٢) سورة المدثر: الآية: (٤٨).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٦٧).

❦ ثم يقول لهم الله ﷻ بعد كل ما رأوه في الجنة: «لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فَاللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَدْخِلْنَا جَنَّتَكَ وَارْضَ عَنَّا وَارْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦) أربعة يحتجون يوم القيامة

قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ: فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا.. وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا وَالصَّبِيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعْرِ... وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا... وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ... فَيَأْخُذُ مَوَاقِفَهُمْ لِيُطِيعَنَّهُ فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ... فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا سُحِبَ إِلَيْهَا»^(١).

جلس النبي ﷺ يوماً مع أصحابه ليعلمهم أمور دينهم ويذكرهم بالله عز وجل وبالدار الآخرة.

وفي هذا اليوم أخبرهم النبي ﷺ عن قصة الأربعة الذين يحتجون يوم القيامة.. فياترى ما هي قصتهم؟
تعالوا بنا لتتعرف على قصتهم.

إنهم أربعة من الرجال: رجل أصم لا يسمع أى شىء.. ورجل أحمق لا يفقه ولا يعقل أى شىء.. ورجل كبير جداً فى السن لا يعقل أى شىء.. ورجل عاش فى الفترة التى بين الرسل فهو لم يدرك أى رسول ولم يدرك أى رسالة.

فيأتى هؤلاء الأربعة يوم القيامة ويحتجون؛ لأن بعضهم لم تبلغه أى رسالة... والبعض الآخر لم يكن يعقل أى شىء.

فجاء الرجل الأول - وهو الأصم الذى لا يسمع - فوقف بين يدي الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجل أصم لا أسمع أى شىء

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٨١).

فلم تبلغنى رسالة الإسلام.

وجاء الرجل الثانى - وهو الأحمق الذى لا يعقل أى شىء - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) وقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجل أحمق لا أعقل أى شىء حتى كان الصبيان يضربوننى بالحجارة.

وجاء الرجل الثالث - وهو الكبير جدًّا فى السن الذى لا يعقل أى شىء - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجل كبير جدًّا فى السن لا أعقل أى شىء.

وجاء الرجل الرابع - وهو الذى مات فى الفترة بين الرسل فلم يدرك أى رسول ولا أى رسالة - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد عشت فى الفترة فلم أدرك أى رسالة ولا أى رسول.

✽ فلما استمع إليهم الحق (جل وعلا) أخذ منهم العهود والمواثيق على أن يُطيعوه.. ثم أمرهم أن يُلقوا بأنفسهم فى النار.. فمن أطاعه وألقى بنفسه فى النار وجدها بردًا وسلامًا ثم دخل الجنة.. ومَن عصاه ولم يدخلها سحبتة الملائكة وألقته فى النار فوجدها نارًا حقيقية.

✽ ولا بد أن نعلم أن تكليف الشخص متعلق بالعقل فقط، وليس بالسمع واللسان، فما دام الشخص عاقلًا بالغًا يستطيع أن يعلم ما يجب عليه وما يحرم عليه فإنه مكلف ولو كان لا يسمع ولا يتكلم، فإنه يستطيع أن يقرأ ويتعلم.... وهو مُحاسب على المعصية إن لم يغفر الله له، كما أنه مُثاب على الطاعة إن شاء الله تعالى.

أما عن كيفية حسابه على ارتكاب المخالفات التى يعلم أنها مخالفة للشرع فلا نعلم فرقًا بينه وبين غيره فى ذلك.... أما فيما لم يبلغه فيه شىء أى لم يصل إليه ولم يدرك أن هذا الأمر محرم مثلًا، فإنه معذور فيما لم يبلغه... بل قد دُلَّ



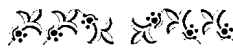
الحديث على أنه إن جاءه الإسلام ولم يفهم منه شيئاً فإنه سيُمتحن يوم القيامة. كما جاء في هذا الحديث. والله أعلم.

الدروس المستفادة:

(١) أن الله عز وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(٢) أن هناك مَنْ يعذره الله يوم القيامة؛ لأنه كان لا يعقل أو لأنه لم تبلغه الدعوة.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١).. وقال النبي ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشُبَّ، وَعَنِ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ»^(٢).

(٣) أن الخير كل الخير في طاعة الله (جل وعلا).. وأن الشر كل الشر في معصيته ومخالفة أمره.



(١) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١٤).

(٢٧) البطاقة والسجلات

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ.. فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَزَنْكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيُقَالُ: فَإِنَّكَ لَا تَظْلَمُ.. فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبطاقة في كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ وَلَا يَتَّقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ»^(١).

جلس النبي ﷺ يوماً مع أصحابه رضي الله عنهم وحكى لهم قصة رجل من أمته سيخلصه الله وينجيه من أهوال يوم القيامة.

فأخبر النبي ﷺ أن هذا الرجل سيأتي يوم القيامة ويقف بين يدي الله عز وجل فيأمر الله ملائكته أن يعرضوا عليه تسعة وتسعين سجلاً كلها ذنوب وسيئات... السجل الواحد يصل حجمه إلى آخر ما ينتهي إليه بصر الإنسان إذا نظر أمامه في الصحراء الخالية.

ثم يسأله الله عز وجل: عبدى... أهذه أعمالك؟ فلا يستطيع هذا العبد أن ينكر أبداً بل يقول: أجل هذه أعمالى... ثم يسأله الله عز وجل: هل ظلمك ملك من الملائكة فكتب عليك ذنباً لم تفعله؟ فيقول العبد: لا يا رب... فهذه كلها أعمالى التى عملتها.

فيخبره الله عز وجل بأن له حسنة كبيرة... فيأمر الله ملائكته فيخرجوا لهذا

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).



العبد بطاقة مكتوب فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم يأمر الله هذا العبد بأن يُحضر هذه السجلات التي يبلغ عددها تسعة وتسعين سجلاً لتُوضَع في الميزان.

فيتعجب هذا العبد ويقول: يا رب! وماذا تصنع هذه البطاقة الصغيرة مع تلك السجلات الكبيرة التي يبلغ عددها تسعة وتسعين سجلاً؟!

فيقول تعالى: احضر وزنك وسجلاتك فإنك لن تُظلم أبداً...

فوضعت السجلات في كفة الميزان ووضعت البطاقة في الكفة الأخرى، فطاشت السجلات ورجحت الكفة التي فيها البطاقة والتي فيها كلمة التوحيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وفاز الرجل وكان من أهل الجنة؛ لأنه كان من أهل التوحيد الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

ولا ريب أن هذا الرجل قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التي فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السجلات... إذ الناس مُتفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائل لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها في قلبه... فقد ورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ دَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»^(١)، فدل ذلك على أن أهل لا إله إلا الله متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤) كتاب الإيمان - ومسلم (١٩٣) (٣٢٥) كتاب الإيمان.

وليس كل مَنْ تكلم بالشهادتين كان بهذه المنزلة لأن هذا العبد صاحب البطاقة كان في قلبه من التوحيد واليقين والإخلاص ما أوجب أن عَظُمَ قَدْرُهُ حَتَّى صار راجحًا على هذه السيئات.

ومن أجل ذلك صَارَ المُدَّ من الصَّحابة رضي الله عنهم أفضل من مثل جبل أحدٍ ذهبًا من غيرهم.

وَمَنْ ذَلِكَ حديث البغى التي سَقَت كَلْبًا فَعُفِرَ لها... فلا يُقال في كل بَغْيٍ سَقَت كَلْبًا أنه قد عُفِرَ لها لأن هذه البغى قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغى وزاد عليه ما أوجب المغفرة والمغفرة تَحْصُلُ بما يَحْصُلُ في القلب من الإيمان الذي يعلم الله وحده مِقْدَارَهُ وَصِفَتَهُ... وهذا يفتح باب العمل فيجتهد به العبد أن يأتي بهذه الأعمال وأمثالها من مُوجِبَاتِ الرَّحْمَةِ وَعَزَائِمِ الْمَغْفِرَةِ ويكون مع ذلك بين الخوف والرجاء كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

❁ قال الإمام ابن القيم رحمته الله:

إن هذا الرجل حقق التوحيد، ووقع في ذنوب دون الشرك.. فليست هذه بطاقة كل مسلم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله... والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١)، ولكن هذا الرجل قام بالتوحيد حق القيام، ووقع في ذنوب دون الشرك، فنجا ببركة التوحيد وفضله، فينبغى للعبد أن يُخلص توحيدَه اللهُ عز وجل... فالتوحيد هو الإكسير الأعظم الذي لو وُضعت منه ذرة على جبال من الذنوب لنسفتها نسفًا.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٦).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).



وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(١).

فينبغي للعبد أن يحقق التوحيد بقلبه وجوارحه، حتى يكون على رجاء المغفرة من الله عَزَّ وَجَلَّ... اهـ.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم يعلم يقيناً أنه سيقف بين يدي الله يوم القيامة وأنه سوف يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة... ومن أجل ذلك كان واجباً عليه أن يستعد من الآن للقاء الله بكثرة الأعمال الصالحة والبعد عن المعاصي... وإن وقع في معصية فلا بد أن يسارع إلى التوبة.

(٢) أن أعظم نعمة في الكون كله أن يعيش المسلم موحدًا لله - جل وعلا - وأن يكون آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ..»^(٢).

(٣) سعة رحمة الله - جل وعلا - فقد أمر ملائكته بأن يُخرجوا لهذا العبد بطاقة التوحيد بعد أن كان يظن أنه لن ينجو من النار.

(٤) أنه لا يوجد أثقل ولا أعظم من كلمة التوحيد، فإنها أثقل شيء في ميزان العبد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢٨) هَذَا فِكَاكَ مِنَ النَّارِ

❁ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَصِنْفٌ يُحَاسِبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَصِنْفٌ يَحِثُّونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَمْثَالَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ ذُنُوبًا، فَيَسْأَلُ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - فَيَقُولُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ عِبِيدٌ مِنْ عِبَادِكَ فَيَقُولُ: حَطُّوْهَا عَنْهُمْ وَاجْعَلُوْهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَدْخِلُوْهُمْ بِرَحْمَتِي الْجَنَّةَ» (١).

❁ وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكَ مِنَ النَّارِ». وفي رواية عنه عن النبي ﷺ قال: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» (٢).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: «دَفَعَ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكَ مِنَ النَّارِ» معناه مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَاَلْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ»، لِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِذَلِكَ بِكُفْرِهِ... وَمَعْنَى «فِكَاكَ»: أَنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ وَهَذَا فِكَاكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لِلنَّارِ عَدَدًا يَمَلُؤُهَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، صَارُوا فِي مَعْنَى الْفِكَاكَ لِلْمُسْلِمِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٣).

(١) حسن: رواه الحاكم بإسناد حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٧) كتاب التوبة.

(٣) رياض الصالحين (ص ١٦٠).



❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١)» (٢).

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلُقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له... فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلُقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عَزَّ وَجَلَّ. فالعبد المؤمن إذا كان في قبره وأجاب على أسئلة الملكين يُقال له: انظر.. فينظر إلى مكانٍ في النار فيُقال له: هذا منزلك لو مُتَّ على غير ذلك... أو لو كنت كافرًا من أهل النار.. ولكن انظر فهذا منزلك.. فينظر فيرى منزله في الجنة فيفرح ويقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي... أي: حتى أدخل منزلي في الجنة.

أما الكافر فإنه لا يُجيب على أسئلة الملكين فيُقال له: انظر فهذا منزلك لو كنت مُتَّ على الإيمان.. فيرى منزلًا في الجنة.. فيُخلق هذا المشهد وتُفتح له نافذة على النار ويرى منزله في النار فيُقال له: هذا منزلك لأنك كفرت بالله (جل وعلا)... فالمؤمن يرث منزل الكافر في الجنة لأن الكافر دخل النار... والكافر يرث منزل المؤمن الذي في النار لأن المؤمن دخل الجنة... وإذا دخل الكفار النار تظل النار تشتعل وتضطرم على أصحابها وتقول: «هل من مزيد» حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط قط.. أي: قد اكتفيت لا أريد شيئًا بعد ذلك.. أما الجنة فإنه من رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيمٍ لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى في الجنة فضلًا فيخلق الله

(١) سورة المؤمنون: الآية: (١٠).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٩٩).

خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزِلُ بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ... وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنُهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»^(١).

وأما اللفظ الذي وقع في صحيح البخارى في حديث أبى هريرة: «وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة.

فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه... فإنه لا يُعذب إلا من قامت عليه حُجته وكذَّب رُسُلَه... قال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُآ أَلْتَرِىَآ تَكْرَهُ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾... ولا يظلم الله أحدًا من خلقه.

❖ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

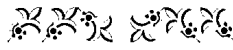
وَأَمَّا رَوَايَةٌ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ» فَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيَسْقِطُهَا عَنْهُمْ وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ... فَيَدْخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ... وَلَا بَدَّ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿١٠﴾ وَقَوْلُهُ: «وَيَضَعُهَا» مَجَازٌ وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ. لَكِنَّ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٦١) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) سورة الملك: الآيات: (٨-١٠).



سَيِّئَاتِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ لِكُونِهِمْ حَمَلُوا الْإِثْمَ الْبَاقِي
 وَهُوَ إِثْمُهُمْ... وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ آثَامًا كَانَ لِلْكَفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنَّ سَنُوهَا
 فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُوضَعُ عَلَى الْكَفَّارِ مِثْلَهَا لِكُونِهِمْ سَنُوهَا
 وَمَنْ سَنَّ سَنَةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (١٧/١٣٣-١٣٤).

(٢٩) أهون أهل النار عذاباً

يريد أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهباً

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(١).

وفي رواية: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشُّرْكَ»^(٢).

وفي رواية: «فَيَقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ»^(٣).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟» .. إنه ﷺ يقول ذلك لأهون أهل النار عذاباً والذي وصفه النبي ﷺ عذابه قائلاً: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوَضَعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ»^(٤).

فماذا يقول الله ﷻ لأشد الناس عذاباً يوم القيامة؟!

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٥٧) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٥) (٥٣) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٦١، ٦٥٦٢) كتاب الرقاق - ومسلم (٢١٣) كتاب الإيمان.



إذا كان هذا حال أهون أهل النار عذاباً ويتمنى أن يفدى نفسه بكل ما في الأرض... ولذا فإنه عندما يسأله الله ﷻ هذا السؤال: «لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟» لا يتردد لحظة واحدة بل يقول: «نعم» مع أنه في الدنيا كان مشغولاً عن ربه ﷻ بجمع حُطامٍ من الدنيا لا يساوى ذرة مما في الأرض.. ولو أنه أطاع ربه وانشغل بطاعته ولم يحرم نفسه من السعى في دُنياه لكان جديراً بأن ينجو من النار.. مع أنه في الدنيا كان يأبى أن يُضحى بدقائق يقف فيها بين يدي الله ليُصلى.. أما الآن فهو على أتم الاستعداد لأن يُضحى ويفدى نفسه بكل ما في الأرض لو كان معه.

فإذا قال: «نعم» يقول له الحق (جلّ وعلا): «أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

❁ وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١﴾.

يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه ما تُقبل منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات.

ولم يبقَ إلا العذاب الأليم، الموجه الدائم الذي لا يخرجون منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمداً (٢).

❁ قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «فيقال له: كذبت» قال النووي: «معناه لو

(١) سورة المائدة: الآيتان: (٣٦-٣٧).

(٢) تفسير السعدي (ص ٢٤٢)

رددناك إلى الدنيا لما افتديت لأنك سُئلت أيسر من ذلك، فأبيت ... فيكون من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا لَكذبُونَ﴾، وبهذا يجتمع معنى هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ﴾^(١).

قوله: «قد أردت منك» أى أحببت منك، والإرادة فى الشرع تُطلق ويُراد بها ما يُعم الخير والشر والهدى والضلال كما فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٢). وهذه الإرادة لا تتخلف.

وتُطلق أحياناً ويُراد بها ما يُرادف الحب والرضا، كما فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٣)، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى فى هذا الحديث: «أردت منك» أى أحببت.

والإرادة بهذا المعنى قد تتخلف، لأن الله تبارك وتعالى لا يُجبر أحداً على طاعته، وإن كان خلقهم من أجلها ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٤). وعليه فقد يريد الله تبارك وتعالى من عبده ما لا يحبه منه. ويحب منه ما لا يريد.

وهذه الإرادة يسميها ابن القيم رحمته الله بالإرادة الكونية أخذاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥).

ويسمى الإرادة الأخرى المرادفة للرضا: بالإرادة الشرعية.

(١) سورة الرعد: الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

(٤) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

(٥) سورة يس: الآية: (٨٢).



وهذا التقسيم، مَنْ فهمه، انحلت له كثير من مشكلات مسألة القضاء والقدر، ونجا من فتنة القول بالجبر أو الاعتزال وتفصيل ذلك في الكتاب الجليل «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم رحمته الله تعالى.

❁ قوله: «وأنت في صلب آدم»: قال القاضي عياض: يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ^(١) الآية.

فهذا الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، فمن وفى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوف به فهو كافر... فمراد الحديث: أردت منك حين أخذت الميثاق، فأبيت إذ أخرجتك إلى الدنيا إلا الشرك... ذكره في «الفتح» ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧٢).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٣٢-٣٣٤).

(٣٠) فضل الشهادة

❁ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنَزْلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، خَيْرَ مَنَزِلٍ. فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ. فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى، إِلَّا أَنْ تُرَدِّنِي إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»^(١).

❁ وفي رواية: عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ». وفي رواية: «لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»^(٢).

❁ هذا الحديث أورده الإمام البخارى تحت باب: «تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا»...

وَلِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ فِي الشُّهَدَاءِ قَالَ: «فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ااطَّلَاعَةَ، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى...» وَلَا بِنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مُرْسَلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ... وَلِلتَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لِأَبِيكَ؟ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٩٦) - وأصله في صحيح مسلم.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٧) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٨٧٧) كتاب الإمارة.

(٣) فتح البارى (٦/٣٩).



فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحُدٍ، قال رسول الله ﷺ: «يَا جَابِرُ، أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ ﷻ لِأَبِيكَ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا^(١)»، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَىَّ أَعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْسِنِي فَأَقْتُلْ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلُغْ مَنْ وَرَائِي. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾^(٢).

❁ فمن خلال تلك الروايات يتضح لنا أنه ليس هناك أحد يدخل الجنة يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى حتى لو كان له كل ما على الأرض من شيء... وذلك لما في الجنة من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر... فلا وجه للمقارنة بحالٍ من الأحوال... فلا أحد يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا.. لا من أجل أن يستمتع بما فيها.. كلا.. فقد رأى نعيم الجنة الذي لا يخطر على قلب بشر.. ولكنه يريد أن يرجع إلى الدنيا من أجل أن يُقتل في سبيل الله ﷻ.. وذلك لِمَا رأى من الكرامة وفضل الشهادة في الجنة.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا مِنْ صَرَاحِ الْأَدِلَّةِ فِي عَظِيمِ فَضْلِ الشَّهَادَةِ وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ الْمَشْكُورُ... وَأَمَّا سَبَبُ تَسْمِيَّتِهِ شَهِيدًا فَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شَمَيْلٍ: لِأَنَّهُ حَيٌّ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ شَهِدَتْ وَحَضَرَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَأَرْوَاحَ غَيْرِهِمْ إِنَّمَا تَشْهَدُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ (عَلَيْهِمُ الْبُصْلَةُ وَالسَّلَامُ) يَشْهَدُونَ لَهُ بِالْجَنَّةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ يَشْهَدُونَهُ فَيَأْخُذُونَ رُوحَهُ.

(١) أى: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ وَخَاتِمَةَ الْخَيْرِ بِظَاهِرِ حَالِهِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ عَلَيْهِ شَاهِدًا بِكَوْنِهِ شَهِيدًا وَهُوَ الدَّمُ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ عَلَى الْأُمَّمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِبْلَاجِ الرَّسُولِ الرَّسَالَةَ إِلَيْهِمْ... وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي هَذَا الْوَصْفِ^(١).

❁ وفي رواية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزَوْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْتُ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْتُ، فَأُقْتَلَ»^(٢).

وعنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَلِمُهُ يُدْمَى: اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيْحُ رِيْحُ مِسْكِ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: «تَضَمَّنَ اللَّهُ» وفي رواية: «تَكْفَلَ اللَّهُ» أي: أَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَفْسِهِ فَضْلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا «لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ» مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ «لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي» أي: لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٣٥-٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخارى بعضه (٣٦) كتاب الإيمان.

«الكلم»: الجرح.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.



أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا في سبيل الله وإيمانًا بالله وبوعده وتصديقًا برسله وإخبارهم ورسالتهم... فالله **عَزَّوَجَلَّ** تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إن مات شهيدًا.. أو أن يُسَلِّمه من كل مكروهٍ فيعود إلى منزله الذى خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾.

❖ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَدْخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُؤَاخَذَةٍ بِذَنْبٍ وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُكْفَرَةً لِدُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فِيمَا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ **ﷺ**: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ» أَمَّا الْكَلِمُ فَهُوَ الْجُرْحُ وَيُكَلِّمُ أَيْ يُجْرِحُ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشُّهِيدَ لَا يَزُولُ عَنْهُ الدَّمُ بِغَسَلٍ وَلَا غَيْرِهِ... وَالْحِكْمَةُ فِي مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِدٌ فَضِيلَتِهِ وَبَدَلِهِ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَانْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَنَحْوِ هَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ الْحَلْفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا... قَالَ أَصْحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٣٠-٣١) بتصرف.

قوله ﷺ: «لولا أن يُشَقَّ على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة، فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني»، فالنبي ﷺ يود ويحب أن يخرج في كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبداً عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبي ﷺ مؤنة تكفيهم.. فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرَج الشديد لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبي ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعْضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرَّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهْمَّهَا. وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرَّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ. قَوْلُهُ ﷺ: «لَو دِدْتُ أَنْ أَعْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَعْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَعْزُو فَأُقْتَلُ» فِيهِ فَضِيلَةُ الْعَزْوِ وَالشَّهَادَةِ... وَفِيهِ تَمَنُّي الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنُّي مَا لَا يُمْكِنُ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فَرَضَ كَفَايَةً لَا فَرَضَ عَيْنٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٣٢).

(٣١) مشهد ذبح الموت

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْطَلِقُونَ خَائِفِينَ وَجَلِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَنْطَلِقُونَ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ رَبَّنَا هَذَا الْمَوْتُ، فَيَأْمُرُ بِهِ فَيَذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ فِيهِ أَبَدًا»^(١).

وفي رواية: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ (وَهُؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا) وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٢).

وفي رواية أخرى في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يَذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرِحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ».

فيا لها من حسرة شديدة حيث يعلم الإنسان أنه من المُخَلَّدِينَ في النار فلا ماله ينفعه ولا ولده يشفع له ولا منصب ينجيه... ولذا يقول أحد الصالحين:

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألباني في التعليق الرغيب (٤/٢٧٨-٢٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٣٠) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٤٩) كتاب الجنة.

والله لو علم أهل النار أنهم يمكثون في النار مليون سنة لكانوا أسعد الناس!!
فتعجب أحدهم وقال كيف ذلك؟ فقال له الرجل: لأنهم سيفرحون أنهم
سيخرجون بعد مليون سنة... ولكنهم سيُخلَّدون في النار.

ووالله إن أجسادنا لضعيفة لا تتحمل نار الدنيا فكيف بنار الآخرة التي هي
أشد من نار الدنيا بسبعين مرة..... أوقد عليها ألف عام حتى احمرَّت وألف
عام حتى ابيضَّت وألف عام حتى اسودَّت فهي الآن سوداء قاتمة!!

فيالها من فرحةٍ شديدة لأهل الجنان عندما يعرفون أنهم مُخلَّدون في الجنة
يشربون من أنهارها ويأكلون من ثمارها وأشجارها ويتلذذون بالحدود العينية ثم
يتم لهم النعيم الأعظم برؤية وجه الله عزَّ وجلَّ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

✽ فالموت نفسه يُذبح لأن الله عزَّ وجلَّ كتب الخلود لأهل الجنة في الجنة...
وكتب الخلود للكفار في النار.. أما أصحاب المعاصي من أهل التوحيد فهم في
مشيئة الله.. إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم.. فإن عذبهم في النار بقدر ذنوبهم
فلا بد أن يُخرجهم بعد ذلك ليدخلوا الجنة خالدين فيها أبدًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢) ادخلوا الجنة أنتم وأبائكم

عن شُرْحَبِيلِ بْنِ شُفْعَةَ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُقَالُ لِلْوِلْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا»، قَالَ: «فَيَأْتُونَ»، قَالَ: «فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مَا لِي أَرَاهُمْ مُحَبَّنَاطِيَيْنَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ»، قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا»، قَالَ: «فَيَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ»^(١).

ففى هذا الحديث يخبر أحد أصحاب النبي ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول هذا الحديث... وهذا دليل على مدى حرص النبي ﷺ على أن يُعلم أصحابه الخير كله، ويُعلم أمته من بعدهم... فالصَّحابة نقلوا للأمة كل ما تعلموه من النبي ﷺ... وظلَّت الأجيال تتناقل هذا العلم حتى وصل إلينا.

فالشَّاهد أن النبي ﷺ أخبرهم أنه يُقال للولدان يوم القيامة - أى الأطفال الذين ماتوا واحتسبهم آبائهم وأمهاتهم - فيقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنة... وهل هناك أحدٌ لا يشتهي أن يدخل الجنة؟!... لكن الذى حدث أن هؤلاء الأطفال رفضوا أن يدخلوا الجنة حتى يدخل معهم آبائهم وأمهاتهم.. ولذا فإنهم يقولون: يا رب حتى يدخل آبائنا وأمهاتنا.. ويظل هؤلاء الأطفال ممتنعين عن دخول الجنة حتى تكتمل سعادتهم بدخولهم الجنة مع آبائهم وأمهاتهم الذين احتسبواهم عند موتهم وتجرعوا مرارة الصبر وألم الفراق... فيقول لهم الحق (جَلَّ وَعَلَا): «مَا لِي أَرَاهُمْ مُحَبَّنَاطِيَيْنَ» والمحبنطىء هو الممتنع امتناع طلب لا امتناع رفض... فهم لا يرفضون دخول الجنة ولكنهم ممتنعين حتى يتحقق لهم هذا الطلب العظيم: ألا وهو دخول آبائهم وأمهاتهم الجنة

(١) صحيح: رواه أحمد، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.

معهم.. ويا له من وفاءٍ يعجز القلم عن وصفه... هنا يقول لهم الحق (جل وعلا) بعد أن رأى من هؤلاء الأطفال تلك الصورة الفريدة من الوفاء: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ» والمقصود هنا: الآباء والأمهات.

❁ فلو لم يكن للصبر والاحتساب عند موت الأبناء إلا هذا الحديث لكان كافيًا.. فاللهمَّ احفظ أبناءنا وارزقنا الصبر والاحتساب إذا فقدنا واحدًا منهم يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣) ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الجنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١)» (٢).

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعدّه الله لأوليائه وأهل طاعته... وهي نعيمٌ كامل لا يشوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كدر. وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويذهله، لأن تصوّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه. وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوي شيئاً... ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «موضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها» (٣).

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى (٤)... قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحَّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازٌ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦).

(١) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٤) الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رحمته الله (ص ١١٣).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٨٥).

(٦) سورة التوبة: الآية: (٧٢).

❁ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْقِيم «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»: «وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملاها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ومُلْكُهَا بِالْمَلِكِ الْكَبِيرِ، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب. وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفَّى. وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسليم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن أنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجَدِّ السَّريِّع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في مُلْكِهِ وَسُرْرِهِ وَقُصُورِهِ وَبَسَاتِينِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ عَامٍ وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ خِيَامِهَا وَقِبَابِهَا، فَالْخِيْمَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ دُرَّةٍ مَجُوفَةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيْلًا



في السماء، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهي عُرف من فوقها عُرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار. وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلى الرُّتَب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأَسِرَّة عليها البشخانات - وهي الحِجَال مُزررة بأزرار الذهب - فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحُسنهم فعلى صورة القمر. وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثٍ وثلاثين على صورة آدم ﷺ أبي البشر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبين وأعلى منهما خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها، فنجائب إن شاء الله مما شاء تسيير بهم، وحيث شاءوا من الجنان. وإن سألت عن حُلِيِّهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان. وإن سألت عن غلمانهم فولدان مُخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فهن الكواعب الأتراب، اللائى جرى في أعضائهن ماء الشباب... فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء في تقابل النيران - الشمس والقمر - وإذا حدثته فما ظنك بمحادثة الحبيين. وإن ضمَّها إليه فما ظنك بتعائق الغصنين، ويرى وجهه في صحن خدها، كما يرى في المرآة التي جلاها صقيلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا

حُلِّها. لو اطلعت على الدنيا لمألت ما بين الأرض والسماء ريحًا. وأفواه الخلائق تهليلًا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن مَنْ على ظهرها بالله الحى القيوم، ونصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيتها، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حُسْنًا وجمالًا، ولا يزداد لها على طول المدى إلا محبةً ووصالًا، مُبرأة من الحمل والولادة والحيض والنفاس، مُطَهَّرة من المُخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يَفنى شبابها، ولا تَبلى ثيابها ولا يَخْلُق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قَصرت طرفها على زوجها، فلا تطمح لأحدٍ سواه وقصر طرفه عليها فى غاية أمنيته وهواه، وإن نظر إليها سَرَّته وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو منها فى غاية الأمانى... هذا ولم يطمثها قبله إنسٌ ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنتورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

وإن سألت عن السن فأتراب فى أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحُسن، فهل رأيت الشمس والقمر، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد فى أصفى بياض فى أحسن حور، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب، ونهودهن كألطف الرمان، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيِّرات الحِسان، اللاتى جُمع لهن بين الحسن والإحسان، فأعطين جمال الباطن والظاهر فهن أفرح النفوس وقرّة النواظر وإن سألت عن حُسن العشرة ولذّة ما هنالك فهن العُرب المتخبيات إلى الأزواج بلطافة التبعل التى تمتزج بالروح أى امتزاج.



فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها. وإذا انتقلت من قصرٍ إلى قصرٍ قلت: هذه الشمس متنقلة في بروج فلکها، وإذا حضرت زوجها، فيا حُسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة المعانقة والمخاصرة.

وإن غنّت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن أنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع. وإن قبّلت فلا شيء أشهى إليه من التقبيل، وإن نوّلت فلا ألد ولا أطيب من ذلك التنويل.

هذا وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المُنزّه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه. فاستمع يوم ينادى المنادى: يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحى على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم فيستوون على ظهورها مسرعين، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جُعل لهم موعدًا. وجمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فُنُصب هناك، ثم نُصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. وجلس أدناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دنى على كئيبان المسك ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم في العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادى: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا. ويُدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار. فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جَلَّ جلاله وتقدست أسماؤه: وقد أشرف عليهم من فوقهم. وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا

تُرد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ويضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب، ولم يرونى، فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: قدرضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرص عنكم لم أسكنكم جنتي.

هذا يوم المزيد فاسألونى، فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه. فيكشف لهم الرب -جل جلاله- الحُجُب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره ما لو لا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لا حترقوا. ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة حتى إنه يقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ يُذكره ببعض غدراته فى الدنيا، فيقول: يا رب ألم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إلى ربِّها ناطرة ﴿٢٣﴾ ووجوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿١﴾.

فحى على جنات عدنٍ فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم ﴿٢﴾



(١) سورة القيامة: الآيات: (٢٢-٢٥).

(٢) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح / للإمام ابن القيم (ص: ٢٦٢ - ٢٦٥).

(٣٤) حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ .. وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجَبْرِئِيلَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا .. ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا جَبْرِئِيلُ! اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جَبْرِئِيلُ! اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا .. فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جَبْرِئِيلُ! اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»^(١).

وفي رواية:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(٢).

قال الإمام النووي رحمته الله:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ مِنَ التَّمَثِيلِ الْحَسَنِ ... وَمَعْنَاهُ لَا يُوَصَّلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ .. وَالنَّارَ بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِهِمَا فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحْجُوبِ ... فَهَتَكَ حِجَابَ الْجَنَّةِ بِافْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتَكَ حِجَابَ النَّارِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٨٧) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

وفي رواية لمسلم: «حَفَّتْ» بدل «حُجِبَتْ» وَهُوَ بِمَعْنَاهُ: أَي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا هَذَا الْحِجَابُ فَإِذَا فَعَلَهُ دَخَلَهَا.

بَارَتْكَابِ الشَّهَوَاتِ... فَأَمَّا (الْمَكَارَهُ) فَيَدْخُلُ فِيهَا الْاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُواظَبَةَ عَلَيْهَا وَالصَّبْرَ عَلَى مَشَاقِّهَا، وَكَظْمُ الْعَيْظِ، وَالْعَفْوُ، وَالْحِلْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيِّءِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَأَمَّا (الشَّهَوَاتُ) الَّتِي النَّارُ مَحْفُوفَةٌ بِهَا، فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَاتُ كَالْخَمْرِ، وَالزَّيْنِ، وَالنَّظَرَ إِلَى الْأَجْنِبِيَِّّةِ، وَالْغَيْبِيَّةِ، وَاسْتِعْمَالِ الْمَلَاهِي، وَنَحْوَ ذَلِكَ... وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذِهِ لَكِنَّ يُكْرَهُ الْإِكْتَارُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَجْرَّ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ، أَوْ يُقَسِّي الْقَلْبَ، أَوْ يَشْغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ يُحَوِّجَ إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا لِلصَّرْفِ فِيهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ^(١).

وهكذا فقد أخبر النبي ﷺ أن النار قد أُحِيطتْ بِالشَّهَوَاتِ وَأَنَّ الْجَنَّةَ قَدْ أُحِيطتْ بِالْمَكَارِهِ.. يَعْنِي: أُحِيطتْ بِمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ.. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَاطِلَ مَحْبُوبٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ وَالْحَقُّ مَكْرُوهٌ لَهَا.. فَإِذَا جَاهَدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ وَتَجَاوَزَ هَذَا الْمَكْرُوهَ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ الْمَحْرَمَاتِ فَسَوْفَ يَصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

✽ فالزنى - عيادًا بالله - محبوبٌ إلى النفس الأمارة بالسوء.. فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار. وكذلك شرب الخمر.. فهو محبوبٌ إلى النفس الأمارة بالسوء وبخاصة حينما يكون الإنسان في صحبة أصدقاء السوء.. ولذلك جعل الشارع لشرب الخمر عقوبة رادعة بأن يُجلد شاربها. فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وشرب الخمر فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار والعياد بالله.

وكذلك الغيبة والنميمة محبوبة إلى النفس الأمارة بالسوء وبخاصة عند

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٢٤١-٢٤٢).



اجتماع الأصدقاء.. فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وخاض في أعراض الناس فإن ذلك سيكون سبباً لدخوله النار.

وهكذا في كل شهوة محرمة كالسرقة والغش وسائر المحرمات، وعلاج ذلك كله في قوله ﷺ: «وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»، فإذا تجاوز المسلم تلك الشهوات ولم يهتك حجابها... وانشغل بفعل الطاعات التي هي قد تكون مكروهة إلى النفس فإن ذلك سيكون سبباً لدخوله الجنة.

ولهذا قد تجد الإنسان يسمع صوت المؤذن في صلاة الفجر وهو نائمٌ في فراشه الوثير الدافئ في الشتاء البارد.. فإذا أثر الراحة فاته الخير الكثير وإذا هتك حجاب المكروه فقام وتوضأ بالماء البارد وذهب إلى المسجد ليُصلي صلاة الفجر وصل إلى الجنة.. فقد قال النبي ﷺ: «من صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر..

✽ وكذلك الصدقة مكروهة إلى النفس الأمانة بالسوء.. فإذا اقتحم الإنسان تلك العقبة وهتك حجاب المكروه فأخرج المال وتصدق فقد سار في طريقه إلى الجنة.

✽ وكذلك الحجاب مكروهٌ جداً إلى النفس الأمانة بالسوء... فالفتاة المسلمة قد تحب أن تخرج مُتزينة حتى تشعر بجمالها وأن الكل يمدحها ويمدح ثيابها الجميلة وشعرها الناعم.. فإذا هتكت حجاب المكروه فارتدت حجابها وتشبهت بأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ فسوف يكون ذلك سبباً في دخولها الجنة.

✽ وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. قد يكون مكروهاً شديداً على النفوس؛ لأن الإنسان يخشى أن يكون ثقیلاً على الناس إذا أمرهم بالمعروف

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

ونهاهم عن المنكر فإذا هتك حجاب المكروه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله فإن هذا سيكون سبباً لدخوله الجنة.

❁ وكذلك الجهاد في سبيل الله مكروه إلى النفس ❁ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ ... بلى إنه مكروهٌ للنفس فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب كان ذلك سبباً لدخول الجنة.

واستمع إلى قول الله تعالى: ❁ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ❁ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾. فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة.

❁ وهكذا.. فالنار حُفَّتْ بالشهوات والجنة حُفَّتْ بالمكاره.. فجاهد نفسك على ترك المحرمات وفعل الواجبات وإن كرهت ذلك.. واعلم أنك إن أكرهت نفسك على طاعة الله فسوف تحب الطاعة وتألفها حتى تُصبح أحب إلى نفسك من كل متاع الدنيا الزائل... وهذا كله من باب مُجاهدة النفس.. ولن يكون ذلك إلا بالاستعانة بالله عزَّ وجلَّ ثم مجاهدة النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة البقرة: الآية: (٢١٦).

(٢) سورة آل عمران: الآيات: (١٦٩-١٧١).

﴿٣٥﴾ احتجاج الجنة والنار

﴿عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّكُمْ مَا عَلَىٰ مِلْؤُهَا»^(١).

﴿في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه «احتجَّت الجنة والنار» يعني تحتاجا فيما بينهما، كل واحدة تُدلي بحُجتها... وهذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نُؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحرار الإنسان فيها، وقال: كيف تتحاج الجنة والنار وهما جمادان!.

فلقد أخبرنا الله ﷻ أَنَّهُ قَالَ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنْتِنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) وهما جمادان.. وأخبرنا الله ﷻ أَنَّهُ قَالَ لِلْقَمَرِ ﴿أَنْتِ قَمَرٌ فَانْشِقِّي نَصْفَيْنِ لِمَا طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ ذَلِكَ لِتَكُونَ مَعْجِزَةً يَرَاهَا الْمُشْرِكُونَ فَيُؤْمِنُوا﴾^(٣) أَفَقَرَبْتِ السَّاعَةَ وَأَنْشِقِ الْقَمَرَ﴾^(٣) بل وأخبر النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلرَّحْمَنِ (جَلَّ وَعَلَا) قَدْ اهْتَزَّتْ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. أَي: فَرَحًا بِقُدُومِ رُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ. وَأَخْبَرَنَا الْحَقَّ (جَلَّ وَعَلَا) أَنَّ الْأَيْدِي وَالْأَلْسُنَ وَالْجُلُودَ سَتَشْهَدُ عَلَيَّ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَنَّهَا جَمَادٌ... بل وأخبر الحقَّ (جَلَّ وَعَلَا) أَنَّ الْكُونَ كُلَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَيَسْجُدُ لِلَّهِ ﷻ.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب التفسير - ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة ووصفة نعيمها وأهلها.

(٢) سورة فصلت: الآية: (١١).

(٣) سورة القمر: الآية: (١).

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢﴾.

فالجنة احتجت على النار، والنار احتجت على الجنة،... النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين.

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة، والمتكبرون أصحاب الترفع والعلو، الذين يغمطون الناس ويردون الحق... كما قال النبي ﷺ في الكبر أنه: «بَطْرُ الحق وغمط الناس» ﴿٣﴾.

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله.

وربما يكون صاحب النار حسن الأخلاق لين الجانب مع أهله وأصحابه؛ لكنه مستكبرٌ جبارٌ عنيدٌ بالنسبة للحق.. فلا يقبل الحق ويرفض الدين جملة وتفصيلاً.. ولذلك فلا ينفعه لين جانبه وحسن أخلاقه لاستكباره على الحق ورفضه له.

أما الجنة فقالت: إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس، فهم في الغالب الذين يلينون للحق وينقادون له... وأما أهل الكبرياء والجبروت، ففي الغالب أنهم لا ينقادون.

فقضى الله ﷻ بينهما قال: «إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ» وقال للنار: «إِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ» إنك الجنة رحمتي: يعنى أنها الدار

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤٤).

(٢) سورة الحج: الآية: (١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.



التي نشأت من رحمة الله، وليست رحمته التي هي صفته؛ لأن رحمته التي هي صفته وصف قائم به... لكن الرحمة هنا مخلوق.

أنت رحمتي يعنى: خلقتك برحمتي، أرحم بك من أشاء.

وقال للنار: أنت عذابي أَعَذَّبَ بِكَ مَنْ أَشَاء... كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١). فأهل الجنة هم أهل رحمة الله - نسأل الله أن يجعلني وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب الله.

ثم قال عز وجل: «وَلِكُلِّكُمْ عَلَىٰ مَلَأُهَا» تكفل عز وجل وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملاً النار... وفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته أوسع من غضبه، فإنه إذا كان يوم القيامة ألقى من يُلقى في النار، وهي تقول: هل من مزيد، يعنى أعطوني، أعطوني^(٢).

زيدوني... ولكن الله عز وجل لا يُدخل جهنم إلا من كفر بالله وقامت عليه الحجة.. فيضع الله قدمه - وفي رواية: رجله - فينزوي بعضها إلى بعض وينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب عز وجل قدمه عليها وتقول: قَطَّ قَطَّ.. أى: حسبي ويكفيني هذا.. فهذا ملؤها... أما الجنة فإن الجنة واسعة، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضل زائد على أهلها، فيُنشئ الله تعالى لها أقوامًا فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته؛ لأن الله تكفل لها بملئها.

فمن كمال رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى في الجنة فضلٌ فيخلق الله خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٢٩).

مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ،
بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ... وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنُهُمْ فَضْلَ
الْجَنَّةِ»^(١).

وأما اللفظ الذي وقع في صحيح البخارى في حديث أبى هريرة: «وإنه يُنشئ
للنار من يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة^(٢).

✽ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» هَذَا دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الثَّوَابَ
لَيْسَ مُتَوَقِّفًا عَلَى الْأَعْمَالِ فَإِنَّ هُوَ لَاءِ يُخْلَقُونَ حِينَئِذٍ وَيُعْطَوْنَ فِي الْجَنَّةِ مَا
يُعْطَوْنَ بِغَيْرِ عَمَلٍ... وَمِثْلُهُ أَمْرُ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا طَاعَةً قَطُّ
فَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ
سَعَةِ الْجَنَّةِ فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ لِلْوَاحِدِ فِيهَا مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا ثُمَّ
يَبْقَى فِيهَا شَيْءٌ لِيَخْلُقَ يُنْشِئُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٦١) كتاب الأيمان والندور - ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة
وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) يوم في الجنة / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٢٨).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/٢٦٧).

(٣٦) أول من تُسعر بهم النار ثلاثة

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنَّ يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَةَ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

✽ فهو لاء الثلاثة لو أخلصوا النية لله (جلَّ وعلا) ولم يقعوا في الرياء وحب الثناء من الناس عليهم لكانوا في أعلى درجات الجنة.. ولكن لما تبدلت نياتهم وفسدت مقاصدهم وأرادوا بأعمالهم الصالحة الثناء من الناس ولم يُريدوا وجه الله تعالى كانوا أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة.

✽ ففي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ ثلاثة أصناف:

المتعلم والمقاتل والمتصدق.. فأما المتعلم فهو الذي تعلَّم العلم وتعلم القرآن وأخذ يُعلم الناس العلم والقرآن... فلما أُتى به يوم القيامة.. فعرَّفه الله نعمته فعرَّفها وأقرَّ واعترف، فسأله ماذا صنعت؟ يعنى فى شكر هذه النعمة،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

فقال: تعلمت العلم وقرأت القرآن فيك، فقال الله له: كذبت، ولكن تعلمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: قارئ... ليس لله، بل لأجل الرياء، ثم أمر به فسُحب على وجهه في النار... وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم في طلب العلم أن يخلص نيته لله عَزَّوَجَلَّ وألا يبالي أقال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك. لا يهمه هذا الأمر... لا يهمه إلا رضا الله عَزَّوَجَلَّ وحفظ الشريعة وتعليمها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن عباد الله حتى يكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصديقين. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (١).

وأما مَنْ تعلم لغير ذلك، ليُقال إنه عالم وإنه مجتهد وإنه علامة وما أشبه ذلك من الألقاب فهذا عمله حابط والعياذ بالله، وهو أول مَنْ يُقْضَى عليه ويُسْحَب على وجهه في النار ويكذَّب يوم القيامة ويوبَّخ.

أما الثاني فهو رجلٌ مُقاتل، قاتل في سبيل الله وقتل، فلما كان يوم القيامة أتى به إلى الرب عَزَّوَجَلَّ فعرفه نِعَمَه فعرَّفها... يعني: أنه سبحانه وتعالى أمده وأعدّه ورزقه وقواه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أن قاتل، ثم سُئل ماذا صنعت فيها؟ قال: يا رب قاتلت فيك - أي من أجلك - حتى قُتلت... فيُقال: كذبت.. بل قاتلت من أجل أن يُقال فلان شجاع جرىء، وقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه في النار والعياذ بالله... فالمقاتلون في سبيل الله لهم نوايا متعددة... منهم مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ... وأما مَنْ قاتل ووطنية ففي سبيل الطاغوت، ومَنْ قاتل حمية على قومية فهو في سبيل الطاغوت، ومَنْ قاتل لينال دنيا فهو في سبيل الطاغوت... لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ (٢).

(١) سورة النساء: الآية: (٦٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (٦٧).



لكن لو قاتل الإنسان، لا من أجل القومية ولا الوطنية، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدى عليه الكفار فهذا في سبيل الله.

أما الثالث فرجل أنعم الله عليه بالمال وصار يتصدق ويعطى وينفق... فإذا كان يوم القيامة أتى به إلى الله وعرفه نعمه فعرّفها ثم سأله ماذا صنعت فيها؟ فيقول: تصدقت وفعلت وفعلت... فيقال: كذبت ولكنك فعلت ليُقَالَ فلان جواد يعنى أنه كريم، وقد قيل... ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه في النار... هذا أيضًا من الثلاثة الذين تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة... وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يُخلص النية لله في جميع ما يبذله من مالٍ أو بدنٍ أو علمٍ أو غيره، وأنه إذا فعل شيئاً مما يُبتغى به وجه الله تعالى وصرفه إلى غير ذلك، فإنه آثمٌ به. والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ١٧٠-١٧١).

(٢٧) حوض النبي ﷺ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتُ سُورَةِ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿١﴾ ثُمَّ قَالَ: «اتَّذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عز وجل، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْتُ بِعَدَاكَ» ﴿٢﴾.

يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْوَعًا مَا كَانُوا وَأَعْطَشَ مَا كَانُوا وَأَعْرَى مَا كَانُوا.. فَيَقْفُونَ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرًّا لَّا غَيْرَ مَخْتُونِينَ... وَالشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الرُّؤُوسِ حَتَّى تَكُونَ كَمَقْدَارِ مِيلٍ.

فَيَشْتَدُّ الْعَطْشُ عَلَى النَّاسِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرُ.. وَيَطْوِلُ الْوُقُوفُ وَالِانْتِظَارُ وَقَدْ أزدحمت الأمم من لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَى آخِرِ رَجُلٍ يَمُوتُ فِي هَذَا الْكُونِ... وَاشْتِاقُ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى شُرْبَةِ مَاءٍ بَعْدَ أَنْ تَشَقَّقَتْ حُلُوقُهُمْ مِنَ الْعَطْشِ.

وهنا يظهر لكل أمة حوض نبيها.. فيشرب منه أتباعه الذين آمنوا معه ويُحْرَمُ مِنْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَطْرُدُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْحَوْضِ.

ويظهر حوض نبينا لأمته فيهرع الناس إليه.. فمنهم مَنْ يَشْرَبُ - وَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ - وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْرَدُ - وَهُمْ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَنِ دِينِهِ وَالَّذِينَ ابْتَدَعُوا فِي دِينِهِ.

(١) سورة الكوثر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٠٠) كتاب الصلاة.



✽ وحوض النبي ﷺ واسع الأرجاء.. ماؤه أبيض من اللبن وطعمه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك.. كيزانه عدد نجوم السماء.. تردُّ عليه أمته ﷺ.. فمن شرب منه شربة لا يظماً بعدها أبداً.

هل الحوض هو نهر الكوثر؟

كلا.. فالكوثر نهرٌ في الجنة أعطاه الله ﷻ للنبي ﷺ... أما الحوض فهو في أرض المحشر يأتي ماؤه من نهر الكوثر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝٢﴾ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿١﴾.

وقال ﷺ: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ لِي نَهْرٌ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَيَّ طِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِسْكَاً، ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةٌ الْمُتَهَيَّ، فَرَأَيْتُ عِنْدَهَا نُورًا عَظِيمًا» (٢).

وقال ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَيَّ مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ» (٣).

وقال ﷺ: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ، تُرَابُهُ مِسْكٌ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، تَرْدُهُ طَائِرٌ أَعْنَاقُهَا مِثْلُ أَعْنَاقِ الْجُرْزِ آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا» (٤).

وقال ﷺ: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا

(١) سورة الكوثر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٨١) كتاب الرقاق.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٥٨١) كتاب الرقاق.

(٤) صحيح: رواه الحاكم عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٤).

مِنَ الثَّلْجِ»^(١).

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللهُ: أَحَادِيثُ الْحَوْضِ صَحِيحَةٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ فَرُضٌ وَالتَّصَدِيقُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَهُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُتَأَوَّلُ وَلَا يُخْتَلَفُ فِيهِ.

أما «اختلجوا» فمعناه اقتطعوا.

قَالَ الْقَاضِي: هَذَا دَلِيلٌ لِصِحَّةِ تَأْوِيلِ مَنْ تَأَوَّلَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرَّدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ فِيهِمْ: سُحْقًا سُحْقًا، وَلَا يَقُولُ ذَلِكَ فِي مُذْنِبِي الْأُمَّةِ بَلْ يَشْفَعُ لَهُمْ وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِهِمْ. قَالَ: وَقِيلَ: هُوَ لِأَنَّ صِنْفَانِ: أَحَدُهُمَا: عُصَاةٌ مُرْتَدُّونَ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ لَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ لِأَنَّ مَبْدُؤَ لِّلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِالسَّيِّئَةِ. وَالثَّانِي: مُرْتَدُّونَ إِلَى الْكُفْرِ حَقِيقَةً، نَاكِضُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَأَسْمُ التَّبْدِيلِ يَشْمَلُ الصَّنْفَيْنِ»^(٢).

❖ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «الحوض لغة: الجمع، يُقال حاض الماء يحوضه إذا جمعه، ويُطلق على مجتمع الماء.

وشرعاً: حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي ﷺ. ودل عليه السنة المتواترة وأجمع عليه أهل السنة.

❖ والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولاً: هذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه، وقال: «وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ»^(٣). وأيضاً؛ ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ أنه قال: «وَمَنْ بَرِيَ عَلَى حَوْضِي»^(٤). وهذا يحتمل أنه في

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٥).

(٢) شرح مسلم (٧٣/٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٤٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٢٩٦) كتاب الفضائل.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١١٩٦) كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة-ومسلم

(١٣٩١) كتاب الحج.



هذا المكان، لكن لا نشاهده؛ لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانياً: هذا الحوض يَصُب فيه ميزابان من الكوثر، وهو النهر العظيم، الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة؛ ينزلان إلى هذا الحوض.

ثالثاً: يَرِد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، المتبعون لشريعته، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يُطرد منه.

رابعاً: في كيفية مائه: فيقول: « مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ »: هذا في اللون، أما في الطعم، فقال: « وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ » ، وفي الرائحة أطيب من ريح المسك، كما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ.

خامساً: في آيته: يقول: « آيَتُهُ عِدَدُ نَجُومِ السَّمَاءِ ». هذا كما ورد في بعض ألفاظ الحديث، وفي بعضها: « آيَتُهُ كَنَجُومِ السَّمَاءِ »، وهذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم في العدد وفي الوصف بالنور واللمعان؛ فآيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة. سادساً: آثار هذا الحوض: قال: « مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا »: حتى على الصراط وبعده. وهذه من حكمة الله ﷻ؛ لأن الذي يشرب من الشريعة في الدنيا لا يخسر أبداً كذلك.

سابعاً: مساحة هذا الحوض: يقول: « طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ »: هذا إذا يقتضى أن يكون مدوراً أو مُرَبَّعاً؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب؛ إلا إذا كان مدوراً أو مُرَبَّعاً، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل.

ثامناً: يَصُب في الحوض ميزابان من الكوثر الذي أعطاه الله تعالى محمداً

ﷺ^(١).

(١) شرح لمعة الاعتقاد (ص ١٢٢)، وشرح العقيدة الواسطية (ص ٣٩٢-٣٩٣) بتصرف.

(٣٨) رجلٌ من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرِ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتَوَاوَهُ وَاسْتَحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرْشِيًّا، أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

❁ يتمنى بعض أهل الجنة فيها أمانى تتحقق على نحوٍ عجيب، لا تشبه حال ما يحدث في الدنيا... وقد حدَّثنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بعض هذه الأمانى وكيفية تحقُّقها.

فهذا واحد من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع، فيأذن له، فما يكاد يُلقى البذر، حتى يضرب بجذوره في الأرض، ثم ينمو، ويكتمل، وينضج في نفس الوقت.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يدل على أن في الجنة زرعًا وذلك البذر منه وهذا أحسن من أن تكون الأرض معمورة بالشجر والزرع.

فإن قيل: فكيف استأذن هذا الرجل ربه في الزرع فأخبره أنه في غنية عنه؟

قيل: لعله استأذنه في زرعٍ يباشره ويزرعه بيده وقد كان في غنية عنه وقد كُفِيَ مؤونته... ولا أعلم ذكر الزرع في الجنة إلا في هذا الحديث والله أعلم (٢).

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٤٨) كتاب المزارعة، و(٧٥١٩) كتاب التوحيد.

(٢) حادى الأرواح (ص: ١٧٢).



❁ وهذا آخر يتمنى الولد، فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة، حيث تحمل المرأة وتضع في ساعة واحدة.

قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ، كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا يَشْتَهَى»^(١).

❁ بل هناك ما هو أعجب من ذلك.

ماذا مثلاً لو أردت التحرك والانتقال في الجنة من مكان إلى آخر، فكيف يكون ذلك؟!!

لا أحد يعلم ذلك تحديداً، فعمل ذلك يتم في لحظة واحدة أو أقل كما فعل الذى عنده علم من الكتاب حين نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد طرف نبي الله سليمان ﷺ إليه، وهذا في الدنيا التى لا تساوى ذرة بجوار الآخرة، فكيف تكون سرعة الانتقال في الجنة إذن؟!!

❁ أو لعلك تحب أن تجرب وسيلة أخرى إن كنت من عشاق أحدث أنواع السيارات وتتابع أخبار الطائرات التى هى أسرع من الصوت أو البرق، لذا يُنصح أمثالك بركوب دابة من دواب الجنة التى لا تشترك مع دواب الدنيا إلا في الاسم لكنها خلقت آخر،... وهو ما حدث مثلاً مع عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه حين قال: كنت أحب الخيل، فقلت: يا رسول الله!! هل في الجنة خيل؟! فقال: «إِنْ أَدْخَلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أُتِيَتْ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقوتة لَهُ جَنَاحَانِ فَحَمَلَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَارَ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ»^(٢).

وفي حديث آخر أن رجلاً آخر سأل رسول الله ﷺ بعدها فقال: يا رسول الله!! هل في الجنة من إبل؟! فلم يقل له ما قال لصاحبه بل أو صد الباب في وجه

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٦٤٩).

(٢) حسن لغيره: رواه الترمذى والطبرانى، وحسنه الألبانى في صحيح الترغيب (٣٧٥٥)،

كل مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ بِأَنْ فَتَحَ لَهُ بَابَ الْأَمْنِيَّاتِ قَائِلًا: «إِنْ يُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ يَكُنْ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ»^(١).

لكن.. هل يقف الأمر على حدود ما شاءه العبد وتمناه فحسب؟!!

بل يفضل الله عليه بفوق ما تخيله وتمناه، وليس ذلك لأعلى أهل الجنة منزلة، بل لأدناهم منزلة، نعم والله!! ... فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَدْنَى مَقْعَدٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: تَمَنَّ فَيَتَمَنَّى، وَيَتَمَنَّى، فَيَقُولَ لَهُ: هَلْ تَمَنَيْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولَ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَيْتَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(٢) (٣).



(١) حسن لغيره: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٧٥٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢) (٣٠١) كتاب الإيمان.

(٣) ليلى بين الجنة والنار (ص: ٥٩-٦١) بتصرف.

(٣٩) الشفاعة

﴿عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَهَسَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصْرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمَ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَتَكَلَّمَ بِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ،

وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عَيْسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عَيْسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عَيْسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عَيْسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكَرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَانْطَلِقْ، فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكُمَْا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»^(١).

❁ وفي رواية أحمد: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَدَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا إِذَا نَزَلُوا أَنْزَلُوهُ أَوْسَطَهُمْ فَفَزِعُوا، وَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا غَيْرَهُمْ، فَإِذَا هُمْ بِخِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَبَرُوا حِينَ رَأَوْهُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْفَقْنَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ اخْتَارَ لَكَ أَصْحَابًا غَيْرَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا بَلَّ. أَنْتُمْ أَصْحَابِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... إِنَّ اللَّهَ أَيَقْظَنِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا إِلَّا وَقَدْ سَأَلَنِي مَسْأَلَةً أَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ، فَسَلْ يَا مُحَمَّدُ تُعْطَ. فَقُلْتُ: مَسْأَلَتِي شَفَاعَةٌ لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشَّفَاعَةُ؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.



قَالَ: «أَقُولُ يَا رَبِّ شَفَاعَتِي الَّتِي اخْتَبَأْتُ عِنْدَكَ، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: نَعَمْ. فَيُخْرِجُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقِيَّةِ أُمَّنِي مِنَ النَّارِ فَيَنْبِذُهُمْ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة فقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذراع الشاة وكانت تُعجبه لأن لحمها طيب ومفيد.. فنهس النبي صلى الله عليه وسلم منها نهسة صغيرة بأطراف أسنانه.. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يأكل بكل أسنانه بل كان يأكل بأطرافها حتى يتعلم الناس جميعاً كيف تكون ذوقيات الطعام.

ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا سيّد الناس يوم القيامة» ولا شك في ذلك أبداً.. فالنبي صلى الله عليه وسلم هو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة.

ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟» فساق لهم بيان شرفه وفضله صلى الله عليه وسلم على جميع بني آدم.. فذكر صلى الله عليه وسلم أن الناس يُحشرون يوم القيامة في صعيد واحد من أولهم لآخرهم كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾^(٢)، يُجمعون في صعيد واحد... والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مدت بصرك - إلا ما يواجهك من ظهرها فقط... أما يوم القيامة فإن الأرض تُمدد مدّ الجلد وليس فيها جبال ولا أودية ولا أنهار ولا بحار... تُمدد مدداً واحداً والعالم فيها يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر - يعني لو تكلم الإنسان يسمعه آخر واحد - والبصر ينفذهم؛ فيراهم جميعاً؛ لأنه ليس بها تكوّر حتى يغيب بعض عن بعض ولكن كلهم في صعيد واحد... ولذا قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

وفي ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق حتى تكون كمقدار ميل ويفيض

(١) رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان: (٤٩، ٥٠).

العرق على أجسادهم.. فمنهم مَنْ يبلغ العرق إلى كعبيه.. ومنهم مَنْ يبلغ العرق إلى رُكبتيه.. ومنهم مَنْ يبلغ العرق إلى حَقْوِيهِ.. ومنهم مَنْ يُلْجِمْهُ العرق إلْجَامًا.. وَيُؤْتَى بِهِمْ لها سبعون ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ ملكٍ يَجْرُونَهَا.. فلا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَى عَلَى رُكْبَتِيهِ وَقَالَ: يَا رَبِّ سَلِّمْ وَسَلِّمْ.

فيصبح الناس في غَمٍّ وشدةٍ وكربٍ لا يعلمه إلا اللهُ.. فتضيق بهم الأرض.. فيقول الناس: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا قَدْ بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟

فيقول بعضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: اتُّوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فيقولون: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فيقول آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَكِنْ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُهُ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

إِنَّهُ ﷺ تَذَكَّرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاها اللهُ عَنْهَا.. وَلَكِنْ إِبْلِيسُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُغْوِيَهُ حَتَّى أَكَلَ مِنْهَا هُوَ وَزَوْجُهُ حِوَاءَ فَأَخْرَجَا مِنَ الْجَنَّةِ وَأُهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ لِحِكْمَةِ يَرِيدُهَا اللهُ ﷻ.. فَقَالَ آدَمُ ﷺ هُنَا: نَفْسِي نَفْسِي.. يَعْنِي: عَسَى أَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أُنْقِذَ نَفْسِي.. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي.. اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.. وَنُوحٌ ﷻ هُوَ الْأَبُ الثَّانِي لِلْبَشَرِيَّةِ.. وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ ﷻ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ..

فَيَأْتُونَ نُوحًا ﷻ فيقولون: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ.. أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا، فيقول: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَكِنْ



يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي
نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

لقد تذكر دعوته التي تعجلها ودعا بها على قومه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(١)، وفي رواية أنه يذكر دعوته التي دعا بها لابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ
إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) ...
يذكر ذنبه، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب
الوحشة والمعصية بين العبد وربّه... فيذكر معصيته ويقول: نفسي نفسي نفسي
ويحيلهم إلى إبراهيم عليه السلام.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ،
اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟
فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ
بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى
غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

والكذبات هي قوله: (إني سقيم) وهو ليس بسقيم، لكنه قال ذلك مُتَحَدِّيًا
لقومه الذين يعبدون الكواكب وحتى لا يخرج معهم في احتفالهم بأحد أعياد
أصنامهم.

والثانية قوله للملك الكافر: (هذه أختي) يعني زوجته وأخته في الإسلام
ليسلم من شره وهي ليست كذلك.

(١) سورة نوح: الآية: (٢٦).

(٢) سورة هود: الآيتان: (٤٥، ٤٦).

والثالثة قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^(١)، أى الأصنام؛ لأن إبراهيم ﷺ ذهب إلى أصنامهم فهشمها، فلما رجعوا وجدوها مهشمة قالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا يَا لِهَيْبَتِنَا﴾^(٢)، فقالوا: فعله فتى يُقال له إبراهيم وجرى بينهم وبين إبراهيم ﷺ ما جرى، فقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(٣)، وهو ما فعل، وإنما الذى فعله هو إبراهيم ﷺ لكن ذكر ذلك على سبيل التحدى لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان.

هذه كذبات فى ظاهر الأمر لكنها فى الحقيقة وبمناسبة تأويله ﷺ لم تكن كذبات، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله (تبارك وتعالى) اعتذر لهذا الإثم وقال: نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى...

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فيقولون: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فيقول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عَيْسَى.

لقد ذكر لهم موسى ﷺ ذنبه.. وهو أنه قتل الرجل القبطى الذى كان فى خصام مع رجل من بنى إسرائيل.. أى: من قوم موسى ﷺ.. وكان القبطى من قوم فرعون ﴿فَأَسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾^(٤). دون أن يؤمر بقتله، فرأى ﷺ أن هذا مما يحول بينه وبين الشفاعة

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٣٦).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦٣).

(٤) سورة القصص: الآية: (١٥).



للخلق حيث قتل نفسًا لم يُؤمر بقتلها، وقال: نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيذهبون إلى عيسى ﷺ ويذكرون فضل الله عليه وميته بأنه خلقه بلا أب ونفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه.. فلم يذكر عيسى ذنبًا واحدًا ولكنه أحالهم إلى النبي محمد ﷺ... وهذا شرفٌ عظيم للنبي ﷺ فقد اعتذر هؤلاء الأنبياء والرسل جميعًا وأوا أن محمدًا ﷺ هو أولى الرسل بهذه الشفاعة وبذلك المقام العظيم... فإذا جاءوا إلى النبي ﷺ فإنه يقوم في التو واللحظة ليشفع للناس جميعًا لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود.. لأن أهل المحشر يحمدونه جميعًا.

فيذهب النبي ﷺ وينطلق إلى تحت عرش الرحمن (جل وعلا) فيخِرُّ ساجدًا لله ﷻ فيفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتحه على أحدٍ غيره ثم يُقال له: «يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ» فيشفع النبي ﷺ ويقول: يارب أمتي أمتي.. فيتقبل الله شفاعته النبي ﷺ ويُقال له: يا محمد أدخل من أمتك من لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى».

وهكذا يعلم أهل المحشر جميعًا - مؤمنهم وكافرهم - أن النبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين.. ويحمدونه جميعًا على تلك الشفاعة لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود الذي وعده الله إياه فقال: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

(٤٠) إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَأَلْتُ اللَّهَ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَقَالَ: لَكَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ قُلْتُ: رَبِّ زِدْنِي فَحَتَّى لِي بِيَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ بِالْمَوْسِمِ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي، فَأَعَجَبْتَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ، قَدِ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْضَيْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، قَالَ: وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ... الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَالَ عُكَّاشَةُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَالَ رَجُلٌ آخَرُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»^(٢).

وهي رواية الصحيحين:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَظَنَنْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاصَّ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ

(١) صحيح: رواه هناد، والبخاري، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٠).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان بإسناد صحيح، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٦٠٥٢)،

- فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَحْوِضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ؛ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقتك بها عكاشة»^(١).

✽ قوله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَّمِ» أى أن النبي ﷺ رأى الأمم وأنبياءهم.. وقد ورد في رواية أخرى أن ذلك العرض كان في ليلة الإسراء والمعراج.

✽ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ» أى أن النبي ﷺ رأى نبياً معه عددٌ قليل من الناس الذين آمنوا معه.. وعددهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام الذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.. وكان يدعوهم ليلاً ونهاراً.. سرّاً وجهراً.. ومع ذلك لم يؤمن معه إلا عددٌ قليل جداً.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا آءَأَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

✽ «وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» وهذا يوضح لنا مدى المعاناة التى كان يُعانيها كل نبيٍّ فى دعوته لأُمَّته... فتخيل معى أن نبياً كريماً من صفوة خلق الله يبعثه الله لأمة يُقدَّر عددها بالآلاف فلا يؤمن معه إلا رجلٌ أو رجلان.. بل منهم من لم يؤمن معه أحد!!!.. فهذا درس للدعاة حتى يصبروا على دعوتهم إن لم يستجب لهم أحد.. فنحن لسنا أفضل من أنبياء الله ورسله الكرام (عليهم الصلاة والسلام).

✽ قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ» أى: عددٌ كبير من الناس «فظننتُ أَنَّهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٠٥) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) كتاب الإيمان.

«الرَّهِيْطُ»: تصغير رَهْط، وَهُم دُونَ عَشْرَةِ أَنْفُسٍ - «وَالأَفُقُّ»: النَّاحِيَةُ وَالْجَانِبُ.

«وَعَكَاشَةُ» بِضَمِّ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ وَبِتَخْفِيفِهَا، وَالتَّشْدِيدُ أَفْصَحُ.

(٢) سورة هود: الآية: (٤٠).

أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمَهُ.. وَذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ أَتْبَاعًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ ثُمَّ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَانظُرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ» وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَتْبَاعًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ.. فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مِنْ أُمَّتِهِ وَيَكُونُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ.. وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَانَتْ أُمَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُمَثِّلُ ثُلْثِي أَهْلِ الْجَنَّةِ.. وَالثَّلْثُ الْبَاقِي يُوزَعُ عَلَى (٦٩) أُمَّةٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ سَبْعِينَ أُمَّةً... كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تُتَمَوْنَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ» ^(١).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ» ^(٢).

❁ قَوْلُهُ: «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.. وَكُلُّ هَذَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.. فَرَحْمَتُهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلْكَ الْمُنْحَةِ الْعَظِيمَةِ طَلَبَ الْمَزِيدَ لِأُمَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ يَحِبُّ الْخَيْرَ لِأُمَّتِهِ.. فَلَمَّا طَلَبَ الْمَزِيدَ لِأُمَّتِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةٍ أَلْفٍ مُتَمَسِكُونَ أَخِذٌ بَعْضُهُمْ بِيَدِ بَعْضٍ لَا يَدْخُلُ أَوْلَهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ.. وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» ^(٣).

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٣) كتاب الرقاق - ومسلم (٢١٩) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِلَا حِسَابٍ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثَ حَيَّاتٍ مِنْ حَيَّاتِ رَبِّي» (١).

وقال ﷺ: «أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷺ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا» (٢).

فيا لها من فرحة لمن يدخل الجنة بغير حساب... وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لو جاءه من يُبشّره بالجنة، ولكن بعد أن يُحاسبه الله ثم يُدخله الجنة لكان ذلك عذاباً شديداً... لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» (٣).
وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْمُحَاسَبَةَ هَلَكَ» (٤).

فمجرد مناقشة الحساب عذابٌ شديد... فحسبك أيها المؤمن أن يُعدّد الله عليك ذنوبك وأوزارك.

فكيف بمن يحاسبه الله وهو لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟! وبذلك تستطيع أن تستشعر مدى فرحة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب «فاللهم اجعلنا منهم».

﴿ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنَزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَائِكَ... قَالَ بَعْضُهُمْ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ... وَكُلُّ أَتَى بِمَا يَظُنُّ أَنَّهُ الصَّوَابُ.

فخرج عليهم النبي ﷺ فسألهم عما يخوضون فيه فأخبروه فقال ﷺ: «هُمُ

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي بكر وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٩).

الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»
هذا لفظ مسلم، وفيه: «لا يرقون».

قال الشيخ الألبانى: قلت: قوله: «لا يرقون»، هو مما تفرَّد به مسلم دون البخارى وغيره، ثم هو شاذٌ سَنَدًا وَمَتْنًا، كما بيَّنته فى محلِّ آخر!.... وحسبكَ دليلاً على شذوذه أن النبى ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة!.. بل ورقاه جبريل ﷺ.

❁ وهنا يخبر النبى ﷺ أن الصحابة من شدة حرصهم على الخير أخذوا يتكلمون عن هؤلاء السبعين ألفاً عسى أن يعرفوا سبب دخولهم الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب فيفعلوا مثلهم.

فخرج عليهم النبى ﷺ وسألهم عما يخوضون فيه فلما أخبروه قال لهم: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ» أى: لا يطلبون من أحدٍ أن يرقىهم.. وطلب الرقية ليس حراماً ولكن إن سألت أحداً أن يرقىك فقد حُرمت من أن تكون مع هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

ومن أجل ذلك أوصى إخوانى بأن يرقى كل واحدٍ منهم أخاه دون أن يطلب منه حتى لا يُحرَم من هذا الفضل العظيم.. وكذلك أوصى أخواتى بأن ترقى كل واحدةٍ أختها دون أن تطلب منها حتى لا تُحرَم من هذا الفضل العظيم.

❁ قوله: «وَلَا يَكْتَوُونَ» أى: لا يطلبون من أحدٍ أن يكويهم إذا مرضوا؛ لأن النبى ﷺ نهى عن الكى.

روى البخارى أن النبى ﷺ قال: «الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرِبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِخْجَمٍ، وَكَيِّْ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّْ»^(١).

❁ قوله: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» أى: لا يتشاءمون.

فمن الناس مَنْ يتشاءم عند حدوث أمرٍ ما أو عند رؤية شخصٍ ما..

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٨٠) كتاب الطب.



والتشاؤم والتطير هو اعتقاد وقوع السوء أو حدوث المكروه عند حالٍ مُعين يحدث لمن يتطير... وهذا من الشرك؛ لأن فيه معنى علم الغيب بهذه المجريات... وعلم الغيب لا يكون إلا لله وقد صحَّ الحديث في وصف هذا الأمر بأنه شرك... فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «الطيرة شرك»^(١). وقال ﷺ: «لا طيرةَ وخيرها الفأل، قالوا: وما الفأل قال: الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ»^(٢). وهذا الباب بابٌ عظيم الفساد في الاعتقاد والأقوال والأعمال.

وقد كان العرب في الجاهلية يتطيرون.. فإذا طار الطائر نحو اليسار تشاءموا وإذا طار نحو اليمين تفاءلوا ومضوا إلى الأمر الذي عزموا عليه.

❁ «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أى: لا يعتمدون ولا يتوكلون إلا على الله ﷻ. والتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

❁ «فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ» فلقد كان عكاشة رضي الله عنه صاحب همة عالية.. فبمجرد أن سمع تلك البُشرى من النبي ﷺ لم يصبر بل قام وطلب من النبي ﷺ أن يدعو الله ﷻ أن يجعله منهم.. فنزل جبريل في تلك اللحظة ليُخبر النبي ﷺ أن عكاشة من هؤلاء السبعين ألفاً... فقال النبي ﷺ لعكاشة: «أَنْتَ مِنْهُمْ».. ويا لها من منقبة عظيمة.. فعكاشة هو الرجل الوحيد الذي نعلم يقيناً أنه سيدخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

فقام رجل آخر، فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشة» فَرَدَّه النبي عليه الصلاة والسلام، لكنه ردُّ لطيف. لم يقل: لست منهم، بل قال: «سبقك بها عكاشة»، واختلف العلماء لماذا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٣٩٦٠)، والسلسلة الصحيحة (٤٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٤) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٢٣) كتاب السلام.

قال له: سبقك بها عكاشة؟ فقيل: لأنه كان يعلم بأن هذا الذى قال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم... قد علم الرسول ﷺ بأنه منافق... والمنافق لا يدخل الجنة فضلاً عن كونه بغير حساب ولا عذاب.

وقال بعض العلماء: بل قال ذلك من أجل ألا يفتح الباب فيقوم من لا يستحق فيطلب أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وعلى كل حال، فنحن لا نعلم علماً يقينياً بأن الرسول ﷺ لم يدعُ الله له إلا لسببٍ معين... فالله أعلم.

لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرَّدُّ الجميل من رسول الله ﷺ لأن قوله: «سبقك بها عكاشة» لا يجرحه ولا يُحزنه.

وسبحان الله... صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا... كلما طلب الإنسان شيئاً قد سبق به قيل: سبقك بها عكاشة.

✽ أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحديث وقال: إذا اضطر الإنسان إلى القراءة، أى: أن يطلب من أحد أن يقرأ عليه مثل أن يُصاب بعين أو بسحر أو أُصيب بجنٍّ هل إذا ذهب يطلب من يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعض العلماء: نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء: بل إن هذا فيمن استرقى قبل أن يصاب أى بأن قال: اقرأ على أن لا تصيبني العين أو أن لا يصيبني السحر أو الجن أو الحمى فيكون هذا من باب طلب الرقية لأمرٍ مُتَوَقَّع لا واقع... وكذلك الكى.

فإذا قال إنسان: الذين يكونون غيرهم هل يُحرمون من هذا؟ لا، لأن الرسول ﷺ يقول: «ولا يكتون» أى: لا يطلبون من يكويهم، لم يُقَل:



ولا يكون... وهو عليه الصلّاة والسّلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه.

سعد بن معاذ الأوسى الأنصارى أُصيب يوم الخندق في أكحله فانفجر الدّم،
والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان.

فكواه رضي الله عنه في العرق حتى وقف الدّم... والنبي صلى الله عليه وآله هو أول من يدخل الجنة
بغير حساب ولا عذاب.

فالذين يكونون مُحسنون والذين يقرءون على الناس محسنون ولكن الكلام
على من يسترّقون أى: يطلبون من يقرأ عليهم أو يكتبون أى: من يطلبون من
يكويهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/٢٨٩-٢٩٠) للشيخ ابن عثيمين رحمته الله.

(٤١) غمسة في الجنة .. وغمسة في النار

✽ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ كَانَ بَلَاءٌ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، أَوْ شَيْئًا تَكْرَهُهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَكْرَهُهُ قَطُّ... ثُمَّ يُؤْتَى بِأَنعَمِ النَّاسِ كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، أَوْ قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ».

هذه رواية الإمام أحمد.. وإليكم رواية الإمام مسلم.

✽ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله ياربِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الخير كل الخير في طاعة الله ولو كان صاحبها فقيرًا معدمًا.. وأن الشر كل الشر في معصية الله ولو كان صاحبها غنيًا مُنعَمًا.

فيوم القيامة يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا... ولا شك أن هذا الرجل أنعم من قارون وذلك لأن قارون لما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ✽ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.



يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ (١).

فقد كان هناك مَنْ هو أغنى وأكثر جمعاً من قارون الذي لم يصف الله ﷻ خزائنه بل وصف مفاتيح خزائنه فقال تعالى: ﴿وَأَيُّنْتُهُ مِنَ الْكُؤُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ (٢).

لكنه لما كفر بالله ﷻ وإن كانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (٣).

فالشاهد أنه يُؤْتَى يوم القيامة بأنعم إنسان.. ولا يُشترط أن يكون أنعم إنسان هو أغنى إنسان.. بل قد يكون هناك إنسان غنى ولكنه بخيل.. وقد يكون هناك إنسان أقل منه مالاً وثروة ولكنه يحرص كل الحرص على أن يتمتع بذلك المال..

المهم أنه يُؤْتَى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار.. لكنه بكل أسف لم يشكر الله على تلك النعم ولم يعبد الله بل كان بعيداً عن طاعة الله لأنه استعمل هذا المال في كل ما يُغضب الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة في نار جهنم ثم يسأله الله ﷻ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟

ولكن تلك الغمسة جعلته ينسى كل نعيم... وهو مَنْ هو؟ هو أنعم أهل الدنيا.. فيقول: لا والله يا رب ما رأيت نعيمًا قط.. سبحان الله!!.. أين المال وأين الدنيا وأين المتع؟!.. ذهب كل ذلك ولم يبقَ إلا أثر تلك الغمسة.

وفي المقابل فإنه يُؤْتَى بأشد الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة.. فهو

(١) سورة القصص: الآية: (٧٨).

(٢) سورة القصص: الآية: (٧٦).

(٣) سورة القصص: الآية: (٨١).

رجل حُرْم من كل متاع الدنيا الزائل وعانى من كل بلاء ومع ذلك كان راضياً عن الله عابداً لله صابراً على قضاء الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة في الجنة.. ثم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤْسًا قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرَّ بي بُؤْسٌ قط ولا رأيت شدة قط..

الله أكبر.. لقد نسي كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة في الجنة.. فما ظنك به وقد عاش في الجنة خالدًا مُخلدًا فيها أبدًا.

ألا فليهنأ الفقراء والمحرومون وأهل البلاء الذين صبروا على قضاء الله وعاشوا على طاعة الله.

❁ أيها المهموم بسبب الفقر وقلة ذات اليد.. لا تحزن..

وانظر ماذا فاتك من الدنيا..

ألست تأكل كما يأكل الأغنياء؟!

وتشرب كما يشرب الأغنياء؟!

أما يستحيل طعامك وطعامهم وشرابك وشرابهم إلى ما قد علمت؟

فأى مزيّة - إذن - لطعامهم على طعامك، أو لشرابهم على شرابك.. فلماذا

تحزن؟

ألست تنام كما ينامون، وتستيقظ كما يستيقظون... فأى فرق بين أن تنام على حصيرٍ وينام الأغنياء على قُرْشٍ وثيرة؟! وقد تكون الحصير أنفع وأصح من الفراش الناعم الوثير. فلماذا تحزن؟.

إذا مرضت أخذت قرصًا بفلسٍ فشفاك الله بسبب فقرك وحاجتك وانكسارك بين يديه..

ويدفع الأغنياء الآلاف ومئات الآلاف ويستمر بهم المرض، ولا تنقطع عنهم العلل..



فلماذا تحزن؟

تأكل ما شئت من الطعام، وتشرب ما شئت من الشراب، ويتحمل جسمك أقسى الأطعمة والأشربة، بينما كثير من الأغنياء لا يأكل إلا ما تعافه نفسك أن تأكله؛ لأن أجسامهم لا تقوى إلا على ذلك، فلماذا تحزن..!!؟^(١).

✽ ويوم القيامة تتبدل الأحوال.. سينسى المؤمن الفقير كل ما كان يُعانيه من البؤس والشدة والجوع والحرمان والابتلاءات مع أول غمسة في جنة الرحمن (جلّ وعلا).

✽ وفي المقابل سينسى الغنى - إن لم يكن طائعاً لله - كل ما كان فيه من الثراء والغنى والقصور والسيارات والخدم والشهوات مع أول غمسة في نار جهنم.... فلماذا تحزن؟!... أما إن كان الغنى طائعاً لله ﷻ.. فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) لا تحزن وكن مطمئناً (ص: ١٩، ٢٠).

(٤٢) الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(١) قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَى شَيْءٍ نَسْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا... فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكَو» ^(٢).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، تَرُدُّ أَنَّهُارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا أَكَلِهِمْ، وَمَشَرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِثَلَاثَ يَوْمٍ فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا» ^(٣) عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(٤) ^(٥).

ففي هذا الحديث يخبر مسروق (التابعي الجليل) أنهم سألوا ابن مسعود

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٧) كتاب الإمارة.

(٣) نكل: أى: جبن، ونكله عن الشيء، أى: صرفه عنه.

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥).

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَلْكَمِ الْآيَاتِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١١٦) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

﴿ هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتالهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته، مَنْ جَبُنَ عَنِ الْقِتَالِ، وَزَهَدَ فِي الشَّهَادَةِ. ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته. ولفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضى علو درجاتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا مَنْ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿ ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قَرَّتْ بِهِ عَيُونُهُمْ، وَفَرِحَتْ بِهِ نَفْسُهُمْ، وَذَلِكَ لِحُسْنِهِ وَكَثْرَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَكَمَالِ اللَّذَّةِ فِي الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ الْمَنْغَصِ، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُمْ بَيْنَ نَعِيمِ الْبَدَنِ بِالرِّزْقِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِالْفَرَحِ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ: فَتَمَّ لَهُمُ النِّعِيمُ وَالسَّرُورُ، وَجَعَلُوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم

المستلزم كمال السرور.

﴿يَسْتَبَشِرُونَ بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلِهِ﴾ أي: يهنئ بعضهم بعضًا، بأعظم مهناً به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُنميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقى أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا^(١).

﴿فلما سألو ابن مسعود عن تلكم الآيات أخبرهم بأن الصحابة رضي الله عنهم سألو النبي ﷺ عنها فأخبرهم أنه لما أُصيب إخوانهم في غزوة أحد - أي استشهدوا - جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضيرٍ... وأرواح الشهداء تُنعم منفردة وتُنعم أيضًا متصلة بالأجساد، وكذلك أيضًا من يكون مُنعمًا أو مُعذبًا في القبر فإن العذاب يكون للروح والجسد والنعيم يكون للروح والجسد، وليس العذاب أو النعيم للروح وحدها، وإنما يكون لمجموع الأمرين والله على كل شيء قدير... فتكون الأرواح في الجنة ولها اتصال بالأجساد، وتُنعم متصلة ومنفصلة، وذلك لأن الإحسان حصل من مجموع الأرواح والأجساد، والإساءة حصلت من مجموع الأرواح والأجساد، وقد جاء في الحديث: (المسلم يُفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، والفاجر يُفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسُمومها، ولا يزال كُلُّ منهما فيما هو فيه إلى أن تقوم الساعة)^(٢).

وقد جاء في الحديث أن نسمة المؤمن على صورة طير في الجنة، وأرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خضيرٍ.... وحديث: (نسمة المؤمن على صورة طير)

(١) تفسير السعدي (ص ١٥٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي، والضياء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦) بلفظٍ قريبٍ منه.



رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي، والإمام الشافعي رواه عن الإمام مالك، فهو مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة، وهو في المسند، فقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).

وذكر أن هذا إسناد عزيز مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة.

فالشاهد أن النبي ﷺ ذكر أنهم في جوف طيرٍ حُضر.. وحتى لا يظن أحد أنهم قد حُرِّموا من نعيم الجنة بوجودهم في أجواف تلك الطيور فذكر أن تلك الطيور تَرُدُّ أنهار الجنة وتَأْكُل من ثمارها.. فطعام أهل الجنة وشراب أهل الجنة يصل إليهم بدون سعي أو عناء... ثم تأوى تلك الطيور بعد الطعام والشراب إلى قناديل مُعلَّقة في ظل عرش الرحمن (جلّ وعلا).

﴿قوله﴾: (فلما وجدوا طيب مآكلهم ومشربهم ومقيلهم).

أى: فلما استمتعوا بطعام الجنة، وشراب الجنة، والراحة في الجنة.

والمقيل هو الاستراحة في وسط النهار... قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٢)... قَالُوا: مَنْ يَبْلُغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِيَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟
﴿قوله﴾: (ولا ينكلوا عند الحرب).

أى: حتى لا يهتمون للقاء الأعداء خشية الموت^(٣).... فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) سورة الفرقان: الآية: (٢٤).

(٣) شرح سنن أبي داود للعباد.

❁ وقوله: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل»: في هذا - أولاً - إثبات أن الجنة مخلوقة موجودة، وهو مذهب أهل السنة، وأنها التي أُهبط منها آدم، وهي التي يُنعم فيها المؤمنون في الآخرة... خلافاً للمعتزلة وطوائف من المبتدعة بأنها لم تُوجد بعد، وأن الجنة التي كان فيها آدم غيرها... والآثار وظاهر القرآن يدل على مذهب أهل السنة.

وفيه دليل على مُجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة... وقد ترى من هذا في عذاب القبر... وفيه أن الأرواح باقية لا تفتنى، فيُنعم المحسن ويُعذب المسيء كما جاء في القرآن والآثار، وهو مذهب أهل السنة، خلافاً لغيرهم من أهل البدع القائلين بفنائها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢) طوبى لك منزل الملوك

✽ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْجَنَّةَ لِبَنَةِ مَنْ ذَهَبٍ، وَلِبَنَةِ مَنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطِهَا الْمَسْكُ، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: طُوبَى لِكَ مَنْزِلِ الْمُلُوكِ»^(١).

✽ نحن نعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال عن الجنة: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَأَفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»^(٢)^(٣).

✽ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة.. أى أن البناء: طوبة من ذهب وطوبة من فضة.. أما الإسمنت الذى بينهما فمن المسك.. ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ للجنة: تكلمي فنطقت الجنة أمثالاً لأمر الله فقالت: قد أفلح المؤمنون... وأى فلاح أعظم من نجاتهم من النار ودخولهم الجنة... فقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْغُرُورِ﴾.. وهنا نطقت الملائكة وقالت: طوبى لك منزل الملوك.... فالمؤمن فى الجنة مَلِكٌ.. بل إنه أعظم من كل ملوك الدنيا ولو اجتمعوا.. فالدنيا بكل ما فيها لا تُساوى عند الله جناح بعوضة.

فقد قال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعْمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أى وَإِذَا رَأَيْتَ هُنَاكَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَظَاهِرِ الْأَنْسِ وَالسَّرُورِ، رَأَيْتَ نِعِيمًا لَا يَكَادُ يُوصَفُ، وَمُلْكًا وَاسِعًا عَظِيمًا لَا غَايَةَ لَهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: «أَعَدَدْتُ

(١) صحيح: رواه البزار، وصححه الألبانى فى الصحيحه (٢٦٦٢).

(٢) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

قال ابن كثير: وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ: «أَقْلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ لَهُ قَدْرُ الدُّنْيَا وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهَا»^(١) فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاؤُهُ تَعَالَى لِأَدْنَى مَنْ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ هُوَ أَعْلَى مَنْزِلَةً وَأَحْظَى عِنْدَهُ تَعَالَى؟^(٢)

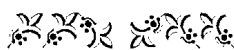
❁ وفي رواية أخرى:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا، قَالَ: «الْجَنَّةُ بِنَاؤُهَا لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمِلاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ... مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ فَلَا يَبْئَسُ وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»^(٣).

فحجارة الجنة المبنية بها القصور من ذهب وفضة، ومِلاطُهَا وهو الطين الذي يُطلى به الحائط، هو المِسْكُ: أى: طينها المسك، وتربتها وتراها من الزَّعْفَرَانِ فإذا عُجِنَ بالماء الطيب صار مِسْكًا^(٤).

وَحَصْبَاؤُهَا: أى: الحصى الذي فوق أرضها اللؤلؤ.

فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٨٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١١٦).

(٤) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص ١٢٨).

(٤٤) أدنى أهل الجنة

✽ عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سأل موسى صلى الله عليه وسلم ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وحتمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أدنى أهل الجنة يعطيه الله عز وجل مثل ملكٍ من ملوك الدنيا خمسين مرة... وفوق ذلك يقول له (جل وعلا): «ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك» فأى نعيم فوق هذا النعيم؟!.

وفي رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن هذا الرجل سيظل يسأل ويسأل ويُجاب ويُجاب حتى يسكت حياءً من كرم الله عليه:

«يقول الله عز وجل: ما لك لا تسأل؟! فيقول: رب قد سألتك حتى استحيتك، فيقول الله عز وجل: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيها وعشرة أضعافه، فيقول: أتتهزأ بي وأنت رب العزة؟! فيضحك الرب عز وجل من قوله». فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا بلغ هذا المكان من الحديث ضحك. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن.. قد سمعتك تُحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث بهذا الحديث مرارًا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩) كتاب الإيمان.

كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه قال: «فيقول الرب جلَّ ذِكْرُه: لا ولكنى على ذلك قادر، فيقول: ألحقنى بالناس، فيقول: الحق بالناس. قال: فينطلق يَرْمُلُ في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفِعَ له قصرٌ من دُرَّةٍ فَيَخِرُّ ساجدًا، فيُقال له: ارفع رأسك؟ ما لك فيقول: رأيت ربي أو تراءى لى ربي، فيُقال: إنما هو منزلٌ من منازلك. قال: ثم يلقى رجلاً فتهيأً للسجود له، فيُقال له: مه، فيقول: رأيتُ أنك مَلَكٌ من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازنٌ من خَزَانِكَ وعبدٌ من عبيدك تحت يدي ألفُ قهرمان على مثل ما أنا عليه. قال: فينطلق أمامه حتى يفتح له باب القصر. قال: وهو من دُرَّةٍ مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقتها ومفاتيحها منها، يستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمرء، فيها سبعون بابًا كل بابٍ يُفضى إلى جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تُفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى في كل جوهرة سُررٌ وأزواجٌ ووصائف، أدناها حوراء عيناء عليها سبعون حُلة يُرى مُخ ساقها من وراء حُللها.. كبدها مرآته، وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفًا عما كانت قبل ذلك، فيقول لها: والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفًا، وتقول له: وأنت لقد ازددت في عيني سبعين ضعفًا، فيُقال له: أشرف أشرف!! فيُشرف، فيُقال له: مُلكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك»^(١).

✽ أما أعلاهم منزلة فهو لاء لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يتخيل ما أعدّه الله لهم.. فقد قال موسى ﷺ: رب فأعلاهم منزلة؟.. أى: كيف يكون نعيمهم؟. فقال تعالى: «أولئك الذين أردتُ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشرٍ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني من طرق أحدها صحيح واللفظ له، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).

﴿٤٥﴾ آخر من يدخل الجنة

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة: رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله عز وجل: له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملاءى، فيرجع، فيقول: يا رب وجدتها ملاءى، يقول الله عز وجل: له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملاءى، فيرجع، فيقول: يا رب وجدتها ملاءى، فيقول الله عز وجل: له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي، أو أتضحك بي وأنت الملك» قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذُه فكان يقول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة»^(١).

وهناك رواية أخرى أعجب منها:

قال ﷺ: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشى مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، أدنني من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلني إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا، يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيذنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، فيقول: لعلني إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيذنيه منها فيستظل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٧١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ
 الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا
 أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا
 رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُذْنِبُ مِنْهَا،
 فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْخَلْتَنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ
 آدَمَ مَا يَصْرِيئِي مِنْكَ؟ أَيَّرِضِيكَ أَنْ أُعْطِيكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ،
 أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ
 أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ
 تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي
 وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» (١).

❁ وَالْمَحَ التَّدْرُجُ فِي النِّعَمِ الْوَاضِحُ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ هَذَا الْعَبْدُ لَنْ يُطِيقَ
 رُؤْيَةَ النِّعَمِ الْكَامِلِ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ وَإِلَّا فَسَوْفَ يَمُوتُ مِنْ هَوْلِ الْمَفْجَأَةِ وَشِدَّةِ
 الْفَرَحِ... وَقَدْ يَكُونُ هَذَا سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ التَّدْرُجِ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ فِي الْجَنَّةِ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ.

❁ جَلَسَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِ
 النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي لَهُمْ قِصَّةَ آخِرِ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَمَا سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.
 فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ جَالِسًا مَعَهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَحَكَى لَهُمْ قِصَّةَ
 آخِرِ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُوَحَّدًا وَلَكِنَّهُ قَدْ
 عَمِلَ ذُنُوبًا كَثِيرَةً وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَيَدْخُلُ النَّارَ حَتَّى إِذَا نَالَ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ
 عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَرَ بِخُرُوجِهِ مِنَ النَّارِ وَدَخُولِهِ الْجَنَّةِ.

فِيخْرُجُ هَذَا الرَّجُلُ مِنَ النَّارِ وَيَمْشِي عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي هُوَ أَحَدٌ مِنَ السِّيفِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧) كتاب الإيمان.



وأدق من الشعر... فيمشى مرة ويسقط على وجهه مرة وتضرب النار وجهه مرة.. ويظل على تلك الحالة الشديدة زماناً طويلاً حتى إذا جاوز الصراط وترك النار وراءه التفت إليها وقال وهو لا يكاد يصدق: تبارك الذي نجّاني منك.. لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين.

ويجلس هذا الرجل ليستريح قليلاً من الأهوال التي رآها في النار ثم على الصراط... وبينما هو على تلك الحالة إذ رأى شجرة جميلة حولها ماء عذب جميل فينادى هذا الرجل ويقول: يا رب قربني من هذه الشجرة كي أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيسأله الله (جل وعلا) عما إذا كان سيطلب شيئاً آخر بعد ذلك.

فيقول الرجل: لا يا رب... ويعطى ربه العهود والمواثيق على أنه إذا قربه من هذه الشجرة فلن يسأل شيئاً آخر.

فيُقربه الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الشجرة فيستظل العبد بظلها ويشرب من مائها ويعيش في متعة لم يكن يحلم بها من قبل.

وفجأة يرى العبد شجرة أحلى وأجمل من الأولى فيصرخ ويقول: يا رب قربني من هذه الشجرة لكي أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول الله تعالى: يا ابن آدم ألم تُعاهدني أن لا تسألني غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتني من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئاً بعد ذلك...

وربه يعذره لأنه يرى شيئاً جميلاً لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقربه الله (جل وعلا) من هذه الشجرة فيستظل بظلها ويشرب من مائها ويظل على تلك الحالة من النعيم إلى أن يرى شجرة ثالثة أجمل من هاتين الشجرتين.. إنها شجرة مغروسة عند باب الجنة.

وهنا يصرخ العبد ويقول: يا رب قربني من هذه الشجرة لكي أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول (جل وعلا): يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتني من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئاً بعد ذلك.

وفي كل مرة ربه يعذره لأنه يرى شيئاً جميلاً لا يستطيع أن يصبر عليه. فيقربه ربه (جل وعلا) من هذه الشجرة الجميلة المغروسة على باب الجنة. فإذا جلس تحت هذه الشجرة سمع صوت نعيم أهل الجنة فلم يحتمل ذلك فيصرخ: يا رب أدخلني الجنة.

فيسأله ربه (جل وعلا) عما يُرضيه حتى لا يسأل شيئاً بعد ذلك ثم يقول له: أيرضيك أن أعطيك الدنيا وعشرة أمثالها؟

فيقول العبد: يا رب أنتهزئ بى وأنت رب العالمين؟

هنا ضحك عبد الله بن مسعود - راوى الحديث - وقال للصحابة: ألا تسألونى ما الذى يُضحكنى؟ فقالوا: ممّ تضحك يا ابن مسعود؟

قال ابن مسعود: أضحك لأن النبى ﷺ ضحك عند هذه الكلمة فلما سألناه: ممّ تضحك يا رسول الله.

فأخبرنا النبى ﷺ أنه يضحك من ضحك رب العالمين حين قال له العبد: أنتهزئ بى وأنت رب العالمين؟

قال تعالى: إني لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر.

﴿٤٦﴾ بيت الحمد في الجنة

✽ عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا عبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد»^(١).

✽ فله سبحانه أن يتلى من يشاء من عباده بما يشاء سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، ولا غالب لأمره تبارك وتعالى... والأصل أن الإنسان لا يتمنى المصيبة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا»، لكن إذا نزلت المصيبة فعلى الإنسان أن يتصبر ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

ففي هذا الحديث: أن العبد إذا ابتلاه الله فمات له ولد - ابنه أو ابنته - فالله عَزَّ وَجَلَّ يسأل الملائكة وهو أعلم (سبحانه وتعالى)، ويريد أن يباهى بعبده هذا أمام الملائكة، وأن هذا العبد يستحق الرحمة، ويستحق المدح. فأنتم قلتم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣)، لكن انظروا ماذا فعل؟ فالله يسأل الملائكة - وهو أعلم سبحانه - يقول: «قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم.

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟»، فأغلى شيء عند الإنسان هو ثمرة قلبه وفؤاده... أقبضتموه؟ فتقول الملائكة: نعم.

فيقول الله: «فماذا قال عبدي؟» وهو أعلم سبحانه، ولكن أراد سبحانه أن

(١) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٧٩٥).

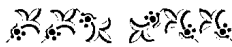
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٢٠٠).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

يُباهى بعبده هؤلاء الملائكة... فتقول الملائكة لله تبارك وتعالى: «حَمْدُكَ واسترجع» يعنى: قال: الحمد لله، إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون... فيقول الله (سبحانه وتعالى): «ابنوا العبدى بيتًا فى الجنة وَسَمُّوه بيت الحمد»، وهذا علامة على حمد هذا العبد وعلى صبره... فيجعل الله ﷻ له بيتًا يليق بصبره على هذه المصيبة العصيبة... وليس أى بيت ولكنه بيتٌ فى الجنة ومن قصور الجنة العظيمة... ثم إنهم ميَّزوا هذا البيت بهذه التسمية: بيت الحمد، فمن يحمد الله (سبحانه وتعالى) فالله يعطيه الأجر العظيم.

فإذا أنعم الله ﷻ على عبدٍ بنعمة فحمده العبد كان هذا الحمد من العبد أحب إلى الله من النعمة التى أعطاهها لعبده، وهذا كله من فضل الله (سبحانه وتعالى)، وهذه نعمة وهذه نعمة، وكُلُّه من الله... فالله هو الذى رزق العبد المال والطعام والشراب والولد وقبل ذلك كله رزقه الإيمان، وهو الذى وفق العبد لهذه الكلمة، ودلَّه عليها، وهداه إليها... إِذَا فهما نعمتان من الله: نعمة الرزق، ونعمة الحمد.

فإذا مات للإنسان ولد أو حبيب وقال: الحمد لله، إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون؛ فإن الله ﷻ يجعل لهذا الذى تُوفى ابنه بيتًا فى الجنة ويُسميه بيت الحمد، ويباهى الملائكة بهذا العبد الذى حَمِدَ الله واسترجع^(١).



(١) يتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطية.

(٤٧) يوم المزيد.. وأعياد المؤمنين في الجنة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام، وفي يده امرأة بيضاء، فيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه يا جبريل، قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك؛ لتكون لك عيدًا ولقومك من بعدك، تكون أنت الأول، وتكون اليهود والنصارى من بعدك، قال: ما لنا فيها، قال: فيها خير لكم، فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير، هو له قسم إلا أعطاه إياه، أو ليس له بقسم إلا ادخر له ما هو أعظم منه، أو تعود فيها من شر، هو عليه مكتوب، إلا أعاده أو ليس عليه مكتوب، إلا أعاده من أعظم منه، قلت: ما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيّد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، قال: قلت: لم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إن ربك ﷻ اتخذ في الجنة واديًا أفتح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل تبارك وتعالى من عليين على كرسيه، ثم حف الكرسي بمنابر من نور، وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها، ثم حف المنابر بكراسي من ذهب، ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها، ثم يحيى أهل الجنة حتى يجلسوا على الكئيب، فيتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى، حتى ينظروا إلى وجهه، وهو يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأنتمت عليكم نعمتي، هذا محل كرامتي فسلوني، فيسألونه الرضا، فيقول الله ﷻ: رضائي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة، ثم يصعد الرب تبارك وتعالى على كرسيه، فيصعد معه الشهداء والصديقون، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم، ذرة بيضاء لا فصم فيها ولا وضم، أو ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء منها غرفها وأبوابها، مطردة فيها أنهارها، متدلّية فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة؛

لِيَزِدُوا فِيهِ كَرَامَةً، وَلِيَزِدُوا فِيهِ نَظْرًا إِلَى وَجْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِلذَلِكَ دُعَى يَوْمَ الْمَزِيدِ»^(١).

✽ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَنْ لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا).

إنه أعظم نعيم في الجنة.

ولذلك يخبرنا النبي ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدي الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَنْ يدخل الجنة ومنهم مَنْ يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون في نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون في نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تبيض وجوهنا.. ألم تدخلنا الجنة وتُنجننا من النار.

وكانهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذي أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته... فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أي نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

(١) حسن لغيره: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب



❁ وفي هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أنه أتاه جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء.. وهذه هي المرآة التي يأتي فيها جبريل بتلك الأشياء.. فتعجب النبي ﷺ وقال له: «ما هذه يا جبريل؟».

فأخبره جبريل، وقال له: «هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك»... ومن هنا أصبح يوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين حيث يجتمعون في بيوت الله ليجددوا إيمانهم بتلك المواعظ التي تُحيى القلوب، ولتصافح قلوبهم على مائدة الحب في الله...

❁ ثم قال له جبريل: «تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك»، يعني يكون عيدنا يوم الجمعة.. واليهود السبت.. والنصارى الأحد.. فهم تبعٌ لنا.

عَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْأَخْرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»^(١).

❁ فقال النبي ﷺ: «مَا لَنَا فِيهَا».. أي: ما لنا في هذا العيد الأسبوعي (يوم الجمعة) فقال له جبريل: «فِيهَا خَيْرٌ لَكُمْ» أي في الدنيا والآخرة وفي أمور دينكم ودنياكم «فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ فِيهَا بِخَيْرٍ، هُوَ لَهُ قَسْمٌ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ».

فينبغي للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء فإن الدعاء في ذلك الوقت مُستجاب.

فقد قال ﷺ عن يوم الجمعة: «فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٦) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

وساعة الإجابة آخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة على الراجح:

لحديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً.. مِنْهَا سَاعَةٌ لَا يُوجَدُ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْتَمِسُوا السَّاعَةَ الَّتِي تُرَجَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ»^(٢).

✽ ثُمَّ قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقَسْمٍ إِلَّا ادْخَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ» فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَسَمَ اللَّهُ لِهَذَا الْعَبْدِ خَيْرًا بِهَذَا الدَّعَاءِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يَدْخُرُهُ لِيُفْرَجَ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كِرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخُرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذَا نُكِّرْتُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٣).

فمن رحمة الله تعالى بعبده وهو الرحيم أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يؤته إياها عوضه خيراً منها:

✽ فإما أن يستجيب له دعوته في الدنيا.

✽ أو يدخرها له في الآخرة.

✽ أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.

✽ ثم قال جبريل للنبي ﷺ: «أَوْ تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرٍّ، هُوَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ، إِلَّا أَعَادَهُ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٩٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي، والطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح

الأدب المفرد (٥٥٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٣).

أَوْ لَيْسَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ، إِلَّا أَعَادَهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ» فإذا تعوذ العبد في تلك الساعة من يوم الجمعة (وهى التى قبل المغرب) من أى شَرٍّ هو عليه مكتوب أو غير مكتوب إلا أعاده الله من ذلك الشر وحفظه منه.

✽ فقال النبى ﷺ: «مَا هَذِهِ النَّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيهَا؟» أى ما تلك النقطة السوداء التى فى تلك المرأة البيضاء التى جاء بها جبريل ﷺ.
فقال له جبريل: «هَذِهِ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ» فالسَّاعَةُ لا تقوم إلا فى يوم الجمعة كما أخبر النبى ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»^(١).

✽ قال جبريل: «وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ» أى أن يوم الجمعة عند الملائكة فى السماء هو سيّد الأيام وخيرها حتى أنهم يُسمونه يوم المزيد... ولعلّ هذا يُذكرنى بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. فالْحُسْنَىٰ هى الجنة... والزيادة هى النظر إلى وجه الله... فأهل التوحيد من المسلمين ينظرون ويستمتعون بالنظر إلى وجه الله فى الجنة فى كل يوم جمعة... ألا وهو يوم المزيد.

✽ فسأله النبى ﷺ: «لِمَ تَدْعُونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ؟» فأخبره جبريل قائلًا: «إِنَّ رَبَّكَ ﷻ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وادِيًا أَفِيحَ مِنْ مِسْكِ أَبِيصٍّ» وهو المكان الذى نجتمع فيه فى الجنة لننعم بالنظر إلى وجهه الكريم (جلّ وعلا). «فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ» أى بمقدار كل أسبوع بتقدير الله ﷻ.. وذلك لأن الجنة ليس فيها ليل ونهار حتى نعرف أيام الأسبوع، وإنما هو نهارٌ دائم حتى يستمتع أهل الجنة على الدوام.

«نَزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيْنِ عَلَى كُرْسِيِّهِ» نزولاً يليق بجلاله وكماله لا يعرف كيفيته إلا الله عَزَّوَجَلَّ «ثُمَّ حَفَّ الْكُرْسِيَّ بِمَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ» أى: جعل حول الكرسي منابر من النور ليجلس عليها صفوة خلقه من عباده.. ولذا قال بعدها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَجَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا» فكان أقرب الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ هم صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين «ثُمَّ حَفَّ الْمَنَابِرَ بِكَرَاسِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ» فبعد أن جعل الأنبياء على منابر من النور بالقرب منه.. جعل الذين بعدهم مباشرة على كراسي من ذهب هم الصديقون والشهداء، ولذا قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ جَاءَ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا» ثم في الدائرة الثالثة والمرتبة الثالثة يأتي أهل الجنة «ثُمَّ يَحِيءُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكُثَيْبِ» أى: يجلسوا على كثران المسك الأبيض.

وقد جاء هذا الترتيب في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٩﴾.

«فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِهِ» وفي تلك اللحظة يتجلى لهم ربنا عَزَّوَجَلَّ فيستمتعون بأعظم لذة في الجنة كلها.. ألا وهى لذة النظر إلى وجهه الكريم (جلّ وعلا)، «وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُمْ وَعَدِي، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» أى: أنا الذى وعدتكم بالجنة والنظر إلى وجهى لكل من أطاعنى وامثل أمرى واتبع النبى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وها أنا أعطيك ما وعدتكم به.. فقد أدخلتكم جنتى وجعلت كل ما فيها حلالاً لكم لتستمتعوا بكل ما فيها.. بل وجمعتكم لتستمتعوا بما هو أعظم من نعيم الجنة فنظروا إلى وجهى الكريم.

«هَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي فَسَلُونِي» هذه الجنة محل إكرامى وإنعامى فاطلبوا كل ما



تشتهى أنفسكم... «فَيَسْأَلُونَهُ الرَّضَا» أى يطلبون من الله ﷻ أن يرضى عنهم «فَيَقُولُ ﷻ: رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارِي، وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي» أى يخبرهم أنه راضٍ عنهم.. والدليل على ذلك أنه أدخلهم جنته ولو لم يرض عنهم ما أدخلهم جنته وأنالهم كرامته.. ثم طلب منهم أن يسألوه أى شىء آخر.

«فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ» أى: يطلب كل واحدٍ منهم كل ما يتمناه وكل ما تشتهيه نفسه حتى تنتهى أمنياتهم جميعاً.

«فَيَفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ إِلَى مِقْدَارِ مَنْصَرَفِ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ» ففى تلك اللحظة بعد أن انتهت أمنيات الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصّالحين يفتح الله لهم من النعيم ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر حتى ينصرفوا من يوم المزيّد.. فقد وعدهم فى الدنيا بقوله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصّٰلِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١)»^(٢). وها هو يوفى بوعده لهم (جلّ وعلا).

«ثُمَّ يَصْعَدُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ» فقد انتهى هذا اللقاء الذى نتمناه من الآن حتى نَسعد به فى الجنة بين يدي الله ﷻ فى يوم المزيّد الذى لا مزيد عليه أبداً فى الدنيا والآخرة.

«فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُّهَدَاءُ وَالصّٰدِقُونَ» ليعودوا إلى منازلهم العالية.
«وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرْفِ إِلَى غُرْفِهِمْ، دُرَّةً بَيضاءَ لَا فَصَمَ فِيهَا وَلَا وَصَمَ^(٣)، أَوْ

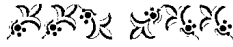
(١) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها..

(٣) (الفَصَم) بالفاء: هو كسر الشىء من غير أن تفصله. و(الْوَصَم) بالواو: الصدع والعيب.

يَأْقُوتَةَ حَمْرَاءَ، أَوْ زَبْرَجَدَةَ حَضْرَاءَ مِنْهَا غُرْفُهَا وَأَبْوَابُهَا، مُطْرَدَةٌ فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَرْوَاجُهَا وَخَدْمُهَا، فَلْيَسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِيَزِدَادُوا فِيهِ كَرَامَةً، وَلِيَزِدَادُوا فِيهِ نَظْرًا إِلَى وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِلذَلِكَ دُعَى يَوْمَ الْمَزِيدِ».

فعلى الرغم من كل النعيم الذي هم فيه فإنهم ليسوا إلى شيءٍ أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من النظر إلى وجه الله الكريم الذي هو أعظم لذة في الجنة كلها... فاللهُمَّ ارزقنا لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك في غير ضراءٍ مُضرة ولا فتنةٍ مُضلة.





(٤٨) لذة النظر إلى وجه الله تعالى

عن صُهَيْب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ»^(١).

ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَنْ لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا)... إنه أعظم نعيم في الجنة.

ولذلك يخبرنا النبي ﷺ أنه إذا حُشِرَ الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدي الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَنْ يدخل الجنة ومنهم مَنْ يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون في نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادي عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون في نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيّض وجوهنا.. ألم تُدخِلنا الجنة وتُنَجِّننا من النار.

وكأنهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذي أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم في تلك اللذة... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت في دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت في النظر... فمنهم من يدخل بغير حساب ولا عذاب... ومنهم من يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم من يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام.. ومنهم من يكون في أعلى درجات الجنة في الوقت الذى يكون فيه من هو أدنى منه في درجات الجنة.

✽ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون في لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة... فكلما كان المُحب أعرف بالمحجوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»^(١).

✽ بل هناك تفاوت في عدد المرات التى يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.^(٢) «أى تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم من ينظره كل يوم بُكرة وعَشِيًّا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذى ليس كمثل شىء».

✽ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتع بنعيم الجنة وبين التمتع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.^(٣)

(١) إغاثة اللفهان (١/ ٣٣) بتصرف.

(٢) سورة القيامة: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة المطففين: الآيتان: (٢٢، ٢٣).



﴿٤٩﴾ ورضوان من الله أكبر

﴿١﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١).

﴿٢﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ هَزَبَ بَنَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِّنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِمَّنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٢).

وهو قول الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣).

قال ابن عباس في تفسيرها: «أكبر مما يوصف» (٤).

وأنت به الآية مُنْكَرًا غير مُعْرَفٍ بمعنى أن أي شيء من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة وما فيها... كما قيل:

قليلٌ منك يكفيني ولكن قليلك لا يُقال له قليل

وفي التنكير إشعار بالتعظيم، ولهذا جيء باسم إشارة البعيد ﴿ذَلِكَ﴾ لكون المُشار إليه بعيد المكانة ومرتفعًا ارتفاعًا مجازيًا كناية عن الشرف والعظم

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٣) سورة التوبة: الآية: (٧٢).

(٤) زاد المسير (٣/٤٦٩).

والفخامة.

وقد سَمَّى الله كبير خزنة الجنة: رضوان، وهو اسمٌ مُشتق من الرضا، ليكون أول ما يستقبل أهل الجنة: الرضا الفيَّاض بكل صورته اسماً ومعنى!!
 لكن ما هو طعام هذا الرضوان وما مذاقه في القلب وكيف ستشعر النفس به؟! والجواب: لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن يتخيَّله... لكن ما نعلمه أكيداً من هذه الآية أن المتع الروحية في الجنة - وعلى قمته رضوان الله - أعلى وأشرف من المتع الحسية... ولا مقارنة.

أو ما علمت بأنه سبحانه	حقاً يكلم حزبه بجنان
فيقول جل جلاله هل أنتم	راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا	ما لم ينله قطُّ من إنسان
هل ثمَّ شيء غير ذا فيكون أف	ضل منه نسأله من المنان
فيقول أفضلُّ منه رضوانى فلا	يغشاكم سخط من الرحمان ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠) إخراج أهل التوحيد من النار

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»^(١).

❁ معنى الحديث: يقول النبي ﷺ «يدخل أهل الجنة الجنة» أى: يدخل المؤمنون من أهل الجنة الجنة، بفضل الله ورحمته ثم بسبب أعمالهم الصالحة، «وأهل النار النار» أى ويدخل المؤمنون من أهل المعاصى النار لمجازاتهم على سيئاتهم «ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان» أى أخرجوا من النار كل من عمل مقدار حبة خردل من أعمال الإيمان بعد التوحيد والتصديق بما جاء به نبينا ﷺ... أمّا من نقص شيئاً من التوحيد، أو أنكر شيئاً مما جاء به النبي ﷺ، فإنه لا يدخل في ذلك، ولا يخرج من النار، بل يُخَلَّد فيها، لأن التوحيد والتصديق القلبى لا يقبل التجزئة، فمن أتى بشيء من نواقض التوحيد فهو كافر مُخَلَّد في النار... وقد نبّه على ذلك العيني حيث قال: «واعلم أن المراد بالخردلة ما زاد عن أصل التوحيد، وقد جاء في الصحيحين بيان ذلك، حيث قال تعالى: «ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ»^(٢) ثم بعد هذا يُخْرَجُ مِنْهَا مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا «فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة» الذى من غُمس فيه حَيَى إلى الأبد «فينبتون كما تنبت الحبة»، أى كما تنبت البذرة المزروعة «ألم تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢) كتاب الإيمان - ومسلم (١٨٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد - ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

صفراء ملتوية» أى ألا ترى كيف تخرج من الأرض عند بدايتها صفراء اللون جميلة المنظر منعطفة الأوراق، ثم تتمدد وتتفتح أوراقها بعد ذلك، وهذا مما يزيد الرياحين حُسناً.

❁ وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ مَا يَأْتِي :

أولاً: تَفَاضُلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي دَرَجَاتِ إِيْمَانِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَفَاضُلِ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا تَرَجَّمُ لَهُ الْبَخَارِيُّ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ... وَالْحَدِيثُ، حِجَّةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمْ لِأَنَّهُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ مَنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَقِلُّ عَمَلُهُ حَتَّى يَكُونَ كَالْخَرْدَلَةِ، فَيَنْقُصُ إِيْمَانُهُ تَبَعًا لِذَلِكَ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَابِلٌ لِلنَّقْصِ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ.

ثانيًا: أَنَّ مَرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَلَةِ خِلَافًا لِلخَوَارِجِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «أَخْرَجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ».

ثالثًا: أَنَّ مَرْتَكِبَ الْمَعَاصِي مُعَرَّضٌ لِلْعُقُوبَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَدُخُولِ النَّارِ، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «فِيخْرَجُونَ مِنْهَا وَقَدْ اسْوَدُّوا» خِلَافًا لِلْمَرْجِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيْمَانِ ذَنْبٌ... حَيْثُ صَرَّحَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْعُصَاةَ يَدْخُلُونَ النَّارَ حَتَّى تُسَوِّدَ وُجُوهَهُمْ. مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيْمَانَ يَتَفَاوَتُ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ وَهُوَ عَيْنُ التَّفَاضُلِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) منار القارى شرح مختصر صحيح البخارى (١/١٠٣).

(٥١) نزول الله ﷻ إلى السماء الدنيا كل ليلة

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

✽ وفي رواية: «يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ»^(١).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

✽ قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا».

نزوله تعالى حقيقي؛ لأنه كما مرَّ علينا من قبل: أن كل شيء كان الضمير يعود إلى الله؛ فهو يُنسب إليه حقيقة.

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، وهي أقرب السماوات إلى الأرض... والسماوات سبع، وإنما ينزل ﷻ في هذا الوقت من الليل للقرب من عباده (جل وعلا)؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهى بالواقفين الملائكة.

✽ قوله: «كل ليلة».

يشمل جميع ليالي العام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين.

﴿ حين يبقى ثلث الليل الآخر ﴾.

والليل يتبدى من غروب الشمس اتفاقاً لكن حصل الخلاف في انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس؛ والظاهر أن الليل الشرعى ينتهى بطلوع الفجر، والليل الفلكى ينتهى بطلوع الشمس.

﴿ وقوله: «فيقول: مَنْ يدعونى»

«مَنْ»: استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرِفِ يُنْحِكُمْ مِّنْ عَذَابِ

الْبَرِّ ۗ ﴾^(١).

و«يدعونى» أى: يقول: يا رب ويطلب كل ما ينفعه فى دُنياه وآخرته.

﴿ وقوله: «فأستجيب له».

بالنصب؛ لأنها جواب الطلب... والفاء تدل على سرعة الاستجابة.

﴿ «مَنْ يسألنى».

يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك من مصالحة الدنيوية والأخرية.

﴿ «مَنْ يستغفرنى».

فيقول: اللهم اغفر لى، أو: أستغفرك اللهم، أو يقول دعاء سيد الاستغفار.

﴿ «فأغفر له».

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

بهذا يتبين لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أضيف إليه؛ فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: الذى ينزل أمر الله. وقال آخرون: بل الذى ينزل رحمة الله. وقال آخرون: بل الذى ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله.

(١) سورة الصف: الآية: (١٠).



وهذا باطل؛ فإن نزول أمر الله دائماً وأبداً، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل... قال الله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ (١).

وقال: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (٢).

أما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر. فسبحان الله!!... الرحمة لا تنزل إلا في هذا الوقت... كيف يكون ذلك وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٣)؛ فكل النعم من الله، وهى من آثار رحمته، وهى تترى في كل وقت!!

ثم نقول: أى فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملك من ملائكته: هل من المعقول أن الملك من ملائكته الله يقول: مَنْ يدعونى فأستجيب له... إلخ؟!

فتبين بهذا أن هذه الأقوال تحريفٌ باطلٌ يُبطله الحديث.

ووالله؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله ﷺ، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله ﷺ، وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ!!

يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟ إذا نزل؛ أين العلو؟ وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟ إذا نزل؛ فالنزول حركة وانتقال. إذا فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!

فقول: هذا جدالٌ بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقه الله ﷻ من أصحاب الرسول ﷺ؟! فأصحاب

(١) سورة السجدة: الآية: (٥).

(٢) سورة هود: الآية: (١٢٣).

(٣) سورة النحل: الآية: (٥٣).

الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبدا؛ بل قالوا: سمعنا وآمنا وقبلنا وصدقنا.
وأنتم أيها المخالفون المخلفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون:
كيف؟! وكيف!؟

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلم عن استوائه على العرش؛ هل يخلو منه العرش
أو لا يخلو؟!؟

أما العلو؛ فنقول: ينزل، ولكنه عالٍ ﷻ على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول
أن السماء تُقلُّه، وأن السماوات الأخرى تُظلُّه؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من
مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

أما الاستواء على العرش فهو فعلٌ، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق
- فيما أرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت
عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا كان علماء أهل السنة لهم في هذا ثلاثة أقوال: قول بأنه يخلو، وقول بأنه
لا يخلو، وقول بالتوقف.

وشيخ الإسلام رحمه الله في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن
أدلة استوائه على العرش مُحكمة، والحديث هذا مُحكم، والله ﷻ لا تُقاس
صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نُبقى نصوص الاستواء على إحكامها،
ونصّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مُستويٌّ على عرشه، نازل إلى السماء
الدنيا... والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله
ﷻ

القول الثاني: التوقف؛ يقولون: لا نقول: يخلو، ولا: لا يخلو.

والثالث: أنه يخلو منه العرش.

✽ وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالاً؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية؛ ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟ أفيكون نازلاً دائماً؟ فنقول: آمِن أولاً بأن الله ينزل في هذا الوقت المعين، وإذا آمنت؛ ليس عليك شيء وراء ذلك، لا تُقل كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل في السعودية؛ فالله نازل، وإذا كان في أمريكا ثلث الليل؛ يكون نزول الله أيضاً، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

إذا؛ موقفنا أن نقول: إِنَّا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ؛ «بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ مَنْ يسألني فأعطيه؟ مَنْ يستغفري فأغفر له؟!».

✽ من فوائد هذا الحديث:

أولاً: إثبات العلو لله من قوله: «ينزل».

ثانياً: إثبات الأفعال الاختيارية التي هي الصفات الفعلية من قوله: «ينزل حين يبقى ثلث الليل الآخر».

ثالثاً: إثبات القول لله من قوله: «يقول».

رابعاً: إثبات الكرم لله ﷻ من قوله: «مَنْ يدعوني... مَنْ يسألني... مَنْ يستغفري...».

وفيه من الناحية المسلكية:

أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم هذا الجزء من الليل، فيسأل الله ﷻ ويدعوه ويستغفره.

وما دام الرب سبحانه يقول: «مَنْ يدعوني... مَنْ يستغفري...» و«مَنْ»: للتشويق؛ فينبغي لنا أن نستثمر هذه الفرصة؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما

أمضيته في طاعة الله، وستمر بك الأيام فإذا نزل بك الموت؛ فكأنك وُلدت تلك الساعة، وكل ما مضى ليس بشيء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٩٨-٣٠٢) بتصرف وزيادة.



(٥٢) الله يفرح بتوبتك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولٌ» ^(١).

«أنا عند ظن عبدى بى» يعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ عند ظن عبده المؤمن به عَزَّ وَجَلَّ.. إن ظن به خيرًا فله وإن ظن به غير ذلك فله أيضًا.. ولكن السؤال الذى ينبغى أن نعرف إجابته هنا هو: متى يكون العبد حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ؟...

يكون ذلك بأن يفعل العبد ما أوجبه الله عليه وأن يعمل الصالحات التى توجب فضل الله ورحمته ويحسن الظن بالله أن الله عَزَّ وَجَلَّ سوف يتقبل منه تلك الأعمال الصالحة.

أما أن يُحسن الظن وهو لا يعمل عملاً صالحاً.. فهذا من باب التمنى على الله... ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى فهو عاجز.

وكذلك لا يصلح أن يعمل العبد المعاصى ثم يُحسن الظن بالله.

لأن حُسن الظن بالله يكون عند عمل الصالحات ورجاء قبولها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ مَعْنَاهُ بِالْعُقْرَانِ لَهُ إِذَا اسْتَعْفَرَ وَالْقَبُولِ إِذَا تَابَ وَالْإِجَابَةَ إِذَا دَعَا وَالْكَفَايَةَ إِذَا طَلَبَ الْكَفَايَةَ... وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ وَهَذَا أَصَحُّ ^(٢).

قوله: «وأنا معه حيث يذكرنى» أى: أنا معه بالرحمة والتوفيق والهداية

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب التوبة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/١٧).

والرعاية والإعانة والنصر «حيث يذكرني» سواء ذكرني في نفسه أو ذكرني بين
الملا... وفي رواية: «حين يذكرني».

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ فمعناه: معكم بالعلم والإحاطة.

❁ «والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة».

وهذا اختصار لما جاء في الرواية الأخرى أن النبي ﷺ قال: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا
بِتُوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاقَةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ
وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجْرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ
رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ
الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

فهذا الرجل كان يركب ناقته وعليها طعامه وشرابه وملابسه وأمواله وكل
أسباب حياته في تلك الصحراء.. وفجأة انفلتت منه دابته فأيس من رجوعها مرة
أخرى وتيقن أنه قد تكون نهايته في تلك الصحراء.. فذهب واضطجع في ظل
شجرة ينتظر الموت.. فبينما هو كذلك إذ جاءت الناقة ووقفت عنده فلم يصدق
نفسه... وكأنه قد عادت إليه أسباب الحياة مرة أخرى فأخذ بخظام الناقة ثم قال
من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدى وأنا ربك».. يقول النبي ﷺ عن هذا الرجل:
«أخطأ من شدة الفرح».

فتأمل معي كيف كانت فرحة هذا الرجل برجوع ناقته حتى أخطأ هذا الخطأ
الكبير.. فالله أفرح بتوبة عبده حين يتوب.. أكثر من فرحة هذا الرجل حين
عادت إليه ناقته وعليها كل أسباب حياته.

مع أن الله عَزَّوَجَلَّ غَنِيٌّ عَنَّا.. لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا..

قال تعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى
قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ

وَأَنسِكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»^(١).

ثم قال تعالى: «وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُؤًا»

ثم ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده... فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول عَرَّوَلًا... فهو سبحانه وتعالى أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب... فهو أمرٌ ترجع كلفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كلفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

والسلف «أهل السنة والجماعة» يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول: «وَأَمَّا دُنُوهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أُمَّةِ السَّلَفِ وَأُمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلِ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرًا»^١ هـ.

فأى مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه؟

وأى مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟

وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعلاً لما يريد على الوجه الذي يليق به؟^(٢)

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلوة.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٤٦٦).

﴿٥٣﴾ خطر الشرك.. وذم الرياء

✽ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَيْبِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهْمُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: إِذَا جَازَى النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانظُرُوا هَلْ تَحِدُونَ عَنْدَهُمْ جَزَاءً»^(١).

✽ الرياء في اللغة مُشتق من الرؤية، وهي: النظر... يُقال: رائيته، مُراءاة، ورياء، إذا أريته على خلاف ما أنا عليه^(٢).

وفي الاصطلاح: أن يُظهر الإنسان العمل الصالح للآخرين أو يُحسنه عندهم، أو يُظهر عندهم بمظهر مندوب إليه ليمدحوه ويعظم في أنفسهم^(٣).
فمن أراد وجه الله والرياء معاً فقد أشرك مع الله غيره في هذه العبادة، أما لو عمل العبادة وليس له مقصد في فعلها أصلاً سوى مدح الناس فهذا صاحبه على خطرٍ عظيم، وقد قال بعض أهل العلم: إنه قد وقع في النفاق والشرك المُخرج

(١) حسن: رواه أحمد، والبيهقي، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٢) ويقال: أريته العمل إراءة، ورتاء... قال الله تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالياء في «رياء» مقلوبة عن همزه. ينظر بصائر ذوى التمييز (١١٦/٣)، القاموس المحيط «مادة رياء».

(٣) وينظر الرعاية (ص ٢٠٩)، قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (ص ١٦٠).

وقد أدخل بعض العلماء إرادة الدنيا في الرياء، والصحيح أن الرياء من إرادة الدنيا، لا العكس؛ لأن المرابي إما أن يريد أن يعظم في نفوس الخلق ليحصل على رئاسة أو مال من قبلهم ونحو ذلك، وهذا كله من الدنيا، وإما أن يريد مدح الناس والجلالة في أعينهم فقط، وهذا أيضاً من إرادة الدنيا؛ لأنه إنما يريد هذه الأمور العاجلة في هذه الحياة الدنيا، ولا يريد وجه الله والدار الآخرة... أما كون الإنسان يعمل العمل الصالح من أجل الوظيفة ونحو ذلك فهذا ليس من الرياء؛ لأنه لم ير عمله أحداً، وإنما هو من إرادة الدنيا، وهي أعم من الرياء.



من الملة^(١).

✽ والرياء له صور عديدة، منها:

١ - الرياء بالعمل، كمراءة المصلى بطول الركوع والسجود^(٢).

٢ - المراءة بالقول، كسرر الأءلة إظهارًا لغزارة العلم، ليقال: عالم^(٣).

(١) وبعض العلماء كالغزالي وابن رجب والهيتمي لا يجعل الرياء المحض فى العبادات مكفرًا، وهو ظاهر كلام كثير من أهل العلم، ولعله الأقرب، ومثله من أراد بعبادته الدنيا وحدها؛ لأنه لم يخضع ولم يتذلل فى ذلك لأحد، ولم يُعظمه، وإنما أراد تحقيق ما تهواه نفسه من المدح ونحوه من الحظوظ العاجلة... وقد حكى أبوالبقاء فى الكليات «مادة: شرك» الإجماع على أن العمل لغير الله معصية من غير كفر... وبالجملة فإن المسألة خطيرة، لكونه فصد بالعبادة غير وجه الله.

أما الرياء بأصل الإيمان، أو إظهار بعض العبادات الأخرى رياءً مع إبطان الكفر فهذا من الشرك الأكبر والنفاق الأكبر.

(٢) وكبر الوالدين ليقال: بارٌّ وكإكرام الضيوف ليقال: كريم، وكالصدقة على الفقراء وفى أوجه الخير الأخرى ليقال: كريم. أما الإنفاق على الأغنياء وإقامة الولائم لهم لا على وجه العبادة والصدقة، بل ليقال: سخي، فليس من الرياء؛ لأنه ليس من أعمال الخير.

(٣) وكتحريك الشفتين بالذكر أمام الناس رياءً. ومن الرياء بالقول أن يحسن صوته بالقراءة، ليقال: فلان قارئ، وهذا من السمعة المحرمة، وقد روى البخارى (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) عن جنرر مرفوعًا: «من يُرائى يُرائى الله به، ومن يُسمع يُسمع الله به» والمعنى أن الله يفضحه يوم القيامة بإظهار قصده السىء.

ومن أنواع السمعة المحرمة أيضًا أن يذكر للناس ما عمله من أعمال صالحة فيما مضى، ليمدحوه أو يعظم فى نفوسهم.

✽ وهل السمعة بعد انتهاء العمل تُبطل العمل؟ ورد فى ذلك حديثان عند البيهقى فى «الشعب» فى أنه يبطل. وإسناد كل منهما ضعيف. قال فى الإحياء (٣/٣٢٥): «الأقيس أنه مثاب على عمله الذى مضى، ومُعاقب على مُراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها». وقال فى مختصر منهاج القاصدين (ص ٢٨٣): «أما إن تحدت به بعد تمامه وأظهره فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلّم من الرياء نقص أجره».

٣- المراعاة بالهيئة والزيّ، كإبقاء أثر السجود على الجبهة رياءً^(١).

✽ هذا وهناك بعض الصور أدخلها بعض أهل العلم في الرياء، والأقرب أنها لا تدخل فيه ومنها:

(١) ترك فعل العبادات أمام الناس خوفاً من الرياء، فقد عمّم بعض العلماء الحكم في هذا، والأقرب في ذلك هو التفصيل: فمن علّم من نفسه أنه سيقع في الرياء إن أدى هذه العبادة أمام الناس ينبغي له أن لا يفعلها أمامهم، بل إنه قد ورد الندب إلى فعل النوافل في البيوت، وورد الندب إلى الإسرار بالصدقة، فهنا أولى. أما من ترك العبادة من أجل مجرد رؤية الناس له فهو رياء، لأنه تركها من أجل الناس، لكن لو تركها ليصليها في الخلوة فهذا مستحب.

(٢) ترك المعصية خوفاً من دمّ الناس، فإن الأقرب أن هذا ليس من الرياء؛ لأن المسلم مأمور بالستر على نفسه، ومأمور بأن يبتعد عما يسىء إلى عرضه، ومأمور بإبعاد قالة السوء عن نفسه، وترك المعصية وإخفاؤها خوفاً من الذم داخل في هذا... وقد ذكر الغزالي في الإحياء (٣/ ٣٣٦-٣٣٩): ثمانية أَعذار يجوز أو يندب من أجلها إخفاء المعصية، ثم قال: «ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرأياً»، وبالجملة فإن العبرة بالنية والقصد.

(٣) الفرح بعلم الناس بعمله بعد أدائه للعبادة. قال في مختصر منهاج القاصدين (ص ٢٨٣): «فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص، فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده».

وقال شيخنا محمد بن عثيمين في القول المفيد (٢/ ٢٢٨): «وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة».

(١) وكتصير الثياب، والظهور بمظهر الزّهّاد من أجل أن يُمدح بذلك.



❁ وقد وردت أدلة كثيرة تدل على تحريم الرياء وعِظْم عقوبة فاعله، وأنه يُبطل العمل الذى يصاحبه.

قال الحافظ ابن رجب فى جامع العلوم: «تارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص تدل على بطلانه وحبوطه، ولا نعرف عن السلف فى هذا خلافاً، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين، وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاها الإمام أحمد وابن جرير، ورجّح أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازى بنيته الأولى»^(١).

❁ ولهذا ينبغى للمسلم البعد عن الرياء والحذر من الوقوع فيه... وهناك أمور تعين على البعد عنه، أهمها:

(١) **تقوية الإيمان فى القلب**، ليعظم رجاء العبد لربه، ويُعرض عمّن سواه، ولأن قوة الإيمان فى القلب من أعظم الأسباب التى يعصم الله بها العبد من وساوس الشيطان، ومن الانقياد لشهوات النفس.

(٢) **التزود من العلم الشرعى**، وبالأخص علم العقيدة الإسلامية، ليكون ذلك حِزماً له بإذن الله من فتن الشبهات، وليعرف عظمة ربه **عَزَّوَجَلَّ**، وضعف المخلوقين وفقدهم، فيحمله ذلك كله على مقت الرياء واحتقاره والبعد عنه، وليعرف أيضاً مداخل الشيطان ووساوسه، فيحذرهما.

(٣) **الإكثار من الالتجاء إلى الله تعالى**، ودعائه أنه يعيده من شر نفسه ومن شرور الشيطان ووساوسه، وأن يرزقه الإخلاص فيما يأتى وما يذر، والإكثار من الأذكار الشرعية التى هى حصن من شرور النفس والشيطان.

(١) جامع العلوم والحكم (١/٧٩).

(٤) تذكّر العقوبات الأخروية العظيمة التي تحصل للمرائى، ومن أعظمها

أنه من أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة.

(٥) التفكير في حقارة المرائى، وأنه من السفهاء والسفلة؛ لأنه يضيع ثواب

عمله الذى هو سبب لفوزه بالجنة ونجاته من عذاب القبر وشدة القيامة وعذاب

النار من أجل مدح الناس والحصول على منزلة عند المخلوقين، فهو يبحث عن

رضا المخلوق بمعصية الخالق... ولهذا لما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: مَنْ

السفلة؟ قال: «مَنْ أَكَلَ بدينه»^(١).

(٦) الحرص على كل ما هو سبب فى عدم الوقوع فى الرياء،

وذلك بالحرص على إخفاء العبادات المستحبة، وبمدافعة الرياء عندما

يخطر بالقلب، وبالبعد عن مجالسة المدّاحين وأهل الرياء، ونحو ذلك^(٢).

✽ وفى ختام الكلام على مسألة الرياء يحسن التنبيه إلى أنه لا يجوز

للمسلم أن يرمى مسلماً آخر بالرياء، فإن الرياء من أعمال القلوب ولا يعلمه إلا

علام الغيوب... واتهام المسلمين بالرياء هو من أعمال المنافقين^(٣)، والأصل فى

(١) روى البيهقى فى «الشعب» (٦٩٣٣) عن الإمام مالك أنه سأله شيخه ربيعة بن أبى عبد الرحمن

- وهو من أئمة التابعين - فقال له: من السفلة؟ فقال مالك: من أكل بدينه. قال ربيعة: من سفلة

السفلة؟ قال: مَنْ أَصْلَحَ دُنْيَا غَيْرِهِ بِفَسَادِ دِينِهِ. قال مالك: فَصَدَّرْنِي.

وممن يأكل بدينه: المرائى. فقد يريد بأدائه للعبادة الحصول على مكانة فى نفوس الناس ليكرم

من أجلها أو يوَلَّى عملاً يتقاضى عليه أجرًا، أو يُكْرَم بالهدايا والهبات ونحو ذلك.

ويدخل فى سفلة السفلة الذين يُصلحون دُنْيَا غَيْرِهِمْ بِإِفْسَادِ أَدْيَانِ أَنْفُسِهِمْ: مَنْ يَعْمَلُ فى تِجَارَةِ

محرمة لغيره، وَمَنْ يَظْلِمُ الْآخِرِينَ أو يعذبهم أو يتجسس عليهم فيتسبب فى أذاهم من أجل

المحافظة على مصالح غيره، وَمَنْ يَفْتِي بِحِلِّ مَا حَرَّمَ اللهُ من أجل تحقيق رغبات وشهوات

ومصالح مَنْ يَفْتِيهِمْ، فَيُهْلِكُ نَفْسَهُ من أجل مصلحة أو هوى غيره.

(٢) ينظر الرعاية ص ٢٣٣-٢٤٢، الإحياء ٣/ ٣٢١-٣٣٤، مختصر منهاج القاصدين ص ٢٨٣-٢٨٥.

(٣) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا

يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وروى البخارى (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨) فى سبب نزول



المسلم السلامة، وأنه إنما أراد وجه الله.
 ❁ وأيضًا فإن المسلم يُندَب له في بعض المواضع أن يُظهر عمله للناس،
 إذا أَمِنَ على نفسه من الرياء، كما إذا أراد أن يُقتدى به في الخير، فليس كل مَنْ
 حرص على إظهار عمله للناس يُعتبر مُرائيًا^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

⁼ هذه الآية عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل
 بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا
 الآخر إلا رياء... ومعنى تتحامل: نحمل على ظهورنا للناس بالأجرة من أجل أن نتصدق بها،
 لأنه ليس عندهم شيء يتصدقون به.

(١) ينظر: الرعاية (ص ٣١٥-٣٢٤)، الإحياء (٣/ ٣٣٤-٣٣٦)، مختصر منهاج القاصدين
 (ص ٢٨٧).

(٢) بتصرف من (تسهيل العقيدة الإسلامية) / د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين.

(٥٤) إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَوْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» كِتَابَتَهُ لِلْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ تَشْمَلُ مَعْنِيَيْنِ:

المعنى الأول: كتابة ذلك في اللوح المحفوظ ... فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرًّا﴾^(٣). فالله سبحانه وتعالى كتب السيئات والحسنات في اللوح المحفوظ.

والمعنى الثاني: كتابته إِيَّاهُمَا إِذَا عَمِلَهَا الْعَبْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَتِهَا بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَبِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ عَدْلُهُ وَفَضْلُهُ.

«فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً».

ومثال ذلك: أن يهيم الإنسان بفعل طاعة أو فعل خيرٍ بعينه ثم يُحال بينه وبين فعل ذلك فإنه يُكتب له حسنة كاملة ... بل قيل إنه بمجرد أن يهيم بفعل أى طاعة تُكتب له حسنة كاملة وإن لم يفعلها ... حتى ولو لم يكن هناك شىء حال

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٣١) كتاب الإيمان.

(٢) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٣) سورة القمر: الآية: (٥٣).



بينه وبين تلك الطاعة... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. فهو سبحانه يجزى عبده بمجرد أن ينوى فعل الخير أو الطاعة.

مثاله: رجل همّ أن يتوضأ ليقراً القرآن، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

همّ أن يتصدّق وعيّن المال الذي يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدّق فيُكتب له بذلك حسنة كاملة... همّ أن يصلي ركعتين فأمسك ولم يُصل فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

«وإن همّ بها فعملها كتبتها الله عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة».

وهذا التفاوت مبنى على الإخلاص والمتابعة... فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع في عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر.

وأما السيئة فقال: «وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة».

كرجل همّ أن يسرق ولكن ذكر الله ﷻ فأدركه الخوف من الله فترك السرقة، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فائيب على ذلك.

كما جاء ذلك مُفسّراً في لفظٍ آخر: «لأنه تركها من جرّاء»^(١) أي من أجلى. فإن عمل السيئة كتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد... لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢). وهذا الحديث فيه: دليل على اعتبار النية وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠١) كتاب التوحيد- ومسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٦٠).

وسبق لنا أن الإنسان إذا نوى الشر وعمل العمل الذي يُوصل إلى الشر ولكنه عجز عنه فإنه يُكتب عليه إثم الفاعل... كما سبق فيمن التقيا بسيفيهما من المسلمين: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتول؟ قال: لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه»^{(١)(٢)}.

فأما الهم الذي لا يُكتب فهي الخواطر التي لا تُوطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم.

❖ وفي رواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً... وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ»^(٣).

❖ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلَهَا، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْزُقُوهُ فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَايَ»^(٤).

❖ وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «عَنْ قَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَلَمْ يَعْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» الْحَدِيثَ. فَإِذَا كَانَ الْهَمُّ سِرًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان - ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

(٢) (شرح رياض الصالحين) (١/٥٦-٥٧) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠١) كتاب التوحيد - ومسلم (١٢٨) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.



فَكَيْفَ تَطَّلِعُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِ؟.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَدْ رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي جَوَابِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَالَ: «إِنَّهُ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ شَمَّ الْمَلِكُ رَائِحَةَ طَيِّبَةً وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ شَمَّ رَائِحَةَ خَبِيثَةً».

وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُعَلِّمَ الْمَلَائِكَةَ بِمَا فِي نَفْسِ الْعَبْدِ كَيْفَ شَاءَ، كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَطَّلِعَ بَعْضُ الْبَشَرِ عَلَى مَا فِي الْإِنْسَانِ.

فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ قَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْكَشْفِ مَا يَعْلَمُ بِهِ أحيانًا مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ... فَالْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِالْعَبْدِ أَوْلَى بِأَنْ يُعْرِفَهُ اللَّهُ ذَلِكَ.

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١) أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ... وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ تُلْقَى فِي نَفْسِ الْعَبْدِ الْخَوَاطِرَ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «إِنَّ لِلْمَلِكِ لَمَّةً وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً... فَلَمَّةُ الْمَلِكِ تَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ وَوَعْدٌ بِالْخَيْرِ وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ تَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَإِعَادٌ بِالشَّرِّ».

وَقَدْ نَبَتْ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْحِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ إِلَّا أَنْ اللَّهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٢). فَالْسَيِّئَةُ الَّتِي يَهُمُّ بِهَا الْعَبْدُ إِذَا كَانَتْ مِنْ إِقَاءِ الشَّيْطَانِ: عَلِمَ بِهَا الشَّيْطَانُ.

وَالْحَسَنَةُ الَّتِي يَهُمُّ بِهَا الْعَبْدُ إِذَا كَانَتْ مِنْ إِقَاءِ الْمَلِكِ: عَلِمَ بِهَا الْمَلِكُ أَيْضًا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى... وَإِذَا عَلِمَ بِهَا هَذَا الْمَلِكُ: أَمَكَنَ عِلْمُ الْمَلَائِكَةِ الْحَفِظَةَ لِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»^(٣).

(١) سورة ق: الآية: (١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٤) صفات المنافقين.

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٢٥٣-٢٥٤).

(٥٥) الترهيب من معاداة أولياء الله عز وجل

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيْدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

عن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ولذا قال الحق ﷻ: ﴿الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأحوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يُسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله،

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

«آذنته»: أعلمته بآتي محارب له - «استعاذني» روى بالنون وبالباء.

(٢) سورة يونس: الآيات: (٦٢-٦٤).

واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

فكل مَنْ كان مؤمناً تقيّاً كان لله تعالى وليّاً... لذلك كانت ﴿لَهُمُ الْبَشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وفي القبر، ما يُبَشِّرُ به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم.
وفي الآخرة، تمام البشري، بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا بُدَّ لِكَامَلَةِ اللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حقٌّ، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدره وقضاه.
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوبٍ محبوب... وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشري شاملة لكل خير وثواب، ربَّه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يُقيده^(١).

(١) تفسير السعدي (ص ٤١٢).

❁ والخلاصة أن ولي الله هو القائم بطاعته المخلص في عبادته، والموالاتة هي المحبة والنصرة... ومن أعظم ما يتبين به الولي: أن يكون مُجاب الدعوة، راضياً عن الله ﷻ في كل حال، تاركاً لمناهيه، تاركاً لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها.. لا يكون له شُغْلٌ بملاذ الدنيا، ولا بالتكاثر فيها، ولا بتحصيل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض... إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شَكَر... يستوى عنده المدح والذم، والفقر والغنى، والظهور والخمول... غير مُعجبٍ بما مَنَّ اللهُ عليه من خصال الولاية... إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً... حَسَن الأُخلاق، كريم الصحة، عظيم الحلم، كثير الاحتمال.

وَمَنْ وَهبت له هذه الموهوبات الجليلة، وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة، فغير بعيد ولا مُستنكِر أن تظهر عليه الكرامات التي لا تنافي الشريعة، والتصرفات في مخلوقات الله ﷻ الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه.

فالكرامة ثابتة بالشريعة المطهرة، ولكن ينبغي أن يُعلم أنه ليس كل خارقة كرامة... فالخارقة إما أن تكون خارقة رحمانية، أو خارقة شيطانية.

والمقياس الذي لا يجوز هو مقياس الكتاب والسنة، فلا بُدَّ أن يُقاس نفس الشخص الذي أتت على يديه الخارقة بمقياس الكتاب والسنة، وأن تُقاس نفس الخارقة بمقياس الكتاب والسنة... كما قال الإمام الشافعي: إذا رأيتم الرجل يسير على الماء أو يطير في الهواء فانظروا في عمله، أي: لا تحكموا له بأنه من أولياء الله بمجرد ظهور هذه الخارقة فقد يكون ولياً للشيطان.

والكرامة ثابتة بالكتابة والسنة كما قال تعالى: ﴿كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ^ط﴾ (١).



فمريم كانت صديقة ولية لله ﷻ، ولم تكن نبيه، فما كان يجده زكريا ﷺ عندها من رزقٍ كان على سبيل الكرامة.

كذلك قصة أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم فناموا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة، كان ذلك كذلك على سبيل الكرامة.

أما أدلة السنة فمن ذلك ما ورد في الصحيح من قصة أضياف جابر بن عبد الله ﷺ أنهم كانوا كلما أكلوا من القصعة ربّا الطعام -أى: زاد- من أسفلها أكثر منها حتى أطعم النبي ﷺ منها الجيش بأكمله.

كذلك خبيب بن عدى رضى الله عنه لما أسره المشركون كانوا يجدون في يده قطفًا من العنب وليس بمكة ثمرة وما كان إلا رزقًا رزقه الله ﷻ إياه.

أما كرامات السلف رضى الله عنهم فهي كثيرة... فمن ذلك أن إحدى الصحابيات ذهب بصرها من تعذيب المشركين. فقالوا: ما أذهبه إلا اللات والعزى. فقالت: كلا والله... ودعت الله ﷻ، فردّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن أبا مسلم الخولاني. أحد أئمة التابعين ألقى في النار فوجد في النار قائمًا يُصلى.. ولما قابله عمر رضى الله عنه ذهب به إلى أبى بكر رضى الله عنه، وقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

ودعا أبو مسلم على امرأة أفسدت زوجته فعميت... فتابت فدعا لها فردّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن صلة بن أشيم - أحد العبّاد - مات فرسه فى الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوقٍ علىّ منة... ودعا الله فأحياه، فلما وصل إلى بيته، قال: يا بُنى خذ السرج، فإن الفرس عارية، فأخذ السرج فمات الفرس.

ومن ذلك أن الحسن البصرى دعا على رجل فقال: إن كنت كاذبًا فعجّل

الله حتفك... فمات الرجل مكانه.

✽ والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة العالية من الولاية، حتى يصل معها إلى درجات عالية من محبة الله ﷻ، والرضا به... كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مُستجاب الدعوة، وكان يدعو للناس لمعرفةهم منه ذلك، فذهب بصره في آخر عمره، فقيل له: ألا دعوت لبصرك. فقال: قضاء الله أحب إليّ من بصرى.

✽ فقلوه ﷻ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ» أى: فقد أعلمته أنني مُحارِبٌ له، حيث إنه كان محاربًا لى بمعاداته وليًّا من أوليائي.

فأولياء الله ﷻ تجب موالاتهم ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١)، وتحرّم معاداتهم.

وأعداء الله ﷻ تجب معاداتهم، وتحرّم موالاتهم ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾^(٢).

✽ ثم بيّن الحديث القدسي الشريف، كيف تصير وليًّا من أولياء الله ﷻ، فقال: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممّا افترضت عليه».

فطريق ولاية الله ﷻ يبدأ باستكمال الفرائض.

قال عمر رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض، والورع عما حرّم الله، وحسن النية فيما عند الله ﷻ... ومن أعظم الفرائض ترك المعاصي، كما دلّ على ذلك قوله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَادْعُوهُ»^(٣).

فالصلوات الخمس مثلًا أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من

(١) سورة المائدة: الآية: (٥٥).

(٢) سورة الممتحنة: الآية: (١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.



النوافل... وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها... كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل.

ووجه ذلك أن الفرائض ألزم الله بها العباد.. وهذا دليلٌ على شدة محبته لها (سبحانه وتعالى) فلما كان يحبها كل هذا الحب ألزم بها عباده؛ لأنه يحب لهم الخير.. أما النوافل فالإنسان له كامل الحرية فيها إن شاء أن يتنفل تنفلاً وفاز بالأجر والثواب، وإن كان لا يستطيع أن يتنفل فليس عليه وزرٌ ولا ذنب...

ولكن الشيطان أحياناً يُزين للعبد الإكثار من النوافل ويجعله يتكاسل عن أداء الفرائض.. وهذا من تزيين الشيطان فلنحذر جميعاً من مكائد الشيطان ولنحرص على أداء الفرائض التي يحبها الله ﷻ.

❁ قوله ﷻ في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» والنوافل: هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

قال العلماء: ما بال نوافل هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض؟

وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فليس هناك عقوبة في تركها، وإنما يفعلها العبد بإخلاص نية التقرب والتحبُّب إلى الله ﷻ... فلما خلصت النية في النوافل، كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض... ولا يخفى أن النافلة هي التي تأتي زائدة على الفرائض، فطريق ولاية الله ﷻ يبدأ بالفرائض، ثم الإكثار من النوافل كما قال بعضهم: مَنْ شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومَنْ شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

❁ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «فَإِذَا أَحَبَّيْتَهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا».

قال الحافظ: وَقَدْ اسْتَشْكَلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمَعَ الْعَبْدِ

وَبَصَرُهُ... إِنْخ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجِهٍ - وَذَكَرَ سَبْعَةَ أَوْجِهٍ - أَقْرَبُهَا لِلصَّوَابِ: أَنْ الْعَبْدَ بِكَلِّتِهِ يَكُونُ مُشْغُولًا بِرَبِّهِ ﷺ، فَلَا يُصْنَعِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضَى اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ بَصَرَهُ إِلَّا فِيمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ بِهِ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ يَدَهُ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَلَا يَحْرُكُ قَدَمَهُ إِلَّا فِي مَرْضَاتِهِ.

وقال الثوكاني: إن الله يمد جوارح العبد بنور... فبهذا النور يسمع، وبه يُبصر، وبه يبطنش، وبه يمشى... واستدل على ذلك بأدلة منها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»^(١).

✽ وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

إنه توفيق الله ﷻ يحالف العبد، فإذا سمع فتوفيق الله، وإذا أبصر فتوفيق الله، وإذا مدَّ يده فتوفيق الله... أى: أن الله ﷻ يوفق عبده للصواب، ويهديه للرشاد في كل قولٍ وعملٍ... وهو من قبيل: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾^(٢).

✽ ثم قال: «وَإِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْطِيَنَّكَ» أى: أن هذا العبد يصير في درجة عالية سامية، تؤهله أنه إذا سأل الله ﷻ أعطاه، وإذا استعاذ بالله ﷻ - أى: احتسب بجناحه - أعاده الله ﷻ.

روى الحاكم في مستدركه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَفْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»^(٣).
وأن البراء لقي زحفًا من المشركين، فقال له المسلمون: أقسم على ربك.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والضياء، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥٧٣).



فقال: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَهُمْ، فَمُنِحُوا أَكْتَفَهُمْ، ثُمَّ التَّقُوا مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالُوا: أَقْسِمُ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَهُمْ، وَالْحَقَّتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ... فَمُنِحُوا أَكْتَفَهُمْ، وَقَتِلَ الْبِرَاءُ ﷺ شَهِيدًا^(١).

﴿وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ﴾ يعني: لئن اعتصم بي ولجأ إلي من شر كل ذي شرٍّ لأعيذنه، فيحصل له بإعطائه مسئوله وإعادته مما يتعوذ منه المطلوب، ويزول عنه المرغوب.

﴿قوله ﷺ في الحديث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

لما أحب المؤمن ما يحبه الله ﷻ، وكره ما يكرهه الله ﷻ، أحب الله ﷻ للمؤمن ما يحبه المؤمن، وكره له ما يكره... والموت يكرهه الناس كلهم؛ لأنه أكبر مصيبة في الدنيا... والله ﷻ قضى على الخلق كلهم بالموت والفناء، فسمى الله ﷻ اختلاف الإرادتين في حقه ﷻ تَرَدُّدًا، فقال: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

﴿وفي هذا الحديث عدة فوائد:

أولاً: إثبات الولاية لله ﷻ... وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة وهي السلطة على جميع العباد، والتصرف فيهم بما أراد كل إنسان... فإن الذي يتولى أموره وتدييره وتصريفه هو الله ﷻ.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴿٦٢﴾﴾. فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق.

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: (٦١-٦٢).

أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(١)، والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سببٍ منه... أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسببٍ من الإنسان فهو الذى يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليًّا له، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٢).

ومن فوائد هذا الحديث: فضيلة أولياء الله، وأن الله سبحانه وتعالى يُعادي من عاداهم، بل يكون حربًا عليهم ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة، لأن الله تعالى قال: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه».

ومن فوائده: إثبات المحبة لله ﷻ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض. فالله ﷻ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة، وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك مُعافًا في جميع أموره... لقوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه...» إلخ.

وفيه دليل أيضًا: على أن من أراد أن يحبه الله فالأمر سهلٌ عليه إذا يسَّره الله له... يقوم بالواجبات، ويكثر من التطوع بالعبادات، فبذلك ينال محبة الله وينال

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٧).

(٢) سورة يونس: الآية: (٦٣).



ولاية الله.

ومن فوائد هذا الحديث: إثبات عطاء الله عز وجل وإجابة دعوته لولييه، لقوله: «لئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

وأتى به الإمام النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب المجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهادٍ في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

(٥٦) فضل الحب في الله ﷺ

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي» ^(١).

✽ وَعَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ يَقُولُ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ». قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى لَقِيتُ عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ فَذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثَ مُعَاذِ بْنِ جَبَل فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷺ يَقُولُ: «حُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ... الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّيِّونَ وَالصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ» ^(٢).

✽ وَعَنْ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي، لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّيِّونَ وَالشُّهَدَاءُ» ^(٣).

✽ «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي» أَي: لِأَجْلِ إِجْلَالِي وَتَعْظِيمِي.. لَهُمْ مَكَانَةٌ عَالِيَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ».

وَعَلَى قَدْرِ صَدَقَتِهِمْ فِي مَحَبَّتِهِمْ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَكُونُ دَرَجَةُ الْأَنْوَارِ فِي تِلْكَ الْمَنَابِرِ الَّتِي هِيَ مِنَ النُّورِ.. لَكِنْ كَمَا تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُ الْإِيمَانِ وَدَرَجَاتُ الْإِخْلَاصِ وَصَدَقَ الْمَحَبَّةِ تَخْتَلِفُ الْأَنْوَارُ.. فَكَلَّمَا كُنْتَ صَادِقًا فِي مَحَبَّتِكَ لِأَخِيكَ كَلَّمَا كَانَتْ أَنْوَارُكَ عَلَى الصِّرَاطِ أَعْظَمَ وَأَنْوَارُكَ فِي تِلْكَ الْمَنَابِرِ أَكْبَرَ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٢).

❁ قوله: «يَغْبِطُهُمُ النَّيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ».. الغبطة هي تمنّي مثلما عند الغير من الخير دون تمنّي زوال ما عند الغير.

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ: يَسْتَحْسِنُ أَحْوَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ.

وَقَالَ الْقَاضِي: كُلُّ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَعَاطَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزِلَةً لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ صَاحِبُهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا هُوَ أَرْفَعُ قَدْرًا وَأَعَزُّ ذُخْرًا فَيَغْبِطُهُ بِأَنْ يَتَمَنَّى وَيُحِبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ مَفْهُومًا إِلَى مَا لَهُ مِنَ الْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ أَوْ الْمَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: يَغْبِطُهُمُ النَّيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ... فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ اسْتَعْرَفُوا فِيمَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مِنْ دَعْوَةِ الْخَلْقِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الدِّينِ وَإِرْشَادِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتٍ أَشْغَلَتْهُمْ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا... وَالشُّهَدَاءُ وَإِنْ نَالُوا رُتْبَةَ الشَّهَادَةِ وَفَازُوا بِالْفَوْزِ الْأَكْبَرِ فَلَعَلَّهُمْ لَنْ يُعَامَلُوا مَعَ اللَّهِ مُعَامَلَةً هَؤُلَاءِ فَإِذَا رَأَوْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَشَاهَدُوا قُرْبَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَدَوَّالُوا كَانُوا ضَامِّينَ خِصَالَهُمْ فَيَكُونُونَ جَامِعِينَ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَفَائِزِينَ بِالْمَرْتَبَاتِ... وَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ فِي ذَلِكَ إِلَى إِثْبَاتِ الْغِبْطَةِ لَهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ بَلْ بَيَّنَّ فَضْلَهُمْ وَعُلُوَّ شَأْنِهِمْ وَارْتِفَاعَ مَكَانِهِمْ وَتَقَرُّيرَهَا عَلَى أَكْدٍ وَجْهِ وَأَبْلَغِهِ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ حَالَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَابَةِ لَوْ غَبَطَ النَّيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَئِذٍ مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِمْ وَنَبَاهَةِ أَمْرِهِمْ حَالَ غَيْرِهِمْ لَغَبَطُوهُمْ^(١).

قال عمران بن حطان: لقد أحببت في الله عز وجل ألف أخ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته ومكان داره.

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ما تحابَّ رجلان في الله عز وجل إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه.

(١) تحفة الأحوذى (٦/٢٥٩-٢٦٠).

وكان يقول: اصحب مَنْ إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإذا أصابتك خصاصة مانك، وإن رأى منك حسنة سُرَّ بها، وإن رأى منك سقطه سترها، ومَنْ إذا قلت له صدَّق قولك، ومن هو فوقك في الدين ودونك في الدنيا، وكل أخ وجليس وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيرًا فانبذ عنك صحبته.

وقال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرنى في دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أيدخل أحدكم يده في كُم أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا؟ قال: فلستم بإخوان كما تزعمون.

ويُروى أن فتحًا الموصلى جاء إلى صديق له يُقال له: عيسى التَّمَّار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادمة: أخرجى لى كيس أخى، فأخرجته، فأخذ منه درهمين... وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنتِ صادقة فأنتِ حرة، فنظر فإذا هي قد صدقت فعتقت.

وقد كان عمر بن الخطاب يذكر الأخ من إخوانه في بعض الليل فيقول: يا طولها من ليلة! فإذا صلى المكتوبة خدا إليه فاعتنقه.

وقال مجاهد: إذا مشى أحد المتحابين إلى الآخر فأخذ بيده فضحك إليه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر (أى: تسقط الخطايا).

﴿ ٥٧ ﴾ تحريم قطع الأرحام

﴿ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ (١)﴾ (٢).

وفي رواية للبخارى: «فقال الله تعالى: مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ».

﴿ قَوْلُهُ ﷺ: «قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ».

هذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها وإن استبعدتها العقول وحرار الإنسان: كيف تتكلم الرحم؟! فإننا نقول إن الله على كل شيء قدير، وقد أخبر الله أن الأرض يوم القيامة تُحدث أخبارها بما أوحى الله إليها به، فإذا أمر الله شيئاً بأمر من هذه الأمور سيستجيب على كل حال... فالأيدي يوم القيامة والألسن والأرجل والجلود كلها تشهد، مع أنها جماد، وتشهد على صاحبها مع أنها الأقرب إليه؛ لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

﴿ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﻫِزْوَكًا خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ - أَى مِنْ خَلْقِهِمْ - قَامَتِ الرَّحِمُ.. لَكِنْ كَيْفَ قَامَتِ؟ وَهَلْ تَمَثَّلَتْ فِي صُورَةٍ بَعَيْنِهَا أَمْ مَاذَا حَدَثَ؟ أَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ... وَمَا دَامَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَخْبِرْنَا

(١) سورة محمد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٠) كتاب التفسير - ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

بكيفية ذلك فلا حاجة لنا لأن نتكلف معرفة ذلك... ولو كان هناك خير في معرفة ذلك لأخبرنا النبي ﷺ الذي قال: «ما تركت من خيرٍ إلا وقد دللتكم عليه، وما تركت من شرٍّ إلا وقد حذرتكم منه».

المهم أن الرحم قامت وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.. فما كان من الحق (جَلَّ وعلا) إلا أن قال لها: نعم.. أما ترضين أن أصل مَنْ وصلك وأقطع مَنْ قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك. فمن وصل رحمه وصله الله بلطفه ورحمته وعطفه وإحسانه وجُوده وكرمه وحفظه.. ومن قطع رحمه حُرِم من كل ذلك.

ولذا قال النبي ﷺ في آخر الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٢) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ (١).

أى فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام!! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ (٢) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ أى فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

قال القرطبي: أخبر تعالى أن مَنْ فعل ذلك حَقَّت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع

(١) سورة محمد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) البحر المحيط (٨/٨٢).



بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل^(١).
قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يُسمّى قاطعًا، ولو قصر عمّا يقدر عليه وينبغي له لا يُسمى واصلاً^(٢).

مغبة قطيعة الرحم

(١) تقطع الصلة بين العبد وبين الرب (جل وعلا):

لقوله ﷺ: «مَنْ وصلك وصلته، ومَنْ قطعك قطعته».

(٢) تجلب للعبد سخط الرب ويغض الناس من حوله :

فمن المعلوم أن الله (جل وعلا) يحب مَنْ أطاعه ويبغض مَنْ عصاه ومن المعلوم أيضًا أن الناس يحبون مَنْ يحبهم ويصلهم ويُحسن إليهم ويبغضون مَنْ يقطعهم ولا يصلهم ولا يُحسن إليهم.

(٣) تقطع الأواصر الاجتماعية في المجتمع الواحد :

فإن قطيعة الرحم تجعل المجتمع متفككًا مقطوع الأواصر والعلاقات الاجتماعية... ومن ثمَّ يضعف المجتمع وتضعف الأمة ويكون هذا الضعف عقبة أمام تقدُّم هذا المجتمع.. وعقبة عند مواجهة الأعداء.

(٤) تجعل صاحبها بأخبث المنازل :

فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ - وذكر منهم - :..... وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا

(١) تفسير القرطبي (١٦/٢٤٦).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/١١٢، ١١٣).

وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخِطُّ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ....»^(١).

(٥) يُعَجِّلُ اللَّهُ لِمَالِكِهَا الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

قال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَالِكِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ، وَإِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا لَصَلَةِ الرَّحِمِ، حَتَّىٰ إِنْ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجْرَةً، فَتَنُمُوا أَمْوَالَهُمْ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، إِذَا تَوَاصَلُوا»^(٢).

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَطِيعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةَ تَدْعُ الدِّيَارَ بِلَاغٍ»^(٣).

(٦) قاطع الرحم يعرض نفسه لعدم قبول عمله:

فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلُّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ قَاطِعٍ رَحِمٍ»^(٤).

(٧) الذي يبخل على أرحامه يعرض نفسه للعذاب:

فقد قال ﷺ: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمِهِ، يَسْأَلُهُ فَضْلًا فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، فَيَخْلُ عَلَيْهِ إِلَّا أَخْرَجَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا: شُجَاعُ يَتَلَمَّظُ، فَيُطَوَّقُ بِهِ»^(٥).

(٨) قطيعة الرحم تخرب الديار:

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٣) صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٩١).

(٤) حسن: رواه أحمد (٩٩٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٣٨).

(٥) حسن: رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٤٨).

فكما أن صلة الرحم تعمر الديار وتوسع الأرزاق وتجلب البركة في الأعمار فإن قطيعة الرحم تخرب الديار وتضيّق الأرزاق وتنزع البركة من العمر.

(٩) قاطع الرحم يُعرض نفسه لدخول النار:

فقاطع الرحم يُعرض نفسه لدخول النار إن لم يتب ويصل رحمه.
 فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١).
 وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٢) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(٣).

(١٠) قاطع الرحم لا يدخل الجنة مع أول الداخلين:

قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٤).. يعنى: قاطع رحم.
 فهو إن كان موحدًا فقد يُحرم من دخول الجنة مع أول الداخلين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة الرعد: الآية: (٢٥).

(٢) سورة البقرة: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٤) كتاب الأدب - ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥٨) لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فاتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.. فلما اقترأها القوم، وذلك بها ألتستهم، أنزل الله تعالى في إثرها: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴿فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم ﴿ربنا ولا تحمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم ﴿ربنا ولا تحمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم... وفي رواية قال: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

ففى هذا الحديث يذكر أبو هريرة رضي الله عنه أنه لما أنزل الله على نبيه ﷺ هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٥) كتاب الإيمان.



وذلك لأن ما يخطر في النفس من الحديث أمرٌ لا ساحل له.. فالشيطان قد يأتي إلى الإنسان ويحدثه بأشياء منكرة عظيمة.. منها ما يتعلق بذات الله ﷻ.. ومنها ما يتعلق بالأمور الدينية ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية وغير ذلك من الأشياء التي يُلقِيها الشيطان في قلب الإنسان فشَقَّ ذلك على أصحاب الرسول ﷺ أصحاب القلوب النقية التقية فجاءوا إلى النبي ﷺ وهم في غاية الحزن والهَمِّ فجثوا على رُكبهم... وذلك لأن الإنسان إذا نزل به أمرٌ شديد فإنه يجثو على رُكبته.. فلما فعلوا ذلك قالوا للنبي ﷺ كَلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ وَالصِّيَامَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذه شديدة لا أحد يُطِيقُ أن يمنع نفسه عمَّا تحدثه به من الأمور التي لو حُوسِبَ عليها لهلك.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سَمِعْنَا وَعَصِينَا؟» أهل الكتابين هم اليهود والنصارى.. اليهود كتابهم التوراة، وهي أشرف الكتب المُنزَّلة بعد القرآن، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو مُتممُّ التوراة... واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم، وقالوا: سَمِعْنَا وَعَصِينَا، فهل تريدون أن تكونوا مثلهم؟ «ولكن قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾».

﴿وهكذا يجب على كل مسلم إذا سمع أمر الله وأمر رسول الله ﷺ أن يكون شعاره دائماً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويمثل بقدر ما يستطيع فإنه ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا﴾».

والمسلم الحقيقي لا يسأل: هل هذا الأمر واجب أو مُستحب بل يفعله؛ لأن النبي ﷺ فعله أو أمر بفعله.. فمن امتثل الأمر وكان واجباً فقد أبرأ ذمته وإن كان مُستحباً فقد حصَّل الخير الكثير.

ولذلك فنحن لا نعلم أن أحدًا من الصحابة كان إذا سمع أمر النبي ﷺ كان يقول له: يا رسول الله هل هذا الأمر واجب أم مُستحب... ما سمعنا بهذا أبدًا.. لأنهم كانوا يفعلون الطاعة بحبّ.

أما نحن فنقول: هل هذا الأمر واجب أم مستحب... هذا النهى للتحريم أم للكراهة... لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا، لأجل أنه إذا قيل لك: إنك آثم تُجدد توبتك، وإذا قيل: إنك غير آثم يستريح قلبك... أما حين يُوجّه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب، كما كان أدبُ الصحابة مع الرسول (عليه الصلاة والسلام)... يفعلون كل ما يأمر به النبي ﷺ ويتركون كل ما نهى عنه النبي ﷺ.

✽ وبالعودة إلى الحديث عندما ذهب الصحابة إلى النبي ﷺ بعد نزول تلك الآية حتى جثوا على الرُكب.. أقول لكم: إن من كمال رحمة الله أنه لا يُحاسبك على ما حدثت به نفسك ما لم تتكلم أو تعمل به. فقد قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١). الحمد له، رفع الحرج، كلُّ ما حدثت به نفسك، ولكنك ما ركنت إليه، ولا عملت، ولا تكلمت، فهو مغفوءٌ عنه، حتى ولو كان أكبر من الجبال. فاللهم لك الحمد.

حتى إن الصحابة قالوا: يا رسول الله نجد في نفوسنا ما نحبُّ أن تكون حُمَمَةً -يعنى فحمة محترقة- ولا نتكلم به قال: «ذاك صريح الإيمان»^(٢). يعنى ذاك هو الإيمان الخالص؛ لأن الشيطان ما يُلقى مثل هذه الوسوس في قلبٍ خربٍ... في قلبٍ فيه شك... إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا الله منه - على

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦٩) كتاب الطلاق - ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٢) كتاب الإيمان.



قلب مؤمن خالص؛ ليُفسده.

ولما قيل لابن عباس: إن اليهود إذا دخلوا في الصلاة لا يُوسوسون، قال: وما يصنع الشيطان بقلب خراب... فاليهود كفار، قلوبهم خربة، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم؛ لأنها باطلة من أساسها... الشيطان يوسوس للمسلم الذي يُصلي صلاة صحيحة مقبولة ليُفسدها... يأتي للمؤمن صريح الإيمان ليُفسد هذا الإيمان الصريح.

❁ ولذلك لما سُئل الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: ماذا يفعل مَنْ وسوس إليه الشيطان بقوله: «مَنْ خلق الله» فقال: لقد دلّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَنْ وسوس إليه الشيطان بقوله: مَنْ خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث.. وخُلاصتها أن يقول: «آمنت بالله ورسله، الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد». ثم يتفُّل عن يساره ثلاثًا، ويستعيد بالله من الشيطان، ثم ينتهي عن الانسياق مع الوسوسة.

وأعتقد أن مَنْ فعل ذلك طاعة لله ورسوله ﷺ، مُخلصًا في ذلك أنه لا بُدَّ أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: «فإن ذلك يذهب عنه»^(١).

وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية... فإن المجادلة قلّمًا تنفع في مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنهوا أيها المسلمون، وتعرّفوا إلى سُنّة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعزّكم^(٢).

❁ ثم إن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِيَّاكَ﴾

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢٤٦) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ بِأَنِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهُ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ».

(٢) السلسلة الصحيحة (١١٨) - والفتوى للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

الْمَصِيرُ ﴿١﴾ ولانت لها نفوسهم، وذلت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ - يعنى والمؤمنون آمنوا- ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١). فبين الله ﷻ في هذه الآية الشاء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

ثم أنزل الله: ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾^(٢). فالذى ليس فى وسع الإنسان لا يكلفه الله به، ولا حرج عليه فيه، مثل الوسوس التى تهجم على القلب، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يصدق بها ولم يرفع بها رأساً فإنها لا تضره؛ لأن هذه ليست داخله فى وسعه، والله ﷻ يقول: ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا﴾.

فقد يحدث الشيطان الإنسان فى نفسه عن أمورٍ فظيعة عظيمة، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم. يعنى قال الله: نعم، لا أو اخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم. ولهذا قال الله تعالى فى وصف رسوله محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣). ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال الله: نعم.

ولهذا لا يكلف الله تعالى فى شرعه ما لا يطيقه الإنسان، بل إذا عجز عن الشىء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل، ..

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٧).



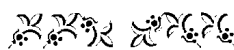
ولذا فإن الله تعالى قال هنا: نعم... يعنى: لا أحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

قال الله: نعم... فاعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا، هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى، ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ يعنى تقصيرنا فى الواجب، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ يعنى انتهاكنا للمحرم، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ يعنى وفقنا للعمل الصالح... فالإنسان إما أن يترك واجباً أو يفعل مُحَرَّمًا... فإن ترك الواجب فإنه يقول: اعفُ عنا... أى اعفُ عنا ما قصرنا فيه من الواجب.

وإن فعل المحرم، فإنه يقول: اغفر لنا، يعنى ما اقترفنا من الذنوب، أو يطلب تبييتاً وتأييداً وتنشيطاً على الخير فى قوله: ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أى متولى أمورنا فى الدنيا والآخرة، فتولنا فى الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار، ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان؛ لأن الشيطان رأس الكافرين.

إذا... نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة: أن الله سبحانه وتعالى لا يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، ولا يُكلفنا إلا وسعنا، وأن الوسواس التى تجول فى صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها، فإنها لا تضر^(٢).



(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٤٧٠-٤٧١) بتصرف.

٥٩) تحريم الظلم

عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبُلغوا ضري فتضروني، ولن تبُلغوا نفعي فتفنعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم بإياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه». قال سعيد: كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه^(١).

عن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

عن هذا النوع من الأحاديث يُسمى بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي أما ما كان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يُسمى بالحديث النبوي.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلوة.



﴿ قَالَ تَعَالَى: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا» .

فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم عبده بزيادة سيئة لم يعملها ولا بنقص حسنة عملها بل هو سبحانه وتعالى الحَكَمُ العدل.. لأن حُكْمه وثوابه يدور بين الفضل والعدل... فضلٌ لمن عمل الحسنات بأن يجزيه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.. وأما السيئة فإن لم يغفرها فإنها تكتب سيئة واحدة... كما قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَمْثَلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١).

فإن الله عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ على نفسه الظلم وأوجب على نفسه الرحمة.. قال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢).

فإن الله عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهُ عن الظلم.

قال تعالى: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣).

﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أى: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته... كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ .

﴿ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا ﴾ أى إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالاً.

﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٦٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٥٤).

(٣) سورة النساء: الآية: (٤٠).

لأعمالٍ أُخِرَ وإعطاء البر الكثير والخير الغزير^(١).

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الصواب الذى دلَّت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزَّه عنه فعلاً وإرادة - هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يُحْمَلُ المرء سيئات غيره، ولا يُعذَّب بما لم تكسب يداه، ولم يكن سعى فيه، ولا ينقص من حسناته، فلا يُجَازَى بها أو ببعضها، إذا قارنها - أو طرأ عليها - ما يقتضى إبطالها - أو اقتصاص المظلومين منها، وهذا الظلم الذى نفى الله - تعالى - خوفه عن العبد بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾^{(٢) (٣)}.

❁ قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَمَحْرَمًا فَلَا تَظَالُمُوا»، أى: لا يظلم بعضكم بعضاً.

وظلم العباد يكون بأمرين:

(١) **ظلمهم فى دينهم**: وذلك بصرفهم عن دينهم الحق وعقيدتهم بإثارة الشبهات التى ينحرف بها العبد عن عقيدته.. أو بكتمان الحق أو إثارة الشهوات التى تُوقع العبد فى الرذيلة.

(٢) **ظلمهم فى النفس والعقل**: وذلك بمنعهم حقوقهم أو فعل ما يضر بهم.

- وهذا النوع من الظلم لا يخرج عن صورتين:

أ- ظُلمٌ باللسان: كالغيبة والنميمة واللعن والسب والشتم وشهادة الزور وقذف المحصنات والسخرية والاستهزاء وإفشاء السر.

ب- ظُلمٌ بالفعل: كالقتل والسحر واقتطاع شىء من أرضه بغير حق والسرقة والغدر والخيانة والمماطلة فى حقه والغش وغير ذلك.

(١) تفسير السعدى (ص ١٨١).

(٢) سورة طه: الآية: (١١٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/١٠٨).



❁ وهناك تقسيم آخر لظلم العباد يُقسمه إلى ثلاثة أقسام:

بيَّنها الرسول ﷺ في قوله وهو يخاطب الناس في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم فاشهد»^(١).

فهذه ثلاثة أشياء: الدماء والأموال والأعراض.

❁ ثم قال الله تعالى: «يا عبادى كلكم ضالُّ إلا مَنْ هديته فاستهدونى أهدكم» ضال يعنى تائهاً. أى لا يعرف الحق... وضال يعنى غاويًا لا يقبل الحق. ❁ فالناس في الضلال قسمان:

قسمٌ تائه: لا يعرف الحق مثل النصارى.. فإن النصارى ضالون تائهون لا يعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبي ﷺ، فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق في أنهم علموا الحق ولم يتبعوه.

وقسمٌ غاوي: أى اختار الغى على الرشد بعد أن علم بالرشد، وهؤلاء مثل اليهود، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه، بل ردُّوه.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾^(٢). هداهم الله وبيَّن لهم ودلَّهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستحبوا الغى على الرشد... فالناس كلهم ضالون إلا مَنْ هداه الله.

لكن ما هى هداية القسم الأول وهو الضال الذى لم يعرف الحق؟ هداية القسم الأول أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه، وهذه الهداية حَقٌّ على الله... حَقٌّ على الله أو جبه الله على نفسه... فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى. يعنى بمعنى البيان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم - ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) سورة فصلت: الآية: (١٧).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾^(٢). هدى للناس عموماً.

ولكن الهداية الثانية وهى هداية التوفيق لقبول الحق هذه هى التى يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده... فالهداية هدايتان؛ هداية بيان الحق، وهذه عامة لكل أحد، وقد أوجبها الله على نفسه، وبيّن لعباده الحق من الباطل. وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به، تصديقاً للخبر وقياماً بالطلب، وهذه خاصة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده.

✽ والناس فى هذا الباب ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول: مَنْ هُدَى الهديتين، أى علّمه الله ووفقه للحق وقبوله.

والقسم الثانى: مَنْ حُرِمَ الهديتين فليس عنده علم وليس له عبادة.

والقسم الثالث: مَنْ هُدَى بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يُهَدَ هداية التوفيق، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله.

والمهم أن الله ﷻ يقول: «كلكم ضال» أى كلكم لا يعرف الحق، أو كلكم لا يقبل الحق، «إلا مَنْ هديته فاستهدونى أهدكم» يعنى اطلبوا الهداية منى، فإذا طلبتموها فإننى أجيبكم وأهديكم إلى الحق.

ولكن أكثرنا مُعرض عن هذا... فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة وعلى ما يفعل الناس... ما كأننا مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى فى طلب الهداية... فالذى يليق بنا أن نسأل الله دائماً الهداية... والإنسان فى كل صلاة يقول: «رب اغفر لى وارحمنى واهدنى»، بل إنه فى الصلاة يقول على سبيل الركنية: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٢﴾.

(١) سورة الليل: الآية: (١٢).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).



والذى يليق بنا أن ننتبه وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله ﷻ في الهداية، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية... أى هداية الإرشاد والدلالة أو هداية التوفيق، فلا بد أن نسأل الله دائماً الهداية.

«فاستهدونى أهدكم» وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسى كما تشمل الطريق المعنوى، فالهداية للطريق المعنوى هى الهداية إلى دين الله، والهداية للطريق الحسى كأن تكون فى أرضه قد ضللت الطريق وضعت، فإنك تسأل الله الهداية... ولهذا قال الله عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِ سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١). أى السبيل المستوى الموصل للمقصود بدون تعب... وقد جُرب هذا، فإن الإنسان إذا ضاع فى الصحراء فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول: رب اهدنى سواء السبيل، أو عسى ربه أن يهدىنى سواء السبيل، وذلك لأننا محتاجون إلى الله فى الهدايتين؛ هداية الطريق الحسى، كما أننا محتاجون إلى الله فى الهداية إلى الطريق المعنوى.

ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم» هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعرى ذكرهما الله ﷻ بعد أن ذكر الهداية، لأن الهداية فيها غذاء القلب فى العلم والإيمان، والجوارح بالعمل الصالح.

وأما الطعام والشراب والكسوة فهى غذاء البدن... لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ولا يستر إلا بالكسوة، ولهذا قال: «يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم».

وصدق ربنا ﷻ؛ كلنا جائع إلا من أطعمه الله، ولولا أن الله تعالى يسّر لنا

(١) سورة القصص: الآية: (٢٢).

ما يكون به طعامنا لهلكنا... يقول الله تعالى مبيِّناً ذلك في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١).

والجواب: بل أنت يا رب الذى زرعته، لأن الله يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرَمُونَ﴾ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٢).

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه، لأنه إذا نبت وشاهده الناس تعلق قلبهم به، فإذا جعل حطامًا بعد أن تعلق به القلوب صار ذلك أشد نكاية... ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾. يعنى من السحاب ﴿أم نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (٣)؛ لأن الماء الذى نشرب من السحاب، يُنزله الله ﷻ على الأرض كالأنهار، ثم يُستخرج بالأدوات التى سخرها الله ﷻ للناس فى كل وقتٍ بحسبه... وهذا من حكمة الله ﷻ أن استودع الماء فى بطن الأرض، ولو بقى على ظهر الأرض لفسد، وأفسد الهواء وأهلك المواشى، بل وأهلك الأدميين من رائحته ومنتنه، ولكن الله ﷻ بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه، وتسلكه ينابيع فيها، حتى تأتى حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ والله ﷻ هو الذى أنزله، ولو اجتمع الناس كلهم على أن يُنزِلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله ﷻ هو الذى يُنزله بقدرته ورحمته.

واستطعام الله ﷻ يكون بالقول وبالفعل... فبالقول بأن نسأل الله ﷻ أن

(١) سورة الواقعة: الآيتان: (٦٣، ٦٤).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: (٦٥-٦٧).

(٣) سورة الواقعة: الآيتان: (٦٨-٦٩).



يطعمنا وأن يرزقنا، وأما بالفعل فله جهتان:

الجهة الأولى: العمل الصالح، فإن العمل الصالح سبب كثرة الأرزاق وسعتها... قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

الجهة الثانية: من جهتي الاستطعام بالفعل... أن نحرق الأرض، ونحفر الآبار ونستخرج المياه، ونزرع الحبوب، ونغرس الأشجار، وما أشبه ذلك.

واستطعام الله ﷻ يحتاج إلى أمرٍ مهم وهو حسن الظن بالله (جل وعلا)، أى أن تُحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاهٍ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك فإنك قد تكون مخذولاً والعياذ بالله... ولكن استطعم الله وأخلص له وحده في ذلك.

﴿يا عبادى كلكم عارى إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم﴾ كلكم عارى إلا من كسوته... وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب بل يخرج مجرداً بغير ثياب، ولا شعرٍ يكسوه... وهذا من حكمة الله ﷻ.

فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبقارنا، بادية جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حساً، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنى... لأن التقوى لباس المؤمن كما قال تعالى: ﴿وَلِيَأْسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٢).

ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه في المنام عارياً فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار، لأن هذا دليل على نقصان تقواه... فإن التقوى

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٦).

لباس^(١).

❁ ثم قال تعالى: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم» هذا أيضاً من تمام نعمة الله على العبد، أنه (جل وعلا) يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول: «إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً» أى جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه... ولهذا قال: «استغفرونى أغفر لكم» أى اطلبوا منى المغفرة حتى أغفر لكم.

ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان: اللهم اغفر لى، بل لا بُدَّ من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله ﷻ.

❁ والتوبة الصادقة هى التى تجمع الشروط الآتية:

(١) الإخلاص فى التوبة:

وذلك بأن يتوب العبد ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا)... لا للخوف من أى مخلوق أو لأنه عاجز عن فعل المعصية أو لأنه يخشى على سُمعته وجاهه، أو لأى حظٍّ دنيوى.

(٢) الإقلاع عن الذنوب:

فإنه - والله - تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب... ولذلك يجب على التائب أن يترك المعصية فور توبته إلى الله (جلَّ وعلا).

(٣) الندم على فعل تلك الذنوب:

إن الندم توبة... والعبد إذا لم يندم على ما فعل من المعاصى كان ذلك دليلاً على رضاه بفعلها، وهذا كله يقدر فى توبة العبد.

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٦٨-٣٧١) بتصرف كبير.

(٤) العزم على ألا يعود إليها أبداً :

وينبغي على التائب أن يعزم على أن لا يعود إلى مقارفة الذنوب مرة أخرى... ولكنه إن فعل ذلك ثم عاد إلى نفس الذنب أو إلى غيره من الذنوب فإن توبته عن الذنب الماضي صحيحة ويلزمه أن يتوب من الذنوب التي وقع فيها بعد ذلك.

(٥) التحلل من المظالم :

قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرِضٍ فَلْيُتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(١).

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يردَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفْلِسًا من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته أخذ من سيئات مَنْ ظلمهم فتطرح عليه ثم يُطرح في النار... أعاذنا الله جميعاً من نار جهنم.

(٦) التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها :

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ»^(٣).

ثم قال ﷺ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي» يعني أنه تبارك وتعالى غني عن العباد، لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

فإنه عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾^(١).

فإنه عَزَّوَجَلَّ لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غنى عن الخلق عَزَّوَجَلَّ ، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى... خلقهم لعبادته، ثم إنه وعد الطائعين بالثواب، وتوعد العاصين بالعقاب بحكمة منه لأنه خلق الجنة والنار، وقال لكل منكما على ملؤها... فالنار لا بد أن تملأ، والجنة لا بد أن تملأ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾﴾.

إذن فالله تعالى لن تنفعه طاعة الطائعين، ولن تضره معصية العاصين، ولن يبلغ أحد ضرره مهما كان^(٢).

ولهذا قال الله تعالى بعد هذه الجملة: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً» لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين، على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً، لأن الملك ملكه لا للطائعين ولا للعاصين.

ثم قال (جلّ وعلا): «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً» لو كان الناس كلهم من جنّ وإنسٍ وأولهم وآخرهم، لو كانوا كلهم فُجَّارًا وعلى أفجر قلب رجل، فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئاً... قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٤﴾﴾.

(١) سورة الذاريات: الآيات: (٥٦-٥٨).

(٢) سورة هود: الآية: (١١٩).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/٣٧٤).

(٤) سورة الزمر: الآية: (٧).



فالله (جل وعلا) لا ينقص مُلكه بمعصية العُصاة، ولا يزيد بطاعة الطائعين^(١).

❁ ثم تَمَنَّى اللهُ ﷻ بِكَمَالِ سَمْعِهِ وَبِصَرِّهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَكَمَالِ غِنَاهُ، فَقَالَ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِئْتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

فمن كمال سَمْعِ اللهُ ﷻ أَنْ يَسْمَعَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَاجْتَهَدُوا فِي أَنْزَالِ الرِّغْبَاتِ وَالطَّلِبَاتِ بِاللَّهِ ﷻ، عَلَى اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، وَاخْتِلَافِ اللِّهْجَاتِ، وَاخْتِلَافِ الطَّلِبَاتِ... فَاللهُ تَعَالَى لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ... وَمِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ أَنَّهُ يُجِيبُ الْجَمِيعَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَا يَشْغَلُهُ إِجَابَةُ دَاعٍ عَنْ دَاعٍ آخَرَ... وَمِنْ كَمَالِ غِنَى اللهِ ﷻ، أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مَا عِنْدَ اللهِ ﷻ إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ... وَالْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ لَا يُنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا... قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ - أَيْ لَا تَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ - سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ - أَيْ لَمْ يَنْقُصْ - مَا فِي يَمِينِهِ»^(٣).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» الْمَخِيطُ: هُوَ الْإِبْرَةُ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَقْرِيْبٌ إِلَى الْأَفْهَامِ وَمَعْنَاهُ: لَا يُنْقُصُ شَيْئًا أَصْلًا، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» أَيْ لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٧٥).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٤) كتاب التفسير - ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

لَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ نَقْصٌ وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النَّقْصُ الْمَحْدُودَ الْفَانِي... وَعَطَاءُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا نَقْصٌ... فَضْرَبَ الْمَثَلَ بِالْمِخِيطِ فِي الْبَحْرِ لِأَنَّهُ غَايَةٌ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ وَالْمَقْصُودُ التَّقْرِيبُ إِلَى الْإِفْهَامِ بِمَا شَاهَدُوهُ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرْيَاتِ عَيَانًا وَأكْبَرِهَا... وَالْإِبْرَةُ مِنْ أَصْغَرِ الْمَوْجُودَاتِ مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَةٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَاءٌ^(١).

❁ ثم قال **عَبْدُ اللَّهِ**: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوقِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»، كما ابتدأ الحديث القدسي بتحريم الظلم، انتهى بكمال العدل، فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون... قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾^(٢).

والعبد قد ينال في الدنيا من بركة الحسنه ثواباً مُعْجَلًا، أو من شؤم المعصية عقاباً مُعْجَلًا... كما قال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمُودَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ ظُلْمَةً فِي الْوَجْهِ، وَسَوَادًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيقًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ».

أما توفية الأعمال في يوم القيامة... حيث ينال المحسن جزاء إحصانه كاملاً، والمسيء جزاء إساءته، أو يعفو الله **عَزَّوَجَلَّ**... قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣).

«فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»
أي: فمن وجد ثواباً ونعيماً أو حياة طيبة فليحمد الله؛ لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** هو الذي

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) سورة المجادلة: الآية: (٦).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٨٥).

هداه ووقفه للعمل الصالح ثم تقبّل منه عمله الصالح وأجزل له الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

«وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» لأنه هو الذي آثر الشهوات على رضا الله ﷻ وانغمس في المعاصي والسيئات ولم يفكر لحظة واحدة أن يتوب وأن يعود إلى ربه وخالقه (جَلَّ وَعَلَا) الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويُبدل السيئات إلى حسنات.

❁ فهذا الحديث حديث عظيم، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه... وممن أفرد له مؤلفاً شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فَإِنَّهُ شرح هذا الحديث في كتابٍ مُستقل... فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله.

ولقد كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُعْظَمُونَ شأن هذا الحديث.

وكان أبو إدريس الخولاني إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جثا على رُكْبَتَيْهِ... وقيل: هو أشرف حديثٍ لأهل الشام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠) تحريم الكبر ومغبته

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ يَتَّزَعُنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَقَدْ عَذَّبْتُهُ»^(١).

✽ قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَمُرُّ كَمَا جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَعْنَاهَا بِتَحْرِيفٍ أَوْ تَكْيِيفٍ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا رَوَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ... فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ فِي عِزَّتِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ سُلْطَانًا كَسُلْطَانِ اللَّهِ، أَوْ نَازَعَ اللَّهَ فِي كِبْرِيَائِهِ وَتَكَبَّرَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُ... يَعْذِبُهُ عَلَى مَا صَنَعَ وَنَازَعَ اللَّهَ تَعَالَى فِيْمَا يَخْتَصُّ بِهِ.

الحسرات التي يجنيها المتكبر في الدنيا والآخرة

✽ فَأَمَّا حَسْرَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُحْرَمُ مِنْ مَحَبَّةِ النَّاسِ وَمَحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ يُحْرَمُ مِنْ مَحَبَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷻ «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ»^(٢).

✽ وَقَدْ قَالَ ﷺ مُخْبِرًا عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ: «إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تَوَضَّعَ لَهُ الْبَعْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْتَكْبِرَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ إِلَّا لِأَحِبَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ: كُنْتُ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَّنَهُ»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) سورة النحل: الآية: (٢٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.



وكذلك فإن الله (جَلَّ وَعَلَا) يصرفه عن آياته... قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١).

أى: سأمع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم.

✽ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «احتجبت الجنة والنار، فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم. ففضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء وإنك النار عذابي، أعذب بك من أشاء، ولكليكما على ملؤها»^(٢).

✽ وأما عن عذاب أهل الكبر في الآخرة فتأمل معي ما قاله الحبيب صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «يُحَشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الدُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُوْلَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ.. طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٣). فيا له من عذابٍ شديد^(٤).

✽ والمتكبر قد يُحرم من دخول الجنة مع أول الداخلين.. ويدخل النار.

✽ عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ^(٥) جَوَاطِ^(٦) مُسْتَكْبِرٍ»^(٧).

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).

(٤) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (١٨٨، ١٨٩).

(٥) العتل: الغليظ الفظ الجافى.

(٦) الجواظ: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضخم المختال فى مشيته.

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٧١) كتاب الأدب - ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

✽ وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(١).

عجباً لهذا المتكبر المخلوق الضعيف كيف يتجرأ على خالقه مالك الملك، (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١) فيم يختصم الملائكة الأعلی

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ نَدْيِيَّ فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فِي الْكُفَّارَاتِ وَالذَّرَجَاتِ.. وَالْكَفَّارَاتُ الْمُكْتَثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ... وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ... وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَتَتُوبَ عَلَيَّ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ... وَالذَّرَجَاتُ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).

ففي هذا الحديث يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه ربه عز وجل في المنام في أحسن صورة.. وهل هناك أجمل من الخالق (جلَّ وعلا).. فهو صاحب الجمال والكمال والجلال (سبحانه وتعالى).. وهذا الإتيان كان في المنام كما رجحه الحافظ ابن كثير رحمته الله.

فقال له تعالى: «يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟» يعني: هل تدري في أي شيء يختصم أي يبحث الملائكة الأعلی ... وهم الملائكة المقربون، ولقد وُصفوا بالعُلو لعلو مكانتهم عند الله أو لعلو مكانتهم... واختصامهم إما عبارة عن تبادرهم إلى إثبات تلك الأعمال والصعود بها إلى

(١) صحيح: رواه أحمد، وعبد الرزاق في مصنفه، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع

السماء، وإما عبارة عن حوارهم في فضلها وشرفها، وإما عن اغتباطهم الناس بتلك الفضائل لاختصاصهم بها وتفضيلهم على الملائكة بسببها... فلما سأل الله نبيه ﷺ: «هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟» قال النبي ﷺ: «لا».

وفيه دلالة على أن الملائكة الأعلى وهم الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى الله عز وجل وتكفر بها عنهم خطاياهم... وقد أخبر الله عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدعون لهم.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نادى: يا جبريل إنني أحبُّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

قوله: ﴿فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي﴾ فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، يعني: أن الله وضع يده الكريمة بين كتفي الرسول حتى أحس بردها في صدره بين ثدييه، فحصل عنده بسبب ذلك علم ما في السماوات وما في الأرض، ومن ذلك علم ما كان يجهله من جواب السؤال... فلما أعاد الله السؤال ثانية أجاب النبي ﷺ بأنهم يختصمون في الكفارات والدرجات، ثم وضح الكفارات بأنها المكث أي اللبث في المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء أي إكماله في المكاره، أي في شدة البرد.

﴿الفصل الأول: في ذكر الكفارات:﴾

وهي: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره. وسميت هذه كفارات لأنها تكفر الخطايا والسيئات.

وهذه الخصال المذكورة الأغلبُ عليها تكفيرُ السيئات، ويحصلُ بها أيضًا رفعُ الدرجاتِ كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟». قالوا: بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:

«إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» ^(١).

وقد روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة، فهذه ثلاثة أسباب يُكفِّرُ الله بها الذنوب:

✽ السبب الأول من مكفرات الذنوب: المُكث في المساجد بعد الصلوات:

✽ والمراد بهذا الجلوسِ انتظارُ صلاةٍ أخرى كما في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه: «وَأَنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ».

فجعل هذا من الرباطِ في سبيلِ الله عز وجل، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبل الصلاةِ لانتظارها، فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصلاةِ ليؤديها ثم يذهبُ تقصُرُ مدتهُ انتظاره، بخلافِ مَنْ صَلَّى صلاةً ثم جلسَ ينتظرُ أخرى، فإنَّ مدتهُ تطولُ فإن كان كلما صَلَّى صلاةً جلسَ ينتظرُ ما بعدها استغرقَ عمره بالطاعة، وكان ذلك بمنزلةِ الرباطِ في سبيلِ الله عز وجل.

ويدخلُ في قوله: «المُكث في المساجد بعد الصلوات» الجلوسُ للذكر والقراءةِ وسماعِ العلمِ وتعليمه ونحو ذلك، ولاسيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمسُ؛ فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلك، وهو شبيه بمن جلسَ ينتظرُ صلاةً أخرى، لأنه قد قضى ما جاء إلى المسجدِ لأجله من الصلاة، وجلسَ ينتظر طاعةً أخرى.

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: « مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» (١).

وفي «الصحيحين» عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه لما أحرَّ صلاةَ العشاءِ الآخرةَ، ثمَّ خرج فصلَّى بهم، قال لهم: «إنكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتُم الصلاةَ» (٢).

وفي هذا المعنى أحاديثٌ كثيرةٌ.

وبالجملة فالجلوسُ في المساجدِ للطاعاتِ له فضلٌ عظيمٌ.

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه عدَّ من السبعةِ الذين يُظَلُّهُمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: «رجلٌ قلبُهُ معلقٌ بالمسجدِ» (٣) إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه.

وإنما كانت ملازمةُ المسجدِ للطاعاتِ مكفرةً للذنوبِ؛ لأنَّ فيها مجاهدةَ النفسِ وكفًّا لها عن أهوائها؛ فإنها لا تميلُ إلا إلى الانتشارِ في الأرضِ لا بتغاءِ الكسبِ؛ أو لمجالسةِ الناسِ، أو لمحادثتهم، أو للتنزُّه في الدورِ الأنيقةِ والمساكِنِ الحسنَةِ ومواطنِ التنزُّه، ونحو ذلك.

فمن حبسَ نفسه في المساجدِ على الطاعةِ فهو مرابطٌ لها في سبيلِ الله مخالِفٌ لهواها، وذلك من أفضلِ أنواعِ الصبرِ والجهادِ.

وهذا الجنسُ - أعنى ما يؤلِّمُ النفسَ ويخالِفُ هواها - فيه كفارةٌ للذنوبِ وإن كان لا صنعَ فيه للعبيدِ كالمرضِ ونحوه، فكيفَ بما كان حاصلاً عن فعلِ العبيدِ واختياره، إذا قصدَ به التقربَ إلى الله عز وجل، فإنَّ هذا من نوعِ الجهادِ في

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٠) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٤٠) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.



سبيل الله الذي يقتضى تكفير الذنوب كلها.

✽ السبب الثانى من مكفرات الذنوب: المشى على الأقدام إلى الجماعات:

المشى على الأقدام إلى الجماعات وإلى الجُمُعاتِ، ولاسيما إن توضأ الرجل في بيته ثم خرج إلى المسجد لا يريدُ بخروجه إلا الصلاة فيه.

كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صلاة الرجل في الجماعة تُضعفُ على صلاته في بيته، وفي سوقه، خمسا وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة، إلا رُفعت له بها درجة، وحطت عنه بها خطيئة، فإذا صلى، لم تزل الملائكة تُصلى عليه، ما دام في مُصلاه ما لم يحدث نقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»^(١).

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام واستمع وأنصت ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها»^(٢).

كلما بعد المكان الذي يمشى منه إلى المسجد كان أفضل لكثرة الخطأ، وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال: «كانت ديارنا نائية عن المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتنا، فنقترب من المسجد، فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «إن لكم بكل خطوة درجة»^(٣).

وفي «صحيح البخاري» عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا بني سلمة ألا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٤) كتاب المساجد.

تحتسبون آثاركم»^(١).

والمشى إلى المسجد أفضل من الركوب كما تقدم في حديث أوس في الجُمع.... ولهذا جاء في حديث معاذ ذكر المشى على الأقدام.. وكان النبي ﷺ لا يخرج إلى الصلاة إلا ماشياً حتى في العيد يخرج إلى المصلى ماشياً، فإن الآتى للمسجد زائر الله، والزيارة على الأقدام أقرب إلى الخضوع والتذلل، كما قيل:

لو جئتم زائراً أسعى على بصري لم أود حقاً وأى الحق أدبت

وفي «صحيح البخارى» عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»^(٢).

وكما شق المشى إلى المسجد كان أفضل ولهذا فضل المشى إلى صلاة العشاء وصلاة الصبح وُعدل بقيام الليل كله كما في «صحيح مسلم» عن عثمان عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»^(٣).

وفي «الصحيحين» عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(٤).

وإنما ثقلت هاتان الصلاتان على المنافقين لأنَّ المنافق لا ينشط للصلاة إلا إذا رآه الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٥) كتاب الأذان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان - ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٥٦) كتاب المساجد.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(٥) سورة النساء: الآية: (١٤٢).

وصلاة العشاء والصبح يقعان في ظلمة فلا ينشط للمشي إليهما إلا كلُّ مخلص يكتفى برؤية الله عَزَّوَجَلَّ وحده لعلمه به.

وثوابُ النهشى إلى الصلاة في الظلم: النورُ التامُّ في ظلمِ القيامةِ، كما في «سنن أبي داود»، والترمذى عن بريدةَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَشَّرَ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلْمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ السبب الثالث من مكفرات الذنوب: إسباغ الوضوء على المكاره:

فمن الكفارات: إسباغ الوضوء على المكاره... وهنا أمران:

أحدهما: إسباغ الوضوء، وهو: إتمامه وإبلاغه مواضعه الشرعية كالثوب السابغ المغطى للبدن كله.

وثانيهما: أن يكون إسباغُه على الكريهات، والمرادُ أن يكونَ على حالة تكرة النفس فيها الوضوء... كالبرد الشديد وغيره.

ويشهدُ له أن في بعضِ رواياتِ حديثِ معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِسْبَاغُ الْوَضُوءِ عَلَى السُّبْرَاتِ».

والسبرة: شدة البرد، ولا ريبَ أن إسباغَ الوضوءِ في شدة البردِ يَشُقُّ على النفس وتتألمُ به... وكلُّ ما يؤلمُ النفسَ فيه صنعٌ ولا تسببٌ، كالمرضِ ونحوهِ كما دلَّتِ النصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأما إن كان ناشئاً عن فعلٍ هو طاعةٌ لله تعالى، فإنه يُكتَبُ لصاحبه به أجرٌ وترُفَعُ به درجاتُهُ كالألمِ الحاصلِ للمجاهدِ في سبيلِ الله تعالى... قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وكذلك الجوع في البرد... ويجبُ الصبرُ على الألمِ بذلك، فإن حصلَ به

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٠).

رضى، فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبين.

✽ وينشأ الرضى بذلك عن ملاحظة أمور:

أحدها: تذكُّر فضل الوضوء من حطِّه الخطايا ورفعِهِ للدرجات، وحصولِ الغرة والتَّحجيل به وبلوغِ الحلية في الجنة إلى حيث يبلغ.

الثاني: تذكُّر ما أعدَّه اللهُ ﷻ لمن عصاهُ من العذابِ بالبردِ والزمهريرِ في الآخرة، فإنَّ شدةَ بردِ الدنيا يُذكرُ زمهريرَ جهنم.

الثالث: ملاحظة جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوء، ومطالعةَ عظمتِهِ وكبريائه، وتذكُّرِ التهيؤِ للقيامِ بين يديه ومناجاتِهِ في الصلاة، فذلك يُهونُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ في طلبِ مرضاتِهِ من بردِ الماءِ وغيره... وربِّما لم يشعرَ بألمِهِ بالكلية، كما قال بعضُ العارفين: بالمعرفة هانتُ على العاملينِ العبادةُ.

الرابع: استحضارُ اطلاعِ اللهُ ﷻ على عبده في حالِ العملِ له. وتحمُّلُ المشاقِ لأجلِهِ.

الخامس: الاستغراقُ في محبةِ مَنْ أمرَ بهذه الطاعةِ وأنَّه يرضى بها ويحبُّها. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فمن امتلأ قلبه من محبةِ اللهُ ﷻ أحبَّ ما يحبُّه وإن شقَّ على النفسِ وتألَّمتْ به. كما يُقال: المحبةُ تهوُّنُ الأثقالَ.

✽ الفصل الثاني: في ذكر الدرجات المذكورة في الحديث:

أولاً: إفشاء السلام:

وذلك بأن تُسلم على مَنْ تعرف ومَنْ لا تعرف مع بشاشة الوجه وطلاقة أساريره... وإفشاء السلام له فضلٌ عظيم.. ولذا كان النبي ﷺ يوصي دائماً بإفشاء السلام.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصَعَهُ اللَّهُ

فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمْ السَّلَامَ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدًّا عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ»^(١).

وإذا كان البدء بالسَّلَامِ سنةً مُسْتَحَبَّةً عَلَى الكفاية، فَإِنْ رَدَّهُ فَرَضَ عَيْنٍ فِي حَقِّ الْوَاحِدِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٢).
والآية الآنفة الذكر تدل على أن رد التحية بمثلها واجب، والزيادة سنة مستحبة... فمن سلم عليك، فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ بِمِثْلِ سَلَامِهِ، فَقُلْ: وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ... وَإِنْ زِدْتَ الرَّحْمَةَ وَالْبَرَكَهَ، فَهُوَ أَفْضَلُ، حَتَّى تَغْنَمَ مِنَ الْأَجْرِ ثَلَاثِينَ حَسَنَةً.

فَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَشْرٌ» ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «عِشْرُونَ» ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»^(٣).

❁ فضل السَّلَامِ وفوائده:

من فضله وفوائده ما يأتي:

١- من أعظم فوائده امتثال أمر الله سبحانه لأنه غاية سعادة الإنسان في معاشه ومعاذته... قال الحق تبارك وتعالى:

(١) صحيح: رواه البزار والبيهقي والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٩٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (٨٦).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي والنسائي والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧١٠).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا^(١) وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا^(٢) ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾﴾^(٣).
وقال أيضًا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً﴾^(٤).

٢- إفشاء اسم الله تعالى بين الناس، وإحياء لسنة نبينا محمد ﷺ.

٣- أنه من صفات الملائكة المقربين، وأولياء الله المتقين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مِّنْكُمْ مِّنْكَرُونَ ﴿١٥﴾﴾^(٥).

٤- أنه من أسباب تآلف المسلمين، ونشر المحبة والمودة بينهم، وزوال الشحناء والتباغض عن قلوبهم... فهو مفتاح - مؤكد النتيجة - لفتح كثير من القلوب.

وإذا كان السلام طريق المحبة، فالمحبة طريق الإيمان، والإيمان طريق الجنة... فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٦).

٥- أنه من الأمور التي يُستكمل بها الإيمان... قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ

(١) تستأذنوا: تستأذنون... سُمي الاستئذان استئناسًا، لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه يحصل الاستيحاش... ففي الآية مجاز مُرسل علاقته السببية، فما أروع بلاغة القرآن الكريم.

(٢) صفة ذلك - كما جاء في الحديث - «السلام عليكم، أَدْخَلَ؟».

(٣) سورة النور: الآية: (٢٧).

(٤) سورة النور: الآية: (٦١).

(٥) سورة الذاريات: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

(٦) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.



الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا»^(١).. ولا شك أن حُسن الخلق يستلزم إلقاء السلام.

٦- أنه من أسباب حصول البركة على المُسلم والمُسلم عليه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(٢).

٧- أن فيه إغاظة لليهود المغضوب عليهم.

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «مَا حَسَدْتُمْ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدْتُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّامِينَ»^(٣).

٨- أنه من أسباب دخول الجنة... فعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٤).

ثانياً: من الدرجات: إطعام الطعام:

وقد جعله الله في كتابه من الأسباب الموجبة للجنة ونعيمها.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا^(١٠) فَوَقْنَهُمْ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا^(١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا^(٥).

فوصف فاكهتهم وشرابهم جزاءً لإطعامهم الطعام ابتغاء وجه الله عزَّ وجلَّ.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠).

(٢) حسن لغيره: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٠٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٣).

(٤) صحيح: رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٥) سورة الإنسان: الآيات: (٨-١٢).

وفي «المسند» و «الترمذى» عن عليّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، قَالُوا: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَالْآنَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصَّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).
وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمروٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟

قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(٢).

فِإِطْعَامِ الطَّعَامِ يُوجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَيَبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، وَيُنَجِّي مِنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْنَحُمُ الْعُقَبَةَ ۝ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ۝ (١٢) فَكُ رَقَبَةً ۝ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ۝ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾^(٣).

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٤).

وَيَتَأَكَّدُ إِطْعَامُ الطَّعَامِ لِلجَائِعِ وَلِلجِيرَانِ خُصُوصًا... ففِي «الصحيح» عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَطْعَمُوا الْجَائِعَ، وَعَوَّدُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِي»^(٥).

وفي «صحيح مسلم» عن أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٦).

وَقَدْ صَحَّ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنه أَخَذَ ضَيْفًا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَضِيفُهُ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ إِلَّا قُوتَ صَبِيَانِهِ، فَاحْتَالَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ حَتَّى نَوَّمَا صَبِيَانَهُمَا وَقَامَ إِلَى

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٣) سورة البلد: الآيات: (١١-١٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٥) صحيح: رواه البخارى (٥٣٧٣) كتاب الأطعمة.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة والآداب.



السراج كأنه يصلحُهُ فإطفأهُ، ثم جلسَ مع الضيفِ يريهِ أنه يأكلُ معه ولم يأكلُ فلما غدا على رسولِ الله ﷺ قال له: «لقد عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ بِضَيْفِكُمْ اللَّيْلَةَ»^(١). ونزلتْ هذه الآيةُ:

وكان كثيرٌ من السلفِ يُؤثِرُ بفطوره غيرَه وهو صائمٌ ويصبحُ صائمًا. منهم عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما، وداودُ الطائيُّ، وعبدُ العزيز بنُ سليمان، ومالك بنُ دينارٍ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وغيرُهم.

❁ **ثالثًا: من الدرجات: الصلاة بالليل والناس نيام:**

فالصلاة بالليل من موجبات الجنة.

وقد دلَّ عليه قوله عز وجل:

❁ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴿٤٥﴾ **ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ** ﴿١٦﴾ **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴿١٧﴾ **وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿١٨﴾ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ❁.

فوصفهم بالتيقُّظ بالليل والاستغفارِ بالأسحارِ وبالإنفاقِ من أموالهم.

وقيام الليل يُوجب علو الدرجات في الجنة... قال اللهُ تعالى لنيبهِ عليه السلام:

❁ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ❁.

فجعلَ جزاءهُ على التهجدِ بالقرآنِ بالليلِ أن يبعثهُ المقامَ المحمودَ وهو

أعلى درجاتِهِ عليه السلام... وقيل: هو الشفاعة العظمى يوم القيامة.

ويُوجبُ أيضًا من نعيمِ الجنة ما لم يطلِّع عليه العبادُ في الدنيا.. قال اللهُ عز وجل:

❁ **نَتَجَافَى جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**

﴿١٦﴾ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ❁^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٩٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٥٤) كتاب الأشربة.

(٢) سورة السجدة: الآيتان: (١٦، ١٧).

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ قَالَ: «يقول الله ﷻ: أعددتُ لعبادِي الصالحينَ ما لا عين رأت، ولا أذنُ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشر»^(١).

قال بعضُ السلفِ: أخفوا لله العملَ فأخفى اللهُ لهم الجزاءَ.

ومما يُجزى به المتهجد في الليلِ كثرة الأزواج من الحورِ العينِ في الجنةِ.

فإنَّ المتهجدَ قد تركَ لذةَ النومِ بالليلِ ولذةَ التمتعِ بأزواجهِ طلباً لما عندَ الله ﷻ فعوّضَهُ اللهُ تعالى خيراً مما تركَهُ وهو الحورُ العينِ في الجنةِ.

ومن هنا قال بعضهم: طول التهجّدِ مهر الحورِ العينِ في الجنةِ.

❁ ويُستحب قيام الليل في الثلث الأخير من الليل حين ينزل الحق (جلّ وعلا) إلى السماء الدنيا.. وذلك كل ليلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُنزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ.. فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٢).

❁ وتعالوا بنا لنعود إلى بداية الحديث مرة أخرى:

فإنه لما أجاب النبي ﷺ بأن الملائكة الأعلى يختصمون في الكفارات والدرجات ثم وضّحها.. صدّقه اللهُ ﷻ وقال: صدقت يا محمد... «ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير»... فالحياة الحقيقية في طاعة الله ﷻ والبعد عن معصيته (جلّ وعلا).

❁ «وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه»، يعني: أنه يصير مُبرّأً من الخطايا والذنوب كما كان مُبرّأً يوم مولده، وذلك لأن الأعمال تكفر عنه السيئات.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين



ثم قال له: «يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ أَي: إِذَا فَرَعْتَ مِنْ صَلَاتِكَ» فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ».

هذا دعاء عظيم من أجمع الأدعية وأكملها.

فقوله ﷺ: «أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ»

يتضمن طلب كل خير وترك كل شر، فإن الخيرات تجمع كل ما يحبه الله تعالى ويقرب منه من الأعمال والأقوال من الواجبات والمستحبات، والمنكرات تشمل كل ما يكرهه الله تعالى ويباعد عنه من الأقوال والأعمال، فمن حصل له هذا المطلوب حصل له خير الدنيا والآخرة، وقد كان النبي ﷺ يحب مثل هذه الأدعية الجامعة... قالت عائشة رضى الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُهُ الْجَوَامِعَ مِنَ الدَّعَاءِ وَيَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ».

وقوله: «وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ» هذا قد يقال إنه من جملة فعل الخيرات وإنما أفرد بالذكر لشرفه وقوة الاهتمام به.

وينبغي على المسلم أن يحب كل إخوانه المسلمين وأن يزيد جرعة الحب لهؤلاء المساكين الذين قد انكسرت قلوبهم في الدنيا وليس عندهم من الدنيا ما يُوجب محبتهم لأجله... ولذا جاء الاهتمام بهم وذلك لأنهم في الغالب هم أتباع الأنبياء والمرسلين وهم أرقُّ الناس قلوبًا وأكثرهم إقبالًا على طاعة رب العالمين (جلّ وعلا).

ومن فضائل المساكين أنهم أكثر أهل الجنة.

كما قال النبي ﷺ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَةٌ مَن دَخَلَهَا

الْمَسَاكِينُ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الرقاق.

وهم أولُ الناسِ دخولاً الجنةَ كما صحَّ عنه ﷺ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ»^(١).

وهم أولُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنه ﷺ أنه سئلَ مَنْ أولُ الناسِ إجازةً على الصراطِ؟ فقال: «فقراءُ المهاجرين».

❁ واعلم أنَّ محبةَ المساكينِ لها فوائدٌ كثيرة:

منها: أنَّها تُوجبُ إخلاصَ العملِ لله ﷻ، لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتِهِمْ لا يكونُ إلا لله ﷻ، لأنَّ نفعَهُمْ في الدنيا لا يُرجى غالباً... فأما مَنْ أحسنَ إليهم ليُمدَحَ بذلكَ فما أحسنَ إليهم حبًّا لهم بل حبًّا لأهلِ الدنيا وطلبًا لمدحِهِمْ له بحبِّ المساكينِ.

ومنها: أنها تزيلُ الكِبْرَ، فإنَّ المتكبرَ لا يرضى مجالسةَ المساكينِ.

ومنها: أنه يُوجبُ صلاحَ القلبِ وخشوعِهِ.

ومنها: أن مجالسةَ المساكينِ تُوجبُ رضى مَنْ يجالسُهُمْ برزقِ الله ﷻ وتَعْظُمُ عنده نعمةُ الله ﷻ عليه بنظرِهِ في الدنيا إلى مَنْ دونَهُ... ومجالسةُ الأغنياءِ تُوجبُ التسخُّطَ بالرزقِ والتطعُّعَ إلى زيتِهِمْ وما هم فيه.

❁ ولقد كان النبي ﷺ يُحبُّ المساكينَ ويجلسُ معهم بل ويأكلُ معهم ويعطفُ عليهم.. حتى أنه وصلَ إلى درجةٍ عجيبةٍ من حبه لهم أنه كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»^(٢).

❁ قوله ﷺ: «وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي».

المغفرةُ والرحمةُ يجمعانِ خَيْرَ الآخرةِ كله؛ لأنَّ المغفرةَ سترُ الذنبِ مع وقايةِ شرِّه... وقد قيلَ: إنه لا تجتمعُ المغفرةُ مع العقوبةِ على الذنبِ حيثُ كانتِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٢٢٨).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وعبد بن حميد، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (١٢٦١).

المغفرة وقاية لشرِّ الذنب... ولذلك سُمِّيَ الْمَغْفِرُ مَغْفِرًا لَأَنَّهُ يَسْتُرُ الرَّأْسَ وَيَقِيهِ الْأَذَى... وهذا بخلافِ الْعَفْوِ فَإِنَّهُ يَكُونُ تَارَةً قَبْلَ الْعُقُوبَةِ وَتَارَةً بَعْدَهَا.

ولقد كان النبي ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم والليلة مائة مرة.. وهو الذي غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ.

✽ وأما الرحمة فتشمل رحمة الله بالعبد في الدنيا والآخرة.. وأعظمها دخول الجنة، وعلو درجاتها، وجميع ما في الجنة من النعيم والفوز برضوان الله عزَّ وجلَّ وقربه ومشاهدته وزيارته فإنه من رحمة الله تعالى.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشْيَاءِ مَنْ عَابَدَنِي»^(١).

فكلُّ ما في الجنة فهو من رحمة الله عزَّ وجلَّ وَإِنَّمَا تُنَالُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ لَا بِالْعَمَلِ كَمَا قَالَ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٢).

✽ قوله ﷺ: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون».

المقصود من هذا الدعاء سلامة العبد من فتن الدنيا مدة حياته فإن قدر الله عزَّ وجلَّ على عباده فتنة قبض عبده إليه قبل وقوعها.. أو أنجاه منها عند وقوعها.... وهذا من أهم الأدعية فإن المؤمن إذا عاش سليماً من الفتن ثم قبضه الله قبل وقوعها وحصول الناس فيها كان في ذلك نجاة له من الشر كله.

وكان ﷺ يخص بعض الفتن العظيمة بالذكر، وكان يتعوذ بالله في صلاته من أربع ويأمر بالتعوذ منها فكان ﷺ يقول: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٥٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٨٤٦) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة.

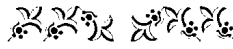
وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ» (١).

ثم إن المؤمن لا بد أن يُبتلى بشيء من الفتن المؤلمة الشاقة عليه ليمتحن إيمانه... كما قال الله تعالى: ﴿الْعَمَلُ ۝ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمْنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢).

ولكن الله يلطف بعباده المؤمنين في هذه الفتن ويصبرهم عليها، ويثبتهم فيها، ولا يلقهم في فتنة مهلكة مفضلة تذهب بدينهم، بل تمر عليهم الفتن وهم منها في عافية.

والفتن الصغار التي يُبتلى بها المرء في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الطاعات من الصلاة والصيام والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما الفتن المفضلة التي يُخشى منها فساد الدين فهي التي يُستعاض منها ويُسأل الموت قبلها... فمن مات قبل وقوعه في شيء من هذه الفتن فقد حفظه الله تعالى وحماه (٣).

﴿فَأَسْأَلُ اللَّهَ بِحَبْرٍ بَازِلٍ أَنْ يَرْزُقَنِي وَإِيَّاكُمْ فَعَلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحَبَّ الْمَسَاكِينَ وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَيَرْحَمَنَا وَيَتُوبَ عَلَيْنَا وَإِذَا أَرَادَ بَعْبَادَهُ فِتْنَةً أَنْ يَقْبِضَنَا إِلَيْهِ غَيْرَ مَفْتُونِينَ.. وَأَنْ يَرْزُقَنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضْرَةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضْلَةٍ.﴾



(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان: (١، ٢).

(٣) بتصرف من كتاب «اختيار الألى في شرح حديث اختصاص الملائمة الأعلى».



(٦٢) خطر دعوى الجاهلية

✽ عَنْ أَبِي بِن كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ». قَالَ: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عليه السلام: أَنْ قُلْ لِهَذَيْنِ الْمُتَسَبِّبِينَ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَمَيُّ أَوْ الْمُتَسَبِّبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُتَسَبِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ»^(١).

✽ هذه قصة رجلين افتخر أحدهما بأبائه الكفرة وانتسب إلى تسعة من آباء كفار... وافتخر الثاني بأبائه المسلمين وانتسابه إلى الإسلام، فأوبق الله عمل الأول، وضمه إلى آباءه في النار، ونجى الثاني، وضمه إلى آباءه في الجنة.

✽ ولقد أعلمنا ربنا بحقيقة عظمى ذات أثرٍ بالغٍ في المجتمع الإنساني بأسره... أخبرنا أننا جميعاً نعود إلى أصل واحد، وأبٍ واحد... أصلنا الذي خلقنا منه التراب، وأبونا الذي نرجع إليه جميعاً آدم (كلكم لآدم وآدم من تراب).

ولذا فإنه لا اختصاص لوأحدٍ من البشر بفضيلة باعتبار الأصل الذي خلق منه... وما يُقال من أن بعض الأُسُر من سلالة الآلهة، أو أن سُعوباً أو أجناساً تجرى في عروقها الدماء الزرقاء، كل ذلك من الباطل والزور، ولا يقيّل بطلانه عن دعوى الذي يدعى أن أصله من ذهب أو فضة، وبقية البشر أصلهم تراب أو حديد أو قصدير أو نحاس.

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة

وهذه الحقيقة، وهي كون البشر من أصلٍ واحد - متى أيقن الناس بها - تجعلهم يتواضع بعضهم لبعض، ولا يبغى بعضهم على بعض، على الرغم من اختلاف أجناسهم وألوانهم وبلادهم... إن هذا الاختلاف بين البشر في الأشكال والألوان، واختلافهم إلى شعوبٍ وقبائل ليس مرده إلى تفاضل بعضهم على بعض، ولكنه آية من آيات الله، ليتعارف البشر فيما بينهم، ويتميزون... ولو كان البشر صورة واحدة، واسمًا واحدًا، لما استطاعوا التمايز والتعارف... وقد قرّر الحق هذه الحقيقة الكبرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١).

ولكن هذه الحقيقة العظيمة التي يجب أن تكون قاعدة التعامل بين أبناء الجنس الواحد، وبين الأجناس والشعوب فيما بينها تغيب عن العقول والقلوب، فترى البشر على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات يبغى بعضهم على بعض، ويزعم كل فريقٍ أنه الأفضل والأكمل والأحسن، ويردّ هذا الفضل إلى جنسه أو لونه أو آبائه أو مدينته ودولته... وتراه بناءً على ذلك يمدح من يتسبب إليهم، ويعتز بهم، ويذم غيرهم، وقد تقوم الحروب المدمرة التي تأكل الأخضر واليابس انتصارًا لهذه العصبية الجاهلية القائمة على أصول عفنة قدرة.

إن الإنسان لا يُفْضَلُ غيره في ميزان الإسلام بطوله وعرضه وشكله ولونه وقبيلته وموطنه... إن التفاضل في الإسلام مرده إلى التقى والصلاح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾^(٢).

ويُكْرَمُ الإنسان بكرم آبائه الأتقياء إن هو أحبهم وسار على خطاهم، وفعل فعلهم، كما قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن

(١) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

(٢) سورة الحجرات: الآية: (١٣).



إسحاق بن إبراهيم عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(١).

أما المفاخرة بالآباء الكفرة، والزعماء الفجرة، والقيادات التي عاثت في الأرض فسادًا، فذلك كله من الباطل، وهو يمثل انحراف مسار الإنسان في تصوراتهِ وأفكارهِ وأفعاله.

وقد أخبرنا أبي بن كعب عن لون من ألوان هذا الباطل وقع في عهد الرسول ﷺ... فقد تنازع اثنان، فقال أحدهما مفتخرًا على صاحبه بأصالة نسبه، مُدلاً عليه بآبائه وأجداده، مُحقِّراً لصاحبه: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟

فلقن رسول الله ﷺ هذا المفاخر بآبائه الكفرة درسًا يردعه، ويردع أمثاله عن هذا الباطل، فقد حدثهم أن رجلين من بنى إسرائيل في زمن موسى ﷺ، اختلفا وتنازعا، فافتخر أحدهما بالآباء العظام من أهل الكفر، وعدّد تسعًا من آبائه، فقال: أنا فلان بن فلان بن فلان، إلى أن بلغ الجد التاسع، ثم واجه صاحبه مُحقِّراً مُوبِّخًا قائلاً: فمن أنت لا أم لك؟

إن افتخاره بآبائه، واحتقاره لمُخاطبه يدل على مرضٍ خبيث كان يسرى في كيان هذا الرجل وأمثاله، فهو يرى أن أصوله تُعطيه قيمة ترفعه على غيره، وتجعله يمتاز بأولئك الآباء، وأن غيره ممن لا يُشاركه في تلك الأصول لا يستحق أن يُساوى به، ولذا فهو في مرتبة دونه.

وقد كان الرجل الآخر صالحًا فقيهاً، فقال منتسبًا: أنا فلان ابن فلان ابن فلان ابن الإسلام، وكان الأبوان اللذان اعتزى إليهما مسلمين، ثم اعتزى إلى الإسلام، ورفض أن يمد المفاخرة إلى الآباء الكفرة.

ويروى أن هذا وقع لسلمان الفارسي رضي الله عنه فقد ذكر جمعٌ من الرجال - كان

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

فيهم سلمان - آباءهم، فلما جاء دور سلمان، قال: أنا ابن الإسلام، فلما بلغ عمر الخبر، بكى، وقال: وأنا ابن الإسلام.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله أوحى إلى موسى يأمره أن يقول للرجل المفتخر بالآباء الكفرة: « أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَمَتِّبُ أَوْ الْمُتَسَبِّبُ إِلَى تِسْعَةِ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ ».

وأمره أن يقول للرجل الآخر: « وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَمَتِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ ».

أرأيت إلى المصير الذي وصله ذلك الرجل المفتخر بآباء كفرة!! والمصير الخير الذي بلغه ذلك المتسبب إلى الإسلام وآباء مسلمين!!

إن ما أوحى الله به إلى موسى في شأن هذين الرجلين يهز قلوب الذين يخشون ربهم، ويخافون وقوفهم بين يديه... وقد أدب الرسول بحكايته هذه القصة ذانك الرجلين المتتسبين من الصحابة، وفيه عظة لكل من سار على دربهم، وفعل مثل فعلتهم.

إن الفخر بالآباء ولمز الآخرين؛ لأنهم لا يساؤونه في النسب مرض فتاك قاتل، يُخبث النفوس ويُدنسها، ويشعل العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، وقد يؤدي إلى القتال وسفك الدماء، ويقطع الأواصر بين أبناء الإسلام، وقد اشتد الرسول ﷺ في محاربة هذا المرض الخبيث.

عن أبي هريرة رَوَى اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَيْتَهُنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا .. إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ أَوْ لَيْكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْخُرْءَ بِأَنْفِهِ .. إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقَى أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ .. النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ»^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٨٢).



وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نغلظ القول لمن تعزى بعزاء الجاهلية، فقال: «مَنْ تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْضُوهُ بِهِنَّ أَبِيهِ وَلَا تُكُنُّوا»^(١).

وقد ترعرعت العصبية في هذا القرن وتعددت وتكونت، وفرقت جماعة المسلمين، وأصبحت معولاً لهدم الأمة الإسلامية.... لقد فشت في المجتمعات الإسلامية، بل والمجتمعات الإنسانية العصبية القومية، والإقليمية، بل وعصبية الألوان والحرف، وأشعلت هذه العصبية نيران الحروب في العالم كله، واصطلى الناس بحرّها، وذاقوا منها العلقم. وإذا كان غير المسلمين لهم شيء من العذر في الغرق في حمئة العصبية فما عذر المسلمين!!؟

عبر الحديث وفوائده

(١) تحذير الإسلام من العصبية المقيتة التي تقوم على الانتساب إلى الآباء والافتخار بهم، ومتابعتهم على باطلهم، ومناصرتهم على غير الحق.
(٢) متابعة الإنسان آباءه على الحق، ومناصرة قومه على الحق ليس من العصبية.

(٣) مواجهة الفساد والانحراف بذكر أخبار السابقين... فقد روى الرسول ﷺ للمتفخرين قصة مثل قصتهما، ليعتبرا بما فيها^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧).

(٢) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٣٣٢-٣٣٥) بتصرف.

(٦٣) سأل موسى ﷺ ربه ﷻ عن ست خصال

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عَنِ سِتِّ خِصَالٍ، كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةٌ، وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَى يُحِبُّهَا.

(١) قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتَقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى.

(٢) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى.

(٣) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ.

(٤) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَتَّبِعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ

إِلَى عِلْمِهِ.

(٥) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ.

(٦) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى.

(٧) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ ظَهْرٍ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتَقَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرًّا جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن موسى ﷺ سأل ربه ﷻ عن ست خصالٍ كان يظن أنها له خالصة.. والسابعة لم يكن يحبها... فيا ترى ما هي تلك الخصال؟

(١) قَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتَقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى...

وهذا يذكرني بتعريف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للتقوى فلقد عرّف تقوى الله ﷻ بقوله: أن يُطاع فلا يُعصى وأن يُشكر فلا يُكفر وأن يُذكر فلا يُنسى.

(١) حسن: رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٣٥٠).



فالتقى لا ينسى ربه أبداً.. بل يذكره ويشكره بقلبه وجوارحه ولسانه..
وكان من دعاء الصالحين: «اللهم ذكّرنا بك فلا ننساك أبداً».

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه وأمه أن يقول كل واحدٍ منهم دُبر كل صلاة:
«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

(٢) وأما الخصلة الثانية فقد قال موسى ﷺ: «يَا رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟
قَالَ: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى».

فالله ﷻ يَسِّرُ لعباده أسباب الهدى والهداية... فمن اتبع الهدى كان من
أهدى الناس ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴿.. وَمَنْ أَرَادَ الْهُدَىٰ فَعَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
«وخير الهدى هدى محمد ﷺ».

قال تعالى عن ثمرة اتباع الهدى ومغبة الإعراض عن الهدى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ
هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١١٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ
كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْبَتْنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١١٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ
رَبِّهِ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١١٧﴾، وأخبر الحق (جلّ وعلا) أن الذي يتبع الهدى
يزيده الله هدى فقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿١١٨﴾».

(٣) وأما الخصلة الثالثة: فقد قال موسى ﷺ: «يَا رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟
قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ».

وهذا موافق لقول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٢) سورة طه: الآيات: (١٢٣-١٢٧).

(٣) سورة مريم: الآية: (٧٦).

لِنَفْسِهِ»^(١)... فما تحبه لنفسك فافعله مع إخوانك.. وما لا ترضاه لنفسك فلا ترضه لإخوانك.

❁ وكيف لا يحب المسلم الخير لأخيه وهو يعلم يقيناً أن حبه لأخيه لن ينقص من رزقه وأن بغضه لأخيه لن يزيد في رزقه أو ينقص من رزق أخيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنُ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تَكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).

(٤) وأما الخصلة الرابعة: فقد قال موسى عليه السلام: يا رب فأى عبادك أعلم؟ قال: الذي لا يشبع من العلم.. يجمع علم الناس إلى علمه.

- وكيف يشبع الإنسان من العلم وقد قال ﷺ: «مَنْهُوْمَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»^(٤)... وكان الإمام أحمد يُسأل: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: مع المحبرة إلى المقبرة... وكان الإمام عبد الله بن المبارك يُسأل: حتى متى تطلب العلم وتُصنف الكتب؟ فكان يقول: لعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم يُكتب بعد.

❁ ولقد وردت أحاديث كثيرة في فضل طلب العلم... وذلك لأن العلم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٠).

(٣) صحيح: رواه ابن حبان فى صحيحه، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٧٨٠).

(٤) صحيح: رواه البزار، وابن عدى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٢٤).

خيرٌ من المال.. فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال.

✽ عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

✽ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيَعْلَمُهَا»^(٢).

والمرادُ بالحسد: الغبطة، وهو أن يتمنى أن يكون مثله.

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣).

✽ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ.. وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٤).

✽ وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي الْوَيْلَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم - ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم - ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٤) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٧).

وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتِ لِيَصْلُونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْحَيْرِ»^(١).
 ﴿ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

(٥) وأما الخصلة الخامسة: فقد قَالَ موسى ﷺ: يَا رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ.

وما أجمل العفو في حياة المسلم... وقد يظن الإنسان أنه إذا عفا عن أخيه فإن هذا يلبسه ثوب الذل... لكن النبي ﷺ يخبر أن العفو يزيد الإنسان عزاً عند الله ﷻ وعند الناس.

﴿ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾^(٣).

﴿ بل لقد أجزل الله العطاء لمن يعفو عن إخوانه.. فلم يحدد الأجر لكثيرته وعظمته فقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤).

﴿ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَّتْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَّتْ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّلَاثَةِ، قَالَ: «اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٥).

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٣) سورة فصلت: الآيتان (٣٤، ٣٥).

(٤) سورة الشورى: الآية: (٤٠).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٨٨).



✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا نَقَصْتُ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ^(١)، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا^(٢)، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ^(٣)»^(٤).

✽ وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ بِرُؤُوسِ السُّبُحِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُزَوِّجُهُ مِنْهَا مَا شَاءَ»^(٥).

(٦) وأما الخصلة السادسة: فقد قال موسى عليه السلام: يَا رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى.

فالقناعة كنز لا يفنى.. أمّا الطمع فكله مذموم إلا الطمع في رحمة الله ﷻ... فيجب على المسلم أن يرضى بما قسمه الله له.. فقد قال ﷺ: «... وَأَرْضٌ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»^(٦).

(١) «ما نقصت صدقة من مال»: ذكروا فيه وجهين: أحدهما معناه: أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مُدْرِكٌ بالحس والعادة... والثاني أنه: وإن نقصت صورته، كان في الثواب المُرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة.

(٢) «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»: فيه أيضاً وجهان: أحدهما على ظاهره، ومن عُرف بالعفو والصفح ساد وعَظُمَ في القلوب، وزاد عزه وإكرامه... والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعِزُّه هناك.

(٣) «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»: فيه أيضاً وجهان: أحدهما: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويُجَلُّ مكانه... والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة رفعه فيها بتواضعه في الدنيا... قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معاً في جميعها في الدنيا والآخرة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٨).

(٦) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْتَلِي الْعَبْدَ فِيمَا أَعْطَاهُ فَإِنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ .. وَإِنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى مَا كُتِبَ لَهُ»^(١).

✽ وها هو النبي ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه وأُمَّته نعمة القناعة؛ ليعلموا أن الدنيا لا تستحق أن يشغل العبد بحطامها الزائل.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا»^(٢).

✽ وقال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَكَانَ رِزْقُهُ كِفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(٣).

✽ وقال ﷺ: «انظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(٤).

✽ ووضح النبي ﷺ أن الزهد في الدنيا من أعظم أسباب صلاح هذه الأمة فقال ﷺ: «صَلَاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ وَيَهْلِكُ آخِرُهَا بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ»^(٥).

✽ وأخبر الصادق ﷺ أن العبد إذا انشغل بالآخرة أتته الدنيا وهي راغمة وإذا انشغل بالدنيا خسر الدنيا والآخرة...

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ،

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن قانع، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٦٩).

(٢) حسن: رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي صحيح الجامع (٦٠٤٢)، والسلسلة الصحيحة (٢٣١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) حسن: رواه أحمد في الزهد ص (١٠)، والطبراني في الأوسط، والبيهقي، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي صحيح الجامع (٣٨٤٥).



وَفَرَّقَ عَلَيْهِ سَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١).

(٧) وأما الخصلة السابعة: فقد قال موسى ﷺ: يا رب فأى عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص.

وتلك الخصلة السابعة هي التي لم يكن موسى ﷺ يحبها؛ لأن المنقوص هذا فسره أهل العلم بأنه منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل.. وكأنهم يعنون أنه فقير النفس طمّاع لا يرضى بما آتاه الله عزّ وجلّ... ولذلك كان موسى ﷺ لا يحب تلك الخصلة؛ لأنها خصلة لا يجوز أن يتحلّى بها المؤمنون فضلاً عن الأنبياء والمرسلين.

✽ ولذا قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَن كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ»^(٢).

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: الْغِنَى الْمَحْمُودُ غِنَى النَّفْسِ وَشَبَعَهَا وَقَلَّةُ حِرْصِهَا لَا كَثْرَةَ الْمَالِ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى الزِّيَادَةِ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَعْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنَى^(٣).

✽ وفي الحقيقة أن المؤمن راضٍ بما قَسَمَ الله له من رزق، وما قُدِّرَ له من مواهب، وما وُهِبَ له من حظٍّ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قَسَمَ من أرزاق، وبحكمته فيما وَرَّعَ من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى «القناعة» الذي حَثَّ عليه الدين، وأشاد به الحكماء والصالحون.

(١) صحيح: رواه الترمذى (٢٤٦٥) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وصححه الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة. «العرَض» بفتح العين والراء: هو المَال.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٩٨/٧).

ولقد ظلم الناس - فيما ظلموا - كلمة «القناعة» فحسبوا الرضا بالدُّون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالي الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُّقى المادى والمعنوى، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان.

وهذا كله خطأ واضح، وضلالٌ بعيد... فالحق أن القناعة لا تعنى شيئاً من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين:

أولهما: أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى... وقد صوّر ذلك الحديث النبوى: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب»^(١).

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال في السعى للغنى، والإجمال في طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن في نفسه وفي حياته، ويمنحه السكينة التى هى سرُّ السعادة، ويُجنبه الإفراط والغلو الذى يُرهق النفس والبدن معاً... ومن ثمَّ قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي، أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعَبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»^(٢).

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطراً على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قِيم أرفع، ومعانٍ أخلد، ورزقٍ أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٣)، ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة، من حديث

ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/٢٧)، من حديث أبى أمامة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٨٥).

(٣) سورة طه: الآية: (١٣١).

الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَيْنِ وَالْمَقْنَطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ
 الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
 الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴿١﴾

وظيفة الإيمان هنا أن يحد من ثورة الحرص والطمع، وطمغيان الشراهة
 والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا في قلقٍ دائم، لا تكتفى
 بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يُطْفئ غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند
 غيرها، ولا يُشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام... مثل هذه النفس لا ترضى
 ولا تستريح... إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين في جوفها، ثم يُقال
 لها: ﴿هَلِ أَمْتَلَأْتِ؟﴾! ﴿وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ؟﴾! (٢).

وظيفة الإيمان أن يُوجّه النفوس إلى القِيم المعنوية الخالدة، وإلى الدار
 الآخرة الباقية، وإلى الله الحي الذي لا يموت... ويعلم المؤمن أن الغنى - إن
 كان ينشد الغنى - ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو في داخل
 النفس أولاً... وبذلك ورد في الحديث: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى
 غِنَى النَّفْسِ» (٣).

وثانى ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع
 تغييره، وفي حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش مُتَمَنِّياً ما
 لا يتيسر له، مُتَطَلِعاً إلى ما وَهَبَ لغيره ولم يُوهَب له، وذلك كتمنى الشيخ أن

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (١٤-١٥).

(٢) سورة ق: الآية: (٣٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة، من

يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاة الحياة وأسباب النعيم...

وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكنَّ لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١) (٢).

✽ فالشاهد أنه ينبغي عليك أن ترضى بما قسم الله لك من المال والجمال والذكاء والصحة والزوجة والأولاد والمسكن... حتى تعيش سعيداً راضياً عن الله (جلّ وعلا).

✽ ولعلنا نعلم جميعاً أن الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه عليهم - كلٌّ منهم رعى الغنم... بل كان زكرياً نجاراً وإدريس خياطاً، وداود حداًداً.. وما نقص ذلك من قدرهم ومكانتهم عند الله (جلّ وعلا).

✽ وهناك قائمة رائعة من العظماء الذين بُخسوا حظوظهم الدنيوية:

عطاء بن رباح عالم الدنيا في عهده، مولى أسود، أفتس، أشل، مفلل الشعر.

الأحنف بن قيس، حلیم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أهدب الظهر، أحنى الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش مُحدِّث الدنيا، من الموالى، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، مُمزَّق الثياب، رثَّ الهيئة والمنزل.

✽ فقيمة المرء ما يُحسن... قيمتك في عملك الصالح وما تقدمه لخدمة

(١) سورة النساء: الآية: (٢٣).

(٢) الإيمان والحياة (ص: ١٣٧-١٣٩) بتصرف.



دينك وبلدك وأسرتك.. وليست قيمتك في المال والجاه والقوة والجمال..
فارض بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤) قنطار من الحسنات لمن قرأ عشر آيات في ليلة

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، وَتَمِيمِ الدَّارِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قرأ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قَنْطَارٌ، وَالْقَنْطَارُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ رَبُّكَ ﷻ: أَقْرَأُ، وَارْقَ لِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ مَعَهُ، يَقُولُ رَبُّكَ ﷻ: اقْبِضْ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ بِيَدِهِ: يَا رَبِّ أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: بِهِذِهِ الْخُلْدَ وَبِهِذِهِ النَّعِيمِ»^(١).

وفي رواية قال ﷺ: «مَنْ قرأ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قَنْطَارٌ لَيْلَةٍ»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْعَافِلِينَ وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ»^(٣).

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، وَتَمِيمِ الدَّارِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قَنْطَارٌ.. وَلَمْ يُحَدِّدِ النَّبِيُّ ﷺ هَلْ قرأ عَشْرَ آيَاتٍ فِي صَلَاتِهِ أَوْ خَارِجَ الصَّلَاةِ.. لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ قِرَاءَتَهَا فِي الصَّلَاةِ أَكْبَرُ ثَوَابًا... فَمَنْ قرأهَا كُتِبَ لَهُ قَنْطَارٌ.. فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَكْدُونَ وَيَتَعَبُونَ شَهْرًا وَسِنَوَاتٍ طَوِيلَةً لِيُظْفَرُوا بِقَنْطَارٍ مِنَ الْمَالِ فَإِنَّ صَاحِبَ الْقَرْآنِ يَفُوزُ بِقَنْطَارٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ بِقِرَاءَةِ عَشْرِ آيَاتٍ فِي اللَّيْلِ... وَالْقَنْطَارُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا

(١) حسن: رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٣٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٦٨).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٩).



وما فيها ... فالدنيا لا تُساوى عند الله جناح بعوضة ولذا فإن الحسنه خيرٌ من كنوز الدنيا فكيف بقنطارٍ من الحسنات؟!

«فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بالقلب السليم والعمل الصالح.

«يَقُولُ رَبُّكَ ﷻ: أَقْرَأُ، وَازِقُ لِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ» فيصعد العبد في الجنة بقدر ما يحفظ من آيات القرآن.. وهذا موافق لقول النبي ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: أَقْرَأُ وَازِقُ وَرَتَّلُ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرُؤُهَا»^(١).

ثم يقول الله ﷻ للعبد: اقْبِضْ... فيسأل العبد ربه ﷻ: ماذا يقبض.. فإذا بالحق جل وعلا يقول له: «بِهَذِهِ الْخُلْدُ وَبِهَذِهِ النَّعِيمُ» فيعيش في الجنة خالدًا مُخلدًا فيها أبدًا في نعيم لا يخطر على قلب بشر.

❁ أما في حديث ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ يقول:

«مَنْ قَامَ بَعَشْرَ آيَاتٍ» أى أخذها بقوة وعزم من غير فتور، ولا توانٍ، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها. فيكون كناية عن حفظها، والدوام على قراءتها، والتفكر في معانيها، والعمل بمقتضاها.

وإليه الإشارة بقوله: «لم يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ» أى لم يثبت اسمه في الصحيفة في زمرة الغافلين.

«وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَائِمِينَ»، أى المُوَظَّيْنِ عَلَى الطَّاعَةِ أَوْ الْمُطَوِّلِينَ الْقِيَامَ فِي الْعِبَادَةِ... وَالْقُنُوتُ: الطَّاعَةُ وَالْقِيَامُ... وَقَالَ الطَّبِيُّ، أَيْ: مِنَ الَّذِينَ قَامُوا بِأَمْرِ اللَّهِ وَلَزِمُوا طَاعَتَهُ وَخَضَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَلَا شَكَّ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ لَهَا مَزَايَا وَفَضَائِلُ، وَأَعْلَاهَا أَنْ تَكُونَ فِي الصَّلَاةِ، لَا سِوَمَا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٢٢).

فِي اللَّيْلِ... قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾^(١)... «وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ»: قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: مِنَ الْمَلِكِ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ أَلْفُ آيَةٍ. «كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ»، أَي: مِنَ الْمُكْتَثِرِينَ مِنَ الْأَجْرِ... مَاخُودٌ مِنَ الْقَنَاطِيرِ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. يَعْنِي مِنَ الَّذِينَ بَلَّغُوا فِي حِيَازَةِ الْمُثُوبَاتِ مَبْلَغَ الْمُقْنَطِرِينَ فِي حِيَازَةِ الْأَمْوَالِ.^(٢)

فكما فاز أهل الدنيا بقناطير الأموال التي تزول ولا تبقى فإن الذي يقرأ ألف آية يفوز بقناطير الحسنات التي تبقى ويرتفع بها في جنة الرحمن يوم القيامة.
قوله: «وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ» أي: الذين يحصلون على الأجر العظيم، والأجر الكبير الواسعة؛ لأن المقنطرين نسبة للقنطار، أو ما يزن القناطير أو يماثلها في كثرتها، وهذا كناية عن عظم الأجر والثواب^(٣).

﴿فَإِنْ قَلْتَ: بَيْنَ لِي التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ. قَلْتُ: الْأَوْلَى مُشْعَرَةٌ: بَأَنَّ صَاحِبَ عَشْرِ آيَاتٍ إِذَا قَامَ بِهَا خَرَجَ مِنْ زُمْرَةِ الْغَفْلَةِ مِنَ الْعَامَةِ، وَدَخَلَ فِي زُمْرَةِ ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ تَحْرُجُهُمْ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وَصَاحِبَ مِائَةِ دَاخِلٍ فِي جُمْلَةٍ مَن قِيلَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَكُنْتُمْ مِنَ الْفٰئِنِينَ﴾، ﴿أُمَّةً قٰئِنًا لِّلَّهِ حٰنِفًا﴾ أَي مِنَ الَّذِينَ قَامُوا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلَزَمُوا طَاعَتَهُ، وَخَضَعُوا لَهُ... وَأَعْلَاهَا صَاحِبُ أَلْفٍ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي غَمَارِ عُمَالِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، الَّذِينَ بَلَّغُوا فِي حِيَازَةِ الْمُثُوبَاتِ مَبْلَغَ الْمُقْنَطِرِينَ فِي حِيَازَةِ الْأَمْوَالِ... وَلَا ارْتِيَابَ أَنَّ الْقِيَامَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ آوَانٍ لَهَا مَزَايَا وَفَضَائِلٌ. وَأَعْلَاهَا: أَنْ يَكُونَ فِي الصَّلَاةِ، لِأَسِيمَا إِذَا أَنْشَأَتْ بِاللَّيْلِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. وَمَنْ تَمَّ أَوْ رَدَّ مُحْيِي السُّنَّةِ الْحَدِيثِ فِي بَابِ صَلَاةِ اللَّيْلِ. وَقَوْلُهُ: «مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ» قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: لَا نَجِدُ الْعَرَبَ تَعْرِفُ وَزْنَ الْقَنَاطَارِ،

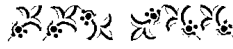
(١) سورة المزمل: الآية: (٦).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/٩١٠).

(٣) شرح سنن أبي داود للعباد.



وما نقل عن العرب المقدار المعول عليه. قيل: أربعة آلاف دينار... فإذا قالوا: قناطير مقنطرة، فهي اثنا عشر ألف دينار. وقيل: القنطار ملاء جلد الثور ذهبًا. وقيل: هي حملة كثيرة مجهولة من المال^(١).



(٦٥) تعجيل الصدقة قبل الموت

✽ عن بسر بن جحاش رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنِّي تُعَجَزْنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَوَيْدٌ... فَجَمَعْتَ وَمَنْعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَنَا أَوَّانُ الصَّدَقَةِ؟!» ^(١).

✽ ففي هذا الحديث القدسي يتعجب الحق (جلّ وعلا) من ذلك الإنسان الضعيف الذي خلقه الله عز وجل من ماء مهين ✽ **الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ** ^(٢٠) فجعلناه في قرار مكين ^(٢١) **إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ** ^(٢٢) فقد رنا فنعم القديرون ✽ ^(٢٣) وسواه وعدله.. كما قال تعالى: ✽ **يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ** ^(٦) **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ^(٧) **فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ** ✽ ^(٣).

ثم بعد أن خلقه الله عز وجل وسواه وعدله إذا به يمشى متكبراً متبختراً مُعْجَباً بنفسه.. والله عز وجل قادرٌ على أن يخسف به الأرض كما فعل بقارون: ✽ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَوِجْدَانِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ✽ ^(٤).

✽ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ يَمْشِي فِي بُرْدِيهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(٥).

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٤٤).

(٢) سورة المرسلات: الآيات: (٢٠-٢٣).

(٣) سورة الانفطار: الآيات: (٦-٨).

(٤) سورة القصص: الآية: (٨١).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى، (٥٧٨٩) كتاب اللباس - ومسلم (٢٠٨٨) كتاب اللباس والزينة،

وهذا لفظ مسلم، ولفظ البخارى هو التالى.



❁ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعَجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجَّلٌ جُمَّتُهُ^(١)، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ^(٢) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٣)».

❁ ومع كل هذا الكبر فإذا بهذا الإنسان يجمع حُطام الدنيا من الحلال والحرام ولا يشغل إلا بتنمية ثروته وزيادة غلته... فيجمع بين الكبر والبخل فلا ينفق درهماً ولا ديناراً حتى يجد نفسه على فراش الموت وقد بلغت الروح الحلقوم فيقول: أتصدق.. فهل هذا أو ان الصدقة!؟

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَحِيحٍ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ كَذَا»^(٤).

❁ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ هم أصحاب الهمة العالية.. ولذا فإنهم كانوا لا يسألون عن العمل الصالح فحسب بل كانوا يسألون عن أفضل الأعمال.. ولذا جاء سؤال هذا الرجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟.. وهذا مثل سؤال الصحابة للنبي ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟.. وهكذا فقد كانوا أحرص الناس على الإتيان بأفضل الأعمال.

(١) الجُمَّة: هي مجتمع الشعر إذا تدلَّى من الرأس إلى المنكبين.

(٢) التجلجلج هو أن يسوخ في الأرض مع اضطرابٍ شديد، ويندفع من شقِّ إلى شق.

والمراد أنه ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً (انظر هذا التفسير، وتفسيرات أخرى في فتح الباري ١٠ / ٢٧٢).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٩) كتاب اللباس.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٩) كتاب الزكاة - ومسلم (١٠٣٢) كتاب الزكاة.

«الْحُلُقُومَ»: مجرى النَّفْسِ - و«الْمَرِيُّ» مجرى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

❁ وفي هذا الحديث كان هذا الصحابي لا يسأل عن أفضل أنواع الصدقة وإنما كان يسأل عن الوقت الذي تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها.

فقال له ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ شَاحِحٌ» يعنى: صحيح البدن صحيح النفس... لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال؛ لأنه يأمل البقاء ويخشى الفقر، أما إذا كان مريضًا، فإنه يزهد في الدنيا؛ لأنه يشعر بأنه ستركها عمًا قريب.

قال ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ شَاحِحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْغِنَى»، وفي رواية: «تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْبَقَاءَ» ولكن الرواية الأولى أحسن.

وقوله: «تأمل البقاء» يعنى أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت.

مع أن الموت يأتى فجأة.. بل إن النبى ﷺ أخبر أن موت الفجأة من علامات الساعة الصغرى.

فالإنسان الصحيح قد يستبعد الموت.. أما المريض مرضًا شديدًا فقد يشعر بقرّب الموت.

❁ وقوله ﷺ: «وتخشى الفقر» أى أنه يخشى أن تطول حياته وينفذ ما عنده فيصبح فقيرًا محتاجًا إلى الناس... فمثل هذا تكون أفضل الصدقة في حال صحته وشُحّه بالمال.

«ولا تمهل» أى لا تترك الصدقة أو تؤخرها، «حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا» حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك، وعرفت أنك خارج من الدنيا.

قلت لمن حولك: هذه الصدقة لفلان وتلك لفلان «وقد كان لفلان» أى: قد كان المال لو ارتك.. لأن الإنسان إذا مات انتقل ملكه للورثة ولم يبق له من ماله

أى شىء إلا الذى قدّمه لنفسه فى حياته.

ولذا قال رسول الله ﷺ: «أَيْكُم مَّالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ»^(١).

✽ قال الإمام الخطابى رَحِمَهُ اللهُ:

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الشُّحَّ غَالِبٌ فِي حَالِ الصَّحَّةِ، فَإِذَا سَمِحَ فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصْدَقَ فِي نَيْتِهِ وَأَعْظَمَ لِأَجْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ وَآيَسَ مِنَ الْحَيَاةِ وَرَأَى مَصِيرَ الْمَالِ لغيرِهِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ حِينئِذٍ نَاقِصَةٌ بِالنُّسْبَةِ إِلَى حَالَةِ الصَّحَّةِ وَالشُّحِّ رَجَاءُ الْبَقَاءِ وَخَوْفُ الْفَقْرِ^(٢).

✽ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان لا بد أن يحرص على أن يُبادر بالصدقة فى حال صحته قبل أن يُبادره الموت.. لأنه إذا تصدق فى حال حضور الأجل كان ذلك أقل فضلاً مما لو تصدق وهو صحيحٌ شحيح.

وفى هذا دليل على أن الإنسان إذا تكلم فى سياق الموت فإنه يُعتبر كلامه إذا لم يذهل... فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول فإنه لا عبرة بكلامه... لقوله: «حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان».

✽ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضاً على أن الروح تصعد من أسفل البدن إلى أعلاه ثم يأتى ملك الموت ﷻ ويقبض روحه من أعلى...

ولهذا قال ﷺ: «حتى إذا بلغت الحلقوم» وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحَلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينئِذٍ نَظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾. فأول ما يموت من الإنسان أسفله ثم تصعد الروح من أسفل لأعلى حتى تصل إلى الحلقوم ثم يقبضها ملك الموت بعد أن

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧٣/٧).

(٣) سورة الواقعة: الآيتان: (٨٣-٨٤).



يُنَادِي عَلَيْهِ بِالنِّدَاءِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ.

فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ يُنَادِي عَلَيْهِ مَلِكُ الْمَوْتِ قَائِلًا: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ» وَإِنْ كَانَ كَافِرًا يُنَادِي عَلَيْهِ مَلِكُ الْمَوْتِ قَائِلًا: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٦٦) ما سَيَبْلُغُهُ مَلِكُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قِضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَأْفَاطِرِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَفْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

ففى هذا الحديث قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا»، أى: إن الله ﷻ زوى له الأرض فشاهاها ورأى ما يصل إليه ملك أمة .. فرأى أن ملك أمة سيصل مشارق الأرض ومغاربها... وقد حصل ذلك فى زمن بنى أمية، حيث فُتحت الفتوحات فى الشرق والغرب حتى وصل عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلسى، ووصلت بعض الجيوش التى أرسلت إلى جهة المشرق إلى الصين وإلى السند والهند، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، ودخل الناس فى هذا الدين، وتحقق بذلك ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه... وكذلك كان الأمر فى عهد بنى العباس... ويذكر عن هارون الرشيد أنه مرّت سحابة ببغداد فقال: (أمطرى حيث شئت فخرأجك سيأتى إلىّ)؛ لأنها تجاوزت بغداد فلم تمطر عليها، فقال: أين أمطرت فخرأجك سيأتينى.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٩) كتاب الفتن.

بمعنى: أن الأرض التي سينزل فيها ذلك الماء سيصل خراجها إلى بغداد، وذلك إشارة إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية.

فتحقق ما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام من افتتاح البلاد ودخول الناس في هذا الدين الحنيف، مع أن الصحابة رضي الله عنهم وكذلك الذين جاءوا بعدهم ممن صار على منوالهم في الفتوحات والجهاد في سبيل الله كانوا أقل عددًا من أعدائهم وأقل عددًا، ولكن وُجدت عندهم قوة الإيمان التي هي سبب كل خير... ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، فهذه الفتوحات إنما حصلت بالصدق مع الله وبقوة الإيمان والإخلاص والجهاد من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يهتدى الناس، وأن يدخلوا في دين الله... فالمسلمون كانوا أقل عددًا وعُدَدًا، وأعداؤهم الكفار كانوا أكثر عددًا وعُدَدًا، ومع ذلك كان المسلمون يتفوقون ويتغلبون على الكفار؛ بسبب ما أعطاهم الله من قوة الإيمان والصدق.

ولهذا لما تغيرت أحوال الناس هان المسلمون على أعدائهم بعد أن كان الكفار يهابون المسلمين، صاروا هم الذين يهابون ويخافون الكفار؛ والسبب في ذلك كله ضعف الإيمان، ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله في الحديث: «وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي».

❦ قوله: «وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»، الأحمر هو الذهب، والأبيض هو الفضة... وكنوز كسرى وقيصر التي كانت من الذهب والفضة غنمها المسلمون في جهادهم للروم والفرس، وأحضرت تلك الكنوز إلى المدينة وتولى قسمتها الفاروق عمر رضي الله عنه بنفسه في المدينة، وتحقق بذلك ما

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٤).



أخبر به الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) في قوله: «ولتُنْفَن كنوزهما في سبيل الله» وقد تحقق ذلك وأنفقت في سبيل الله على يد الفاروق رضي الله عنه.

✽ قوله: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ»، يعنى: بأن يصيبهم قحطٌ عام يصير به هلاك وضرر الجميع... وأعطاه الله ذلك... فالقحط يحصل في بلد، ويحصل في بلدٍ آخر الرخاء والخصب، لكن كونه يحصل لهذه الأمة أنها تهلك بالقحط، وقلة المطر، وتفنى بسبب ذلك.. فهذا لا يحدث.

✽ قوله: «وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بِيَضْتَهُمْ»، وهنا سأل النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ ألا يُسَلِّطَ على الأمة عدوًّا من خارجها يقضى على الإسلام والمسلمين... والإسلام باقٍ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحُجته، ولو حصل ضعف في مكانٍ حصلت قوة في مكانٍ آخر، لكن لا تخلو الأرض ممن يقوم بأمر الله، ولكن الشيء الذي قد حصل هو كون بعضهم يقتل بعضًا... والفتن التي تكون بينهم تحصد بعضهم بالقتل وحصول الأضرار الكبيرة.

✽ يعنى: لن يوجد عدو ليس من المسلمين يستبيح بيضتهم ويقضى على الإسلام والمسلمين؛ لأن الإسلام باقٍ وعزيز، ولكنه يكون قويًّا في بعض الأزمان، ودون ذلك في بعض الأزمان، لكن كونه تخلو منه الأرض أو ينتهى، هذا لا يكون، بل لا بد أن يكون هناك من يقوم بشرع الله، ولا يضره من خالفه، كما سيأتى في آخر هذا الحديث.

✽ قوله: «وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ»، يعنى: ما قدره الله وقضاه فإنه لا بد من وجوده، وكل شيء شاءه الله لا بد أن يكون، وكل شيء لم يشأه الله لا يمكن أن يكون، ولهذا فإن عقيدة المسلمين في باب القدر تنبنى على هاتين الجملتين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ما سبق به قضاء الله وقدره لا بد من وجوده، ولا بد من حصوله، وما جرى

به القضاء بأنه لا يكون فلا سبيل إلى كونه ووجوده^(١).

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: «زوى لى»: بمعنى جمع وضم؛ أى؛ جمع له الأرض وضمَّها.

قوله: «فرأيت»: أى: بعينى؛ فهى رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «مشارقتها ومغاربها»: وهذا ليس على الله بعزيز؛ لأنه على كل شىء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبى ﷺ ما سيبلغ مُلك أمته منها.

وهل المراد بالزوى هنا أن الأرض جُمعت، أو أن الرسول ﷺ قوى نظره حتى رأى البعيد؟ الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جُمعت، لا أن بصره قوى حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبى ﷺ أى أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شىء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقتها إلى مغاربها.

❁ اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حُمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع، لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبى ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التى لا يجوز أن تُورد عليها كيف ولم، بل نقول: إن الله على كل شىء قدير؛ إذ قوة الله - سبحانه - أعظم من قوتنا

(١) شرح سنن أبى داود للعباد.



وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ^(١) فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه من المسائل التي لا ندركها بل يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

❁ وقوله: «فرايت مشارقتها ومغاريها»: أي: أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «وإن أمتي سيبليغ ملكها ما زوى لى منها»: والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبليغ ملكها ما زوى للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعاً بالغاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

❁ وقوله: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»: فالذي أعطاه هو الله.

والكنزان: هما الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر؛ فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

❁ وقوله: «أعطيت»: هل النبي ﷺ أعطيتها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمُعْطَى له؛ لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

❁ وقوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة»:

السنة: الجذب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٩) كتاب الاعتكاف - ومسلم (٢١٧٥) كتاب السلام.

سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾^(٢).

وعامة؛ أي: عموماً تعمهم، هذه دعوة.

﴿قوله: «وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضْتَهُمْ»:

أي: لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنَ الْكُفَّارِ... وَالْعَدُوُّ: ضِدُّ الْوَلِيِّ، وَهُوَ: الْمُعَادِي الْمُبْغِضُ الْحَاقِدُ... وَأَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ هُنَا: هُمُ الْكُفَّارُ، وَلِهَذَا قَالَ: «مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ».

ومعنى: «يَسْتَبِيحُ»: يَسْتَحِلُّ، وَالْبَيْضَةُ: مَا يُجْعَلُ عَلَى الرَّأْسِ وَقَايَةً مِنَ

السَّهَامِ.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

﴿قوله: «إِذَا قَضَيْتَ قِضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»:

اعلم أن قضاء الله نوعان.

١- قضاء شرعي قد يُرَدُّ؛ فقد يُرده الله ولا يقبلونه.

٢- قضاء كوني لا يُرَدُّ، ولا بد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي

بِالْحَقِّ﴾^(٣).

ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٤)؛

لأنه لو كان كونياً؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠٦) كتاب الاستسقاء - ومسلم (٦٧٥) كتاب المساجد.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٣٠).

(٣) سورة غافر: الآية: (٢٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية: (٢٣).



ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(١)؛ لأن الله تعالى لا يقضى شرعاً بالفساد، لكنه يقضى به كوناً وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضى بذلك لحكمة بالغة، كما قسّم خلقه إلى مؤمن وكافر؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق... فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتواً واستكباراً، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به... وعلى طواغيت بنى آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

❁ وفي قوله: «إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يُرد» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يُرد ما قضى به. واعلم أن قضاء الله الكوني (كمشيئته) بالحكمة، فهو لا يقضى قضاءً إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئاً إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢)؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئاً إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافاً لمن أنكر حكمة الله (من الجهمية وغيرهم)، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفاً من الله؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يُحجر عليه... قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(٣).

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (٣٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (٥).

فنحن نقول: إن الله - جل وعلا - لا يفعل شيئاً ولا يحكم بشيءٍ إلا بحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نُحيط بها علماً؟

الجواب: لا يلزم، لأننا أقصر من أن نحيط علماً بحكم الله كلها.. صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يُرد» بيان أن من الأشياء التي سألتها النبي ﷺ ما لم يُعْطها؛ لأن الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يُرد ما قضاه الله ﷻ.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب؛ إما معلومة أو مجهولة... فدخل الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله ﷻ منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضى الحكمة وجوده، وحينئذ يُجازى الداعي بما هو أكمل، أو يُؤخّر له ويُدخّر له عند الله ﷻ أو يُصرف عنه من السوء ما هو أعظم... والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يُجب؛ فإننا نجزم بأنه ادُّخِر له.

❁ قوله: «وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً».

وهذه الإجابة قُيدت بقوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم... فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء «حتى يكون بعضهم...».



وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يُرد»، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة عامة أبداً؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون. فإذا صار بعضهم يقتل بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ فإنه يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع... فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ سلط الله عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم (التتار)، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويقرنون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم... وهي حية تشاهد ثم تموت.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٦-٣٨١).

(٦٧) سبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كَلِمَهُمْ، وَمَشَرِبَهُمْ، وَمَقِيلَهُمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أحيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(١) ^(٢).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ... وَتَلَّكَ الطَّيُورُ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ لِتَشْرَبَ مِنْهَا وَتَأْكُلَ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ الَّتِي لَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ لِيَتَنَعَمَ هُوَ لِأَنَّ الشَّهَدَاءَ فِي الْجَنَّةِ وَلِيَكُونُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾... ثُمَّ تَأْوِي تِلْكَ الطَّيُورُ بَعْدَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ (جَلَّ وَعَلَا) «فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كَلِمَهُمْ، وَمَشَرِبَهُمْ، وَمَقِيلَهُمْ»، أَرَادُوا أَنْ يَشَارِكَهُمْ إِخْوَانَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرِ. وَلَأنَّهُمْ يَجِبُونَ الْخَيْرَ لِإِخْوَانِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، «قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أحيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ» فَمَا كَانَ مِنَ الْحَقِّ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ» فَأَنْزَلَ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥).



الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)،
 فهذه الآية الكريمة فيها بيان حال المقتولين في سبيل الله، وأن أرواحهم في جوف
 طير خضير... وأرواح الشهداء تُنعم منفردة وتُنعم أيضًا متصلة بالأجساد،
 وكذلك أيضًا من يكون مُنعماً أو مُعذباً في القبر فإن العذاب يكون للروح
 والجسد والنعيم يكون للروح والجسد، وليس العذاب أو النعيم للروح
 وحدها، وإنما يكون لمجموع الأمرين والله على كل شيء قدير... فتكون
 الأرواح في الجنة ولها اتصال بالأجساد، وتُنعم متصلة ومنفصلة، وذلك أن
 الإحسان حصل من مجموع الأرواح والأجساد، والإساءة حصلت من مجموع
 الأرواح والأجساد، وقد جاء في الحديث: «المسلم يُفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه
 من روحها ونعيمها، والفاجر يُفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسُمومها، ولا
 يزال كُلُّ منهما فيما هو فيه إلى أن تقوم الساعة»^(٢).

وقد جاء في الحديث أن نسمة المؤمن على صورة طير في الجنة، وأرواح
 الشهداء في أجواف طير، وحديث: (نسمة المؤمن على صورة طير) رواه الإمام
 أحمد عن الإمام الشافعي، والإمام الشافعي رواه عن الإمام مالك، فهو مسلسل
 بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة، وهو في المسند، فقد
 ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣)، وذكر أن هذا إسناد عزيز مسلسل بثلاثة من
 الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة.

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦) بلفظ
 قريب.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

✽ قوله: (قناديل من ذهب مُعلّقة في ظل العرش).

أى: تحت العرش.

✽ قوله: (فلما وجدوا طيب ماكلهم ومشربهم ومقيلهم).

المقيل هو الاستراحة في وسط النهار... قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(١).

✽ قوله: (ولا ياكلوا عند الحرب).

أى: حتى لا يهتمون للقاء الأعداء خشية الموت^(٢).

سبب نزول آخر للآية السابقة

✽ عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قال: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيِّئًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عز وجل: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ الْقَوْلَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ» قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلُغْ مِنِّي وَرَائِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾^(٣) (٤).

وهو حديث عظيم فيه معاني عظيمة، وفيه أن عبد الله بن حرام والد جابر رضي الله عنه لما استشهد يوم أحد خلف بناتٍ وديناً فلحق ابنه جابر همُّ عظيم، ثم قضى

(١) سورة الفرقان: الآية: (٢٤).

(٢) شرح سنن أبي داود للعباد.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

النبي ﷺ دينه وتزوج جابرًا امرأة ثيبًا حتى تقوم على أخواته.

وفيه أن النبي ﷺ لما رأى جابرًا منكسرًا قال: (ألا أخبرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى، قال: إن الله كلم أباك كِفاحًا)، يعنى: بدون واسطة، وهذه منقبة لعبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، وهو مُستثنى من قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ^(١)، فكلمه الله مباشرة بدون واسطة، كما كلم موسى عليه السلام من دون واسطة، وهذا منقبة خاصة بعبد الله بن عمرو بن حرام، فكلمه الله وقال له: تمنّ علىّ أعطك، قال: يا رب! أن أُرَدَّ إلى دار الدنيا مرة أخرى حتى أُقتل، وذلك لما رأى من فضل الشهادة، حيث صارت منزلته عند الله عالية، وثوابه عظيمًا، فتمنى أن يُرَدَّ إلى الدار الدنيا مرة أخرى ويُقتل، فقال الله: إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يُرجعون... فمن مات لا يرجع إلى الدنيا، إلا مَنْ كان آية من الآيات مثل قتيل بنى إسرائيل، أحياه الله ثم أخبر بمن قتله، ثم عاد في الحال.

وفيه دليل على بطلان الحديث الذى فيه أن الله أحيأ أبوى النبى ﷺ له وأنهما آمنأ به... وقد ذكره السيوطى رحمته الله وهذا من الخرافات... فقد ذكر أن الله أحيأ أبوى النبى له، وأنهما آمنأ به، كما مرَّ في تفسير سورة البقرة، في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ ^(٢)، فذكر الحافظ ابن كثير رحمته الله أن هذا الحديث باطل، وأن الصواب أنه موضوع ولا أساس له من الصحة.

وهذا الحديث يدل على بطلانه قوله: (إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يُرجعون) أى: مَنْ مات لا يرجع إلى الدار الدنيا، ولا يفيد الإيمان بعد الموت،

(١) سورة الشورى: الآية: (٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١١٨).

ولهذا قال الله تعالى لعبد الله بن عمرو بن حرام: «إنه قد سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون، قال: رب أبلغ من ورائي - يعني: بفضل الشهادة- فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).

✽ واليهود والنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام قُتِلَ وَصُلِبَ، والصحيح أنه رُفِعَ حَيًّا كما في نَصِّ القرآن: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾^(٢).

✽ قوله: (ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب) أى: أنه كلمه من وراء حجاب ولكنه لم يره... فموسى عليه السلام كلمه الله من وراء حجاب ولم يره، ونبينا محمد عليه السلام كلمه الله ليلة المعراج من وراء حجاب ولم يره... هذا هو الصواب، فهم محجوبون عن الرؤية، ويدل على ذلك حديث مسلم «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٣) فلما قيل للنبي عليه السلام فى حديث أبى ذر: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(٤) يعنى: النور حجاب يمنعنى من رؤيته، ولا يستطيع أحد أن يرى الله إلا فى الجنة... هذا هو الصواب. وقال بعض العلماء: إن النبى عليه السلام رأى ربه ليلة المعراج، وأن ذلك خاص بالنبى عليه السلام... لكنه قول مرجوح^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٥٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان.

(٥) شرح سنن ابن ماجه للراجحى.



﴿ ٦٨ ﴾ ليس الخبر كالمعاينة

﴿ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ ، قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى : إِنَّ قَوْمَكَ صَنَعُوا كَذَا وَكَذَا ، فَلَمَّا يُبَالِ ، فَلَمَّا عَايَنَ أَلْقَى الْأَوْاحَ » .

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: « لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ ، إِنَّ اللَّهَ ﻫِزْوَلًا أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَوْاحَ ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا ، أَلْقَى الْأَوْاحَ فَانْكَسَرَتْ »^(١).

﴿ ليس الخبر كالمعاينة ﴾ وشاهد ذلك (أن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يُلْقِ الْأَوْاحَ فلما عاين ما صنعوا) من عبادة العجل (ألقي الألواح فانكسرت) فأفاد هذا أنه ليس حال الإنسان عند معاينة الشيء كحاله عند الخبر.

أخبر الله موسى بما حدث في قومه في غيبته: ﴿ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾^(٢).

لقد امتحن الله بنى إسرائيل بالسامري، وابتلاهم وفتنهم به، وجعله فتنة لهم، ليعلم مَنْ يثبتُ منهم على الإيمان والتوحيد، وَمَنْ يتخلى عن ذلك ويسيرُ مع السامري في ضلاله وكفره.

وأُسندت الفتنة إلى الله: ﴿ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ ، على اعتبار أنه القادر المريدُ سبحانه، وأنَّ كلَّ ما يقعُ فهو بمشيئته وإرادته سبحانه.

بعدما أخبر الله موسى بإضلال السامريِّ لقومه، حزنَ موسى وتألَّم، وحملَ

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٥).

ألواح معه، وغادر جبل الطور وعاد إلى قومه... قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ (١).

وصل موسى ﷺ إلى قومه، وهو يحمل الألواح، فوجدهم عاكفين على العجل الذهبي عابدين له، فزاد انفعاله وغضبه وحزنه وأسفه، وألقى الألواح من يديه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ (٢).

قال ابن عاشور: «وإلقاء الألواح رميها من يده إلى الأرض، وذلك يؤذن بأنه لما نزل من المناجاة كانت الألواح في يده.. ثم إن إلقاءه إياها إنما كان إظهارًا للغضب، أو أثرًا من آثار فوران الغضب لما شاهدتهم على تلك الحالة..».

فلم يكن إلقاءه للألواح إهانة ولا تحقيرًا لها، وإنما كان إلقاء لا إراديًا، ناتجًا عن شدة غضبه وانفعاله.

غضب موسى وحزن وأسف لما علم بعبادة قومه العجل وهو على الجبل، لكن غضبه وأسفه زاد وتفاعل لما رآهم يعبدون العجل، وأدى ذلك إلى إلقاء الألواح.

ويشير الحديث إلى الفرق بين تأثر من أُخبر عن شيء، وتأثر من عايش ذلك الشيء ورآه: «ليس الخبر كالمعاينة»، فتأثر وانفعال المشاهد للشيء أضعاف تأثر من أُخبر به، وهذه حالة نفسية معروفة.

وذكر الحديث حالة موسى ﷺ أوضح مثال على هذا، حيث اختلف انفعاله عندما شاهد قومه يعبدون العجل عن انفعاله عندما أُخبر عن ذلك.

لقد أداه انفعاله عندما شاهدتهم إلى إلقاء الألواح، ونتج عن إلقاءها

(١) سورة طه: الآية: (٨٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).



انكسارها، كما أخبر رسول الله ﷺ.

وأقبل موسى ﷺ على قومه لائماً مُعْتَفًا موبِّخاً... قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۗ أَعْجِلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۗ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۗ﴾^(٢).

لامهم على مخالفتهم في غيابه، وذمهم على سوء خلافتهم له: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۗ﴾.

ومعنى قوله: ﴿أَعْجِلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۗ﴾؟ لماذا سارعتم بفعل ما يسبب غضب ربكم عليكم؟ وهو عبادتكم العجل. أما علمتم أن الله يغضب من ذلك ويُعاقب مَنْ فعله؟ فكيف فعلتموه؟ أتريدون أن تتعجلوا عقاب الله؟

والاستفهام في: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ۗ﴾؟ إنكارى. فلما عبدوا العجل استحقوا غضب الله، وكأنهم بذلك يُنكرون وعد الله الحسن الذى وعدهم إياه... فنزلهم موسى ﷺ بهذا الاستفهام الإنكارى منزلة مَنْ زَعَمَ أَنَّ الله لم يَعِدْهُمْ وَعَدًّا حَسَنًا؛ لأنَّ عبادتهم العجل تتناقض مع الوعد الحسن.

والمراد بالوعد الحسن هنا وعد الله لموسى ثلاثين ليلةً لإنزال التوراة عليه بعدها... فوعده لموسى وعدٌ حسنٌ منه سبحانه لهم؛ لأنَّ في التوراة إحسانٌ لحياتهم وإصلاحٌ لحالهم.

وكان الأجدرُ بهم أن ينتظروا وعد الله بالحسنى والعبادة، وأن يرقبوا عودة موسى إليهم ومعه التوراة... فكيف راقبوا وانتظروا عودة موسى بالتوراة وهم

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٦).

عابدون لغير الله؟

والاستفهام في: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾؟ إنكارى أيضاً.

والمراد بالعهد هنا المدة التي غابها عنهم. فقد أخبرهم أنه سيعودُ لهم بعد ثلاثين يوماً، وأبقى فيهم أخاه هارونَ النبي... ومَدَدَ اللهُ المدةَ عشرةَ أيام، وفي هذه الأيام عبدوا العجل.

إنه ينكرُ عليهم ما فعلوه في هذه المدة، لأنَّهُ غَابَ عنهم عشرةَ أيامٍ أُخرى ظنُّوا به الظنون؟ وخالفوا دينه وعبدوا العجل؟ أكانت الأربعون يوماً عهداً طويلاً وفترةً مديدة، طالَ عليهم العهدُ فيها، ودفعَتْهم إلى عِبَادَةِ العجل؟ ومعهم خليفتهُ النبيُّ هارون!!

إنَّ الأربعين يوماً مدةً قصيرةً، لا تدعوكم إلى مخالفةِ شرعِ الله وعِبَادَةِ غيره، ولا شبهةً ولا عذرَ لكم فيما فعلتموه فيها.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

والمعنى: كلاً إنه ما طالَ عليكم العهدُ في غيابي، بل أنتم أردتم أن يحلَّ عليكم غضبُ ربكم، فأخلفتم موعدي وعبدتم العجل!

ردَّ بنو إسرائيل على تعنيف ولوم موسى قائلين: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾^(١).

ومعنى كلامهم: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾: أننا لم نتعمد إخلاف موعدك، ولا عبادة العجل، وما فعلنا ذلك بإرادتنا واختيارنا ورغبتنا، فكنا نريد أن نبقى مُحافظين على العهدِ والوعد.

ولكن حصل أمرٌ ليس في حسابنا، أدَّى ذلك إلى إضلالنا وإخلافنا الموعد.



وَيَبْنُوا الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى إِخْلَافِ الْمَوْعِدِ وَعِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

والمعنى: حَمَلْنَا السامريُّ أوزارًا من زينة القوم، وأشعرنا أننا مذنبون بتملكها، وأمرنا بطرحها، فقدفناها لتخلص منها^(١).

فقد قاموا باستعارة حُلِيِّ وزينة من المصريين ليلة الخروج، وحملوا تلك الزينة والحلى معهم أثناء خروجهم.

وأخذهم حُلِيٌّ وزينة المصريين ليلة خروجهم هو في الحقيقة أخذٌ لبعض حقوقهم المالية التي عند المصريين، ولم يكن ذلك سرقة.

لقد اعتبروا ما معهم من حُلِيٍّ وزينة المصريين أوزارًا وأثقالًا يحملونها، وآثامًا يقعون فيها، ولا بدَّ من التخلص منها لتزول عنهم تلك الآثام.

ورسَّخ السامريُّ هذا المعنى في شعورهم، وقوى هذا التحرُّج والتأثم في نفوسهم، ليُحَقِّق مراده فيهم، وكأنَّه كان يقول لهم: هذه الحُلِيُّ والزينة التي معكم أوزارٌ وأثقالٌ تحملونها، وتُسبِّبُ لكم الإثم والعذاب، فأنتم سرقتموها من المصريين، ولا بدَّ أن تتخلصوا من هذه «المسروقات» حتى يزول عنكم التحرُّج والتأثُّب والشعورُ بالإثم والذنب.

ثم دعاهم إلى قذفها وطرحها وإلقائها، ففعلوا. ولما قذفوها أخذها السامريُّ وصنع منها العجل: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿(٢)(٣)﴾.

(١) انظر حجة القراءات (٤٦٢).

(٢) سورة طه: الآيتان: (٨٧، ٨٨).

(٣) بتصرف من كتاب (القصص القرآني) د/ صلاح الخالدي.

(٦٩) تحريم سب الدهر

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ.. يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلُبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» ^(١).

✽ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ.. فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أَقْلُبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا» ^(٢).

✽ وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَنَا الدَّهْرُ.. الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي لِي، أَجَدُّهَا وَأَبْلَيْهَا، وَآتَى بِالْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ» ^(٣).

✽ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَعَلَّ كَذَا وَكَذَا. فَيُسْنَدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ - تَعَالَى - إِلَى الدَّهْرِ، وَيَسْبُونَهُ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ... هَكَذَا قَرَّرَهُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ».

✽ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْأَحَادِيثِ تَقَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ تَكُونَ سَبًّا وَقَدْحًا فِي الزَّمَنِ.. فَهَذَا حَرَامٌ وَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ مَا حَصَلَ فِي الزَّمَنِ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.. فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ سَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّ يَقُولُهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ^(٤). أَيْ: شَدِيدٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَقُولُونَ: هَذَا يَوْمٌ شَدِيدٌ. وَهَذَا يَوْمٌ فِيهِ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأُمُورِ، وَلَيْسَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٢٦) كتاب التفسير، ومسلم (٢٢٤٦) (٢) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) (٣) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٤) سورة هود: الآية: (٧٧).

فيه شيء.

وأما قول: «هذا الزمن غدار»، فهذا سبٌّ لأن الغدر صفة ذم ولا يجوز.

وقول: «يا خيبة اليوم الذي رأيتك فيه» إذا قصد يا خيبتى أنا، فهذا لا بأس فيه، وليس سبًّا للدهر، وإن قصد الزمن أو اليوم فهذا سبٌّ له فلا يجوز^(١).

وقال الحافظ المنذرى رحمته الله: (ومعنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة، وأصابته مصيبة أو مكروه يسب الدهر اعتقادًا منه أن الذى أصابه فعل الدهر، كما كانت العرب تستمطر بالأنواء، وتقول: مُطَرْنَا بنوء كذا اعتقادًا أن فعل ذلك فعل الأنواء فكان هذا كاللعن للفاعل، ولا فاعل لكل شيء إلا الله تعالى خالق كل شيء وفاعله، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك)^(٢).

❦ وقال الإمام ابن القيم رحمته الله: في هذا ثلاث مفاسد:

أحدها: سبُّه من ليس بأهل أن يُسب فإن الدهر خَلَقَ مُسَخَّرًا من خلق الله، منقاد لأمره، مُذَلَّل لتسخيره، فسأبه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبُّه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرَّ مَنْ لا يستحق الضرر، وأعطى مَنْ لا يستحق العطاء، ورفع مَنْ لا يستحق الرفعة، وحرَمَ مَنْ لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة.. وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبِّه كثيرة جدًّا، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على مَنْ فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم، حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفي

(١) فتاوى العقيدة (ص: ٧٤٧).

(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٤).

حقيقة الأمر، فرب الدهر تعالى هو المعطى المانع، الخافض الرافع، المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم للدهر مسبة لله ﷻ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى.. فسأب الدهر دائريين الأمرين لا بد له من إحداهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذى فعل ذلك وهو يسب من فعله، فقد سب الله^(١).

✽ والقول بأن الدهر من أسماء الله ﷻ يرده الإجماع المنعقد سلفاً وخلفاً أن الدهر ليس من أسماء الله ﷻ... وإذا كان الإجماع على هذا النحو، ولم يأت لا فى زمن الصحابة ولا من بعدهم أن من أسماء الله تبارك وتعالى الدهر، فلا بد من تأويل هذا الحديث.

وأما تأويله فى رواية: (إن الله هو الدهر) فقد قال العلماء: وإطلاق الدهر هنا من باب المجاز؛ وسببه أن العرب كان من شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موتٍ أو هرمٍ أو تلف مالٍ أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر.

يعنى: يسبون الدهر.

وأنتم تعلمون أن الدهر هو الأيام والليالى، وهو الأزمان، وهذه الأزمان لا تفعل شيئاً فى هذه المصائب، وليست سبباً فى نزول المصائب، بل المصائب مخلوقة لله ﷻ، والشمر مخلوق لله ﷻ، وكذلك الأيام والليالى مخلوقة لله ﷻ... والأيام والليالى ليس لها دخل فى نزول المصائب والنوازل والحوادث، ولكن العرب كانت تتشأم من يومٍ تقع فيه نازلة أو مصيبة، فيطلقون ألسنتهم بسبِّ الدهر ولعنه، فيقولون: يا خيبة الدهر ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبى عليه الصلاة والسلام: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر).



أى: فإن الله هو الذى خلق الدهر.

أى: لا تسبوا فاعل النوازل؛ لأن الليل والنهار ليسا بفاعلين للنوازل، وإنما فاعل النوازل وخالقها هو رب الليل والنهار وهو رب الدهر، فإذا سببتم الدهر ولعنتموه فكأنكم تسبون خالق النوازل وخالق الدهر وخالق الحوادث وخالق الليل والنهار، وهذا هو الذى نهى عنه (عليه الصلاة والسلام)، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السبُّ على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومُنزلها... وأما الدهر الذى هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى.

والمعنى: فإن الله هو الذى فعل النوازل وأوجدها وخلقها وأحدثها؛ وهى مما يقع فى الكون، والله هو الخالق لجميع الكائنات والنوازل والحوادث.

وهذا الكلام قاله الإمام المنذرى ووافقه الشيخ الألبانى كذلك فى

الصحيحة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٧٠﴾ إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الْحُطْمَةُ

عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْوَلَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَادِلِهِمْ وَجَائِرِهِمْ، حَتَّى يَقْفُوا عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فِيكُمْ طَلَبْتِي فَلَا يَبْقَى جَائِرٌ فِي حُكْمِهِ، مُرْتَشٍ فِي قَضَائِهِ مَمِيلٌ سَمْعُهُ أَحَدَ الْخَصْمَيْنِ إِلَّا هَوَى فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا.. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِي ضَرَبَ فَوْقَ الْحَدِّ فَيَقُولُ اللَّهُ: لِمَ ضَرَبْتَ فَوْقَ مَا أَمَرْتُكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ غَضِبْتُ لَكَ، فَيَقُولُ: أَكَانَ لِنُغْضَبِكَ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِي؟! وَيُؤْتَى بِالَّذِي قَصَرَ فَيَقُولُ: عَبْدِي لِمَ قَصَرْتَ؟ فَيَقُولُ: رَحِمْتُهُ. فَيَقُولُ: أَكَانَتْ لِرَحْمَتِكَ أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ مِنْ رَحْمَتِي»^(١).

وفي حديثٍ آخر عن تحريم ظلم الراعي للرعية.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ عَائِدَ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الْحُطْمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ^{(٢)(٣)}.

﴿٧١﴾ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ كَانَ يُوصَى دَائِمًا كُلِّ مَنْ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْفُقَ بِهِمْ وَأَنْ يَرْحَمَهُمْ.. وَكَانَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الرَّعِيَةِ وَعَدَمِ الرَّفْقِ بِهِمْ.

وفي هذا الحديث أن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عبيد الله بن زياد فقال له: أي بني إني سمعت رسول الله ﷺ

(١) (رواه أبو يعلى: وإسناده حسن لغيره).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٣) الرعاء: جمع راع - الحطمة: العنيف في رعيته الذي لا يرفق بهم - المقصود بالنخالة: أي لست من فضلائهم وعلمائهم.



يقول: «إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم» يقول: إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة.. والحُطمة هو العنيف في رعاية الإبل لا يرفق بها في سَوْقها ومرعاها بل يحطمها في سَوْقها ومرعاها وفي سقيها وغيره ويزحم بعضها ببعضٍ ويُلقى بعضها بحيث يؤذيها ويحطمها... وهذا مثلُ ضربه الرسول ﷺ للوالى السيئ القاسى القلب الذى يظلم الرعية.

❁ والسؤال: لماذا قال عائذ بن عمرو هذا الكلام لعبيد الله بن زياد؟

والجواب: لأنه كان غلامًا سفيهاً سفك الدماء سفكاً شديداً.. وكان هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضي الله عنه حفيد النبي ﷺ وسيد شباب أهل الجنة. ❁ وما هي قصة قتل الحسين رضي الله عنه باختصارٍ شديد.

الحسين بن على رضي الله عنه تعرض لفتنة عظيمة.. وحلَّ به كربٌ وبلاءٌ في كربلاء، وذلك أن أهل العراق أرادوا الواقعة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية، فكتبوا إلى الحسين بأن يخرج إليهم، ووعدوه أن ينصروه وأن يؤازروه وأن يؤمروه عليهم حتى لا يترك الأمر ليزيد الذى اتُّهم في دينه... والله يتولاه.

ورأى الحسين رضي الله عنه أن هذا العرض قد يحقق خيراً يريدُه للناس ولا يريدُه لنفسه... إنه يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا عبد الرحمن بن سمرّة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(١).

فمضى رضي الله عنه وقد أشار عليه بعض الصحابة بعدم الخروج فأبى إلا الخروج ليقضى الله أمراً كان مفعولاً... ووثق الحسين بعهود ومواثيق أهل العراق، وأقبل يسير نحو الكوفة حتى إذا نزل بكربلاء رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم أنت ثقّيتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى من كل أمر نزل ثقة وعدة... فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإمارة.

فيه العدو... فأنزلته بك وشكوته إليك رغبة فيه إليك عمًا سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه فانت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية (١).

ولما نزل في كربلاء قال: ما هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كربٌ وبلاء،... وعلم الأعداء بقدمه فأحاطوا به من كل مكان... وكان ﷺ يقوم الليل هو ومن معه يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ويقرأون قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيْزِدُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٢) وتحرش به الأعداء ونالوا منه سبًا وشتمًا وما كان له إلا أن يدافع عن نفسه وأهله الذين اصطحبهم معه، وقد وقف لهم وقوف الجبال الراسية حتى قُتل جميع من معه وبقي وحده يقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه في يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وكان ذلك بأمر من عبید الله بن زياد، فلما أحضر بين يديه أخذ عودًا ينكت به في ثنايا الحسين، ويقول: لقد كان جميلًا... قال زيد بن أرقم: ارفع القضيب فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يُقبلهما... وأرسل رأس الحسين إلى يزيد فلما رآه حزن حزنًا شديدًا وقال: لعن الله ابن مرجانة - يعنى عبید الله بن زياد - لو قبِل طلبه في عدم القتل وأعطاه سؤاله، لقد بغضني إلى الناس بقتل الحسين وزرع لى في قلوبهم العداوة والبغضاء... وكان الذى رمى الحسين رجلاً اسمه حصين بن تميم... رماه بسهم فى حنكه حتى سال الدم فتلقاه الحسين وهو يقول رافعاً يديه إلى السماء مملوءتان دمًا: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تذر على الأرض منهم أحدًا... ودعا عليهم دعاءً بليغاً وقد استجاب الله دعاءه فما مكث الرامى إلا يسيراً حتى صبَّ الله عليه الظماً فجعل

(١) البداية والنهاية جزء ٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٧٨).



لا يُروى ويُسقى الماء مُبرداً فلا يُطفى عطشه ولا يروى ظمأه لأن النار تشتعل في فؤاده، فما لبث إلا قليلاً حتى مات من شدة العطش... والماء البارد بين يديه.

ومرت الأيام وابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد- يفتخر بقتل الحسين ويتعالى بسفك دمه ويحسب أن الدنيا ستخلو له، وأن الحياة ستبقى له، وأن يزيد سيمنعه من عذاب الله ويحول بينه وبين الموت.. ونسى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(١) وفي اليوم الذي قُتل فيه الحسين وهو يوم عاشوراء سلط الله على ابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد- المختار بن أبي عُبيد الثقفي الذي أرسله إبراهيم بن الأشتر فالتقوا في أول سنة سبع وستين بالخازر قريياً من الموصل وقُتل ابن زياد يوم عاشوراء وأرسل ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار فلما وضع بين يديه جاءت حية عظيمة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن زياد وخرجت من منخره ودخلت من منخره وخرجت من فمه وهكذا ترددت عدة مرات.

وهكذا ينتقم الله لأولياءه من كل ظالم عنيد، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحداً^(٢).

وكانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس تقول له: قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ لا ترى الجنة... وقد أفضى إلى ما قدم ويتمنى أنه ما فعل فعله.... كيف وخصمه يوم القيامة ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فبأى جواب يجيب؟ وبأى عمل يقدم؟^(٣).

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٤٢).

(٢) البداية والنهاية (جزء ٨)، تاريخ الطبري (جزء ٣)، سير أعلام النبلاء (جزء ٣).

(٣) اتق دعوة المظلوم (٦٥ - ٦٨).

❁ فيُستفاد من هذا الحديث فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه لا يجوز للإنسان الذي ولّاه الله على أمرٍ من أمور المسلمين أن يكون عنيفاً عليهم، بل يكون رقيقاً بهم.

الفائدة الثانية: وجوب الرفق بمن ولّاه الله عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط، يعنى لا يكون ليناً مع ضعف ولكن ليناً بحزم وقوة ونشاط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(٧١) لا يأتى النذر بخير

❦ قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَا يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدَّرَ لَهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ النَّذْرُ إِلَى الْقَدَرِ قَدْ قَدَّرَ لَهُ، فَيَسْتَخْرِجُ اللهُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ، فَيُؤْتِي عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُؤْتِي عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ»^(١).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرِجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(٢).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُعْرَبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنِ اللهُ تَعَالَى قَدَّرَهُ لَهُ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ يُوَافِقُ الْقَدَرَ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ، مَا لَمْ يَكُنِ الْبَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ»^(٣).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ نَذْرَانِ: فَمَا كَانَ لِلَّهِ، فَكَفَّارَتُهُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَمَا كَانَ لِلشَّيْطَانِ فَلَا وَفَاءَ لَهُ، وَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ يَمِينٌ»^(٤).

❦ النذر هو أن يلزم الإنسان المُكَلَّف نفسه شيئاً لله تعالى.

وأما حكم النذر ابتداءً فإنه مكروه غير مستحب؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يردُّ شيئاً وإنما يُسْتَخْرِجُ بِهِ مِنَ الشَّحِيحِ»^(٥)، ولأن الناذر يلزم نفسه بشيء لا يلزمه في أصل الشرع... فيحرج نفسه، ويثقلها بذلك، ولأنه مطلوب من المسلم فعل الخير بلا نذر.

إلا أنه إذا نذر فعل طاعة وجب عليه الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٠) (٧) كتاب النذر.

(٤) صحيح: رواه البيهقى فى السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٨٢).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

تَفَقَّهَ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرِ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ»^(١)، وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٢)، ولحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعصه»^(٣).

فقد مدح الله عز وجل الموفين بالنذر وأثنى عليهم... وأمر صلى الله عليه وسلم بالوفاء به، فدل ذلك على أن النهي المتقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو للكرهية لا للتحريم، وأن المنهى عنه والمكروه هو ابتداء النذر والدخول فيه، وأما الوفاء به، وإنجازه لمن لزمه فواجب، وطاعة الله سبحانه... والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، فمن نذر لقبر أو ولي ونحوه، فقد أشرك بالله تعالى شركًا أكبر، والعياذ بالله. ❁ وينقسم النذر بحسب الأحكام المترتبة عليه، ولزوم الوفاء به من عدمه، إلى خمسة أنواع:

(١) النذر المطلق: نحو قوله: لله على نذر. ولم يُسم شيئًا، فيلزمه كفارة يمين، سواء كان مطلقًا أو مقيدًا... لحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفارة النذر إذا لم يُسم كفارة يمين»^(٤).

(٢) نذر اللجاج والغضب: وهو تعليق نذره بشرط يقصد به المنع من فعل شيء أو الحمل عليه أو التصديق أو التكذيب... كقوله: إن كلمتك، أو إن لم أخبر بك، أو إن لم يكن هذا الخبر صحيحًا، أو إن كان كذبًا فعلى الحج، أو العتق... فهذا النذر خارجٌ مخرج اليمين للحث على فعل شيء أو المنع منه، ولم يقصد به النذر ولا القربة... فهذا يُخَيَّر فيه بين فعل ما نذره أو كفارة يمين؛

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٧٠).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٨٨)، وأصله فى صحيح مسلم.



لقوله ﷺ: «كفارة النذر كفارة يمين»^(١).

(٣) النذر المباح: وهو أن ينذر فعل الشيء المباح، نحو: أن ينذر لبس ثوب أو ركوب دابة.. ونحو ذلك... واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا شيء عليه فيه... لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم، فقال: «مروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»^(٢).

(٤) نذر المعصية: وهو أن ينذر فعل معصية، كنذر شرب خمر، والنذر للقبور، أو لأهل القبور من الأموات، وصوم أيام الحيض، ويوم النحر. فهذا النذر لا ينعقد ولا يجب الوفاء به... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»؛ لأن معصية الله لا تباح في حال من الأحوال، ولا يلزمه به كفارة.

(٥) نذر التبرُّر: وهو نذر الطاعة وفعل البر... كنذر فعل الصلاة والصيام والحج، سواء أكان مطلقاً، أم معلقاً على حصول شيء، فيجب الوفاء به إن كان مُطلقاً... وعند حصول الشرط إن كان مُعلقاً... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»^(٣).

❁ قَالَ الْقَاضِي: عَادَةُ النَّاسِ تَعْلِيْقُ النَّذْرِ عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فَنَهَى عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِعْلُ الْبُخْلَاءِ... إِذِ السَّخِيُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى اسْتَعْجَلَ فِيهِ وَأَتَى بِهِ فِي الْحَالِ، وَالْبَخِيلُ لَا تَطَاوَعُهُ نَفْسُهُ بِإِخْرَاجِ شَيْءٍ مِنْ يَدِهِ إِلَّا فِي مُقَابَلَةِ عَوْضٍ يُسْتَوْفَى أَوْلاً، فَيَلْتَزِمُهُ فِي مُقَابَلَةِ مَا سَيَحْصُلُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) بتصرف من الفقه الميسر - مجموعة علماء.

لَهُ، وَيَعْلَقُهُ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنِ الْقَدْرِ شَيْئًا... أَيْ نَذْرٌ لَا يَسُوقُ إِلَيْهِ خَيْرًا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ، وَلَا يَرُدُّ عَنْهُ شَرًّا فُضِيَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ قَدْ يُوَافِقُ الْقَدْرَ فَيُخْرِجُ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَوْلَاهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَإِنَّمَا وَجْهُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا يَجْلِبُ لَهُمْ فِي الْعَاجِلِ نَفْعًا وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ ضَرًّا، وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «فَلَا تَنْذَرُوا». عَلَى أَنَّكُمْ تَذَرِكُونَ بِالنَّذْرِ شَيْئًا لَمْ يُقَدَّرْهُ اللَّهُ لَكُمْ، أَوْ تَصْرِفُونَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ شَيْئًا جَرَى الْقَضَاءُ بِهِ عَلَيْكُمْ، إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاخْرُجُوا عَنْهُ بِالْوَفَاءِ، فَإِنَّ الَّذِي نَذَرْتُمُوهُ لَازِمٌ لَكُمْ.

قَالَ الطَّيْبِيُّ: تَحْرِيرُهُ أَنَّهُ عِلَلُ النَّهْيِ بِقَوْلِهِ: فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدْرِ، وَنَبَّهَ بِهِ عَلَى أَنَّ النَّذْرَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ هُوَ النَّذْرُ الْمُقَيَّدُ الَّذِي يُعْتَقَدُ أَنَّهُ يُغْنِي عَنِ الْقَدْرِ بِنَفْسِهِ، كَمَا زَعَمُوا، وَكَمَا نَرَى فِي عَهْدِنَا جَمَاعَةً يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ لَمَّا شَاهَدُوا مِنْ غَالِبِ الْأَحْوَالِ حُصُولَ الْمَطَالِبِ بِالنَّذْرِ، وَأَمَّا إِذَا نَذَرَ وَاعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُسَهِّلُ الْأُمُورَ، وَهُوَ الضَّارُّ وَالنَّافِعُ. وَالنُّذُورُ كَالذَّرَائِعِ وَالْوَسَائِلِ، فَيَكُونُ الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ طَاعَةً، وَلَا يَكُونُ مِنْهَا عَنْهُ... كَيْفَ وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ الْخَيْرَةَ مِنْ عِبَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾^(١) وَ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾^(٢) قُلْتُ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾^(٣).

قَالَ: وَأَمَّا مَعْنَى «فَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ» فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْبَدَلَ وَالْإِنْفَاقَ، فَمَنْ سَمَحَتْ أَرْيَحِيَّتُهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَشَرَعُ النُّذُورُ لِيُسْتَخْرَجَ بِهِ مَالُ الْبَخِيلِ. وَقَالَ الْمَازِرِيُّ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ النَّهْيِ عَنِ النَّذْرِ كَوْنُ النَّاذِرِ يَصِيرُ

(١) سورة الإنسان: الآية: (٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٥).

(٣) سورة مريم: الآية: (٢٦).



مُلْتَزِمًا لَهُ، فَيَأْتِي بِهِ تَكْلُفًا بَغَيْرِ نَشَاطٍ، قُلْتُ: وَهُوَ مُشَاهِدٌ كَثِيرًا فَيَمْنُ يَنْذِرُ صِيَامَ
الدَّهْرِ. أَوْ الْبَيْضِ، أَوْ صَلَاةِ الضُّحَى وَغَيْرِهَا، أَوْ بِأَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَوْمٍ وَنَحْوَهُ قَالَ:
وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهُ كَوْنُهُ يَأْتِي بِالقُرْبَةِ الَّتِي التَزَمَهَا فِي نَذْرِهِ عَلَى صُورَةِ
المُعَاوَضَةِ لِلأَمْرِ الَّذِي طَلَبَهُ، فَيَنْقُصُ أَجْرَهُ، وَشَأْنُ العِبَادَةِ أَنْ تَكُونَ مُتَمَحِّضَةً لِلَّهِ
تَعَالَى اه... وَهُوَ تَوْضِيحٌ وَبَيَانٌ لِمَا فِي كَلَامِ القَاضِي مِمَّا مَضَى... وَقَالَ القَاضِي
عِيَاضٌ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النِّهْيُ لِكَوْنِهِ قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ الجَهْلَةِ أَنَّ النَّذْرَ قَدْ يَرُدُّ
القَدَرَ، وَيَمْنَعُ مِنْ حُصُولِ المَقْدَرِ، فَنَهَى عَنْهُ خَوْفًا مِنْ جَاهِلٍ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ اه.
وَحَاصِلُهُ أَنَّ النِّهْيَ عَنِ النَّذْرِ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الإِعْتِقَادِ
الفَاسِدِ كَمَا سَبَقَتْ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ^(١).

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(٧٢) هل أول خلق الله (القلم)؟

عَنْ أَبِي حَفْصَةَ، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ... سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَكْتُبَ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ»^(٢).

عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ فِي الْقَدْرِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ، أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأِ الزُّخْرَفَ، قَالَ: فَقَرَأْتُ: ﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ٤﴾ فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا أُمُّ الْكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابُ كِتَابِهِ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ٥﴾، قَالَ عَطَاءُ: فَلَقِيتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيَّتُهُ أَيْبِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، اتَّقِ اللَّهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في الطحاوية (٢٣٢) // (٢٧١) //،

المشكاة (٩٤)، وظلال الجنة (١٠٢ - ١٠٧).

(٢) صحيح: رواه ابن أبي عاصم، وأبو يعلى، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٣).

(٣) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).



تَتَقَى اللَّهُ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْآبِدِ»^(١).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله في حديث عبادة: «أنه قال لابنه: يا بني!...»: أفاد حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه ينبغي للأب أن يُسدى النصائح لأبنائه ولأهله وأن يختار العبارات الرقيقة التي تُلين القلب، حيث قال: «يا بني!»، وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

✽ قوله: «لن تجد طعم الإيمان»: هذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السُّنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعامٌ آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله عَزَّ وَجَلَّ فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة... فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يُدركه إلا مَنْ أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

✽ قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»: قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلا بد أن نعرف معنى هذه العبارة... فتُحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنى «ما أصابك»؛ أي: ما قدر الله أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع... فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧).

الثانى: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكود مخطئاً لك، فلا تقل: لو أننى فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذى أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ فكل التقديرات التى تقدرها وتقول: لو أنى فعلت كذا ما حصل كذا هى تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئاً... وأياً كان؛ فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلا بُد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيباً للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شىء، فإذا آمنت هذا الإيمان دُقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لا بد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فذهب بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات، فلا يقول: لو أننى ما خرجت لما مات الولد، بل لا بد أن تجرى الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التى تقع فى ذهنه كلها من الشيطان.

فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يَرْضَى وَيُسَلِّم... وقد أشار الله إلى هذا المعنى فى قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١﴾.

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ دُقت حلاوة الإيمان، واطمأنت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جارٍ على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير.

❁ وقوله: «وما أخطأك لم يكن ليصيبك»:

نقول فيه مثل الأول؛ يعنى: ما قُدر أن يخطئك فلن يصيبك.



ثم استدل لما يقول بقوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم...».

✽ قوله: «فقال له: اكتب».

القائل هو الله ﷻ يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد... والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿١﴾ أَي: لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهاً؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا... ودلّ قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجب ويمثل.

✽ قوله: «قال: رب وماذا أكتب؟».

أى: ما الذى أكتب؟

وفي هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانه، وعلى هذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مُجْمَلًا؛ فإن طلب استبانه لا يكون معصية... فالقلم لا شك أنه ممثّل لأمر الله - سبحانه وتعالى -، ومع ذلك قال: «رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولا بد أن يمثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذى يُعتبر جمادًا بالنسبة لمفهوما، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا

أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

و«كل»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

❁ وقوله: «حتى تقوم الساعة».

الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شيء عظيم من الدوام له ساعة؛ يعنى: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور.

❁ قوله: «يا بُنى! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا».

أى: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

❁ قوله: «فليس منى».

أى: تبرأ منه الرسول ﷺ^(١).

❁ في هذه الأحاديث إشارة إلى ردِّ ما يتناقله الناس، حتى صار ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير منهم وهو أن النور المحمدي أول ما خلق الله تبارك وتعالى، وليس لذلك أساس من الصحة^(٢).

❁ سؤال: ما الراجح في الأولوية: خلُق العرش أم القلم؟

الجواب: بعض أهل العلم يقول: إن القلم هو الأول؛ لحديث: (أول ما خلق الله القلم).

ومنهم من يقول: إن العرش أول مخلوق، وإن قوله: «إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» معناه أنه أول ما خلقه قال له: اكتب، أى فلم تبقَ فترة بين خلقه وأمره بالكتابة.

(١) القول المفيد (٢/ ٢٩٨-٣٠٢) بتصرف.

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٥٧-٢٥٨).



وقد ذكر الإمام ابن القيم الخلاف في النونية، ورجَّح أن العرش متقدم، قال:
والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان لأهل العلم مشهوران
والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

✽ والكتابة كتابتان: كتابة لا تتبدل ولا تتغير، وهى المكتوبة في اللوح
المحفوظ عند الله ﷻ، فلا يلحقها محو ولا إثبات، وأما الذى يحدث فيه
التغيير والتبديل فهو الكتاب الذى مع الملائكة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿يَمْحُوا
اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١).

فقوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ» هذا فى الكتب التى مع الملائكة، وأما أم
الكتاب فليس فيها محو ولا إثبات، ولا يلحقها المحو والإثبات.

قال ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (٢).

فقد كتب الله ﷻ مقادير كل شىء قبل أن يخلق السماوات والأرض
بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء، فى الوقت الذى لم تكن السماوات
والأرض قد وُجدت، بل بينهما خمسين ألف سنة.

فيجب أن يكون الإنسان على إيمانٍ و يقين بأن كل ما يصيبه من خير أو شر
فأمرٌ قد قُضى وانتهى؛ فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، ولم يبقَ إلا ما كتبه
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... فليجتهد العبد فى الطاعة وفى فعل الخير، وفى دعاء الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله عنده من أصحاب اليمين، ومن المقربين، ومن
المتقين، ومن المُيسَّرين لليسرى.

(١) سورة الرعد: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٧٣) استشهاد عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَخِيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا^(١).» فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُزْجَعُونَ قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفُقُونَ﴾^(٢) (٣).

لقد كان عبد الله بن عمرو بن حرام هو والد جابر بن عبد الله رضي الله عنه وكان سيّدًا في قومه وشريفًا من أشرفهم وإن لم يكن ذا ثروة... وكان مُشركًا ففتح الله قلبه للإسلام، وكان من الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية.. بل وكان أحد النقباء الاثني عشر الذين تم اختيارهم ليكونوا نقباء على قومهم بما كان في تلك البيعة مع النبي ﷺ.

وكان من أهل يثرب (المدينة المنورة).. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان مُلازمًا له لينهل من علمه وهديه وأخلاقه.

ولما كانت غزوة بدر كان من المُجاهدين الأبطال في تلك الغزوة... ولما كان يوم أحد شعر عبد الله بأنه سيكون من أوائل الشهداء في تلك الغزوة.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «لما حَضَرَ (أُحُدٌ) دعاني أبي من الليل فقال: ما أُرَانِي إِلَّا

(١) كِفَاحًا: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٧٩٠٥).

مقتولاً في أول مَنْ يُقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليَّ ديناً فاقضِ واستوصِ بأخواتك خيراً... فأصبحنا فكان أول قتيل، ودُفن معه آخرُ في قبر ثم لم تَطِبْ نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيومٍ وضعته هنيئة غير أذنه»^(١).

وفي رواية: أن جابراً رضي الله عنه قال: فقلت: يا رسول الله، إنَّ أبى ترك دينا عليه... وليس عندي ما أوفيه به إلا ما يُخرجه ثمُر نخيله، ولو عمدت إلى وفاء دينه من ذلك الثمر لما أديته في سنين...

ولا مال لأخواتى عليهنَّ أنفق منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معى إلى بيدر^(٢) تمرنا وقال لى: «أدعُ غرماء^(٣) أبيك»، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبى دينه كله من تمر تلك السنة. ثم إنى نظرت إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه ثمرةً واحدة^(٤)...

الملائكة تُظله بأجنحتها

وها هى ملائكة الرحمن - جل وعلا - تتفاعل مع هذا الصحابى الجليل وتتنزل بأمر الملك - جل وعلا - لتظله بأجنحتها بعد موته.

فعن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم أحد، جىء بأبى مُسجى - مُغطى - وقد مُثِّل به، قال: فأردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، ثم أردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فُرفع .. فسمع صوت باكية أو

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٣٥١) كتاب الجنائز.

(٢) البيدر: الموضع الذى يُكوم ويُجمع فيه التمر.

(٣) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

صائحة. فقال: «من هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «وَلَمْ تَبْكِي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ»^(١)

قال الإمام النووي: قوله ﷺ: «فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ» قال القاضى: يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضله من الله، ورضاه عنه، وما أعدَّ له من الكرامة عليه... ازدحموا عليه إكرامًا له، وفرحًا به، أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه... قوله: فقال رسول الله ﷺ: «وَلَمْ تَبْكِي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت الملائكة تظله أى: فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغي البكاء على مثل هذا.. وفي هذا تسليية لها.^(٢)

✽ ولقد علمنا أن عبد الله لما استشهد ترك لابنه جابر تسعًا من البنات وهنَّ أخواته ليرعاهنَّ ويقوم على شئونهنَّ.. وكان جابر لم يبلغ الخامسة عشر من عمره، فأحسَّ بالحمل الثقيل والهَمَّ الكبير.. فأراد النبي ﷺ أن يُواسيه وأن يُفرح قلبه فأخبره أن الملائكة أظلت والده بأجنحتها حتى رفعته إلى السماء وأن الله ﷻ كَلَّمَهُ بغير حجاب، وقال له: «عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ».. فما طلب عبد الله شيئًا من حُطام الدنيا الزائل وإنما تمنى أن يردّه الله ﷻ إلى الدنيا مرة أخرى ليُجاهد في سبيله وينال الشهادة مرة أخرى.

فأخبره الحق (جلَّ وعلا) أنه قد سبق منه أن الذى يموت لا يرجع إلى الدنيا مرة أخرى... فما كان من عبد الله إلا أن طلب من الحق (جلَّ وعلا) أن يُبلغ أصحاب الرسول ﷺ والأُمَّة من بعدهم بما يكون من فضل الشهادة ومكانة الشهداء حتى لا ينكلوا عن الجهاد في سبيل الله فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَلَا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٣٧ - ٣٩) بتصرف.



تَحَسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿٤٤١﴾

فَاللَّهُمَّ ارزقنا شهادة في سبيلك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤) باب التوبة والرحمة

✽ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ، قَالَ: «وَتَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدَعَا، فَاتَاهُ جَبْرِيْلُ فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»، قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» ^(١).

✽ لقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على أن يؤمن كل الناس بالله ﷻ.. وكان يبذل حياته كلها من أجل تعبيد الكون لله ﷻ.. وكان يدعو المشركين بالرحمة والموعظة الحسنة وكان يصبر على أذاهم ولا ينتقم لنفسه أبدًا.. ومع ذلك كانوا يتعتنون ويطلبون أشياء عجيبة مع أن النبي ﷺ كان لا يريد مالا ولا جاها ولا أى شىء من حُطام الدنيا وإنما كان يخشى عليهم من النار ويريد أن يأخذ بأيديهم إلى الجنة.

✽ وفي يوم من الأيام قالت قريشٌ للنبي ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جِبِلَّ الصِّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ... فهم يعلمون أن دعاء النبي ﷺ مُستجاب وفوق ذلك فقد طلبوا شيئًا يفوق الخيال ظنًا منهم أن النبي ﷺ سيعجز عن أن يطلب ذلك من ربه ﷻ. ولكن النبي ﷺ فاجأهم بقوله: «وَتَفْعَلُونَ؟».. أى: إن دعوت ربي وجعل لكم جبل الصفا ذهبًا أتؤمنون معي؟.. «قَالُوا: نَعَمْ» وهم لن يؤمنوا ولكنهم يطلبون المستحيل من وجهة نظرهم حتى إذا عجز النبي ﷺ عن ذلك يقولون له: قد أردنا الإيمان ولكنك لم تُحقق ما اشترطناه عليك.

فقام النبي ﷺ يدعو.. فاتاه جبريل ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ،

(١) صحيح: رواه أحمد (١/٢٤٢) بإسناد صحيح.



وَيَقُولُ: إِنَّ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّافَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»، قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ».

فخشى النبي ﷺ أن يروا تلك الآية ولا يؤمنوا فينزل عليهم عذاب الله عز وجل... ولعله تذكّر أخاه عيسى عليه السلام حينما طلب منه الحواريون أن يسأل الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء... فخاف عيسى عليهم من نزول العذاب إذا لم يؤمنوا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا ءَأَمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾^(١).

ولذا فقد اختار لهم النبي ﷺ أن يفتح الله عز وجل لهم باب التوبة والرحمة من أجل أن يتوبوا في الدنيا فيقبل الله توبتهم ويغفر لهم ويرحمهم في الدنيا والآخرة.

فما أرحم النبي ﷺ بهؤلاء الذين دعاهم إلى الله وإلى جنته فأذوه أشد الإيذاء وأذوا أصحابه وحاربوا دعوته ومع ذلك ظلّ رحيماً بهم حتى آخر لحظة في حياته ﷺ.

لقد كان النبي ﷺ في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك في غناه

(١) سورة المائدة: الآيات: (١١١-١١٥).

والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأى غِنَى أعظم من غِنَى مَنْ عُرِضَتْ عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعُرِضَ عليه أن يجعل الله له الصفا ذهبًا، وخَيْرٌ بين أن يكون ملكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا ومع هذا فَجُبِّتْ إليه أموال جزيرة العرب واليمن، فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشيء، بل تَحَمَّلَ عيال المسلمين ودينهم.

فقال: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلوَرَّثَهُ وَمَنْ تَرَكَ دِينًا فإِلَى وَعَلَى»، فرفع الله سبحانه قدره ونزَّهه من أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نَزَّهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة... فأنفق غاية الانفاق، وأعطى أجَلَ العطايا، وما استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقارًا ولا أرضًا ولا ترك شاةً ولا بغيرًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا دينارًا ولا درهمًا.

❁ ولقد أخبر تعالى عن تلك الأمم أنهم قالوا لرسولهم: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، يريدون المعجزات المقترحة، ويقترحون أن يجعل النبي ﷺ الصفا ذهبًا، ويقترحون أنواعًا من المعجزات على قدر عقولهم السخيفة، مع أن البيئات قد أتت، والرسول قد وضحَّت... ولو أتى الرسل بآلاف المعجزات فإنهم لن يؤمنوا، فقد أتت الناقة لقوم صالح فهل آمنوا؟ وقد رأى الناس معجزات موسى وعيسى ﷺ، ورأى فرعون بعينه السحرة يُسَلِّمُوا؛ مما شاهدوه من معجزة العصا، فهل آمن؟

ورأى الآيات تلو الآيات... كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾^(١)، ورأى البحر ينشق أمام عينيه بضربة من عصا موسى ﷺ، فهل آمن؟

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٣).



إنهم لا يؤمنون مع وجود السلطان المبين الذي يزعمون أنه إن حصل قبلوا
وآمنوا، فهو لاء لا يؤمنون أبداً، وهذا مرضٌ في القلوب.

ولذا فقد قال تعالى عن هذا الصنف من الناس ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ
رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥) كلمة ابتدرها اثنا عشر ملكًا

❁ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ .. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ: «أَيُّكُمْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ: فَأَرَمَ الْقَوْمُ^(١)، قَالَ: فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ»، فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي^(٢).

❁ ما أجمل أن يكون مُعلمك وأستاذك هو الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ولذا أقول: هنيئًا لأصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين عاشوا وتعايشوا معه بقلوبهم وأرواحهم وتعلموا بين يديه واقتبسوا من هديه وسمته وأخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ وفي هذا الحديث يذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ظلَّ يخدمه ويُرافقه عشر سنين.. أنه جاء رجلٌ ليُصلِّي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه صلاة الفريضة في المسجد.. ولكنه جاء متأخرًا بعض الشيء فدخل في الصلاة وأدركها كاملة.. فلما ركع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقام من ركوعه وقال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ» قال هذا الرجل الذي لم يُذكر اسمه في الحديث: «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ».. لقد قال الرجل تلك الكلمات مع أنه لم يسمعها قبل ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما انتهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من الصلاة استدار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونظر إلى أصحابه وقال لهم: «أَيُّكُمْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟» وانتظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإجابة.. «فَأَرَمَ الْقَوْمُ» أي سكتوا ولم يُجب منهم أحد.. فما كان من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن أعاد السؤال ثلاث مرات... وكان الرجل الذي قال تلك الكلمات يخشى أن يكون

(١) أَرَمَ الْقَوْمُ: أي سكتوا فلم يُجب منهم أحد.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/١٩١) بإسنادٍ صحيح.



قد قال كلمة تُغضب الله ورسوله ﷺ ولذلك لم يرد حتى أعاد النبي ﷺ السؤال ثلاث مرات، فقال الرجل: «أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ» أى: أنا ما قصدت أن أبتدع كلاماً لم أسمعه منك يا رسول الله، وإنما جرى هذا الكلام على لساني وما أردت به إلا الخير... وكل ذلك والرجل يخشى أن يفاجئه النبي ﷺ بأنه قد أخطأ فيما قاله.

ولكن النبي ﷺ قال له: «لَقَدْ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ».

أى: لقد تسابق اثنا عشر ملكاً حتى صعدوا بها إلى الله ﷻ ليخبرهم كيف يكتبون ثوابها؛ لأنهم لا يعلمون مقدار ثواب تلك الكلمات العظيمة... فما كان من الحق (جل وعلا) إلا أن قال لهم: «اَكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي» أى: لن تعرفوا قدر الثواب المترتب على تلك الكلمات فاكتبوا تلك الكلمات كما هي حتى يأتيني يوم القيامة فأجزيه بها فإنه لا يعرف قدرها وثوابها إلا أنا.

فما أعظم الله ﷻ وما أرحمه بعباده حيث أجزل لهم العطاء على كل ما يصدر منهم من أفعالٍ وأقوالٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٦) الصلوات الخمس.. وعهد بدخول الجنة

✽ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل من عند الله تبارك وتعالى فقال: يا محمد! إن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي قَدْ فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فَمَنْ وَافَى بِهِنَّ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَمَوَاقِيَتِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدِي بِهِنَّ عَهْدٌ أَنْ أُدْخِلَهُ بِهِنَّ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَني قَدْ انْتَقَصَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي عَهْدٌ.. إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ وَإِنْ شِئْتُ رَحِمْتُهُ»^(١).

✽ إن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن... فهي التي أمر الله بها وهي الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمنية المُعذِّبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات وهي الحادى للنعيم المقيم في الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا في قلب النبي ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذي يتنفسه الإنسان.

وحسبنا أن نتأمل قول النبي ﷺ: «جُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطَّيْبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

وقد كان النبي ﷺ يفرع إلى الصلاة.... ففرع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رضي الله عنه: «رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في

(١) صحيح: رواه الطيالسي، ومحمد بن نصر في (كتاب الصلاة)، والضياء في (المختارة)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).



شَمْلَةً يَصَلِّي، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(١).

وفزع إليها يوم بدر: ... عن (عليٍّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح.

❁ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدد النعم.

فمن ذلك أن الله ﷻ لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثماني ركعات شكرًا لله ﷻ.

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يَا بِلَالُ! أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»^(٢).

بل إنه ﷺ في مرض الموت وفي آخر لحظات حياته كان يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «أصَلَّى النَّاسَ؟» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «أصَلَّى النَّاسَ؟»^(٣).

❁ وكان أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعدُّ ولا تُحصى.

وحسبنا أنها العبادة الوحيدة التي منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهي الفريضة الوحيدة التي فُرِضت في السماء.

❁ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

يعرف قدرها وأن يعرف ما هي الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم في صلاته.

❁ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (١)
 الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر... إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصي فإنك إذا صليت انمحي ذلك كله لكن بشرط أن تكون الصلاة التي تُراد منك والتي تريدها أنت الله ﷻ صلاةً على أكمل ما يكون... ولهذا يجب علينا أن نعتنى بصلاتنا ونكملها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكملاتها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

❁ وفي هذا الحديث الذي بين أيدينا يخبر الحق (جل وعلا) أنه افترض على أمة النبي محمد ﷺ خمس صلوات... فمن أقامها وأتم الوضوء وصلّاها في وقتها وخشع فيها وأتم الركوع والسجود وأتى بشروطها وأركانها كاملة كان له عهدٌ عند الله ﷻ بدخول الجنة... ومن انتقص من ذلك شيئاً فليس له عهدٌ عند الله بدخول الجنة لكنه في مشيئة الله... فإن شاء رَحِمَهُ وإن شاء عَذَّبَهُ «ورحمته سبقت غضبه» «ورحمته غلبت غضبه».

الآ.. فلنحرص جميعاً على تلك الصلوات الخمس ولنجعلها قرة أعيننا كما كانت قرة عين النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٧) أصحاب الجنة.. وأصحاب النار

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي» قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدْرِ»^(١).

قال الشيخ الألباني رحمه الله:

«إن كثيراً من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث - ونحوها أحاديث كثيرة - تفيد أن الإنسان مجبور على أعماله الاختيارية، ما دام أنه حُكِمَ عليه منذ القديم وقبل أن يُخلق بالجنة أو النار، وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ فمن وقع في القبضة اليمنى كان من أهل السعادة، ومن كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة، فيجب أن يعلم هؤلاء جميعاً أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢) لا في ذاته ولا في صفاته، فإذا قبض قبضة فهي بعلمه وعدله وحكمته.. فهو تعالى قبض باليمنى على مَنْ عَلِمَ أنه سيطيعه حين يُؤَمَّرُ بطاعته، وقبض بالأخرى على مَنْ سبق في علمه تعالى أنه سيعصيه حين يُؤَمَّرُ بطاعته، ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على مَنْ هو مُسْتَحَقُّ أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس... كيف والله ﷻ يقول: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(٣).

ثم إن كلاً من القبضتين ليس فيها إجبارٌ لأصحابهما أن يكونوا من أهل

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٨).

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٣) سورة القلم: الآيتان: (٣٥، ٣٦).

الجنة أو من أهل النار، بل هو حكم من الله تبارك وتعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة، أو كفر يقتضى النار والعياذ بالله تعالى منها، وكل من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان، لا يُكره الله تبارك وتعالى أحداً من خلقه على واحدٍ منهما ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(١)، وهذا مُشاهد معلوم بالضرورة، ولولا ذلك لكان الثواب والعقاب عبثاً، والله مُنزّه عن ذلك.

ومن المؤسف حقاً أن نسمع من كثير من الناس حتى من بعض المشايخ التصريح بأن الإنسان مجبور لا إرادة له! وبذلك يُلزمون أنفسهم القول بأن الله يجوز له أن يظلم الناس! مع تصريحه تعالى بأنه لا يظلمهم مثقال ذرة، وإعلانه بأنه قادر على الظلم ولكنه نزه نفسه عنه كما في الحديث القدسي المشهور:

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي...»^(٢).

وإذا جوبها بهذه الحقيقة، بادروا إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾^(٣)، مُصرين بذلك على أن الله تعالى قد يظلم ولكنه لا يُسأل عن ذلك! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وفاتهم أن الآية حجة عليهم لأن المراد بها - كما حققه العلامة ابن القيم وغيره - أن الله تعالى لحكمته وعدله في حُكمه ليس لأحدٍ أن يسأله عما يفعل، لأن كل أحكامه تعالى عدل واضح فلا داعى للسؤال^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٤) السلسلة الصحيحة (١/ ١١٥-١١٧) بتصرف.

(٧٨) أهل الجنة ثلاثة... وأهل النار خمسة

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارِ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُم مَّا جَهَلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا... كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبِيَّهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِابْتِلَايِكَ وَابْتِلَايَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذَا يَبْلُغُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْرُزْهُمْ نُغْرِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَتُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبَعَتْ خَمْسَةٌ مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ... قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ.

قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا - وفي رواية: لا يتبعون -، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكُذْبَ وَالشَّنْظِيرَ الْفَحَّاشُ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

* نحلته: أى أعطيته... أى أن كل مالٍ أعطيته لعبيدٍ من عبادي فهو حلالٌ له.

* اجتالتهم: أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه.

* كتابًا لا يغسله الماء: أى أنه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على مدى الأزمان.

* أُحَرِّقَ قُرَيْشًا: ليس المراد حقيقة التحريق، بل تغييظهم بإسماع الحق.

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ خطب يوماً في أصحابه رضي الله عنهم فقال لهم وللأمة من بعدهم: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا» وهكذا جاء النبي ﷺ ليُعَلِّمَ الأُمَّمَ وليرفع عنهم الجهل وليأخذ بأيديهم إلى الإيمان والتوحيد ويُرَكِّبُهُمْ.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١)، وكانت تلك دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

❁ وهنا يخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل قال: «كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ» أي أن كل مالٍ أعطيته لعبدي وكل ما خلقتة في الكون مما ينتفع الناس به فهو حلال. ❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ أَيِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كُلُّ مَالٍ أُعْطِيْتُهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي، فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ.. وَالْمُرَادُ إِنْكَارُ مَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ السَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْبَحِيرَةِ وَالْحَامِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا لَمْ تَصِرْ حَرَامًا بِتَحْرِيمِهِمْ... وَكُلُّ مَالٍ مَلَكَهُ الْعَبْدُ فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِهِ حَقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ» أَي مُسْلِمِينَ، وَقِيلَ: طَاهِرِينَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَقِيلَ: مُسْتَقِيمِينَ مُنْبِينِينَ لِقَبُولِ الْهِدَايَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حِينَ أَخَذَ

⁼ * يثلغوا رأسى: أى يشدقوه ويشجوه كما يُشدخ الخبز أى يُكسر.

* نُغزك: أى تُعينك.

* لا زير له: أى لا عقل له.

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٤).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ فِي الذَّرِّ، وَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بلى (١).

وهو بمعنى قوله: ﴿فَأَقْرَعْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٢).

❁ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ».

«فَأَجْتَالَتْهُمْ» بِالْجِيمِ عَنْ رِوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ، وَعَنْ رِوَايَةِ الْحَافِظِ أَبِي عَلِيٍّ الْغَسَّانِي «فَاخْتَالَتْهُمْ» قَالَ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَوْضَحُّ أَيْ اسْتَخَفُّوهُمْ فَذَهَبُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الْبَاطِلِ... كَذَا فَسَّرَهُ الْهَرَوِيُّ وَآخَرُونَ. وَقَالَ شَمْرٌ: اجْتَالَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ ذَهَبَ بِهِ وَاجْتَالَ أَمْوَالُهُمْ: سَاقَهَا وَذَهَبَ بِهَا. قَالَ الْقَاضِي: وَمَعْنَى «فَاخْتَالُوهُمْ» بِالْخَاءِ عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَاهُ أَيْ يَحْسِبُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَيَصُدُّوهُمْ عَنْهُ.

قَوْلُهُ ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبِيَّهُمْ وَعَجْمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» الْمَقَّتْ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْمَقَّتِ وَالنَّظَرِ مَا قَبَلَ بَعَثَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... وَالْمُرَادُ بِبَقَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ: الْبَاقُونَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتِلَايِكَ وَأَبْتَلِي بِكَ» مَعْنَاهُ: لِأَمْتِحْنِكَ بِمَا يَظْهَرُ مِنْكَ مِنْ قِيَامِكَ بِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْجِهَادِ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَبْتَلِي بِكَ مَنْ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ إِيْمَانَهُ وَيُخْلِصُ فِي طَاعَاتِهِ، وَمَنْ يَتَخَلَّفُ وَيَتَأَبَّدُ بِالْعِدَاوَةِ وَالْكَفْرِ، وَمَنْ يُنَافِقُ... وَالْمُرَادُ أَنْ يَمْتَحِنَهُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ وَاقِعًا بَارِزًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَاقِبُ الْعِبَادَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ لِأَعْلَى مَا يَعْلَمُهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ وَإِلَّا فَهُوَ سُبْحَانَهُ

(١) شرح مسلم (١٧/٢٨٧).

(٢) سورة الروم: الآية: (٣٠).

عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا .. وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ أَيْ نَعْلَمُهُمْ فَأَعْلِينَ ذَلِكَ مُتَّصِفِينَ بِهِ.

❁ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ» أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ» فَمَعْنَاهُ مَحْفُوظٌ فِي الصَّدُورِ لَا يَتَطَّرِقُ إِلَيْهِ الذَّهَابُ بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرِّ الْأَرْزَمَانِ. وَأَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ» فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ يَكُونُ مَحْفُوظًا لَكَ فِي حَالَتِي النَّوْمِ وَالْيَقْظَةِ، وَقِيلَ: تَقْرَأُهُ فِي يُسْرِ وَسُهُولَةٍ^(١).

وقوله: «تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ» يحتمل أن يريد أنه ﷺ يُوحَى إليه في منامه كما يُوحَى إليه في يقظته، وأن ما يراه في منامه من ذلك حَقٌّ موثوقٌ به كما يُوثق باليقظة،. ويحتمل أنه يقرؤه مضطجعًا كما يقرؤه قائمًا. وَسُمِّيَ الْمَضْطَجِعُ نَائِمًا مَجَازًا؛ لِأَنَّ الْمَضْطَجِعَ يَصَلِي كَذَلِكَ إِذَا عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ أَوْ لِعَذْرِ.

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا» فَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا حَقِيقَةُ التَّحْرِيقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ التَّحْرِيقَ إِلَّا إِذَا كَانَ قِصَاصًا.. بِمَعْنَى أَنْ مَنْ حَرَقَ يُحْرَقُ... وَلَكِنِ الْمَقْصُودُ هُنَا هُوَ إِغَاظَتُهُمْ بِإِسْمَاعِهِمُ الْحَقَّ.. كَمَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ أَمَامَ كِفَارِ قُرَيْشٍ.. وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضْرَبُوهُ حَتَّى أَدْمُوا وَجْهَهُ مِنْ شَدِيدِ غَيْظِهِمْ وَكَرِهَهُمْ لِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «فَقُلْتُ: رَبِّ إِذَا يَتَلَعُّوْا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ حُبْرَةً» أَيْ يَشْدُخُوا رَأْسَهُ وَيَشْجُوهُ كَمَا يُشْدَخُ الْخَبْزُ.. أَيْ يُكْسَرُ.

❁ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخَرَجُوكَ، وَأَغْزُهُمْ نُغْرَكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبَعْتُ خَمْسَةَ مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ».



والمعنى هنا أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر النبي ﷺ أن يفعل ما أمره الله به ﴿فَمِنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(١)، ولذا قال له: «اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ» أى إن أردت أن تفعل فلك ذلك.. ولكن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحاً منتصراً لم يُخرجهم كما أخرجوه بل عاملهم بالفضل وليس بالعدل فقال لهم: «مَا تَرُونَ أَنَّى فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالوا: خَيْرًا.. أَخِ كَرِيمٍ، وَابْنُ أَخِ كَرِيمٍ.. فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

✽ وأما قوله تعالى: «وَاعْزُهُمْ نُغْرِكَ» أى نُعِينِكَ عَلَى غَزْوِهِمْ وَنُمدِكَ بِمَدَدٍ مِنَ السَّمَاءِ... ولذا قال بعدها: «وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ» فكان النبي ﷺ يبذل المال فى تجهيز الجيوش والسرايا.. والله يفتح عليه وعلى أصحابه بالغنائم، ولذا قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»^(٢).. ثم قال تعالى: «وَابْعَثْ جَيْشًا نَبَّعْتَ خُمْسَهُ مِثْلَهُ». ولقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة لتقاتل مع النبي ﷺ وأصحابه فى غزوة بدر، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِئَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ^(١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخُمْسَةِ آفِئَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ^(٤).

✽ ثم قال تعالى: «وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ» أى: قَاتِلْ بِأَصْحَابِكَ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ... قَاتِلْ بِهِمْ أَعْدَاءَكَ الَّذِينَ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ.

(١) سورة البقرة: الآية: (١٩٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى تخريج مشكلة الفقر (٢٤).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٩).

(٤) سورة آل عمران: الآيات: (١٢٣-١٢٦).

ثم قال ﷺ: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدٌّ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ» وليس معنى ذلك أن هؤلاء فقط هم أهل الجنة بل هناك آخرون من أهل الجنة.. أو أن هؤلاء من السابقين إلى الجنة برحمة الله ﷻ.

لكن... هل يا ترى كل إنسان ضعيف ستكون له هذه المرتبة العالية، أم أنه يُشترط أن يكون إنساناً تقياً، يأتي بالفرائض، ويجتنب ما حرم الله سبحانه؟ لا بد أن يكون على هذا من الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

فالشاهد أن أهل الجنة ثلاثة: «ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدٌّ مُوَفَّقٌ» إنسان ذو سلطان، ولكنه على عدالة، مُقسط يعطى الحقوق، ويأمر بما أمر الله ﷻ به، وينهى عما نهى الله ﷻ عنه، ولا يفرق بين الناس... وهذا من توفيق الله له أنه يُلهمه الصواب ويوفقه للحكم بالعدل بين الناس.

والثاني: «وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ»، قد يكون الإنسان رحيماً وراقيق القلب على أولاده فقط... وعلى بقية الناس يكون قاسى القلب متحجراً، لكن هذا قلبه رحيماً بالناس جميعاً إلا أن يكون مع الكفار، فالله ﷻ ذكر من صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١)، ففيهم الرحمة للمؤمنين، وفيهم القوة على الكافرين... فمن أهل الجنة من فيه رحمة وهو رقيق القلب يعنى: قلبه يتأثر بسرعة، يرى إنساناً مسكيناً ضعيفاً محتاجاً فيتأثر سريعاً ويقوم لخدمته أو لإعطائه، فقلبه رقيق وليس من أصحاب القلب القاسى.

قال: «لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ» فبدأ بالأقربين؛ لأنه يبعد جداً أن تكون رقيق القلب بالأبعدين وأنت قاسى القلب على الأقربين، فلا يوجد إنسان يشتم أباه

(١) سورة المائدة: الآية: (٥٤).



وأمه ويكون رحيماً رقيقاً مع الجيران ومع الغرباء، هذا بعيد... والمؤمن رقيق ورحيم مع الجميع، فإنه «رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ».

✽ والثالث: «وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»، إنسان عفيف لا يأخذ أموال الناس، ولا يمد يده إلى الناس، متعفف، ويستشعر في نفسه الغنى وإن كان فقيراً، وإن كانت حاجته كبيرة ولكن في قلبه الغنى... فقد ربّى نفسه على العفة، وعدم التطلع إلى الغير، فهو ليس محتاجاً إلى أحدٍ، فإن الغنى غنى القلب... فلقد أغنى الله قلبه فهو متعفف، أى: مُظَهَّرٌ لهذا الوصف من نفسه، فهو متعفف لا ينظر إلى مال أحدٍ أبداً، ولا يطلب مال أحدٍ أبداً.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من أهل الجنة، وأن يظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

✽ أما أهل النار فهم خمسة... قال: «الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا»، أى: إنسان ضعيف، ولكنه إمعة منافق يسير وراء أصحاب الرياسة ليأخذ منهم، فهو ضعيف لكن ليس عنده عقل يأمره بالصحيح، ولا يحاول أن يفكر مثل الناس... لو أساء الناس قلدتهم، أو كانوا مجرمين فهو مثلهم، أو طيبين قلدتهم، فهو يقلد الناس فحسب ليعطوه حسنة... فهذا الإنسان من أهل النار مع أنه ضعيف، سبحانه الله! بؤس في الدنيا وبؤس في الآخرة، فهو من شرار الخلق، فلا انتفع من الدنيا بشيء، ولا عمل لآخرته... فيوم القيامة يضيع هذا الضعيف الذى لا عقل له، «الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا» يعنى: يعيش في الدنيا لا يريد أى شىء، بل عاش نكرة ومات نكرة، ويوم القيامة يُحشَرُ مع هؤلاء الذى كان يتبعهم في الدنيا.

✽ الثانى: «وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَائِنَةٌ».

(يَخْفَى) بمعنى: يظهر^(١)، يعنى: أى مطمع يظهر له يأخذه من حلال أو من

(١) خفيت الشىء إذا أظهرته.. وأخفيته إذا سترته وكتمته.

حرام... فهذا من أهل النار، أى: الذى لا يبالى هل يأكل من حلال أو حرام، يأخذ الشيء من جلّه أو من الحرام، ولا يهمه.

وقد أخبر النبى ﷺ عن هذا الصنف فقال: «لَيَأْتِينَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنَ الْحَلَائِلِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ»^(١).

✽ الثالث: «وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ». الذى يقدر عليه يأخذه منك ويضحك عليك به... سواء من أهلك أو من مالك.

✽ الرابع: «الْبُخْلُ أَوْ الْكُذِبُ» أى: الإنسان البخيل أو الكذاب.

✽ الخامس: «الشَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ» يعنى: بذيء اللسان.

وهؤلاء كلهم من أهل النار... إذا ليس أى ضعيف من أهل الجنة، بل الإنسان المؤمن الذى خلقه الله ضعيفاً، يأخذ بالأسباب ولكن لا حيلة له، فهذا ضعّفه الله فى الدنيا ولكن قوّاه يوم القيامة... أفقره فى الدنيا وأغناه يوم القيامة... جعله فى الدنيا لا يُؤبّه له وجعل الناس ينظرون إليه ويتمنون منزلته يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٨٣) كتاب البيوع.



﴿٧٩﴾ الصبر عند الصدمة الأولى

✽ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «ابْنَ آدَمَ إِنْ صَبِرْتَ وَاحْتَسَبْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ»^(١).

وفي رواية: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «تَبْكِي عَلَيَّ صَبِيًّا لَهَا».

✽ ففي هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة تبكى عند قبر فقال لها: «اتقى الله واصبرى».. وهذا من حُسن خُلق النبي ﷺ ورحمته بكل مَنْ حوله... فقد كان يستطيع أن يسير دون أن يلتفت إليها ولكنه ﷺ أحسَّ بحزن هذه المرأة وب حاجتها إلى مَنْ يُصبرها.

فما كان منها إلا أن قالت للنبي ﷺ: «إليك عنى فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتي».. وهذا يدل على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغاً عظيماً.

فلما قالت ذلك للنبي ﷺ لم يقل لها: ألا تعرفين مَنْ أنا؟... بل ولم ينتقم منها أو يُعاقبها؛ لأنه يعذرهما ويعلم أن الحزن قد أخرجها عن وعيها حتى قالت هذا الكلام.

✽ فلما قيل لها: إنه النبي ﷺ.. ما كان منها إلا أن أتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوائين.. وهذا من تواضع النبي ﷺ وحرصه على أن يكون متواصلاً مع

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١٦٩٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

أمتهم يُعلمهم ويتابع أحوالهم وليكون عونًا لهم على أمور دينهم ودنياهم.

فقالت له المرأة: لم أعرفك.. أى أننى أعتذر إليك يا رسول الله إن كان قد بَدَّر منى أى كلامٍ يُغضبك فإنى من شدة حزنى لم أعرف مَنْ الذى يُكلمنى.

فلم يُعاتبها النبى ﷺ على أى كلمة قالتها بل عذرها لشدة حُزنها، وإنما عاتبها لعدم صبرها على قضاء الله فقال لها ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

وكأنه يقول لها: إن الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان هو أن يصبر أول ما تصيبه المصيبة.. أما أن يتسخط ثم يصبر بعد ذلك فإن هذا ليس الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان وإنما يكون تسليًا.

❁ وهنا فائدة مهمة وهى: أنه لا يجوز للمرأة أن تذهب لزيارة القبور بمفردها حتى لا تتعرض لمن يتحرش بها فى تلك الأماكن المهجورة.. وإنما إذا أرادت أن تذهب لزيارة موتاها فإنها تذهب مع أحد محارمها غير متزينة ولا متعطرة وتكون مرتدية حجابها الشرعى.. فإذا ذهبت إلى القبر فإنما تذهب للعظة والعبرة ولزيارة موتاها.. فلا تلمم خدًا ولا تُشق جيبًا ولا تدعو بدعوى الجاهلية... وإنما تقف خاشعة تدعو لميتها.. فإن بكت فلا بأس بذلك شريطة ألا يكون ذلك البكاء تسخطًا واعتراضًا على قضاء الله وقدره (سبحانه وتعالى).

❁ وأخيرًا لا بد أن نعلم أن الله جعل الجنة ثوابًا لمن صبر واحتسب عند الصدمة الأولى.

(٨٠) علامة حب الله للعبد

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١).

✽ وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبُوهُ.. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغِضُ فُلَانًا، فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا، فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

✽ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ هِيَ إِرَادَتُهُ الْخَيْرَ لَهُ وَهَدَايَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ... وَبِغْضِهِ إِرَادَةُ عِقَابِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ وَنَحْوِهِ وَحُبُّ جِبْرِيلَ وَالْمَلَائِكَةَ يُحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا اسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِ وَدُعَاؤُهُمْ... وَالثَّانِي أَنَّ مَحَبَّتَهُمْ عَلَى ظَاهِرِهَا الْمَعْرُوفِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ مِثْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَاشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَائِهِ... وَسَبَبُ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى مَحْبُوبًا لَهُ... وَمَعْنَى يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ أَيِ الْحُبِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ فَمِثْلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبِ وَتَرْضَى عَنْهُ... وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ فُتُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد- ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٨٢-٢٨٣).

أقول: بل ثبت لله ﷻ صفة المحبة بدون تأويل وأنها صفة حقيقية لله ﷻ لا تماثل صفات المخلوقين.. فهو تعالى يحب من يشاء من خلقه ويبغض من يشاء.

ويا لها من كرامة حينما تعلم أن الله إذا أحبك فإنه يأمر جبريل بأمرٍ عظيم ثم يقوم جبريل بمهمة جليلة... أما الأمر: فإنه عَزَّوَجَلَّ يأمر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحبك! الله أكبر.. هل تخيلت هذا مرة واحدة في حياتك؟ الله فاطر السماوات يحبك - وحسبك بهذا الحب - ومع ذلك فالله يأمر جبريل أن يحبك.. فيحبك جبريل ثم ينادى في ملائكة السماوات السبع قائلاً: إن الله يحب فلاناً فأحبوه.. ويصدع باسمك في السماوات السبع فتسمع كل الملائكة اسمك ويعرفوك بل ويحبوك.. فهل تريد شيئاً فوق ذلك؟.. الله يحبك.... وجبريل يحبك وملائكة السماوات السبع يحبوك.. ومع كل هذا يُوضع لك القبول في الأرض حتى تجتمع لك محبة أهل السماء ومحبة أهل الأرض.. لكن بشرط أن يحبك الله عَزَّوَجَلَّ.... ولن يحبك الله إلا إذا كانت حياتك كلها في طاعته والتحاكم إلى شرعه واتباع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✽ قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: ومحبة الله للعبد لها علامة؛ منها كون الإنسان متبعاً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... فإنه كلما كان الإنسان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتبع؛ كان الله أطوع، وكان أحب إلى الله تعالى.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١). يعنى إن كنتم صادقين في أنكم تحبون الله فأروني علامة ذلك: اتبعوني يحببكم الله.

وهذه الآية تُسمَّى عند السلف آية الامتحان، يُمتحن بها مَنْ ادَّعى محبة الله فينظر إذا كان يتبع الرسول (عليه الصلاة والسلام)؛ فهذا دليل على صدق دعواه. وإذا أحب الله؛ أحبه الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وهذه ثمرة جليلة؛ أن الله تعالى يحبك؛ لأن الله تعالى إذا أحبك؛ نلتَ بذلك سعادة

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣١).



الدنيا والآخرة.

وأن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل... وجبريل أشرف الملائكة، كما أن محمداً ﷺ أشرف البشر. «نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» فيحبه أهل الأرض.

وإذا أبغض الله أحداً - والعياذ بالله - نادى جبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض، والعياذ بالله؛ فيبغضه أهل الأرض.

وهذا أيضاً من علامات محبة الله، أن يوضع للإنسان القبول في الأرض، بأن يكون مقبولاً لدى الناس، محبوباً إليهم، فإن هذا من علامات محبة الله تعالى للعبد. نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أحبابه وأوليائه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٤٠-١٤٢) بتصرف.

(٨١) رحمتي سبقت غضبي

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» ^(١).
وفي رواية: «غَلَبَتْ غَضَبِي» وفي رواية «سَبَقَتْ غَضَبِي».

✽ فالإنسان ليس معصوماً من الذنوب والخطايا.. ولكن عليه أن يُبادر بالتوبة والعودة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.. فإذا تاب العبد وعاد إلى الله، فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

إذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى... فربنا رحيم عظيم الرحمة، وانظروا إلى قدر رحمته كما في هذا الحديث.

✽ قال العلماء في الحديث: «إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وفي رواية: «رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

قالوا المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه.

هكذا قال الإمام النووي نقلاً عن العلماء، وهذا النقل إنما هو نقل عن علماء الأشاعرة، لذا فليس هذا الكلام هو معتقد أهل السنة والجماعة، فالمعلوم أن الله تبارك وتعالى يغضب غضباً حقيقياً يليق بجلاله وكماله، والمعلوم أن الله تعالى يرحم عباده رحمة لا يعلم كُنْهها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما نحن فقد أيقننا أن الله تعالى يغضب ويرضى ويسخط، ولا يستلزم إيماننا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٩٤) كتاب بدء الخلق، و(٧٤٢٢) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٧٥١) كتاب التوبة.

بهذا مشابهة غضب الله بغضب خلقه، ولا رحمة الله تعالى برحمة خلقه، ولا فرح الله تعالى بفرح خلقه، ولا رضا الله تعالى برضا خلقه... وقد قلنا: إن اختلاف صفات الله ﷻ عن صفات المخلوقين ما هو إلا فرع لأصل وهو اختلاف الذات... فلما اختلفت ذات الله تعالى عن ذوات المخلوقين فلا بد أن تختلف الصفات... فليست ذاته كذوات المخلوقين، وبالتالي فإن صفاته ليست كصفات المخلوقين.

ثم إن صفات الله سبحانه وتعالى لا تُوهم التشبيه ولا التمثيل لصفات المخلوقين... وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة من جهة النقل عنهم. أما من جهة العقل فما المانع أن نُسلم لله ﷻ بما أثبتته لنفسه؟ فنكتفى فقط بأن الله تعالى يغضب، ولا يستلزم الغضب في حق الله تعالى انفعالات نفسية، وإنما ذلك في العبد، فتجعل المرء يتهور، أو يأتي بسفه أو بشيء من هذا، لكن الغضب في حق الله ليس كذلك... وكذلك الفرح: «لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ»، فهل فرح الله ﷻ هو نفس فرح العبد؟ لا، وكذلك رحمة الله تبارك وتعالى لعباده ليست كرحمة العباد بعضهم لبعض... فإذا اختلفت الذات فلا بد وأن تختلف الصفات.

وأما قوله: (والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه).

فأولاً: هذا القياس غير صحيح؛ للاختلاف بين الخالق والمخلوق، وإذا سلمنا بأن هذا قياس صحيح فلا بأس أن نقول: إن هذا المعنى ينضم إلى المعنى الأصلي، فيكون الأصل عندنا أن الله تعالى يغضب كما يشاء، ويفرح كما يشاء، ويغفر كما يشاء، ويسخط كما يشاء، فتؤمن بهذا ولا نخوض فيه، ولا بأس أن نضم إلى هذا المعنى الأصلي -الذي هو أصل القضية عندنا فيما يتعلق

بالصفات - معني آخر وهو: أن المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، أي: أن رحمة الله تعالى أعظم وأكثر وأشمل من غضبه... فلا بأس بهذا المعنى خاصة وأن الأدلة أثبتت أن رحمة الله تبارك وتعالى أوسع من غضبه، وأن الله تعالى إذا وعد بالرحمة فإنه لا يُخلف وعده، وإذا توعد بالعذاب فإن ذلك داخل في مشيئته... فقد تقع أو لا تقع، أي: قد ينفذها الله عَزَّوَجَلَّ، أو يعفو ويصفح.

إذا... رحمة الله تعالى أوسع وأشمل وأعم من غضبه... لكن كيف يغضب؟ وكيف يسخط؟ وكيف يرضى؟ الكيفية لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك يُحذر من تأويل النص عن ظاهره، بل يجب الإيمان به كما جاء، وإمراره كما جاء... وهذا معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة، ولم يخالف في ذلك أحد منهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٢) أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى

✽ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملى، ذكرته فى ملى خير منهم»^(١).

✽ قال الإمام النووى رحمته الله:

قوله عز وجل: «أنا عند ظن عبدى بى» قال القاضى: قيل: معناه بالغفران له إذا استغفر والقبول إذا تاب والإجابة إذا دعا والكفاية إذا طلب الكفاية... وقيل: المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح^(٢).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

«قوله: «أنا عند ظن عبدى بى»: يعنى أن الله عند ظن عبده به؛ إن ظن به خيراً فله، وإن ظن به سوى ذلك فله، ولكن متى يحسن الظن بالله عز وجل؟ يكون ذلك إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله... أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمنى على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى فهو عاجز. حسن الظن: بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضى حسن الظن بالله، فإذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مال يرجعون إليه.

✽ قوله تعالى: «وأنا معه إذا ذكرنى».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح مسلم (٣/١٧).

❁ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعتاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

❁ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث:

الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك.. ولولا فضله لم تكن أهلاً لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوباً، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبّه إلى خلقه... وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغّضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكوراً عنده فتمّم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان.. والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً.. ثم لا ينبغي أن يُترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظن به الرياء، بل يذكرُ بهما جميعاً ويقصدُ به وجه الله سبحانه وتعالى^(١).

❁ فالعبد إذا ذكر الله ﷻ في نفسه ذكره الله ﷻ في نفسه.. وإذا كان العبد جالساً في ملائمة من الناس فذكر الله ﷻ فإن الله يذكره في نفس اللحظة في ملائمة أيضاً.. لكنهم ليسوا من البشر وإنما هم من خيار الملائكة المقربين.. فيذكرك الله ﷻ عندهم ويثنى عليك ويعلّي ذكرك ويرفع قدرك.

ولذا كان أحد السلف يقول: والله إنى لأعلم متى يذكرني الله ﷻ!!...

فقالوا: كيف ذلك!؟

فقال لهم: أما سمعتم قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فإنني إذا



ذَكَرْتَهُ عَزَّوَجَلَّ ذَكَرْنِي .

ومن المعلوم أن مَنْ أَحَبَّ أَحَدًا فَإِنَّهُ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِهِ.. فهل هناك أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ لَتَفُوزُوا بِذِكْرِهِ لَكُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

❁ وفي رواية:

«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(١) .

فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ عَبْدِهِ، فَإِذَا تَقَرَّبَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ شِبْرًا؛ تَقَرَّبَ اللَّهُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا، تَقَرَّبَ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ يَهْرُولُ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ أَكْثَرُ كَرَمًا وَأَسْرَعُ إِجَابَةً مِنْ عَبْدِهِ .

هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّهُ حَقُّ حَقِيقَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّا لَا نَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْهَرْوَلَةُ، وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا التَّقَرُّبُ، فَهُوَ أَمْرٌ تَرْجِعُ كَيْفِيَّتَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٧٦-٧٧٧).

(٨٣) مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقلت: يا رسول الله، أكرهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، قال: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَأَنْ مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ... فقالت أمنا عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أكرهية الموت؟ فكلنا نكره الموت... لكن النبي ﷺ وضح لها وللأمة كلها أن الأمر ليس مجرد كراهية الموت ولكن الأمر يتعلق بمعرفة العبد مصيره في الآخرة.. فأخبر النبي ﷺ أن العبد المؤمن عندما تأتيه ملائكة الرحمة وتجلس منه مدَّ البصر ومعها كفنٌ من الجنة وحنوطٌ من الجنة (أى: عطر) وتُجهز الروح لملك الموت.. ثم يأتي ملك الموت ويبشر هذا العبد المؤمن ويقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء. فإذا علم العبد مصيره وأنه ذاهبٌ إلى مغفرة الله ورضوانه ورحمته أحبَّ لقاء الله وأحب الله لقاءه.

وأخبر النبي ﷺ أن العبد الكافر تأتيه عند الموت ملائكة سود الوجوه معهم المُسوح فيجلسون منه مدَّ البصر.

ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ... فتفرق في جسده فيتنزعها كما يُتنزع

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.



السُّفُودِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ.

بمعنى: أنه يُكْرَهُ على أن تخرج روحه ؛ وذلك لأنه يُبَشِّرُ - والعياذ بالله - بالشر... ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾^(١)، فهم شحيحون بأنفسهم - والعياذ بالله - لا يريدون أن تخرج ولكن الملائكة تقول: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ فإذا بُشِّرَ بالسخط والعذاب تفرقت في الجسد فيتزعها الملائكة كما يُتزع السُّفُود من الصوف المبلول - والعياذ بالله - حتى تخرج.

فإذا علم الكافر أنه ذاهبٌ إلى سخط الله وغضبه وعذابه كره لقاء الله وكره الله لقاءه... فالشاهد أن المؤمن عند الموت يُبَشِّرُ بالمغفرة والرضوان والجنة فيحب لقاء الله.. فاللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٤) لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين

﴿ قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ؛ إِنَّهُ هُوَ أَمْنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنَّهُ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي ﴾^(١).

﴿ إِنَّ نِعْمَةَ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَجْعَلُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ سَدًّا مَنِعًا.﴾

والعبد لا بد أن يعيش بين الخوف والرجاء فيكون خائفًا راجيًا.

ينظر إلى ذنوبه وآثامه فيخاف من الله أن يُعاجله بعقوبته.. فيتوب في التوبة واللحظة... وينظر حتى إلى أعماله الصالحة وأنه قد يشوبها شيء من الرياء أو العُجب فيخاف ألا يتقبلها الله منه.. ثم ينظر إلى عفو الله ورحمته ومغفرته وكرمه وحلمه فيرجو الله (جل وعلا)... فيعيش دومًا وأبدًا بين الخوف والرجاء.

﴿ واعلم: أن مقامات الخائفين تختلف... فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة... وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يُسأل عما يفعل.﴾

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة

(١) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٢).



والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدین^(١).

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند مَنْ يشتهيهِ إذا عَلِمَ أن فيه سُماً... فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضئنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال مَنْ وقع في مخالِبِ سبعٍ ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه.

ولا شغل له إلا ما وقع فيه... فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال^(٢).

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٣).

و«أَدْلَجَ» معناه: سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَالْمُرَادُ: التَّشْمِيرُ فِي الطَّاعَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذی وصححه الألبانی في صحيح الجامع (٦٢٢٢).

﴿مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ﴾ أَدْلَجَ يَعْنِي مَشَى فِي الدُّلْجَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ اللَّيْلِ «وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ»؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَارَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِهِ فِي الْمَسِيرِ، وَأَنَّهُ جَادٌّ فِيهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ.

﴿أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ﴾. السِّلْعَةُ: يَعْنِي الَّتِي يَعْضُهَا الْإِنْسَانُ لِلْبَيْعِ، وَالْجَنَّةُ قَدْ عَرَضَهَا اللَّهُ ﷻ لِعِبَادِهِ لِيَشْتَرُوهَا.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

فَمَنْ خَافَ: يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَوْفُ اللَّهِ، عَمِلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يُنْجِيهِ مِمَّا يَخَافُ.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا مِثْلُ ضَرْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِسَالِكِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى طَرِيقِهِ وَالنَّفْسَ وَأَمَانِيهِ الْكَاذِبَةَ أَعْوَانَهُ... فَإِنَّ تَيْقُظَ فِي مَسِيرِهِ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِي عَمَلِهِ أَمِنْ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَمِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ بِأَعْوَانِهِ.

ثُمَّ أَرشَدَ إِلَى أَنَّ سُلوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعْبٌ وَتَحْصِيلُ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحْصُلُ بِأَدْنَى سَعْيٍ فَقَالَ (أَلَا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّيْسِيهِ (إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ) أَيُّ مِنْ مَتَاعِهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ (عَالِيَةً) أَيُّ رَفِيعَةُ الْقَدْرِ (أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ) يَعْنِي ثَمَنُهَا الْأَعْمَالُ الْبَاقِيَةُ الْمُسَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿وَالْبَيْعَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وَبِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة التوبة: الآية: (١١١).

(٢) تحفة الأحوذى (٦/٣٢٤).

(٨٥) ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ عَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»^(١).

وفي هذا الحديث التنبيه على مسألة يفعلها كثير من الناس اليوم، وهى أنهم يستأجرون الأجراء ولا يعطون لهم أجراً... هذا الذى يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله عز وجل خصمه يوم القيامة، كما قال تعالى فى الحديث القدسى: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ عَدَرَ» يعنى: عاهد بى ثم غدر... أى أعطى يمينه بى.. أى عاهد عهداً وحلف عليه بالله ثم نقض العهد وغدر بصاحبه... والثانى «رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ» حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه يكون الله عز وجل خصمه يوم القيامة.. قال المهلب: وإنما كان إثمه شديداً؛ لأن المسلمين أكفاء فى الحرية فمن باع حُرًّا فقد منعه التصرف فيما أباح الله له وألزمه الذل الذى أنقذه الله منه.. وقال ابن الجوزى: الحر عبد الله فمن جنى عليه فخصمه سيده^(٢)... والثالث هذا الرجل الذى استأجر أجيرًا فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملاً ثم لم يعطه أجرته.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم فى العمال الذين يأتون بهم من الخارج، تجده يستأجره بأجرة معينة... مثلاً ستمائة ريال فى الشهر، ثم إذا جاء به إلى هنا

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٢٧) كتاب البيوع.

(٢) فتح البارى (٤/٤٨٨).

ماطل به وأذاه ولم يُؤته حقه، وربما يقول له: إن كنت تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت... هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل، لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا رددتُك إلى بلدك يُعتبر خيانة للعهد لأن هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره، فيدخل في هذا الوعيد الشديد، وهؤلاء الذى يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم أو يأتون بهم وليس عندهم عمل.. ولكن يتركونهم في الأسواق، ويقول أحدهم للعامل: اذهب وما حصّلته فلي نصفه، أو مثلاً يقول: اذهب عليك في الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال.

كل هذا حرام والعياذ بالله، ولا يحل لهم، وما أكلوه فإنه سُحَتْ، و«كل جسدٍ نَبَتْ من سُحَتْ فالنار أُولَى به»^(١)، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين، لا تقبل لهم دعوة والعياذ بالله... يدعون الله فلا يستجيب لهم؛ لأن النبي ﷺ «ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام وملبسه حرام، وعُدَى بالحرام، فأنى يُستجاب له»^(٢) وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال أو يظلمونهم به، فإنهم يأكلونه سُحْتًا... نسأل الله العافية^(٣).

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ» زَادَ بَنُ خَزِيمَةَ وَابْنَ حِبَّانَ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصِمَتَهُ».

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وأبو نُعيم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١٣٣/٤) بتصرف.



قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصْمٌ لِجَمِيعِ الظَّالِمِينَ إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ
التَّشْدِيدَ عَلَى هَؤُلَاءِ بِالتَّصْرِيحِ، وَالْخَصْمُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَعَلَى الْإِثْنَيْنِ
وَعَلَى أَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٦) ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ ﷻ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ: الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِتْنَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ ﷻ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ﷻ وَيَكْفِيَهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: انظُرُوا إِلَيَّ عَبْدِي كَيْفَ صَبَرَ لِي نَفْسَهُ؟ وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَاءٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَذُرُ شَهْوَتَهُ فَيَذُكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ... وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهَرُوا وَنَصَبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحْرِ فِي سَرَاءٍ أَوْ ضَرَاءٍ»^(١).

نحن نعلم أن الله ﷻ يضحك ولكن ضحكه ليس كضحك المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

وها هو النبي ﷺ يجلس في يوم من الأيام ليحكى لأصحابه قصة الثلاثة الذين يضحك الله إليهم ويحبهم ويستبشر بهم.

فكان أول هؤلاء الثلاثة: رجل خرج مع الجيش الإسلامي ليجاهد في سبيل الله (جل وعلا) فانكشف الجيش الذي كان يقاتل معه وإذا بهذا الرجل يثبت ويقاتل الأعداء وحده حتى ينتصر أو يُقتل في سبيل الله... فهذا الرجل يضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به... بل ويقول للملائكة: انظروا إلى عبدي كيف صبر لي بنفسه.

وأما الرجل الثاني فهو رجل قد أكرمه الله بزوجة في غاية الحسن والجمال وكان يسكن في بيتٍ جميل وعنده فراشٌ لَيِّنٌ.. وإذا به يترك زوجته

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرک» (١/ ٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص/ ٤٧١-٤٧٢) والسياق له، وضححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤٧٨).

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

الجميلة وفراشه اللين ويقوم ليصلى ويبكى بين يدي الله (جل وعلا).

فيضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به ... بل ويقول للملائكة: انظروا إلى عبدي يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد.

✽ وأما الرجل الثالث فهو رجل قد خرج مع أصحابه في سفرٍ طويل وشاقٍّ، فسهر أصحابه، ثم ناموا، فإذا به يقوم الليل ويصلى ويبكى بين يدي الله (جل وعلا)، فيضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به.

✽ وممن يضحك الله إليهم: الذين يقومون الليل ويتهجّدون لله عَزَّوَجَلَّ.

تتجافى جنوبهم عن لذية المضاجع... قيل للحسن البصري: ما بال المتهجّدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

فالذين يواظبون على صلاة الفجر ترى وجوههم نيّرة، فما بالك بالذي يواظب على صلاة الليل؟

وكان محمد بن سيرين إذا دخل المسجد سبّح الناس ربهم؛ لِمَا على وجهه من النور... قال النبي ﷺ: «أولياء الله الذين إذا رُءوا ذُكر الله تعالى»^(١).

والحافظ عبد الغنى المقدسى كان إذا خرج من بيته اصطفّ الناس على جنبات الطريق للنظر إلى مُحياه... وبات معه رجل ممن يعبد الشمس فلما رأى صلاته من الليل وبكائه، زفر الرجل زفرة خرج الكفر بها من صدره، فقد أثرت صلاة عبد الغنى المقدسى في هذا الرجل فأسلم بسبب صلاة الليل.

فانظر إلى حالٍ من لهم حالٌ مع الله تبارك وتعالى... يقول النبي ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَنْقَطَ امْرَأَتُهُ فَصَلَّتْ فَإِنَّ أَبْتَ نَضَحَ فِي وَجْهَيْهَا الْمَاءَ

(١) حسن: رواه المروزي في زوائد الزهد، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في الصحيحة

ورحم الله امرأة قامت من الليل فصَلَّتْ وأيقظت زوجها فصَلَّى فَإِنْ أَبِي نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»^(١)، وقال ﷺ: «مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيَّقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا لِيَلْتَمِذَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»^(٢).

❁ وصلة بن أشيم العدوي لما تزوج السيدة معاذة العدوية تلميذة السيدة عائشة رضي الله عنها... ففي ليلة البناء أدخله ابن أخيه بيتًا حارًّا، ثم أدخله بيتًا مُطَيَّبًا، ثم بعد ذلك أدخلوا إليه معاذة، فقام يصلي صلاة الليل حتى الصباح، وقامت هي تصلي خلفه، فعاتبه ابن أخيه في اليوم الثاني فقال له: يَا عَمَّاهُ! فِي لَيْلَةِ عُرْسِكَ تَصَلِّي إِلَى الصَّبَاحِ! قَالَ: وَمَاذَا أَصْنَعُ يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ أَدَخَلْتَنِي بَيْتًا حَارًّا فَذَكَرْتَنِي فِيهِ بِالنَّارِ، ثُمَّ أَدَخَلْتَنِي بَيْتًا مُطَيَّبًا فَذَكَرْتَنِي فِيهِ بِالْجَنَّةِ، فَلَمْ يَزَلْ خَلْدِي فِيهِمَا إِلَى الصَّبَاحِ.

❁ ورياح القيسى لما تزوج ذؤابة العابدة تَنَآوَمَ فِي لَيْلَةِ الْبِنَاءِ يَرِيدُ أَنْ يَخْتَبِرَ صَلَاةَ زَوْجِهِ... فَلَمَّا كَانَ رُبْعَ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ قَالَتْ: يَا رِيَّاحُ قُمْ فَقَدْ مَضَى رُبْعَ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَقَالَ: أَقُومُ وَلَمْ يَقُمْ... فَلَمَّا كَانَ رُبْعَ اللَّيْلِ الثَّانِي، قَالَتْ: يَا رِيَّاحُ قُمْ، قَدْ مَضَى رُبْعَ اللَّيْلِ الثَّانِي، قَالَ: أَقُومُ وَلَمْ يَقُمْ، فَمَا زَالَ كَذَلِكَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْفَجْرِ قَامَ يَصَلِّي الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، فَقَالَتْ: لَيْتَ شَعْرِي مَنْ غَرَّنِي بِكَ يَا رِيَّاحُ... لِأَنَّهُ مَا صَلَّى إِلَّا الْفَجْرَ فَقَطْ فِي جَمَاعَةٍ.

❁ وكانت زوجة محمد بن حبيب العجمي تُوقِظُهُ لَصَلَاةِ اللَّيْلِ، وَتَقُولُ لَهُ: قُمْ يَا سَيِّدِي! فَهَذَا اللَّيْلُ قَدْ أَدْبَرَ، وَهَذَا النَّهَارُ قَدْ أَسْفَرَ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ، وَالزَّادُ قَلِيلٌ، وَهَذِهِ قَوَافِلُ الصَّالِحِينَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَحْنُ قَدْ بَقِينَا.

❁ وكانت زوجة أحمد بن أبي الحواري: رابعة بنت إسماعيل الشامية توقظ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٣٠).



زوجها لصلاة الليل، فكان يقول: والله إن قلبي ليرق بالنظر إلى وجه زوجتي أكثر مما يرق بالحديث مع إخواني؛ لما أرى عليها من أثر التهجد والخشوع وآثار الصلاة.

✽ والنبى ﷺ ربما قام الليل بآية حتى يصبح، وقام الليل حتى تفتطرت قدماه، أى: تشققت قدماه من طول القيام، فتقول السيدة عائشة: «يا رسول الله! أتفعل هكذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).

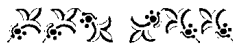
الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم لا بد أن يحرص على فعل كل ما يحبه الله (جل وعلا).

(٢) أن المسلم إذا ضحى براحته أو بنومه أو بذل ماله أو فعل أى طاعة تقربه إلى الله، فإن الله (جل وعلا) يكافئه ويجزل له العطاء.

(٣) أن الله (عَزَّوَجَلَّ) إذا ضحكك إلى عبدٍ في موطن من المواطن، فإنه يُدخله

الجنة بغير حساب.



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

(٨٧) أَذْنِبُ عَبْدٌ ذَنْبًا

❁ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «أَذْنِبُ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» ^(١).

وقوله تعالى: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» أي: مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذَا، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ أَغْفِرُ لَهُ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِيهِمْ مَا قَبَلَهَا.

❁ ففي هذا الحديث يحكى النبي ﷺ أن عبداً أذنب ذنباً فلم يفرح بذلك الذنب بل حزن حزناً شديداً على ذلك الذنب ولجأ إلى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ ليغفر له ذلك الذنب فقال: اللهم اغفر لي ذنبي.. فلما رأى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ صدق توبته قال تعالى: أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ... فغفر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ لذلك العبد التائب النادم.

ثم عاد هذا العبد وأذنب مرة أخرى رغماً عنه وهو لا يريد أن يذنب ولكن غلبته نفسه وهواه وشيطانه.. فقال: أي رب اغفر لي ذنبي... فقال تعالى: أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ.. فغفر الله له.. وتكرر الذنب بعد ذلك وتاب العبد.. وتكررت التوبة من الله عليه فتاب عليه (جل وعلا)... إلى أن قال الحق (جل وعلا): قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء....

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠٧) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.



وفي رواية قال تعالى له: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

فيا لها من رحمة عظيمة من رب العالمين سبحانه... وهنا قوله: (فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ) ليس المعنى أنه يعصى كما يريد، ويذهب يشرك بالله كما يريد، وإنما المعنى: أنك قد تقع مرة ثانية وثالثة... طالما أنت على ذلك، وكلما وقعت في ذنب ندمت واستغفرت... فالله يغفر وإن تكرر ذلك مائة مرة، طالما أنك تُجرد التوبة، وترجع إلى ربك سبحانه، وكل بنى آدم خطّاء، وما من مؤمن إلا وله ذنب يعتره الفينة بعد الفينة... وكل مرة لعله يقع في شيء فيرجع يلوم نفسه ويتوب إلى الله ﷻ، ولعله بعد فترة يقع مرة أخرى، فإذا كان العبد يسرع في التوبة إلى الله، ويندم على الذنب، وينوى ألا يفعله.. ومن ثم تأتي الأقدار فيقع فيه مرة ثانية مع كراهته للذنب وحبه للرب سبحانه، وتوبته إلى الله... فالله ﷻ يغفر له وإن وقع مرارًا وتكرارًا في هذا الذنب أو في غيره بهذا الشرط: أن يتوب العبد إلى ربه سبحانه، وأن ينوى ألا يعود إلى ذلك.

أما الذي يقع في الذنب ولا يهمله ذلك، واستغفر الله وهو مقيم على هذا الذنب، ويفعله وينوى أن يفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، فهذه التوبة ليست المذكورة في هذا الحديث... لكن من تاب إلى الله وهو ينوى ألا يعود إلى ذلك فهو المقصود^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ ظَاهِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ لَهَا وَأَنَّه لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةً مَرَّةً أَوْ أَلْفَ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ وَتَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ قَبْلَ تَوْبَتِهِ وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ تَابَ عَنِ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعْدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ^(٢).

بِحَمْدِ رَبِّكَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧/١١٧).

(٩١) ستر الله على المؤمن في الدنيا والآخرة

✽ عَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ: «يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَقْرَرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ»^(١).

✽ نحن نعلم أنه ما من عبدٍ إلا وله ذنوبٌ تعتريه الفينة بعد الفينة.. وذلك لأنه ليس هناك أحدٌ معصومٍ إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام).. فإذا كان يوم القيامة فإن الله ﷻ من كمال رحمته أنه يُدنى عبده المؤمن ويضع عليه كنفه ويستره ثم يسأله ويُقرره بذنوبه ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ وإذا بالعبد المؤمن يقول: رب أعرف.

وفي هذه اللحظة قد يظن العبد أنه قد هلك وأنه من أهل النار.. وإذا بالعزير الغفار يقول له: «فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أعفرها لك اليوم، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ».

وذلك لأن كل عبدٍ له صحيفةٌ مُسَجَّلَةٌ فيها أعماله خيرا وشرا... وهذه الصحيفة كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها... وفي المحشر يُعطى كتابه ليقراه وينظر أعماله.

وتختلف الطريقة التي يُؤتى بها العباد كتبهم: فأما المؤمن فإنه يُؤتى كتابه يمينه من أمامه بعد مُحاسبته الحساب اليسير، وينقلب إلى أهله مسرورا...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤١) كتاب المظالم - ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١) ... وكما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فيقول هَاؤُمُ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٤).

وأما أهل المعاصي والتفارق فإنَّ أحدهم يُؤْتَى كتابه بشماله من وراء ظهره، وعند ذلك يدعو أحدهم بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) وَيَصَلِّي سَعِيرًا﴾ (١٢)﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ فيقول يَلْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةَ (٢٥) وَلَمْ أَدْرَمَا حَسَابِيَّةَ (٢٦) يَلْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةَ (٢٩)﴾ (٤).

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كتفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك... قال: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإني) أعرفُ بها منك، قد غفرتها لك... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضًا: طوبى لهذا العبد الذى لم يعص قط... فلا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه» (٥).

(١) سورة الانشقاق: الآيات: (٧-٩).

(٢) سورة الحاقة: الآيات: (١٩-٢٤).

(٣) سورة الانشقاق: الآيات: (١٠-١٢).

(٤) سورة الحاقة: الآيات: (٢٥-٢٩).

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) في زوائد الزهد بإسنادٍ حسن.

(٨٩) مهما بلغت ذنوبك.. فالله يغفرها

❁ «قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ! مَهْمَا عَبَدْتَنِي وَرَجَوْتَنِي وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ... وَإِنْ اسْتَقْبَلْتَنِي بِمِلءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خَطِيئًا وَذُنُوبًا اسْتَقْبَلْتُكَ بِمِلْءِهِنَّ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَأَعْفِرُ لَكَ وَلَا أُبَالِي»^(١).

❁ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئًا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(٢).

❁ هذا الحديث القدسي الشريف يبين ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة... والاستغفار: هو طلب المغفرة من الله ﷻ.

والمغفرة: هي وقاية شر الذنوب مع سترها، أي أن الله ﷻ يستر على العبد فلا يفضحه في الدنيا، ويستر عليه في الآخرة فلا يفضحه في عرصاتهما، ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضلته ورحمته.

وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن... فتارة يُؤمر به.. كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾^(٣) اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤١).

(٢) حسن: رواه الترمذي، والضياء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

«عَنَانَ السَّمَاءِ» بفتح العين، قيل: هو ما عن لك منها، أي: ظهر إذا رفعت رأسك، وقيل: هو السحاب.

و«قُرَابِ الْأَرْضِ» بضم القاف، وقيل بكسرها، والضم أصح وأشهر، وهو: ما يقارب ملاءها، والله أعلم.

(٣) سورة المزل: الآية: (٢٠).



وتارة يُمدح أهله... كقوله تعالى في وصف المحسنين: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ﴾ (١).

وتارة يذكر الله ﷻ وبأنَّه يغفر لمن استغفره.. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ
سُوْءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢).

وكثيرًا ما يُقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب
المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح...
وحكم الاستغفار كحكم الدعاء إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لا سيما إذا خرج
من قلبٍ منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار
الصلوات... وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه، ثم يُتْنَى بالاعتراف بذنبه
ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة. كما في حديث سيد الاستغفار أن النبي ﷺ قال:
«سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا
عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ
عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» (٣).

﴿وَقَوْلِهِ: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ» أَي أَعْتَرَفَ لَكَ، وَ«أَبُوءُ بِذُنُوبِي» أَي
أَعْتَرَفَ، وَأَقْرَبُ بِذُنُوبِي.

وعن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمني دعاءً أدعوه به في
صلاتي قال: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا - أَوْ كَثِيرًا - وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٤).

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (١١٠).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: «أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه».

وقد ورد عن النبي ﷺ أن مَنْ قاله: «عُفِّرْ له وإن كان فَرًّا من الزحف»^(١).

❁ قوله ﷺ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى، ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى».

فأول سبب من أعظم أسباب المغفرة الدعاء مع الرجاء.

فإن الدعاء مأمورٌ به موعودٌ عليه بالإجابة.. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).

فالدعاء سببٌ مُقتضى الإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه... ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله ﷻ.

فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنباً لم يرجُ مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب، ويأخذ بها غيره... فقولته: «إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى...» يعنى على كثرة ذنوبك، وخطاياك، لا يتعاضمنى ذلك، ولا أستكثره.

وفى الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لى إن شئت، ولكن ليَعزم المسأله، وليُعظَّم الرغبة، فإن الله لا يتعاضمهُ شىءٌ أعطاه...»^(٣).
فذنوب العباد وإن عَظُمت فعفو الله ومغفرته أعظم منها...

كما قال الإمام الشافعى عند موته.

ولما قسى قلبى وضائق مذاهبى جعلتُ الرِّجاء منى لعفوك سُلماً

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى التعليق الرغيب (٢ / ٢٦٩)، وصحيح أبى داود (١٥١٧).

(٢) سورة غافر: الآية: (٦٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.



تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
 فمن أعظم أسباب المغفرة: الدعاء مع الرجاء. قال النبي ﷺ: «ادعوا الله
 وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(١).
 * قوله عز وجل: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت
 لك...».

وهذا يبين فضل الاستغفار... فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء - وهو
 السحاب، وقيل ما انتهى إليه البصر فيها - غفرها الله له، وهذا يبين فضل كثرة
 الاستغفار.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن كنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة
 مرة يقول: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور...»^(٢).
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إنى لأستغفر الله، وأتوب إليه
 في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٣).

وعن النبي ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة
 مرة...»^(٤).

وقوله: «ليغان» أي: ليغطي ويغشى.
 وروى عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بُنى عوّد لسانك: اللهم اغفر لي، فإن الله
 ساعات لا يرد فيها سائلاً».
 وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم، وفي طُرقكم،

(١) حسن: رواه الترمذی، والحاكم، وحسنه الألبانی في صحيح الجامع (٢٤٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانی في الصّحیحَة: (٥٥٦).

(٣) صحيح: رواه البخاری (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرّون متى تنزل المغفرة.

وقال عليه السلام: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا...»^(١).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ما ألهم الله عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

وقال قتادة رضي الله عنه: إن هذا القرآن يدلّكم على دوائكم، ودوائكم، فأما دوائكم فالذنوب، وأما دوائكم فالاستغفار.

وقال رباح القيسي: لى نَيْفٌ وأربعون ذنباً قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة.

❁ قوله عز وجل: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة...».

فالتوحيد هو أعظم أسباب المغفرة، ومن فقد التوحيد فقد حُرِمَ من المغفرة بالكلية... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبه بالشرك ما لا يُعْفَى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحد الذي لم يُشرك بالله ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده... فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله، وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يُوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض... فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوى.

ومعنى: «قراب الأرض» ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذّب بعدله، وحكمته، وهو

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد في الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).



المحمود على كل حال.

قال بعضهم: الموحد لا يُلقى في النار كما يُلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار.

فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه، ولسانه، وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

والتوحيد هو الإكسير الأعظم... فلو وُضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات... ودَلَّ على ذلك أيضًا حديث البطاقة.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ لَا ظَلَمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ.. فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضِرْ وَزَنِّكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: فَإِنَّكَ لَا تُظَلَمُ.. فَتُوضَعُ السَّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجِلَّاتُ وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ وَلَا يَتَّقَلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ»^(١).

قال العلماء: بأن هذا الرجل وقع في ذنوب كثيرة دون الشرك بالله ﷻ ولكنه أخلص توحيدَه لله ﷻ، ولم يقع في شيء من الشرك فنجا ببركة التوحيد، ولكن أكثر المسلمين يخلط توحيدَه بالشرك... كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٦).

فهو يصلى لله عَزَّوَجَلَّ، ويصوم لله عَزَّوَجَلَّ، ويحج بيت الله، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ومع ذلك قد ينذر لغير الله أو يذبح لغير الله أو يحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يخلط توحيداً بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

❁ ولقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ لنا أن نختم أعمالنا وأعمارنا بالاستغفار.

كما قال عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ (١).

وفي ختم الصلاة يقول المسلم: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ④﴾ (٢).

وفي الأسحار وبعد قيام الليل شرع الاستغفار... كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ⑤﴾ (٣).

وفي كفارة المجلس يقول العبد: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك» (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة النصر.

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٩٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٧).

(٤) رياض الجنة (ص ٩٤-٩٨) بتصرف.

(٩٠) فضل صلاة الفجر وصلاة العصر

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١).

✽ إن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وكَّلَ بعباده ملائكة مُعَقَّبَاتٍ يتعاقبون فينا يحفظوننا من أمر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ... فوكَّلَ ملائكة ينزلون ويجتمعون في صلاة الفجر ويظنون إلى صلاة العصر ثم يصعدون بعد أن ينزل ملائكة آخرون في صلاة العصر ويظنون إلى صلاة الفجر..

فيصعد الذين باتوا فينا إلى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.. فيسألهم - وهو أعلم بعباده ولا يحتاج إلى كلام الملائكة - يسألهم: كيف تركتم عبادي؟ وذلك لإظهار شرف عباده وفضلهم.. فالله يعلم السر وأخفى.. فتقول الملائكة: تركناهم وهم يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ.. لأنهم يأتون في أول الليل وأول النهار فيتعاقبون في صلاة الفجر وصلاة العصر... هؤلاء ينزلون وهؤلاء يصعدون.. وقيد الله سبحانه وتعالى وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما... لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى وصلاة الفجر هي الصلاة المشهودة.

فياهي الله ﻋَزَّ وَجَلَّ بهم الملائكة... هؤلاء الذي قلت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)؟! فانظروا ماذا يعملون.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: وَمَعْنَى يَتَعَاقِبُونَ تَأْتِي طَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ وَمِنْهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

تَعَقَّبُ الْجِيُوشِ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى ثَغْرِ قَوْمٍ وَيَجِيءَ آخَرُونَ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمْ فِي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ فَهُوَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكْرِمَةً لَهُمْ أَنْ جَعَلَ اجْتِمَاعَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ وَمَفَارَقَتَهُمْ لَهُمْ فِي أَوْقَاتِ عِبَادَاتِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَيَكُونُ شَهَادَتُهُمْ لَهُمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْخَيْرِ^(١).

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ: «فَيَسْأَلُهُمْ» قِيلَ: الْحِكْمَةُ فِيهِ اسْتِدْعَاءُ شَهَادَتِهِمْ لِبَنِي آدَمَ بِالْخَيْرِ، وَاسْتِنْتَاطِقِهِمْ بِمَا يَقْتَضِي التَّعَطُّفَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ لِإِظْهَارِ الْحِكْمَةِ فِي خَلْقِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيَّ وَقَدْ وَجَدَ فِيهِمْ مَنْ يُسَبِّحُ وَيُقَدِّسُ مِثْلَكُمْ بِنَصِّ شَهَادَتِكُمْ.

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: هَذَا السُّؤَالُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَبُّدِ لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا أُمِرُوا أَنْ يَكْتُبُوا أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ مِنَ الْجَمِيعِ بِالْجَمِيعِ.

❁ قَوْلُهُ: «كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي».

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْ آخِرِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا. قَالَ: وَالْعِبَادُ الْمَسْئُولُ عَنْهُمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

❁ قَوْلُهُ: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

لَمْ يَرَاعُوا التَّرْتِيبَ الْوَجُودِي؛ لِأَنَّهُمْ بَدَؤُوا بِالْتَّرِكِ قَبْلَ الْإِتْيَانِ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّهُمْ طَابَقُوا السُّؤَالَ لِأَنَّهُ قَالَ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ وَلِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ صَلَاةُ الْعِبَادِ، وَالْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا فَنَاسَبَ ذَلِكَ إِخْبَارَهُمْ عَنْ آخِرِ عَمَلِهِمْ قَبْلَ أَوَّلِهِ.



﴿ وَقَوْلُهُ: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ» ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ فَارَقُوهُمْ عِنْدَ شُرُوعِهِمْ فِي الْعَصْرِ سِوَاءَ تَمَّتْ أَمْ مَنَعَ مَانِعٌ مِنْ إِتْمَامِهَا وَسِوَاءَ شَرَعَ الْجَمِيعُ فِيهَا أَمْ لَا لِأَنَّ الْمُتَتَّظِرَ فِي حُكْمِ الْمُصَلِّي وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: «وَهُمْ يُصَلُّونَ» أَيْ يَنْتَظِرُونَ صَلَاةَ الْمَغْرَبِ.

قلت: ووقع في صحيح ابن خزيمة من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة في آخر هذا الحديث: «فاغفر لهم يوم الدين». قال: ويستفاد منه: أن الصلاة أعلى العبادات لأنه عنها وقع السؤال والجواب.

وفيه: الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان، وفي غيرهما طائفة واحدة... والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح وأن الأعمال ترفع آخر النهار، فمن كان حينئذ في طاعة بورك في رزقه وفي عمله، والله أعلم.

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما والاهتمام بهما. وفيه: تشریف هذه الأمة على غيرها ويستلزم تشریف نبيها على غيره. وفيه: الإخبار بالغيوب ويترتب عليه زيادة الإيمان.

وفيه: الإخبار بما نحن فيه من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ونتحفظ في الأوامر والنواهي ونفرح في هذه الأوقات بقُدوم رُسل ربنا وسؤال ربنا عنا. وفيه: إعلامنا بحب ملائكة الله لنا لنزداد فيهم حُبًا ونتقرب إلى الله بذلك. وفيه: كلام الله تعالى مع ملائكته. وغير ذلك من الفوائد^(١). والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩١) فضل المُكثِّ في المسجد لانتظار الصلاة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُسْرِعًا، قَدْ حَفَزَهُ النَّفْسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى»^(١).

وهناك رواية أخرى عن فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ»^(٢).

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُنَوِّعُ فِي خُطَابِهِ لِأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم.. فتارة يذكر لهم الحديث مباشرة.. وتارة يكون ذلك بصورة عملية يراها الصحابة.. وتارة يعطيهم المعلومة من خلال سؤالٍ لِيُثِيرَ انْتِبَاهَهُمْ.. وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث.

قال لهم: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟».

وهل هناك أحدٌ لا يرغب في هذا الخير؟!... فمن المعلوم أنهم سيقولون: بلى يا رسول الله... أخبرنا عن ذلك فإننا نُريدُ أن نعرف ما الذي يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

فلما أصبحت القلوب مُتهيئة لمعرفة ذلك قال لهم ﷺ: «إسباغ الوضوءِ على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط» هذه ثلاثة أشياء:

❁ «إسباغ الوضوء على المكاره»: يعنى أن الإنسان يتوضأ ويُسبغ وضوءه على كُرهِ منه: إما لكونه فيه حُمى ينفر من الماء فيتوضأ على كُرهِ.. وإما أن يكون الجو باردًا، وليس عنده ما يُسخن به الماء فيتوضأ على كُرهِ... وإما أن يكون هناك أمطار تحُول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كُرهِ... المهم أنه يتوضأ على كُرهِ ومشقة لكن بدون ضرر... أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيمم... هذا مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، ولكن هذا لا يعنى أن الإنسان يَشُق على نفسه ويذهب يتوضأ بالماء البارد ويترك الساخن، أو يكون عنده ما يُسخن به الماء، ويقول: لا.. بل أريد أن أتوضأ بالماء البارد؛ لأنال هذا الأجر، فهذا غير مشروع، لأن الله يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ ورأى النبي ﷺ رجلاً واقفاً في الشمس قال: ما هذا؟ قالوا: نذر أن يقف في الشمس، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل... فالإنسان ليس مأموراً ولا مندوباً في أن يفعل ما يَشُق عليه ويضره، بل كلما سَهلت عليه العبادة فهو أفضل، لكن إذا كان لا بد من الأذى والكُره فإنه يُؤَجَّر على ذلك؛ لأنه بغير اختياره.

❁ كذلك «كثرة الخطا إلى المساجد» فيه دليل على أن الجماعة تكون في المسجد ولا تكون في البيت، وأن الإنسان إذا كثرت خطاه إلى المساجد: يرفع الله له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الرجل إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجة وَحَطَّ عنه بها خطيئة. وهذه نعمة عظيمة، فإذا وصل المسجد وصلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مُصلَّاه، تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه... ولا يزال في صلاة ما انتظر

الصلاة، «وكثرة الخُطَا» معناه أن يأتي الإنسان للمسجد ولو من بُعْدٍ.

وليس المعنى أن يتعمد السير في الطريق البعيد أو أن يُقارب الخُطَا... فهذا غير مشروع، بل يمشى على عادته ولا يتقصد البُعد... يعني: مثلاً لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد لا يترك القريب ويمشى في البعيد... لكن إذا كان بعيداً ولا بد أن يمشى إلى المسجد فإن كثرة الخُطَا إلى المساجد مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

❁ وأما «انتظار الصلاة بعد الصلاة»: بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه مُعلِّقاً بالمساجد: كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى... هذا أيضاً مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات... قال: «فذلکم الرباط فذلکم الرباط»: يعني المرابطة على الخير، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

فمن انتظر الصلاة بعد الصلاة شوقاً إليها فإن الله يمحو عنه خطاياها ويرفع له الدرجات.

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: مَحْوُ الْخَطَايَا كِنَايَةٌ عَنْ غُفْرَانِهَا. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ مَحْوَهَا مِنْ كِتَابِ الْحَفْظَةِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى غُفْرَانِهَا... وَرَفَعُ الدَّرَجَاتِ إِعْلَاءَ الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ^(٢).

وقوله ﷺ: «فذلکم الرباط» أصل الرباط: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، وهذا من أعظم الأعمال فلذلك شبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة في هذا الحديث... أي: أن المواظبة على الطهارة

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/١٣٧-١٣٨).

(٢) مسلم بشرح النووي (٣/١٧٩).



والصلاة والعبادة كالجهاد في سبيل الله.

وقيل: إن الرباط هاهنا اسمٌ لما يربط به الشيء، والمعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفُّ عنها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٢) فضل الصيام

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ. وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرُفُثُ وَلَا يَصْخَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرُحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»^(١).

وهذا لفظ رواية البخارى... وفي رواية له: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ، مِنْ أَجْلِ، الصَّيَامِ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا».

وفي رواية لمسلم: «كُلُّ عَمَلٍ لِبْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ: يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرِحَ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرِحَ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «قال الله عز وجل: كُلُّ عَمَلٍ لِبْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ» والمعنى: أن الصيام قد اختصه الله عز وجل لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سرٌّ بين العبد وربه.. ولأنه العبادة الوحيدة التي لا يتطرق إليها الرياء.

قال الإمام النووي رحمته الله: اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ مَعَ كَوْنِ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى. فَقِيلَ: سَبَبُ إِضَافَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعْبَدَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ. فَلَمْ يُعْظَمِ الْكُفَّارُ فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ مَعْبُودًا لَهُمْ بِالصَّيَامِ، وَإِنْ كَانُوا يُعْظَمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَقِيلَ: لِأَنَّ الصَّوْمَ بَعِيدٌ مِنَ الرِّيَاءِ لِخَفَائِهِ بِخِلَافِ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالغَزْوِ وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.



لظَاهِرَةٍ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسِهِ فِيهِ حَظٌّ... قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ. قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الإِسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَقَرُّبُ الصَّائِمِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الصِّفَةِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا الْمُتَفَرِّدُ بِعِلْمِ مِقْدَارِ ثَوَابِهِ أَوْ تَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِ... وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَظْهَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى مِقْدَارِ ثَوَابِهَا... وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَافَةٌ لِلَّهِ﴾ مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانٌ عِظَمِ فَضْلِ الصَّوْمِ وَالْحَثِّ إِلَيْهِ ^(١).

✽ وقال بعض أهل العلم:

ومعناه: إذا كان يوم القيامة.. وكان على الإنسان مظالم للعباد، فإنه يُؤَخَذُ للعباد من حسناته إلا الصيام، فإنه لا يُؤَخَذُ مِنْهُ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ لِلَّهِ ^{عَزَّ وَجَلَّ} وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ... وَهَذَا مَعْنَى جَيِّدٌ، أَنَّ الصَّيَامَ يَتَوَفَّرُ أَجْرُهُ لِصَاحِبِهِ وَلَا يُؤَخَذُ مِنْهُ لِمِظَالِمِ الْخَلْقِ شَيْئًا.

ومنها: أن عمل ابن آدم يُزَادُ مِنْ حَسَنَةٍ إِلَى عَشْرَةِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ يُعْطَى أَجْرَهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ... يَعْنِي: أَنَّهُ يُضَاعَفُ أضعافًا كَثِيرَةً.

قال أهل العلم: ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة، ففيه صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله، فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحيانًا... يكرهه لمشيقتة، لا لأن الله فَرَضَهُ.. بَلْ لِمَشِيقَتِهِ فَيَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ لِلَّهِ ^{عَزَّ وَجَلَّ}... وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي».

النوع الثاني من أنواع الصبر: الصبر عن معصية الله، وهذا حاصل للصائم،

(١) مسلم بشرح النووي (٨/٤٢).

فإنه يُصبر نفسه عن معصية الله ﷻ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، وذلك أن الإنسان يصيبه في أيام الصوم (ولا سيما في الأيام الحارة والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به، ولكنه صابر لأن ذلك في مرضاة الله.

فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث كان أجره بغير حساب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

✽ قوله سبحانه وتعالى: «وأنا أجزي به» فلم يُحدد الجزاء والثواب.. وذلك لأن الصوم من الصبر.. وقد قال تعالى عن ثواب الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١٠).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» بَيَانٌ لِعِظَمِ فَضْلِهِ وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ لِأَنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْجَزَاءَ اقْتَضَى عِظَمَ قَدْرِ الْجَزَاءِ وَسَعَةَ الْعَطَاءِ.

✽ وَقَوْلُهُ ﷻ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ»، وَمَعْنَاهُ سِتْرَةٌ وَمَانِعٌ مِنَ الرَّفَثِ وَالْأَثَامِ وَمَانِعٌ أَيْضًا مِنَ النَّارِ... وَمِنْهُ الْمِجَنُّ وَهُوَ التُّرْسُ وَمِنْهُ الْجِنُّ لِاسْتِتَارِهِمْ^(٢).

✽ «فإذا كان يومٌ صومٍ أحدكم فلا يرفث ولا يصخب» يعني: لا يقول قولاً يَأْثَمُ به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب.. بل يكون وقوراً مطمئناً متأنياً، فإن سابه أحدٌ أو شاتمته فلا يرفع صوته عليه، بل يقول: إني صائم.. يقول ذلك؛ لئلا يتعالى عليه الذي سابه.. كأنه يقول: أنا لست عاجزاً عن أن أقابلك بما سببتني ولكنني صائم، يمنعني صومي من الرد عليك، وعلى هذا فيقوله جهراً.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ٢٥١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٣-٤٤) بتصرف.



كذلك أيضًا إذا قال: (إني صائم) يردع نفسه عن مقابلة هذا الذي سابه.
 كأنه يقول لنفسه: (إني صائم، فلا تَرُدِّي على هذا الذي سبَّ) وهذا أيضًا معنى
 جليل عظيم... ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجبه وخاف أن تتعلق
 نفسه بذلك، قال: «لبيك إن العيش عيش الآخرة». فالنفس مجبولة على محبة ما
 تميل إليه، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل: لبيك: يعني إجابةً لك يا رب.

«إن العيش عيش الآخرة» أما عيش الدنيا فزائل وفان.

❁ «والذي نفس محمدٍ بيده لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ
 الْمِسْكِ» لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب
 البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله ﷻ... قَالَ الْقَاضِي:
 يُجَازِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَتَكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ
 الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ... وَقِيلَ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنَ الثَّوَابِ أَكْثَرَ مِمَّا
 يَحْصُلُ لِصَاحِبِ الْمِسْكِ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ
 رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَةً^(١).

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين في القيامة التحجيل بوضوئهم في الدنيا فرقا
 بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم في القيامة بصومهم طيب خلوفهم أطيب
 من ريح المسك ليُعرفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل... نسأل الله بركة ذلك
 اليوم... قال مكحول: يُرَوِّحُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ بَرَّائِحَةَ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا وَجَدْنَا
 رِيحًا مِنْذُ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ أَطْيَبَ مِنْ هَذَا الرِّيحِ.. فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

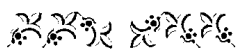
❁ «لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ
 بِصَوْمِهِ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَمَّا فَرَحَتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ فَبِمَا يَرَاهُ مِنْ جَزَائِهِ وَتَذَكُّرِ نِعْمَةِ اللَّهِ
 تَعَالَى عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لِذَلِكَ... وَأَمَّا عِنْدَ فِطْرِهِ فَسَبَبُهَا تَمَامُ عِبَادَتِهِ وَسَلَامَتُهَا مِنْ

المُفْسِدَاتِ وَمَا يَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِهَا^(١).

قال العلامة ابن رجب: أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يُلائمها من مطعم ومشرب ومنكح... فإذا مُنعت من ذلك في وقتٍ من الأوقات ثم أُبيح لها في وقتٍ آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه.

قال أبو العالية: الصائم في عبادة، وإن كان نائماً على فراشه.. فكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشى... فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويُستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره... فهو في نهاره صائم وصابر وفي ليله طاعم شاكر.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فيما يجده عند الله من ثواب الصيام مُدَّخراً فيجده أحوج ما كان إليه... كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾^(٢).



(١) مسلم بشرح النووي (٤٥ / ٨).

(٢) سورة المزمّل: الآية: (٢٠).

(٩٣) فضل الذكر ومجالسة الصالحين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيَّ حَاجَتِكُمْ، فَيَحْفُوهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُؤْمِدُونَكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. فَيَقُولُ: فَمَاذَا يَسْأَلُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّدُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يَتَعَوَّدُونَ مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْهَا. فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(١).

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فَضَلًّا يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعَدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ ﷻ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مِنْ أَيْنَ

(١) الحديث بهذا اللفظ صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٨) كتاب الدعوات.

أما حديث مسلم: أخرجه في صحيحه (٣٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

سيارة: يسبحون في الأرض - فضلًا: زائدون عن الحفظة وغيرهم لا وظيفة لهم.

جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ؟ فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ إِنَّمَا مَرَّ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ. فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

✽ الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن.. وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العباد، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبدًا.

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبدٍ ما لم يؤمن بهم... قال تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(١).

ولما كانت الملائكة أجسامًا نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعْطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها.

✽ ولكن الأصل أن عالم الملائكة عالم غيبى... والملائكة كلهم خير ولهذا لا يدخلون الأماكن التي فيها ما يُغضب الله ﷻ فلا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب إلا الكلب المُحَلَّل الذي يجوز

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).



اقتناؤه... هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﷻ يسيحون في الأرض فإذا وجدوا حلق الذكر جلسوا معهم ثم حَفُّوا هؤلاء الجالسين بأجنحتهم إلى السماء... يعنى هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء.. ثم إن الله تعالى يسألهم ليُظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ويدعونه وإلا فالله ﷻ أعلم لماذا جلسوا لكن ليُظهر فضلهم ونبلهم.

فيسألهم الله ماذا يقول عبادى؟ فيقولون: يُسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فهم لا يفتُرون عن ذكر الله مع أنهم لم يروه.. ولذا قال تعالى: فكيف لو رأونى؟ فقالت الملائكة: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيذاً وأكثر لك تسييحاً. ثم يسأل الله الملائكة - وهو سبحانه أعلم بكل شىء - وماذا يسألونى؟ فيقولون: أن هؤلاء الناس يسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار مع أنهم ما رأوا الجنة ولا النار لكنهم علموا بهما من الكتاب والسنة فهم على يقين بكل ما جاء فيهما.. فإذا بالحق (جل وعلا) يقول: أشهدكم أنى قد غفرت لهم جميعاً.. وإذا غفر الله لإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار.. فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلاناً ما جاء للذكر لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس معهم. فيقول (جل وعلا): فله قد غفرت.. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

❁ ففى هذا الحديث دليل على فضيلة مُجالسة الصالحين وأن الجليس الصالح ربما يشمله الله سبحانه وتعالى برحمته لمجالسته هذا الجليس الذاهر الصَّالح وإن لم يكن مثله لأن الله قال قد غفرت لهذا مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة وقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم... وعلى هذا فيُستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسييح والتحميد والتهليل.. وكُلُّ يدعو لنفسه... ويسأل الله لنفسه ويذكر لنفسه.

- أى ليست مجالس ذكر جماعية؛ لأن هذا لم يكن من هدى النبى ﷺ.

ومن الاجتماع أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر لأنها
 ذِكْرٌ: تسبيح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن
 الملائكة الموكلين ببنى آدم يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/٣٧٩-٣٨٠) بتصرف.

(٩٤) الذي يذكر ربه عَزَّوَجَلَّ حَيٌّ.. والذي لا يذكره ميت

✽ عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» (١).

ورواه مسلم فقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» (٢).

✽ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» وذلك لأن الذي يذكر الله تعالى قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره فكان كالحي، وأما الذي لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه والعياذ بالله، ولا ينشرح صدره للإسلام، فهو كمثل الميت... وهذا مثل ينبغي للإنسان أن يعتبر به وأن يعلم أنه كلما غفل عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يقسو قلبه وربما يموت قلبه والعياذ بالله.

✽ المَثَلُ: الصفة... أي صفة الذي يذكر ربه، والذي لا يذكره صفة «الحي والميت» أي الذاكر حي، والتارك للذكر ميت.. وبيان ذلك أن الذكر يكون بالقلب واللسان، فمن ذكر ربه دَلَّ ذكره على حياته؛ لأن الإدراك والفهم والوعي يكون بالقلب، والنطق، والإعراب، والبيان يكون باللسان، ومن لا يذكر ربه دَلَّ عدم ذكره على موت قلبه، وتوقف حركة لسانه، وبذلك فهو ميّت، وسرُّ هذه الظاهرة أن الله تعالى خلق للإنسان هذه الكائنات لتقوم عليها حياته، وخلقته هو لعبادته... وعبادة الله تعالى - وإن كانت طاعته بفعل أمره، وترك نهيهِ - فإنها تدور على حقيقة الذكر، والشكر.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٠٧) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٧٩) كتاب صلاة المسافرين.

وقوله ﷺ: «مثل البيت الذي يُذكر الله فيه... إلخ» دالٌّ على ما دلَّ عليه الحديث قبله، وهو أن البيت الخالي من ذكر الله تعالى صاحبه ميت، إذ لو كان حيًّا لذكر الله تعالى بعبادته، كما أن البيت الذي يُذكر الله تعالى فيه صاحبه حيٌّ، ودليل حياته ذكره الله تعالى بعبادته التي تدور على الذكر والشكر^(١).

❁ فالغافل عن ذكر الله يصبح قلبه قاسيًّا.. بل ربما يموت قلبه فيصبح كمثّل الميت.. أما الذي يُكثر من ذكر الله فإن الله يُحيي قلبه ويشرح صدره ❁ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ❁^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص ٥١).



(٩٥) فضل المداومة على التوبة والاستغفار

❁ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ.. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

❁ إن الشيطان لا يزال حريصًا على إغواء بني آدم من أجل إضلالهم وإبعادهم عن طريق الجنة.. لكن المؤمن يُجاهد نفسه وهواه وشيطانه ليسير على طريق الجنة.. فإذا استطاع الشيطان أن يوقعه في معصية فإن العبد المؤمن سرعان ما يتدارك نفسه بالاستغفار ليغفر الله له ذنبه وليعود المؤمن أفضل مما كان ويستأنف السير في طريق الجنة.

❁ وإن الاستغفار من أعظم الأسباب التي تجلب لك الخير في الدنيا والآخرة فأكثر من الاستغفار وأبشر بكل خير.

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسْرَهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيَكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ»^(٢).

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»^(٣).

وقال ﷺ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٤).

قيل لابن تيمية: حتى المعصية؟ قال: نعم، إذا كان معها التوبة والندم، والاستغفار والانكسار. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) حسن: رواه البيهقي في الشعب والضياء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

(٤) صحيح: رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ورواه أبو يعلى وابن حبان، وصححه الألباني في

وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾^(١).

قال الإمام ابن تيمية رحمته الله: إن المسألة لتُغلق على، فأستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقل، فيفتحها الله على.

❁ وها هي باقة عطرة من ثمرات الاستغفار في الدنيا والآخرة:
(١) مغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٧﴾﴾^(٣).

وقال رحمته الله: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أزالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٤).

- بل وفي الحديث القدسي الذي رواه الشيخان أن الله عز وجل يُنادي في الثلث الأخير من الليل: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ...»^(٥)...

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم أن الله عز وجل يقول: «فَأَسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرَ لَكُمْ...»^(٦).

(١) سورة النساء: الآية: (٦٤).

(٢) سورة المزمّل: الآية: (٢٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (١١٠).

(٤) حسن: رواه أحمد والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٠)، وصحيح الترغيب (١٦١٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد- ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.



(٢) الفوز بمحبة الله (جلّ وعلا):

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) ﴿١﴾.

(٣) سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين:

قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾﴾ (٢).

وقال الله سبحانه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ (٣).

(٤) أنه سبب لحصول القوة في البدن كذلك:

قال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (٤).

(٥) أنه سبب لدفع المصائب ورفع البليات:

فالمصائب في كثير من الأحيان سببها الذنوب والمعاصي (٥) كما قال تعالى:

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٢٢).

(٢) سورة نوح: الآية: (١٠-١٢).

(٣) سورة هود: الآية: (٣).

(٤) سورة هود: الآية: (٥٢).

(٥) وإن كانت هناك ابتلاءات تقع في بعض الأحيان؛ لإظهار الصادق من الكاذب؛ ولإنباء المؤمنين وتمحيصهم ومحق الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلُّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وكما قال سبحانه: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وضبط هذا يكمن في: أن العبد ينظر في نفسه، فإن وجدها خفيفة من الذنوب، فليعلم أن ما وقع

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١).

فالمصيبة تنزل في كثير من الأحيان بذنب.. فإذا أحدث العبد استغفارًا وتوبة نصوحًا من هذا الذنب ترتفع المصيبة بإذن الله... فالله - سبحانه وتعالى - يقول:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَامَنْتُمْ﴾^(٢).

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣).

(٦) سبب لبيباض القلب وصفائه ونقاؤه :

فالذنوب تترك أثرًا سيئًا وسوادًا على القلب، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ حَاطِيئَهُ نَكِثَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْثَةً سَوْدَاءً، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤)»^(٥).

(٧) زوال الوحشة بين العبد وربه عز وجل :

فإن الذنوب تجعل بين العبد وبين ربه عز وجل وحشة شديدة.. والاستغفار يزيل ذلك - بإذن الله -.

⁼ فيه إنما هو ابتلاء من الله، فليوطن العبد نفسه على الصبر والرضا بأقدار الله - سبحانه وتعالى -، وأيضًا ليكثر من الاستغفار فلعله فعل ذنبًا وهو لا يشعر.

أما إذا رأى العبد نفسه مرتكبًا للمعاصي ومسرّفًا على نفسه، وحلّت به بلية فليعلم أنها بسبب كسبه فليقلع عن الذنب والمعصية فورًا، وليؤدّ المظالم إلى أهلها ويُقبل على التوبة والاستغفار والإنابة والرجوع إلى الله وليكثر من أعمال البر والخير المكفرة للذنوب.

(١) سورة الشورى: الآية: (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٤٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

(٤) سورة المطففين: الآية: (١٤).

(٥) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٠).



(٨) زوال الهموم والغموم:

فالمعصية همٌ بالليل وهمٌ بالنهار... والاستغفار يزيل الهموم ويشرح الصدر - بإذن الله -.

(٩) يوم القيامة تكون في ظل عرش الرحمن:

ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ. يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» - وكان من بينهم - : «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ حَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١) أى: تذكّر ذنوبه، فتاب واستغفر وأشفق على نفسه من ذنوبه ففاضت عيناه.

(١٠) نور على الصراط:

فالصراط منصوب على متن جهنم... وهى سوداء مظلمة.

والاستغفار من جملة الأعمال الصالحة التى يجعلها الله سبباً للنور على الصراط ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢).

- وفضل المغفرة يظهر واضحاً جلياً فى سؤال الصالحين لها... ونورهم يسعى بين أيديهم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُبَوِّأُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

(١١) من أسباب دفع العذاب:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان - ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٢) سورة النور: الآية: (٤٠).

(٣) سورة التحريم: الآية: (٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

قال أبو موسى: كان لنا أمانان: ذهب أحدهما وهو كون الرسول ﷺ فينا وبقى الاستغفار معنا، فإذا ذهب هلكنا.

(١٢) سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُلُوبِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾^(١).

(١٣) سبب لرفع الدرجات:

قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَّى لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(٢).

✽ فله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتي. أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عنى وفقرى إليك.. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين: وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبتة ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلل لك قلبه».

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤْتَلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٣٣: ١٣٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٧).

(٩٦) شفقة النبي ﷺ على أمته

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(١)، وَقَوْلَ عِيسَى ﷺ: ﴿ إِن تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢)، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبِّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ؟» فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ... فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ: وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ»^(٣).

ففى هذا الحديث أن النبي ﷺ جلس يتذكر يوماً ما قاله إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.. وتذكر قول عيسى ﷺ أنه قال: ﴿ إِن تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فقام يدعو ويبكى ويقول: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» أى: ارحم أمتى ولا تخفرننى فى أمتى ولا تحرمهم من دخول الجنة ولا تجعلهم من أهل النار... فكان دعاء النبى أعظم من دُعائهما. وهنا أرسل الله ﷻ جبريل ﷺ وقال له: «يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيه؟» وربك أعلم ما الذى يبكيه.

فلا يحتاج إلى أن يرسل جبريل ﷺ ولكن أرسله حتى ينطق ويتكلم النبى ﷺ من تلقاء نفسه بكل ما يتمناه... فأتاه جبريل وسأله فأخبره النبى ﷺ بما قال.. فعاد جبريل إلى ربه ﷻ ليخبره بما قاله النبى ﷺ - والله أعلم بما قال - فقال تعالى لجبريل ﷺ: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٣٦).

(٢) سورة المائدة: الآية: (١١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

ولا نسوءك».

وقد أَرْضَاهُ اللهُ ﷺ فِي أُمَّتِهِ، بَأَنْ جَعَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَجْرَهَا مُضَاعَفًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مِثْلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمَلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ» ^(١) وَفِي رَوَايَةٍ: «... فَقَالَ: أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيُّ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطِينَ قِيرَاطِينَ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا؟ قَالَ اللهُ ﷺ هَلْ ظَلَمْتُمْ مَنْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» ^(٢). إِذَا... لَا لَوْمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ... فَفَضَلَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كَثِيرًا.

وقد أَرْضَاهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ - وَاللهُ الْحَمْدُ - مِنْ عِدَّةٍ وَجُوهٍ: مِنْهَا كَثْرَةُ الْأَجْرِ، وَأَنْهُمْ الْآخَرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهَا فَضِّلَتْ بِفَضَائِلٍ كَثِيرَةٍ، مِثْلَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِيْمًا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُيْعَتْ لِي النَّاسِ كَافَّةً، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ» ^(٣) ^(٤).

بل لقد أَرْضَاهُ اللهُ ﷺ فِي أُمَّتِهِ حِينَ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ^(٥).. بل جعل الأمة المحمدية

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٥٨) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥) كتاب التيمم - ومسلم (٥٢١) كتاب المساجد.

(٤) شرح رياض الصالحين (١٦٧/٢).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).



هي الأمة الشاهدة على كل الأمم يوم القيامة.. وتجاوز لهذه الأمة عمّا توسوس به صدورهم ما لم يعملوا به أو يتكلموا به.... وجعلها أمة مرحومة لا يُخلد أي واحد منهم في النار ما دام قد جاء موحدًا.. وأرضاه في أمته بأن عصمها أن تجتمع على ضلالة.. وأرضاه في أمته بأن بعث لها على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها... وأرضاه في أمته بأن جعل عيسى ابن مريم عليه السلام يصلى خلف واحد من هذه الأمة - وهو المهدي عليه السلام -... وأرضاه في هذه الأمة بأن جعلهم يُدعون يوم القيامة غُرًّا مُحجلين من أثر الوضوء... وأرضاه في أمته بأن جعل هذه الأمة آخر الأمم وأول من يُحاسب يوم القيامة.. وأرضاه في أمته بأن جعل ثلثي أهل الجنة من هذه الأمة... وأرضاه في أمته بأن أعطاه سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.. فلما استزاده النبي صلى الله عليه وآله زاده مع كل ألف سبعين ألفًا وثلاث حثيات من حثيات الرحمن (جلّ وعلا).

فهذه الخصائص له ولأمته عليه الصلاة والسلام.

❖ قال الإمام النووي رحمته الله:

هَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ:

مِنْهَا: بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله عَلَى أُمَّتِهِ وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ وَاهْتِمَامِهِ بِأَمْرِهِمْ.

وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ.

وَمِنْهَا: الْبَشَارَةُ الْعَظِيمَةُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ - زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى تَشْرِيفًا - بِمَا وَعَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ» وَهَذَا مِنْ أَرْجَى الْأَحَادِيثِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ أَرْجَاهَا.

وَمِنْهَا: بَيَانُ عِظَمِ مَنَزَلَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ لُطْفِهِ سُبْحَانَهُ بِهِ صلى الله عليه وآله وَالْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ جَبْرِيلَ لِسُؤَالِهِ صلى الله عليه وآله إِظْهَارُ شَرَفِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَأَنَّهُ بِالْمَحَلِّ

الأعلى فَيُسْتَرْضَى وَيُكْرَمُ بِمَا يُرْضِيهِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَسْؤُهُ». .

فَقَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ: هُوَ تَأْكِيدٌ لِلْمَعْنَى أَيْ لَا نُحْزِنُكَ لِأَنَّ الْإِرْضَاءَ قَدْ
يَحْصُلُ فِي حَقِّ الْبَعْضِ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَيَدْخُلُ الْبَاقِي النَّارَ فَقَالَ تَعَالَى: تُرْضِيكَ
وَلَا نُدْخِلُ عَلَيْكَ حُزْنًا بَلْ نُنَجِّي الْجَمِيعَ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(٩٧) فضل الصلاة على النبي ﷺ

❁ قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ فقال: يَا مُحَمَّدُ! أما يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ أَحَدٌ صَلَاةً إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ تَسْلِيمَةً إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا؟. فَقُلْتُ: بَلَى أَيُّ رَبٍّ!»^(١).

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

ومن الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ:

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى

الثانية: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة

الخامسة: أنه يُرْفَعُ له عشرُ درجات.

السادسة: أنه يُكْتَبُ له عشرُ حسنات.

السابعة: أنه يُمْحَى عنه عشرُ سيئات.

الثامنة: أنه يُرْجَى إجابة دعائه إذا قَدَّمَهَا أمامه فهي تُصَاعِدُ الدعاء إلى عند رب العالمين.

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها.

العاشرة: أنها سببُ لغفران الذنوب.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهَمَّهُ.

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، وصححه الألباني. في صحيح الجامع (٧١).

الثانية عشرة: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

الثالثة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.

الرابعة عشرة: أنها سبب لردّ النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

الخامسة عشرة: أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض... لأن المصلي طالب من الله أن يُثنى على رسوله ويكرمه ويشرفه... والجزاء من جنس العمل فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

السادسة عشرة: أنها سبب البركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه... لأن المصلي داعٍ ربه أن يبارك عليه وعلى آله... وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه.

السابعة عشرة: أنها سبب لنيل رحمة الله له؛ لأن الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قاله طائفة، وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله.

الثامنة عشرة: أن الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، مع أن الذي يستحقه لا يُحصى علمًا ولا قدرة ولا إرادة، ولكن الله سبحانه لكرمه رضى من عباده باليسير من شكره وأداء حقه.

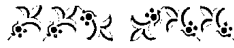
التاسعة عشرة: أنها متضمنة لذكر الله تعالى وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله... فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلواته على ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلواته عليه ما هو أهله كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته، وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا مالنا بعد الوصول إليه والقدوم عليه فهي متضمنة لكل الإيمان.



العشرون: أنها سبب لعرض اسم المصلى عليه ﷺ وذكره عنده^(١).
 ❁ وفي رواية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٢).

يعنى أنك إذا صليت على النبي ﷺ مرة فإن الله ﷻ لا يكافئك بعدد من الحسنات ولو كان كثيرًا... وإنما يكافئك بأن يصلى عليك عشر مرات وذلك بأن يُثنى عليك ويرحمك عشر مرات في الملاء الأعلى... وهذا يدل على علو مرتبة النبي ﷺ عند الله (جل وعلا)... فأنت المستفيد من صلاتك على النبي ﷺ... لأن النبي ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتك... فالله ﷻ وملائكته يصلون عليه ﷺ^(٣).



(١) بتصرف من كتاب (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام) للإمام ابن القيم رحمه الله.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(٣) شرح رياض الصالحين/ د. محمود المصري (٦/٣٢٢).

(٩٨) البشري بالنبي ﷺ في التوراة

✽ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمَتَوَكَّلَ.. لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»^(٢).

✽ أكرم الله عز وجل البشرية برسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، فأرسله إلى جميع العالمين إنسهم و جنهم، عربهم وعجمهم، بأوضح حجة، وأظهر دلالة، وأبين برهان، وساق الله سبحانه وتعالى تلك الدلائل الظاهرة البيّنة لتعلم البشرية صدق دعوته ونبل رسالته، وأنه حلقة في سلسلة الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لوظيفة واحدة لا تتجزأ... وتتمثل في دعوة التوحيد لله رب العالمين.

ومن سنة الله تعالى أن كل نبي يُسلّم جذوة دعوته إلى الذي يليه، وهكذا فقد

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٤٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢١٢٥) كتاب البيوع.

«حرزاً»: الحِرْزُ الوعاء الحصين يُحفظ فيه الشيء... والحرز المكان المنيح يُلجأ إليه.

والمعنى أنه ﷺ حصن لهم من الضلالة والسوء والعذاب إذا آمنوا به واتبعوه.

«سَخَابٍ أَوْ صَخَابٍ»: السخب والصخب بمعنى الصياح.

«يقيم به الملة العوجاء»: يصلح به ﷺ ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها.

«غُلْفًا»: أى مُغشاة مغطاة... واحداها أغلف ومنه غلاف السيف وغيره.



بشّرت به ﷺ الكتب السالفة، وأخبرت به الرسل السابقة، من عهد آدم ﷺ أبي الأنبياء والبشر إلى عهد المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، كلما قام رسولٌ أخذ عليه الميثاق بالإيمان به والبشارة بنبوته ورسالته.

وهذه البشارات هي بمنزلة الإعلان والبلاغ المسبق من الله ومن الرسل إلى الأمم والشعوب بمقدّم محمد ﷺ... والحكمة منها أن لا يحدث انقطاع في الهدى الإلهي؛ فإذا جاء نبيٌّ جديد فلا يُقابله أتباع النبي السابق بشيء من العداوة والبغضاء والتعصّب المذموم، بل يشعرون أنه امتداد لما كان عليه النبي السابق؛ فتواصل بذلك الهداية الإلهية، وتتعاقد وتتكامل الرسائل السماوية.

بشارات النبي ﷺ في كتب الأولين

✽ أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل لكل أمة رسولا يدعوهم إلى التوحيد فينذرهم ويؤشرهم، ليقيم عليهم الحجة يوم القيامة، وأن كل هذه الأمم والشعوب قد عرفت وتيقنت - عن طريق أنبيائهم ورسلهم - بمجيء خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ... وهو ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾^(١)، أي: «إن ذكر محمد ﷺ في كتب الأولين»^(٢).

✽ ولقد جاءت البشارات الكثيرة في التوراة والإنجيل ببعثة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.. ولكن اليهود أرادوا أن يطمسوا النور الذي بين أيديهم وأن يُخفوا الحقائق الدالة على بعثة النبي ﷺ فحرّفوا وبدّلوا في التوراة وذلك لأنهم كانوا يرجون أن يكون نبي آخر الزمان من ولد إسحاق ﷺ.

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٩٦).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٣٨).

فلما كان النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام ازداد اليهود حقداً فوق حقدهم
 فبدلوا وسعهم من أجل تشويه الحقائق وطمسها.
 بِإِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩) مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

✽ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً، وَدِدْتُ أَنْي لَمْ أَسْأَلَهُ، قُلْتُ: يَا رَبُّ، قَدْ كَانَتْ قَبْلِي رُسُلٌ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرَتْ لَهُ الرِّيَّاحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَكَلَّمَتْ مُوسَى. قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوْتَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنكَ وَزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبُّ.. فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلَهُ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً، وَدِدْتُ أَنْي لَمْ أَسْأَلَهُ» فكانت تلك المسألة أنه ذكر بعض معجزات الأنبياء من قبله، ثم سكت ولم يسأل لنفسه شيئاً.. ولكن الله ﷻ أعلمه قدره ومكانته عنده (جلَّ وعلا)... فالنبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين وهو سيد ولد آدم ﷺ وهو خليل الرحمن... وتالله ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نسمة أغلى عنده من النبي محمد ﷺ... ولذا قال للنبي ﷺ: «أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوْتَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟» وهذا ما جاء في كتابه العزيز حيث قال (جلَّ وعلا):

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ✽ أى: وجدك لا أم لك، ولا أب... بل قدمات أبوه وأمه ﷺ وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفَّله الله عمَّه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ✽ أى: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

(١) صحيح: رواه الحاكم، والطبراني في الكبير، والأوسط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٣٨).

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي: فقيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ فأغناك الله بما فتح عليك من البلدان، التي جُبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقصٍ، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرَك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

﴿ثم قال له تعالى: «أَلَمْ أُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنكَ وَزْرَكَ؟» وهذا ما جاء في كتابه العزيز حيث قال (جلَّ وعلا):

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات ... فلم يكن ضيقًا حرجًا، لا يكاد يتقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي: ذنبك، ﴿الَّذِي أَنْقَضَ﴾ أي: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالى، الذى لم يصل إليه أحدٌ من الخلق، فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه رسوله ﷺ، كما فى الدخول فى الإسلام، وفى الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التى أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله فى قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحدٍ غيره، بعد الله تعالى... فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًا عن أمته^(١).

﴿فلما قال الله ﷻ ﷻ﴾ ذلك قال النبى ﷺ: ﴿فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلْهُ...﴾ وهذا من حياء النبى ﷺ وأدبه الذى لا يعرف قدره إلا الله الذى أدبه ورباه وصنعه على عينه، ثم أثنى عليه بأعظم ثناء فقال (جلَّ وعلا): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٩٥-١٠٩٦) بتصرف.

❁ ولا بد أن نعلم أن ما أدخره الله لنبيه ﷺ في الآخرة أعظم مما أعطاه في الدنيا.

قال الله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(١) أى: ما أعطاه الله ﷺ في الدنيا من شرح الصدر، ورفع الذكر، وخطّ الوزر، وظهور أمره، وعلو شأنه، وما ألقاه الله ﷺ له من المحبة في قلوب خلقه، كل هذا لا شىء بجوار ما أعدّه الله له في الآخرة.

❁ ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ قال أهل التفسير: أرى رسول الله ﷺ ملك أمته من بعده فسرّ بذلك، فأنزل الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فأعطاه الله ﷺ ألف ألف قصر من لؤلؤ في الجنة، ترابه المسك مع ما ينبغي له.

❁ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ولذلك كان رسول الله ﷺ أزهد خلق الله في الدنيا، وأعظمهم أطراحاً لها، حتى أنه لما خيّر ﷺ بين الخلد في الدنيا ومملكها وبين لقاء الله ﷺ اختار ما عند الله.

❁ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (نام رسول الله ﷺ على حصير، ثم استيقظ وقد أثر الحصير في جنبه، فجعلت أمسح عنه، وأقول: يا رسول الله! هلا آذنتنا لنفرش لك على الحصير شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما لى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها).

❁ وهذا أيضاً تكرر مع عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما رأى أثر الحصير فى جنب رسول الله ﷺ، فبكى عمر وقال: «يا رسول! كِسرَى وقيصر فيما هما فيه وأنت أكرم الخلق على الله تنام على مثل هذا؟ فقال له ﷺ معلماً ومُصححاً: يا عمر! أما ترضى

(١) سورة الضحى: الآية: (٤).

أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: رضيت يا رسول الله! قال: فاحمد الله على ذلك).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠) فضيلة أهل بدر

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ فَقَالَ: «اتُّتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظِعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَاذْهَبْنَا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرَجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلقِينَ النَّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَاتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَِّّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ازْتِدَادًا عَن دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَيَّ أَهْلُ بَدْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ^(١) (٢).

قال الإمام النووي رحمته الله:

وفى هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ:

وفيه: هتك أستار الجواسيس بقراءة كتبهم سواء كان رجلاً أو امرأة.

(١) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة بالقرب من المدينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٨٣) كتاب المغازي - ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل

وَفِيهِ: هَتَكَ سِتْرَ الْمَفْسَدَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، أَوْ كَانَ فِي السِّتْرِ مَفْسَدَةٌ، وَلَا يَفُوتُ بِهِ مَصْلَحَةٌ، وَعَلَى هَذَا تُحْمَلُ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي النَّدْبِ إِلَى السِّتْرِ.

وَفِيهِ: أَنَّ الْجَاسُوسَ وَغَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ، لَا يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ وَهَذَا الْجِنْسُ كَبِيرَةٌ قَطْعًا لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِذَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ كَبِيرَةٌ بِلَا شَكٍّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية.

وَفِيهِ: أَنَّهُ لَا يُحَدُّ الْعَاصِي وَلَا يُعَزَّرُ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ.

وَفِيهِ: إِشَارَةٌ جُلَسَاءِ الْإِمَامِ وَالْحَاكِمِ بِمَا يَرَوْنَهُ كَمَا أَشَارَ عُمَرُ بِضَرْبِ عُنُقِ حَاطِبٍ... وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الْجَاسُوسَ الْمُسْلِمَ يُعَزَّرُ، وَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ وَقَالَ بَعْضُ الْمَالِكِيِّينَ: يُقْتَلُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَبَعْضُهُمْ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ، وَقَالَ مَالِكٌ: يَجْتَهَدُ فِيهِ الْإِمَامُ.

قَوْلُهُ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ الْغُفْرَانُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَإِنْ تَوَجَّهَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ حَدٌّ أَوْ غَيْرُهُ أُقِيمَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا... وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاضُ الْأَجْمَاعِ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ، وَأَقَامَهُ عُمَرُ عَلَى بَعْضِهِمْ، قَالَ: وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِسْطَحًا الْحَدَّ وَكَانَ بَدْرِيًّا^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

استشكل قَوْلُهُ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» فَإِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ لِلِابْتِاحَةِ وَهُوَ خِلَافُ عَقْدِ الشَّرْعِ.

وَأَجِيبَ: بِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنِ الْمَاضِي، أَيْ كُلُّ عَمَلٍ كَانَ لَكُمْ فَهُوَ مَغْفُورٌ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْعَمَلِ لَمْ يَقَعْ بِلَفْظِ الْمَاضِي، وَلَقَالَ فَسَأَغْفِرُهُ لَكُمْ، وَتُعَقَّبُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْمَاضِي لَمَا حَسُنَ الْإِسْتِدْلَالُ بِهِ فِي قِصَّةِ حَاطِبٍ لِأَنَّهُ ﷺ



خَاطَبَ بِهِ عُمَرَ مُنْكَرًا عَلَيْهِ مَا قَالَ فِي أَمْرِ حَاطِبٍ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ كَانَتْ بَعْدَ بَدْرِ
 بِسِتِّ سِنِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مَا سَيَأْتِي، وَأُورِدَهُ فِي لَفْظِ الْمَاضِي مُبَالَغَةً فِي
 تَحْقِيقِهِ ^(١).

بِسِتِّ سِنِينَ فِي لَفْظِ الْمَاضِي مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِهِ

(١) فتح الباري (٣٥٦/٧).

﴿ ١٠١ ﴾ كَنْزٌ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلك على كلمةٍ من تحت العرش، من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم»^(١).

✽ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يستعمل النبي صلى الله عليه وسلم الأسلوب التشويقي من خلال السؤال.. فقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة؟» أي: ألا أدلك على ذخيرة من ذخائر الجنة أو من مُحصلات نفائسها.. ومعنى (الكنز) هنا أنه ثوابٌ مُدَّخر في الجنة لصاحبها.. وهو ثوابٌ نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

فقال أبو موسى الأشعري: قلت: بلى يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وسلم: «لا حول ولا قوة إلا بالله»

قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْحَوْلُ الْحَرَكَةُ وَالْحِيلَةُ أَيُّ: لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتِطَاعَةَ وَلَا حِيلَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى.. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا حَوْلَ فِي دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ فِي تَحْصِيلِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللَّهِ... وَقِيلَ: لَا حَوْلَ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَصْمَتِهِ وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ^(٣).

✽ فما أجمل أن يعتصم العبد بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن ينخلع من

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) مسلم بشرح النووي (٤٤/١٧).



حوله وقوته إلى حول الله وقوته وأن يعلم يقيناً أنه لا يدور شيء في هذا الكون إلا بحول الله وقوته..

❁ قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لا حول ولا قوة إلا بالله» تُحَمَلُ الأَثْقَالُ، وتُكَابَدُ الأَهْوَالُ، ويُنَالُ شَرِيفُ الأَحْوَالِ.

فالزمها أيها العبد! فإنها كنز من كنوز الجنة، وهي من بنود السعادة ومن مسارات الراحة وانسراح الصدر.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ ١٠٢ ﴾ نعمة التواضع

﴿ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه - لا أعلمه إلا رفعه - قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «مَنْ تَوَاضَعَ لِي هَكَذَا - وَجَعَلَ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَدْنَاهَا - رَفَعْتُهُ هَكَذَا - وَجَعَلَ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَفَعَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ» ^(١) .

﴿ وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» ^(٢) .

﴿ «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا» قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ وَيَقُولُ: لِمَاذَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ» مَعَ أَنْ كُلَّ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنِ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عز وجل... فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ ^(٣) .

والجواب: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه عناية الأمة بأن الوحي قد نزل عليه في هذه المرة يوصيه مرة بعد مرة ويؤكد عليه أن يكرر وصيته للأمة بأن يتواضع بعضهم لبعض ولا يظلم أحدهم أخاه حتى تتآلف القلوب وتصبح الأمة قوية متماسكة.

﴿ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يوصيه بأن يأمرنا بالتواضع فيما بيننا فلا يترفع أحدٌ على أحدٍ بل يجعله مثله أو أكثر.. لأن الإنسان الذي يتواضع يرفعه الله عز وجل ويُعززه في الدنيا والآخرة.

فلا بد أن يتواضع المسلم لإخوانه المسلمين فلا يفخر عليهم ويتباهى بمكارمه ومناقبه وحسبه ونسبه.. بل ينبغي ألا يرى لنفسه فضلاً على أحد.

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) سورة النجم: الآيتان: (٤، ٣).



وكان من عادة السلف - رحمهم الله - أن الواحد منهم كان يجعل مَنْ هو أصغر منه مثل ابنه، وَمَنْ هو أكبر منه مثل أبيه، وَمَنْ هو في عُمره مثل أخيه، فينظر إلى مَنْ هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَنْ هو دونه نظرة إشفاقٍ ورحمة، وإلى مَنْ هو مثله نظرة مساواة... فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ... وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها... أي بالتواضع لله تَعَاضَعًا ثم لإخوانه من المسلمين.

فَمَنْ تواضع لإخوانه مُحَالٌ أن يفخر عليهم بشيءٍ من حُطام الدنيا الفانية.. ومُحَالٌ أن يبغي على أحدهم أو يظلمه أو يتعدى عليه.. وأما من تكبر فسَوْفَ يفخر على إخوانه ويبغي عليهم.. جعلني الله وإياكم من المتواضعين^(١).



(١) شرح رياض الصالحين / د. محمود المصري (٤/ ١٩٢-١٩٣).

(١٠٣) فضل من أنظر معسراً أو تجاوز عنه

✽ عن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجلٌ مِمَّنْ كان قبلكم فلم يُوجد له من الخير شيءٌ إلا أنه كان يُخالط الناس، وكان مُوسراً، وكان يأمرُ غلمانَه أن يتجاوزوا عن المُعسر... قال الله عز وجل: نحنُ أحقُّ بذلكِ مِنْهُ، تجاوزوا عنه»^(١).

✽ وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: أتى الله تعالى بعبدٍ من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال:.. ولا يكتُمون الله حديثاً. قال: يا رب آتيتني مالك فكننت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكننت أيسر على الموسر، وأنظر المُعسر. فقال الله تعالى: أنا أحقُّ بذا منك، تجاوزوا عن عبدي» فقال عقبَةُ ابنُ عامرٍ، وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنهما: هكذا سمعناه من في رسول الله ﷺ^(٢).

وفي رواية عند البخاري: عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً كان فيمن كان قبلكم، آتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له: هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المُعسر... فأدخله الله الجنة»^(٣).

✽ فهذه الأحاديث الثلاثة تحكى قصة متقاربة من بعضها البعض.. فهى تحكى قصة رجل لم يجد عملاً صالحاً عمله عندما جاءته ملائكة الموت تنزع روحه إلا أنه كان يتجاوز في مبايعته عمَّن يبايعهم.. فإذا دأب الناس، وحلَّ الأجل، فيُنظر الموسر إلى أن يجد سداداً، ويتجاوز عن المُعسر، وكان يرجو من وراء عمله أن يتجاوز الله عنه، فتجاوز الله عنه، وغفر له ذنوبه بتجاوزته في تعامله.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٠) كتاب المساقاة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٤٥١) كتاب أحاديث الأنبياء.



﴿لقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن العبد عندما ينزل به الموت، ويحين أجله، تنزل عليه الملائكة... أما المؤمن فإنها تُبشّره بالجنة... وأما الكافر فإنها تسأله وتوبّخه وتُعذّبه، وتُبشّره بالنار... قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١).

وقال في حق الكفرة المجرمين عندما يكونون في النزاع: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

ويحدثنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن رجل ممن كان قبلنا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فسأله الملائكة عن أعماله الخيرة التي عملها في دُنياه، فلم يجد لنفسه عملاً من أعمال الخير... فلما أجاب بالنفي، طلبوا منه أن يُمعن النظر، فلم يجد لنفسه عملاً خيراً إلا أنه كان يعمل تاجرًا، فيوصي فتيانه الذين يعملون عنده أن يُنظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر، وكان يُعلّل لهم ما يأمرهم به قائلاً: لعل الله يتجاوز عنا، فحقّق الله رجاءه فيه فتجاوز عنه، وغفر له.

إنّ هذا النمط من التعامل يمثل النمط الذي يُريده الإسلام، وهو يقوم على التساهل في البيع والشراء والتسامح حين التعامل، وإنظار الموسرين، والتجاوز عن المعسر... وقد دعا الرسول ﷺ لمن يتصف بهذه الصفات فقال: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، سَمَحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمَحًا إِذَا قَضَى، سَمَحًا إِذَا اقْتَضَى»^(٣).

(١) سورة فصلت: الآية: (٣٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٩٣).

(٣) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٢٣٨-٢٣٩).

✽ فالرجل كان في قلبه رحمة لكل من حوله.. فكان يتيسر على الموسر -
 أى الغنى - وهو يعلم أنه يمتلك مالا ويستطيع السداد.. ومع ذلك كان يتجاوز
 عن بعض ما عنده وكان يؤجله أحياناً ويلتمس له الأعداء..

وكان يُنظر المعسر الفقير فيمد له في الأجل.. فإذا حان وقت السداد ولم يكن
 عنده مال أمهله مدة أخرى ولم يطالبه حتى يدفع هو بنفسه ما عليه بنفس طيبة.
 فقال له الله ﷻ: «أنا أحقُّ بذا منك، تجاوزوا عن عبدى»... وفي رواية: «فأدخله
 الله الجنة» فيا ليتنا نترحم فيما بيننا حتى نفوز برحمة الله ورضوانه وجنته.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: فَضْلُ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَالْوَضْعِ عَنْهُ، إِمَّا كُلُّ الدَّيْنِ وَإِمَّا
 بَعْضُهُ مِنْ كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ، وَفَضْلُ الْمُسَامَحَةِ فِي الْاِقْتِضَاءِ وَفِي الْاِسْتِيفَاءِ سِوَاءِ
 اسْتَوْفَى مِنْ مُوسِرٍ أَوْ مُعْسِرٍ، وَفَضْلُ الْوَضْعِ مِنَ الدَّيْنِ وَأَنَّهُ لَا يَحْتَقِرُ شَيْئًا مِنْ
 أَعْمَالِ الْخَيْرِ فَلَعَلَّهُ سَبَبُ السَّعَادَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَفِيهِ جَوَازُ تَوَكُّلِ الْعَبِيدِ وَالْإِذْنِ لَهُمْ
 فِي التَّصَرُّفِ، وَهَذَا عَلَى قَوْلٍ مِنْ يَقُولُ: شَرَعُ مِنْ قَبْلُنَا شَرَعٌ لَنَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤) فضل عيادة المريض

❁ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضٌ فَلَمْ تَعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟»^(١)

❁ هذا الحديث ليس فيه إشكال في قوله تعالى: «مرضت فلم تعدني»؛ لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض، لأن المرض صفة نقصٍ.. والله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن كل نقص... قال الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لكن المراد بالمرض مَرَضٌ عَبْدٌ من عباده الصالحين... وأولياء الله سبحانه وتعالى هم خاصته... ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضًا «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَّهُ بِالْحَرْبِ»^(٢). يعني مَنْ يَعَادِي أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مُحَارِبٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ - وَإِنْ كَانَ لَمْ يُعَادِ اللَّهَ عَلَى زَعْمِهِ - لَكِنَّهُ عَادَى أَوْلِيَاءَهُ وَحَارِبَهُمْ... كذلك إذا مرض عبدٌ من عباد الله الصالحين فإن الله سبحانه وتعالى يكون عنده؛ ولهذا قال: «أما إنك لو عُدته لوجدتني عنده» ولم يَقُلْ: لوجدت ذلك عندي كما قال في الطعام والشراب بل قال: «لوجدتني عنده» وهذا يدل على قرب المريض من الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

ولهذا قال العلماء: إن المريض حَرِيٌّ بِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ إِذَا دَعَا لِشَخْصٍ أَوْ دَعَا عَلَى شَخْصٍ، وفي هذا دليل على استحباب عيادة المريض، وأن الله سبحانه وتعالى عند المريض وعند مَنْ عاده؛ لقوله: «لوجدتني عنده» وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغى أن يقوله له العائد.

«يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمني» يعنى طلبتُ منك طعامًا فلم تُطعمني... ومعلوم أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه.. لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو غنيٌّ عن كل شيء لا يحتاج لطعام ولا شراب... لكن جاع عبدٌ من عباد الله فعلم به شخص فلم يُطعمه... قال الله تعالى: «أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي» يعنى لوجدت ثوابه عندي مُدْخَرًا لك، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة... وفي هذا دليل على استحباب إطعام الجائع، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

«يا ابن آدم استسقيتك - أى طلبت منك أن تسقيني - فلم تسقني» قال: كيف أسقيك وأنت رب العالمين! يعنى لستَ في حاجة إلى طعام ولا شراب قال: «أما علمت أن عبدى فلانًا استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» فيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء مَنْ طلب منك السُّقْيَا، وأنت تجد ذلك عند الله مُدْخَرًا، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

والشاهد من هذا الحديث الجملة الأولى منه وهى قوله: «مرضت فلم تُعدني» فيه دليل على استحباب عيادة المريض ^(١).

❁ وهناك أحاديث أخرى قد وردت في فضل عيادة المرضى، ومنها:

❁ عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ



يَزَلُّ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «جَنَاهَا»^(١).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يَصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خُرَيْفٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٨) كتاب البر والصلة والآداب.

جناها: أى ما اجتنى من الثمر.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).

«الخريف»: الثَّمَرُ المَخْرُوفُ، أى: المُجْتَنَى.

(١٠٥) كلمات.. مَنْ قالها في مرضه ثم مات لم تمسه النار

عن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة رضي الله عنهما أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ فَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي فَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا شَرِيكَ لِي فَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِي الْحَمْدُ فَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي مَنْ رَزَقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»^(١).

فتلك أربع جمل إذا قالها العبد أجابه الحق (جل وعلا) مُصدقاً له.

فأولها: «لا إله إلا الله والله أكبر»...

«لا إله إلا الله» كلمة التوحيد، فإذا مُتَّ مُتَّ على هذه الكلمة... وفي حديث النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فإذا وفق الله العبد وهو يموت لأن يقول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» استحق الجنة... ثم تقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، فتفرده وحده بالعبادة، ولا تشرك به شيئاً، ولا تشرك معه أحداً سبحانه وتعالى... ثم تقول: «لا إله إلا الله له الملك وله الحمد»، فتثبت لله الغنى سبحانه، وتثبت لله ملك كل شيء سبحانه وتعالى، وتثبت لله أنه وحده الذى يستحق الحمد ويستحق الثناء الحسن بأفعاله الجميلة، وصفاته الجليلة سبحانه وتعالى... ثم تقول: «لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فتبرأ من الحول ومن القوة، وتثبت كل شيء من القوة لله عز وجل، قائلاً: الملك لله

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب



سبحانه، والحمد لله، وأما أنا فلا أملك شيئاً، ولا حول ولا حيلة ولا قوة لى على شىء، إلا أن يُعيننى الله سبحانه وتعالى... فأثبت لله الوجدانية، وأثبت له العبادة، وأثبت له الربوبية بمقتضياتها، وأثنى على الله سبحانه وتعالى، وأتبرأ من الحول ومن القوة، وبذلك تستحق من الله أن يكرمك، ولا تَطعمك النار، ولا تدخل النار.

✽ فمن قال تلك الكلمات بصدق وإخلاصٍ موقناً بها قلبه فإنه لا تَطعمه النار، أى: يكون ذلك من أسباب تحريم الإنسان على النار. فينبغى للإنسان أن يحفظ هذا الذكر، وأن يُكثر منه فى حال مرضه حتى يُختم له بالخير إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦) إِنْ اللَّهُ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُدِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»^(١).

❁ «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»، فمن صفاته سبحانه وتعالى أنه طيب، ولا يُرفع إليه إلا العمل الطيب، ولا يقبل من عباده إلا العمل الطيب... قال عليه الصلاة والسلام: «وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» فيستوى الجميع عند الله سبحانه وتعالى في التقرب إليه بالشيء الطيب... فأمر المرسلين بقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢).

وقال للمؤمنين: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣)، (ثم ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ!)، والمسافر مستجاب الدعوة كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر ثلاثة يُستجاب لهم: فذكر المظلوم، وذكر المسافر، وذكر دعوة الوالد على ولده.

فالمسافر مع طول سفره كلما دعا استُجيب له، ولكن الإنسان هذا الذي

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٢) سورة المؤمنون: الآية: (٥١).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٧٢).



يأكل الحرام لا يستجيب له ربه، مع طول سفره ومع شعثه واغبرار وجهه، ومع كثرة ما يتعب في السفر، لكن لا يُستجاب له.

والله يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صِفراً خائبين.. ولكن هذا المسافر كان يتعمد أكل الطعام الحرام، سواء كان من سرقة أو من رشوة أو من سُحتٍ أو من غصبٍ... فهو طعام ليس حلالاً.. فكان يأكل الحرام ولا يتورع... ومشربه حرام كذلك، وملبسه حرام وغُذَى بالحرام فقد تَرَبَّى على هذا الشيء «فأنى يُستجاب له؟!».

فالمسافر يُستجاب له لو كان طيب المطعم وطيب المَشْرَب، وطيب المَلْبَس وهذا الذي يستحق أن يستجيب الله عَزَّوَجَلَّ له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧) الله يباهى بكم الملائكة

✽ عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: خَرَجَ معاوية رضي الله عنه على حَلَقَةٍ في المسجدِ، فقال: ما أَجَلَسَكُم؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذُكُرُ الله. قال: الله ما أَجَلَسَكُم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أَجَلَسْنَا إلا ذاك، قال: أما إنِّي لَمَ أُسْتَحَلِفُكُم تُهْمَةً لَكُم وما كانَ أحدٌ بمنزِلتي مِن رُسولِ الله صلَّى الله عليه وآله أَقلَّ عُنْهُ حَدِيثًا مِنِّي... وَإِنَّ رُسولَ الله صلَّى الله عليه وآله خرجَ على حَلَقَةٍ من أصحابه فقال: «ما أَجَلَسَكُم؟» قالوا: جَلَسْنَا نَذُكُرُ الله، ونحمدهُ على ما هَدانا للإسلام، وَمَنْ بِهِ علينا. قال: «الله ما أَجَلَسَكُم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أَجَلَسْنَا إلا ذاك. قال: «أما إنِّي لَمَ أُسْتَحَلِفُكُم تُهْمَةً لَكُم، ولكنَّهُ أتاني جبريلُ فأخبرني أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بِكُم الملائكة»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يحكى أبو سعيد الخدري أن معاوية رضي الله عنه خرج ذات يوم على حلقة في المسجد فقال لهم: «ما أَجَلَسَكُم؟»... أى: ما الذى جعلكم تجلسون في هذا المسجد هكذا؟ فقالوا له: جلسنا نذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.. فما كان من معاوية إلا أن استحلفهم وقال لهم: «الله ما أَجَلَسَكُم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أَجَلَسْنَا إلا ذاك.. أى: والله العظيم ما جلسنا إلا لنذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وحتى لا يظنوا أن معاوية كان يكذبهم قال لهم: «أما إنِّي لَمَ أُسْتَحَلِفُكُم تُهْمَةً لَكُم» وما كان أحدٌ بمنزِلتي من رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله أَقلَّ عُنْهُ حَدِيثًا مِنِّي.. إن رسول الله صلَّى الله عليه وآله خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أَجَلَسَكُم؟»..... فذكر لهم معاوية مثل الذى حدث معهم وأن النبي صلَّى الله عليه وآله قال لأصحابه: «أما إنِّي لَمَ أُسْتَحَلِفُكُم تُهْمَةً لَكُم، ولكنَّهُ أتاني جبريلُ فأخبرني أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بِكُم الملائكة».

فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء.



الملائكة فيقول مثلاً: انظروا إلى عبادي اجتمعوا على ذكرى وما أشبه ذلك مما فيه المباهاة.. ولكن كما أسلفنا ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوتٍ واحد ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن وما أشبه ذلك... فإنَّ ذِكرَ نعمة الله مِنْ ذِكرِ الله عَزَّوَجَلَّ فيكون في هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذكروا نعمة الله عليهم... ولهذا كان بعض السلف إذا مرَّ بأخيه أو أتاه أخوه قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. أى اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا... فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع.

وقد يكون جلوسهم واجتماعهم من أجل مُدارسة القرآن أو مدارسة بعض العلوم الشرعية.. فكل ذلك يدخل تحت مظلة الجلوس لذكر الله. نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨) الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

✽ عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «قال موسى النبي صلى الله عليه وسلم: يا رب إنك تغلق على عبدك المؤمن الدنيا! ففتح الله له بابًا من أبواب الجنة، فقال: هذا ما أعددتُ له، قال: وعزتك وجلالك وارتفاع مكانك لو كان أقطع اليدين والرجلين يُسحبُ على وجهه منذ خلقته إلى يوم القيامة ثم كان هذا مصيره لكان لم يرَ بأسًا قط... قال: يا رب إنك تعطي الكافر في الدنيا.. ففتح له بابًا من أبواب النار فقال: هذا ما أعددتُ له. فقال: يا رب وعزتك لو أعطيته الدنيا وما فيها لم يزل في ذلك منذ خلقته إلى يوم القيامة ثم كان هذا مصيره كأن لم يرَ خيرًا قط»^(١).

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٢).

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: قوله صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» معناه أن كلَّ مؤمنٍ مسجونٍ ممنوعٍ في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلفٌ يفعل الطاعات الشاقة... فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعدَّ الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان. وأمَّا الكافرُ فإنَّما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلبه وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد^(٣).

✽ وقال الإمام ابن القيم رحمته الله:

«الدنيا سجن المؤمن» فيه تفسيران صحيحان:

أحدهما: أن المؤمن قيده إيمانه عن المحظورات، والكافر مُطلق التصرف.

(١) رواه الديلمي بسند صحيح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/١٢٤-١٢٥).



الثانى: أن ذلك باعتبار العواقب... فالمؤمن لو كان أنعم الناس فذلك بالإضافة إلى مآله في الجنة كالسجن... والكافر عكسه، فإنه لو كان أشد الناس بُؤسًا فذلك بالنسبة إلى النار جنته^(١).

❁ وهنا قصة عجيبة للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمته الله: وهى أنه خرج يومًا بأبته - وكان رئيس القضاة بمصر - فإذا برجل يهودى، فى حالة رثة، فقال اليهودى: قف يا إمام لأسألك عن شىء.. فوقف ابن حجر. فقال له: كيف تُفسر قول رسولكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وها أنت ترانى فى حالة رثة وأنا كافر، وأنت فى نعيم وأبته مع أنك مؤمن؟!.... فقال ابن حجر: أنت مع تعاستك وبؤسك تُعدُّ فى جنة بالنسبة لما ينتظرُك فى الآخرة من عذابٍ أليم - إن مت كافرًا -.

وأنا مع هذه الأبته - إن أدخلنى الله الجنة - فهذا النعيم الدنيوى يُعدُّ سجنًا بالمقارنة مع النعيم الذى ينتظرنى فى الجنات - إن مت على الإيمان والتوحيد-.
فقال: أكذلك؟ قال: نعم. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٧).

(٢) إنها الجنة يا أختاه/ د. محمود المصرى (ص: ٦٦).

(١٠٩) تحية المسلمين

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عليه السلام قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ - نَفَرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ»^(١).

وفي رواية: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ - نَفَرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ»^(٢).

ففي هذا الحديث أن الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام واستوى وأصبح إنساناً كامل الخلقة والصورة قال له عز وجل: «اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ» - نفرٍ من الملائكة جُلُوسٌ - ... فأمره أن يبدأ هو بالسلام لتتعلم ذريته من بعده أن يبدأ كل واحدٍ منهم أخاه بالسلام ولا ينتظر أن يُسلم عليه هو..

ثم قال له عز وجل: «فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ». فذهب آدم عليه السلام امثالاً لأمر الله عز وجل فسَلِّمْ على الملائكة وقال لهم: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ».

ففي هذا الحديث دليل على:

(١) أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم وأنها لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل... كما قال الله عز وجل: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٧) كتاب الاستئذان.



مَذْكُورًا ﴿١﴾ ، فهذه البشرية لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل فخلقها الله وأوجدها لحكمة عظيمة.

(٢) أن الملائكة أجسام وليست أرواحًا بلا أجسام... لأنهم جلوس والجالس يعنى أنه جسم... وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التى خُلق عليها له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿جَاعِلِ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِيْٓ اَجْنِحٰتٍ﴾ (٢) فالملائكة أجسام ولكن الله عزَّوَجَلَّ حجبهم عنَّا وجعلهم عالمًا غيبياً كما أن الجن أجسام ولكن الله عزَّوَجَلَّ حجبهم عنَّا فجعلهم عالمًا غيبياً... وقد تظهر الملائكة فى صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة دحية الكلبي ومرة بصورة رجل غريب لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة.

❁ ومن فوائد هذا الحديث:

(٣) أن السُّنة فى السلام (السلام عليك) إذا كان المُسلم عليه واحداً وإذا كانوا جماعة تقول (السلام عليكم) لأن الواحد يُخاطَب بخطاب الواحد والجماعة تُخاطَب بخطاب الجماعة.

(٤) أن السلام مُتلقن من الملائكة بأمر الله حيث قال سبحانه وتعالى إنها تحيتك وتحية ذريتك.

(٥) أن الأفضل فى ردِّ السلام أن يزيد الإنسان ورحمة الله لأن الملائكة زادوا (ورحمة الله)... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَحَيُّوْا بِاِحْسَنِ مِّنْهَا﴾ فبدأ بالأحسن ﴿اَوْرُدُوْهَا﴾ إذا لم تردوا الأحسن (٣).

(١) سورة الإنسان: الآية: (١).

(٢) سورة فاطر: الآية: (١).

(٣) شرح رياض الصالحين (٨/٣).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ أَنَّ الْوَارِدَ عَلَى جُلُوسٍ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَقُولَ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ ... وَلَوْ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَفَاهُ وَأَنَّ رَدَّ السَّلَامِ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ فِي الرَّدِّ أَنْ يَقُولَ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَقُولَ وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ: «فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»: أَيُّ أَنَّ كُلَّ قَرْنٍ يَكُونُ نَشْأَتُهُ فِي الطُّوْلِ أَقْصَرَ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَانْتَهَى تَنَاقُصُ الطُّوْلِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح مسلم (٩/١٩٥).

(٢) فتح الباري (٦/٤٢٣).



(١١٠) فضل من مات صفيهُ فصبر واحتسب

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ»^(١).

✽ فهذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن رب العزة (سبحانه وتعالى)... فهو حديثٌ قُدسي - كما يُسميه أهل العلم -.

فيخبر النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ قال: «مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ».

فيخبر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أن المؤمن فقط هو الذي يحتسب ويصبر ويرجو الأجر والثواب من عند الله (جلَّ وعلا).. وأن غير المؤمن قد يصبر لكنه لا يحتسب ولا يرجو الأجر والثواب من عند الله.

والصَّفِيُّ: مَنْ يَصْطَفِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَخْتَارُهُ مِنْ وَلَدٍ، أَوْ أَخٍ، أَوْ عَمٍّ، أَوْ أَبٍ، أَوْ أُمٍّ، أَوْ صَدِيقٍ... المهم أن ما يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنه ذو صلة منه قوية. إذا أخذهُ اللهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ احْتَسَبَهُ الْإِنْسَانُ، فَلَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ.

ففي هذا: دليل على فضيلة الصَّبْرِ على قبض الصَّفِيِّ من أهل الدنيا وأن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يجازي الإنسان إذا احتسب صفيهِ بالجنة.

✽ ففي هذا الحديث أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أرحم بعباده من رحمة الأم بطفلها الرضيع.. فهو وإن حَرَمَ العبد من أحد أحبابه إلا أنه جعل ثوابه الجنة إن صبر واحتسب...

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

❁ وأن الشر لا يُنسب إلى الله... فإذا فقد الإنسان أحد أحبائه فقد يكون موت هذا الحبيب شرًّا من وجهة نظر الذي فقده لكنه عين الخير في تقدير الله ﷻ. فقد قدر الله له ذلك من أجل حكمة لا يعلمها إلا الله... ومن أجل حكمة أخرى ألا وهي أن يصبر ويحتسب فيفوز بجنة عرضها السماوات والأرض... فما أرحم الله الذي قال في كتابه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وفي هذا الحديث أيضاً من الفوائد: الإشارة إلى أفعال الله، من قوله: «إذا قبضت صَفِيَّةُ» ولا شك أن الله سبحانه فعَّالٌ لما يريد، ولكن يجب علينا أن نعلم أن فعل الله تعالى كله خير، لا يُنسب الشرُّ إلى الله أبداً... والشر إذا وقع فإنما يقع في المفعولات ولا يقع في الفعل.

فمثلاً إذا قدر الله على الإنسان ما يكره، فلا شك أن ما يكرهه الإنسان بالنسبة إليه شر. لكن الشر في هذا المُقدَّر لا في تقدير الله، لأن الله تعالى لا يُقدره إلا لحكمة عظيمة، إما للمُقدَّر عليه وإما لعامة الخلق أحياناً... وأحياناً تكون الحكمة خاصة في المقدر عليه، وأحياناً في الخلق على سبيل العموم.

المُقدَّر عليه إذا قدر الله عليه شرًّا وصبر واحتسب نال بذلك خيراً، وإذا قدر الله عليه شرًّا ورجع إلى ربه بسبب هذا الأمر... لأن الإنسان إذا كان في نعمة دائماً قد ينسى شُكر المُنعم ﷻ ولا يلتفت إلى الله... فإذا أصيب بالضراء تذكَّر ورجع إلى ربه سبحانه وتعالى، ويكون في ذلك فائدة عظيمة له.

أما بالنسبة للآخرين، فإن هذا المُقدَّر على الشخص إذا صرَّه قد ينتفع به الآخرون.

ولنضرب لذلك مثلاً برجلٍ عنده بيت من الطين، فأرسل الله مطراً غزيراً دائماً، فإن صاحب هذا البيت يتضرر، لكن المصلحة العامة للناس مصلحة ينتفعون بها.



فصار هذا شراً على شخص وخيراً للآخرين، ومع ذلك فكونه شراً لهذا الشخص أمر نسبي، إذ إنه شراً من وجهٍ لكنه خيرٌ له من وجهٍ آخر. فيتعظ به ويعلم أن الملجأ هو الله عَزَّوَجَلَّ، لا ملجأ إلا إليه، فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حصل له من المضرة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١ / ١١١-١١٢).

(١١١) التحذير من التآلى على الله..

وتقنيط الناس من رحمته ﷺ

✽ عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ»^(١).

✽ وهناك رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية.. فلقد قال رسول الله ﷺ:

«كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، وَكَانَ لَا يَرَى الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَّيْتُ وَرَبِّي أَبْعَثَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبِضْ رُوحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَيَّ مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟! وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»^(٢).

✽ يخبرنا النبي ﷺ في هذين الحديثين عن قصة رجلٍ كان عابداً لكنه كان مُعجَباً بعمله مُحتقراً لمن حوله..

وكان له صاحبٌ يقع كثيراً في المعاصي.. فكان ينصحه ولكن بكل كبر واحتقار.. وفي يومٍ من الأيام تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته، على الرغم من اجتهاده في العبادة، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر... فقد حلف - لما رأى صاحبه على ذنب - أن الله لا يغفر له.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٥٥).



وكان صاحبه يكثر من الذنوب، وهو يُكثر من نبيه عنها... فأغضب ربه عليه بحلفه الذى حلفه... فرحمة الله واسعة، ولا يُعجزه أن يغفر لأحدٍ من خلقه مهما عَظُمَ ذنبه... لقد غفر الله للمذنب وأدخله الجنة، وأمر بالمجتهد إلى النار من أجل تلك الكلمة.

❁ وفي الحديث الثانى يحدثنا الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن رجلين من بنى إسرائيل، كانا صديقين متآخيين، وكان أحدهما مجتهداً فى عبادته، والآخر مُقَصِّراً فى أداء ما وجب عليه.

وكان المجتهد فى العبادة يرى صاحبه يرتكب الذنوب والمعاصى، فينكر عليه وينهاه... وهذا أمرٌ طيبٌ مطلوبٌ مشروع، وقد جاءت الشرائع كلها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر... وكان الرجل المذنب يضيق ذرعاً بإنكار صديقه عليه، ولما اشتد عليه صاحبه بالإنكار يوماً، قال له: خلّنى وربى، أبعث على رقيباً؟ عند ذلك حلف العابد - ويا لهول ما حلف - فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الله الجنة.

وما كان لهذا العابد أن يتألّى على الله **بِرَّوْكَانٍ**... فالله له الأمر كله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن... يهب الخيرات ويمسكها، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء... يهدى ويضل، وما كان لعبدٍ من عباد الله أن يُحجّر على ربه أن يغفر لفلان أو يحبط عمل فلان... لقد تكلم هذا المسكين - كما قال أبو هريرة راوى الحديث - بكلمة أوبقت عليه دُنياه وآخرته، فقد قبض الله روحيهما، فاجتمعا عنده، وقال لذلك المُتألّى: مُوبِّخاً له ومُؤنِّباً: أَوَكنت بى عالمًا؟ أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟ وأمر بإدخاله النار، وأمر بإدخال المذنب الجنة.

عبر الحديث وقوائده

(١) القول على الله بغير علم من أعظم الكبائر التى تُوبق عمل صاحبها،

ومن ذلك دعوى هذا الرجل أن الله لا يغفر لفلان... فالله لا يُعجزه شيء أرادته، ورحمته واسعة.

(٢) على المسلم أن يتوَّخى الحيطة والحذر في معاملته لربه تبارك وتعالى، فيقف موقف العبودية، يعمل بطاعة الله، ويأتمر بأمره، ويصبر على دعوة الناس، ولا يتسرع في الحكم عليهم.

(٣) الخوف من سوء الخاتمة، فقد دخل العابد النار، ودخل العاصي الجنة. (٤) في الحديث دليل لأهل السنة الذين يقولون بأن الله يغفر الذنوب من غير توبة إن شاء، كما غفر لهذا العاصي، وهو مُصِرٌّ على ذنوبه كما يدل عليه الحديث^(١). وكما تدل عليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَنَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ». معنى «يتألى» يحلف، والآية اليمين.

وفيه: دلالة لمذهب أهل السنة في عُفْرَانِ الذُّنُوبِ بِلَا تَوْبَةٍ إِذَا شَاءَ اللَّهُ غُفْرَانَهَا، وَاحْتَجَّتِ الْمُعْتَزَلَةُ بِهِ فِي إِحْبَاطِ الْأَعْمَالِ بِالْمَعَاصِي الْكَبَائِرِ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهَا لَا تُحْبَطُ إِلَّا بِالْكَفْرِ، وَيَتَأَوَّلُ حُبُوطُ عَمَلِ هَذَا عَلَى أَنَّهُ أُسْقِطَتْ حَسَنَاتُهُ فِي مُقَابَلَةِ سَيِّئَاتِهِ، وَسُمِّيَ إِحْبَاطًا مَجَازًا... وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ جَرَى مِنْهُ أَمْرٌ آخَرُ أَوْجَبَ الْكُفْرَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي شُرْعٍ مِنْ قَبْلِنَا وَكَانَ هَذَا حُكْمَهُمْ^(٢).

بَابُ تَوْجِيهِ

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٢-٣٤٣) بتصرف.

(٢) شرح مسلم (٨/٤٢٢).

تحریم الرياء (١١٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

قال الإمام النووي رحمته الله:

مَعْنَاهُ - أَى الْحَدِيثِ - أَنَا غَنَى عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا، فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِي وَغَيْرِي لَمْ أَقْبَلْهُ، بَلْ أَتْرَكُهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ... والمراد أن عمل المُرَائِي باطل لا ثواب فيه، وَيَأْتُمُّ بِهِ^(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

هذا الحديث القدسي يقول الله تعالى فيه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»، الشركاء: كل محتاج إلى الآخر وكل محتاج إلى شركته ونصيبه وحصته لا يتنازل أحدٌ للآخر عن نصيبه... فمثلاً دارٌ بين اثنين كلٌّ منهما محتاج للآخر، لو حصل في الدار خلل أو احتاجت إلى تعمیر صار الشريك لا بد أن يقول لشريكه الثاني: أعطني نصيبي حتى نُعمر البيت، وصار كل إنسان متمسكاً بنصيبه من هذا البيت.

أما الله تعالى فهو الغنى عن كل شيء، غنى عن العالمين، إذا عمل الإنسان عملاً لله ولغير الله تركه الله... لو صلى الإنسان لله وللناس لم يقبل الله صلاته، لا يقال: إنه يقبل نصفها ويترك نصفها، أو يقبلها قبولاً نصفياً، لا... لا يقبلها أبداً. لو تصدق الإنسان بصدقة يرأى بها الناس فإنها لا تقبل منه؛ لأن الله تعالى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) شرح مسلم (٣٤٣/٩).

أغنى الشركاء عن الشرك... إذا عمل الإنسان عملاً أشرك فيه مع الله غيره فإن الله لا يقبله منه.

وفي هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة فإنها لا تقبل... فلو أن الإنسان صلى أول ما صلى وهو يرائي الناس لأجل أن يقولوا: فلان ما شاء الله يتطوع، يصلى ويكثر الصلاة. فإنه لا حظَّ له في صلاته ولا يقبلها الله **عَزَّوَجَلَّ** حتى لو أطال ركوعها، وسجودها وقيامها وقعودها، وصار لا يتحرك، وصارت عينه في موضع سجوده فهي غير مقبولة لماذا؟ لأنه أشرك مع الله غيره.. فهو يصلى لله والناس.

كذلك رجلٌ تصدق، صار يُراعى الفقراء ويعطيهم لكنه يرائي الناس من أجل أن يقولوا: فلان ما شاء الله رجل جواد كريم يتصدق، فهذا أيضًا لا يقبل منه.

وإن أنفق ماله كله لأن الله يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». وعلى هذا فقس، لكن إن طرأ الرياء على الإنسان... يعنى رجل مخلص شرع في الصلاة ثم صار في قلبه شيء من الرياء فهذا إن دافعه فلا يضره؛ لأن الشيطان يأتي للإنسان في عبادته التي هو مخلص فيها من أجل أن يفسدها عليه... ولا ينبغي للعبد أن يكون ذليلاً أمام ما يُلقيه الشيطان من الرياء، بل يجب أن يصمد وأن يستمر في عبادته ولا يقول: لقد صار الرياء في عبادتي وأخاف أن تبطل... لا بل يستمر والشيطان إذا دحرتة اندحر ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ الذى يخنس ويولى مدبراً إذا رأى العزيمة، فأنت اعزم ولا تشغل به فهذا لا يضرك... أما إذا طرأ عليه الرياء بعد أن بدأ الصلاة مخلصاً لله ثم طرأ عليه الرياء واستمر على الرياء - والعياذ بالله - فإنها تبطل الصلاة كلها من أولها إلى آخرها؛ لأنها - أى الصلاة - إذا بطل آخرها بطل أولها^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٦٥-٢٦٦) بتصرف.



❁ وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ:

(أ) بَيَانُ غِنَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ».

(ب) بَيَانُ عِظَمِ حَقِّ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْرِكَ أَحَدًا مَعَ اللَّهِ فِي حَقِّهِ.

(ت) بُطْلَانُ الْعَمَلِ الَّذِي صَاحَبَهُ الرِّيَاءُ؛ لِقَوْلِهِ: «تَرَكْتَهُ وَشْرَكَهُ».

(ث) تَحْرِيمُ الرِّيَاءِ؛ لِأَن تَرَكَ الْإِنْسَانَ وَعَمَلَهُ، وَعَدَمُ قَبُولِهِ، يَدُلُّ عَلَى

الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو محرم.

(ج) أَنَّ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ لَا حَصْرَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ

وَلَا يَزَالُ فِعَالًا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/٦٩) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١١٣) ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ بِدَاكِ» (١).

وفي رواية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: رجلٌ على فضلٍ مائه بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجلٌ بايع رجلاً سلعةً بعد العصرٍ فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا، فصدّقه وهو على غير ذلك، ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفّى، وإن لم يعطه منها لم يف» (٢).

«ثلاثة لا يكلمهم الله» يعنى: ثلاثة أصناف وليس المقصود ثلاثة أشخاص.. «لا يكلمهم الله» قد يكون المراد أنه سبحانه وتعالى لا يكلمهم عقوبة لهم على ما فعلوه.. وقد يكون المراد أنه (جل وعلا) لا يكلمهم التكليم الذى فيه راحتهم وسعادتهم، وإلا فإن التكليم يمكن أن يكون على وجه التبكيت والتقريع... ومنه قول الله عز وجل: ﴿قَالَ أَخْسَأُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (٣) وهذا كلام، لكنه كلام فيه تقريع وتبكيت لا يحصلون من ورائه على السرور

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٦٩) كتاب الشرب والمساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٨) كتاب المساقاة - ومسلم (١٠٨) كتاب الإيمان.

(٣) سورة المؤمنون: الآية: (١٠٨).

والارتياح والاطمئنان... فهذا لا ينافي ما جاء من أن الله تعالى يخاطب الكفار ويقول: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُون﴾؛ لأن المنفى غير المثبت.

❁ الأول: «رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ» ابن السبيل هو عابر السبيل، سواء كان بنفسه أو معه راحلته أو رواحله، فإن الماء يُدَلُّ له، ولا يُحال بينه وبينه... لكن هذا الإنسان كان عنده ماء من مزرعة أو بئرٍ أو غير ذلك.. وكان في أرضٍ صحراوية خالية من السكان.. فإذا مرَّ أمامه عابر سبيلٍ وطلب منه الماء فإنه يمنعه من الماء... هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم... وما بالك بحال رجل هذا حاله.. لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم يوم القيامة.

الثانى: وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لِأَخَذِهَا بِكَذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

يعنى: حلف كاذبًا ليخدع المشتري ويروج سلعته.

وذكر النبي ﷺ العصر؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة في غير هذا الوقت أيضًا فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

كما جاء في الحديث الآخر: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطَى شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ»^(١) أى: المروج لها، الذى يأتى بما يجعل المشتري يغير بحلفه وبكلامه الذى فيه ترويحٌ لها.

فدل ذلك على أن ذكر وقت العصر في حديث أبى هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد. وإلا فكل من حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

ثمنها فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزيه وله عذاب أليم.

وقيل: إن الوقت الذي بعد العصر من الأوقات التي تكون فيها الأيمان مغلظة... وقد سبق أن مررنا تغليظ اليمين بالمكان، كما جاء في الحلف عند منبر النبي ﷺ... وهذا من حيث الزمان.

❁ الثالث: «وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ».

يعنى: بايع إمامه أو إمام المسلمين من أجل الدنيا، لا من أجل أن يقوم بالشىء الذى يجب عليه، وإنما بايع من أجل الدنيا، فإن حصل له الذى بايع من أجله رضى، وإن لم يحصل ذلك فإنه يسخط... فبيعته إنما هى من أجل الدنيا، وليست من أجل السمع والطاعة فى المعروف على الوجه الذى شرعه الله ﷻ فى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (١).

المهم هذه ثلاثة أشياء إذا صارت فى الإنسان فإن الله لا يكلمه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزيه وله عذاب أليم.

وفى هذا الحديث دليل على: ثبوت كلام الله ﷻ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يعجزه ولا يمتنع عليه شىء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢). ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٣).

فقوله: «لا يكلمهم الله» دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك... وفيه أن الله ينظر نظرين: الأول: العام فإنه لا يخفى على نظره شىء ﷻ... يرى كل شىء.

(١) سورة النساء: الآية: (٥٩).

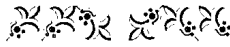
(٢) سورة يس: الآية: (٨٢).

(٣) سورة فاطر: الآية: (٤٤).



والثاني: الخاص وهو نظر الرحمة وهو المعنى في الحديث فإن الله لا ينظر إليهم
نظر رحمة.

وفيه أيضاً دليل على أن الله هو المُزكى للعباد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ
اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾^(١)، فالمُزكى للأُمور وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين
عَزَّوَجَلَّ... فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكاه ربه إنه على كل شيء
قدير^(٢).



(١) سورة النور: الآية: (٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٠) بتصرف.

(١١٤) النهي عن قول الإنسان: مطرنا بنوء كذا

عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرُونَ ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافرٍ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافرٍ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٍ بي مؤمنٌ بالكوكب»^(١).

ففي هذا الحديث يحكى زيد بن خالد رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في الحديبية... والحديبية غزوة مشهورة معروفة... وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى مكة معتمرًا ومعه الإبل - الهدى -، فلما وصل إلى الحديبية وهي أرض بين الحِلِّ والحرم، منعته قريش أن يدخل مكة، وجرى بينهم وبين النبي ﷺ ما هو معروف من المصالحة... لكن في إحدى الليالي، صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم وقال: «هل تدرُونَ ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم... وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن يتبهاوا؛ لأن إلقاء الأسئلة يُوجب الانتباه... قالوا: الله ورسوله أعلم. وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم... في الأمور الشرعية.

فأخبرهم النبي ﷺ أن الله ﻻ يقول: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافرٍ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافرٍ بالكوكب، وأما من قال:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٦) كتاب الأذان - ومسلم (٧١) كتاب الإيمان.



مُطْرِنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ».

فلاستسقاء بالأنواء: أن يُطلب من النجم أن يُنزل الغيث... ويدخل فيه أن يُنسب الغيث إلى النجم، كما كان أهل الجاهلية يزعمون، فكانوا إذا نزل مطر في وقت نجمٍ مُعيَّن نسبوا المطر إلى ذلك النجم، فيقولون: مُطْرِنَا بِنَوْءِ كَذَا، أو هذا مطر الوسمى، أو هذا مطر الثُّريا، ويزعمون أن النجم هو الذى أنزل هذا الغيث^(١).

❁ والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن ينسب المطر إلى النجم معتقداً أنه هو المُنزل للغيث بدون مشيئة الله وفعله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا شركٌ أكبر بالإجماع^(٢).

القسم الثانى: أن ينسب المطر إلى النَّوءِ معتقداً أن الله جعل هذا النجم سبباً في نزول هذا الغيث... فهذا من الشرك الأصغر^(٣)؛ لأنه جعل ما ليس بسبب سبباً^(٤)، فالله تعالى لم يجعل شيئاً من النجوم سبباً في نزول الأمطار، ولا صلة للنجوم بنزولها بأى وجه، وإنما أجرى الله العادة بنزول بعض الأمطار في وقت بعض النجوم.

هذا وإذا قال المسلم: «مُطْرِنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا» ومقصده أن الله أنزل المطر في

(١) ينظر: التمهيد (١٦/٢٨٧، ٢٨٨)، شرح السنة (٤/٤٢٠).

(٢) قال في الفروع (٢/١٦٣): «وإضافة المطر إلى النَّوءِ دون الله كفرٌ إجماعاً». وهذا شرك في الربوبية... ومن الشرك الأكبر في هذا الباب: أن يدعو النجم أن يُنزل الغيث... وهذا شرك أكبر في الربوبية والألوهية.

(٣) بعض العلماء يسمي هذا الشرك بـ«كفر النعمة»؛ لأنه نسب إنعام الله تعالى عليه بالغيث إلى النجم، وجعله سبباً في ذلك، مع أن الله لم يجعله سبباً - المعلم (١/٣٣٢)، الفروع (٢/١٦٣).

(٤) القول المفيد - باب ماجاء في الاستسقاء بالأنواء (٢/١٩).

وقت هذا النجم^(١)، معتقداً أنه ليس للنجم أدنى تأثير لا استقلالاً ولا تسبباً فقد اختلف أهل العلم في حكم هذا اللفظ: فقيل: هو محرم^(٢).

وقيل: مكروه^(٣). وقيل: مباح^(٤)، ولا شك أن هذا اللفظ ينبغى تركه، واستبداله بالألفاظ الأخرى التي لا إيهاً فيها... فإما أن يقول: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، أو يقول: «هذه رحمة الله»، وهذا هو الذى ورد الشاء على من قاله، كما سبق فى النصوص... فهو أولى من غيره، وإما أن يقول: «هذا مطر أنزله الله فى وقت نجم كذا»، أو يقول: «مُطرنا فى نوء كذا»^(٥)، ونحو ذلك من العبارات الصريحة التى لا لبس ولا إشكال فيها^(٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) لأن الباء تأتى للظرفية بمعنى «فى»، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُورُنْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ۗ﴾ [القمر: ٣٤]، لكن الباء أظهر فى كونها للسببية - ينظر: معنى اللبيب (١/١٢١)، القول المفيد (٢/٣١).

(٢) الفروع: صلاة الاستسقاء (١/١٦٣).

(٣) الأذكار للنووى (ص ٣٠٨)، شرح مسلم للنووى (٢/٦١).

(٤) شرح السنة: الاستسقاء (٤/٤٢١)، النهاية (مادة: نوأ)؛ جامع الأصول: النجوم (١/٥٧٨).

(٥) معنى المحتاج: صلاة الاستسقاء (١/٣٢٦)، الفروع (١/١٦٣)، الإنصاف (٥/٤٣٩).

(٦) تسهيل العقيدة الإسلامية / أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٩-٤٣٤) بتصرف

(١١٥) تحريم تصوير ذوات الأرواح

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(١).

✽ قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ» أى: ليس هناك أظلم «مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» أى: باعتبار التصوير والتقدير.. وإلا فالخلق الذى هو الإيجاد لا يكون من غيره سبحانه وتعالى أصلاً «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» أى: نملة صغيرة أو ليخلقوا «حَبَّةً» من القمح «أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» لأنها من أنواع الحبوب أيضاً. وفي هذه المواضع، اللام على سبيل التعجيز والتبكيث... تارة بتكليفهم خلق حيوان وهذا أشد... وأخرى فى تكليفهم بخلق جماد، وهو أهون ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلك^(٢).

قال الإمام النووى رحمته الله: وَمَعْنَاهُ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فِيهَا رُوحٌ تَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهَا كَهَذِهِ الذَّرَّةِ الَّتِي هِيَ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى... وَكَذَلِكَ فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً حِنْطَةً أَوْ شَعِيرَةً أَى: لِيَخْلُقُوا حَبَّةً فِيهَا طَعْمٌ تُؤْكَلُ وَتُزْرَعُ وَتَنْبَتُ وَيُوجَدُ فِيهَا مَا يُوجَدُ فِي حَبَّةِ الحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الحَبِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى... وَهَذَا أَمْرٌ تَعَجِيزٌ كَمَا سَبَقَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

يعنى إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهاوا خلق الله فليخلقوا حبة من طعام، ولتكن من البر... لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة فإنهم لا يستطيعون.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٥٩) كتاب التوحيد - ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس.

(٢) دليل الفالحين (٤/٤٣٤).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٤/١٣٢).

❁ إن الخَلْقَ في اللغة خَلَقان: خَلَقَ بمعنى الإيجاد والتكوين من العدم، وخالقٌ بمعنى التحويل... والله ﷻ له الخَلْقُ المُطْلَق، أى: الإيجاد والتكوين الأصلي... وأما الذى يُطْلَقُ عليه خالق من دون الله ﷻ فإنما يُطْلَقُ عليه ذلك مَجَازًا، فيُقَالُ للنجار الذى يصنع هذا الطاولة مثلاً: قد خلقها وصنعها وفطرها، وليس معنى ذلك أنه خلقها من عدم... فمادة هذه الطاولة هى من خلق الله ﷻ، ولو اجتمع أهل الأرض جميعاً على أن يصنعوا ويخلقوا هذا الخشب فلن يقدروا على ذلك؛ لأن هذا هو ما تَفَرَّدَ اللهُ ﷻ به منذ الأزل.

❁ ويُستفاد من هذا الحديث:

تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مُضاهياً لله في صنعه... والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أى: ما له جسم على هيكل إنسان أو بغير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه... فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صَوَّرَ عبثاً؛ يعنى: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهى خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبيٍّ ليُهَدِّثَهُ به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يُشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها... ولهذا لو أن إنساناً لبس لبساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم تُرده، وكذلك لو أن أحداً تشبَّه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم تُرده.



الحال الثانية: أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أى تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يُعدُّ تصويراً؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن مُتفقون على أن هذه صورة؛ فحركته تُعتبر تصويراً، فيكون داخلًا في العموم.

القول الثانى: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المُصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابًا في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخصٌ أُمى لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة.... وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مُبدعاً ولا مُخططاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مُباحاً؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا؛ فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذُّذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرضٍ مباح كما يوجد في البطاقة والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذا يكون مُباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذى يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذى تخرج منه الصورة الفورية بدون عمل: لا تحميض ولا غيره، وقال: صوّرنى، فصوِّره؛ فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث؛ أى: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صوّرنى لغرضٍ آخر غير مباح؛ صار من باب

الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه آدمى؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه آدمى وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامى؛ كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذى ينمو؛ فاختلف فى ذلك أهل العلم.

فجمهور أهل العلم على جواز تصويره.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله عَزَّوَجَلَّ والحديث عام: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي »^(١) ولأن الله عَزَّوَجَلَّ تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا؛ فيكون تصويرها حراماً، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أعلم التابعين بالتفسير -، وقال: إنه يَحْرُمُ على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز^(٢).

قلت: والراجح أنه يجوز تصوير أى شىء ليس فيه روح .. كالسماء والبحار والأشجار والأنهار وغيرها مما ليس فيه روح... كما أنه يجوز تصوير الإنسان إذا كان لضرورة كالبطاقة والرخصة والجواز أو غير ذلك من الضرورات. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٥٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس والزينة.

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(١١٦) الحمى نصيب المؤمن من النار

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا، لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).
✽ وفي رواية أخرى:

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ - أَوْ أُمِّ الْمُسَيْبِ - فَقَالَ: «مَالِكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ - أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيْبِ - تَزْفِرِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا.. فَقَالَ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُدْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُدْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»^(٢).

✽ الحمى هي السخونة التي يجدها العبد في جسده.. وهي نوعٌ من الأمراض التي قدرها الله ﷻ ابتلاءً لعباده الصالحين.. فالله هو الذي يُقدرها ويرفعها متى شاء (سبحانه وتعالى)...

وكل شيء من أفعال الله فإنه لا يجوز للإنسان أن يسبّه؛ لأن سبّه سباً لخالقه (جل وعلا)، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٣).

✽ والحمى من فيح جهنم كما أخبر النبي ﷺ حيث قال: «الْحُمَّى مِنْ فِيحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»^(٤).. ولهذا قرر الأطباء أن أفضل علاج للحمى أن يوضع المريض في مكانٍ فيه مكيف وأن يوضع على جسده كمادات من الماء البارد... فالماء البارد يُبردها ويطردها بفضل الله ﷻ.

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٥) كتاب البر والصلة والآداب.

«تَزْفِرِينَ» أى: تَتَحَرَّكِينَ حَرَكَةً سَرِيعَةً، وَمَعْنَاهُ: تَرْتَعِدُ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٢٠٩) كتاب السلام.

وعلى المؤمن أن يصبر ويحتسب إذا أُصيب بالحمى ويعلم يقيناً أن الحمى تُذهب الخطايا كما يُذهب الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة... وأن يعلم أن الحمى هي حظُّ المؤمن من النار يوم القيامة.

فقد قال ﷺ: «الْحُمَّى حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل على أم السائب فوجدتها ترتعد وتتحرك بشدة وسرعة فقال لها: «مَالِكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ تُزْفِرِينَ؟» قالت: الحمى لا بارك الله فيها.

فنهاها النبي ﷺ عن سَبِّ الحمى لأن الأمراض والابتلاءات كلها خير للمؤمن إذا صبر واحتسب.

فقال ﷺ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَيْرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خَبَثُهُ وبقي صافياً، كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك.

❁ وكل الأمراض والابتلاءات هي عين الخير للعبد.. لأن الله ﷻ إذا أَحَبَّ قومًا ابتلاهم.. فهي علامة على حب الله للعبد وكفى بها منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها... وأيضاً فالأمراض والابتلاءات جعلها الله سبباً لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ورفع الدرجات في الجنات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البزار وابن أبي الدنيا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٨٦)(٣١٨٧).

(١١٧) يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِذَا تَبَدَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ تَعَطَّ الْفَضْلَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكُهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَلَا يَلُومُ اللَّهُ عَلَى الْكَفَافِ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١).

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ إِذَا تَبَدَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكُهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^(٢).

معناه: إِنْ بَدَّلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبَقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ.. لِأَنَّهُ إِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْمُنْدُوبِ فَقَدْ نَقَصَ ثَوَابَهُ وَفَوَّتَ مَصْلَحَةَ نَفْسِهِ فِي آخِرَتِهِ.. وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ.... وَمَعْنَى (لَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ) أَنَّ قَدَرَ الْحَاجَةِ لَا لَوْمَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَوَجَّهْ فِي الْكَفَافِ حَقَّ شَرْعِيٍّ كَمَنْ كَانَ لَهُ نِصَابٌ زَكَوِيٌّ وَوَجَبَتْ الزَّكَاةُ بِشُرُوطِهَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ النَّصَابِ لِكِفَافِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَيُحْصَلُ كِفَايَتُهُ مِنْ جِهَةٍ مُبَاحَةٍ.

وَمَعْنَى: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»: أَنَّ الْعِيَالَ وَالْقَرَابَةَ أَحَقُّ مِنَ الْأَجَانِبِ^(٣).

وهذا الحديث من النجوم اللامعة والشموس الساطعة في أفق التشريع الإسلامي. فهو يكشف عن عظمة هذا الدين في تكوين وتماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية للأمة المسلمة. ويؤصل للعلاقة بين المسلم والمال فيجعل بذل الفضل والتصدق بما زاد على حاجته وحاجة عياله خيراً لنفسه.. وإمساك الفضل وحجب الزيادة عن المحتاجين شراً لنفسه.. ويعافيه من اللوم

(١) رواه أحمد، بإسناد صحيح، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٧٨/٧).

والعتاب إذا أنفق على نفسه وأهله وولده قدر الحاجة.

ولا يشجع الإسلام الفقراء على البطالة وانتظار الفضل والعطاء من الموسرين وإنما يدفع الغنى إلى السمو ببذل الفضل.. والفقير إلى القناعة والتعفف بكرامة السؤال والتطلع إلى النوال في عبارة قصيرة آية في الروعة والبيان... يقول صلوات الله وسلامه عليه: «وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) جامع الأحاديث القدسية.

(١١٨) مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»^(١).

وهذا من كمال رحمة الله عز وجل بعباده.. فهو الغنى عن عباده لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.. فهو القائل (سبحانه وتعالى): «... يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا... يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...»^(٢).

ومع ذلك يقول عز وجل: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا».

قال الإمام النووي رحمته الله:

وَمَعْنَاهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي، وَالتَّوْفِيقِ، وَالْإِعَانَةِ، وَإِنْ زَادَ زِدْتُ. فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي، أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً. وَالْمُرَادُ أَنْ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضْعِيفُهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ^(٣).

قلت: والأولى في باب الأسماء والصفات أن نُثبت لله عز وجل ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له نبيه صلى الله عليه وسلم دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل.. فنُثبت لله عز وجل صفة الهرولة ولا نسأل عن كيفيةها.. ونوقن أنها ليست كهرولة المخلوقين.. فالله عز وجل: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٣٦) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٥/١٧).

(١١٩) فضل فقراء المؤمنين

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، قَالَ: أَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ الْجُمَحِيِّ: إِنَّا مُسْتَعْمِلُوكَ عَلَى هَؤُلَاءِ، تَسِيرُ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ فَتُجَاهِدُ بِهِمْ، - فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا فَقَالَ فِيهِ - قَالَ سَعِيدٌ: وَمَا أَنَا بِمُتَخَلِفٍ عَنِ الْعُنُقِ الْأَوَّلِ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ يُزْفُونَ كَمَا يُزْفُ الْحَمَامُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: قِفُوا لِلْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا تَرَكْنَا شَيْئًا نُحَاسِبُ بِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: صَدَقَ عِبَادِي، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِينَ عَامًا»^(١).

وفي رواية: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تَسَدُّ بِهِمِ الثُّغُورُ، وَيُنْتَقَى بِهِمِ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: انْتَوَهُمْ فَحِيْوَهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي، لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتَسَدُّ بِهِمِ الثُّغُورُ، وَيُنْتَقَى بِهِمِ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢) (٣).

لقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم... والمقصود هنا: أن الإنسان إذا أفقره الله ﷻ فلا ييأس

(١) أخرجه الطبراني (٦/٥٨، رقم ٥٥٠٨). وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٨٥٠).

(٢) سورة الرعد: الآية: (٢٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده جيد.



ولا يحزن ولا يحسد غيره ممن آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مالاً، فالمال نعمة من الله سبحانه، وقد يكون لإنسان نعمة وعلى إنسان نعمة، فيكون لإنسان يتقوى به على طاعة الله سبحانه، وعلى عمل الخير، ويكون لإنسان آخر يتقوى به على معاصي الله سبحانه وتعالى.

وشأن المؤمن أن يرضى بالحال الذي هو فيه، فإن أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ مالاً رضى، وحمد الله وشكره على ما آتاه، وإن منعه من ذلك صبر ورضى وحمد الله سبحانه وتعالى، ولا يتضجر، وليتسلل وليتصبر بما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث في هذا المعنى.... وليس المعنى أن يطلب الإنسان من ربه الفقر فيدعو ويقول: يا رب أفقرني، مثلاً... فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ بالله من الكفر والفقر، ولكن مع ذلك كان يقول: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً)، يعنى: بقدر ما يحتاجون ولا يزيد.

وكان يقول: (اللهم أحيى مسكيناً، وأميتى مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين)، صلوات الله وسلامه عليه، فكان يسأل الله سبحانه أن يرزقه أن يكون كالمساكين، وليس المعنى أن يكون معهم فى فقرهم أو أن يكون فقيراً؛ لأنه كان يتعوذ بالله من الفقر، وإنما المعنى: أن يجعله فى تواضع المساكين، إذ المسكين الذى ليس له مال يتواضع، ولذا يطلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ربه أن يرزقه هذا الخلق، فىكون خلقه التواضع حتى لو آتاه الله كنوز الدنيا، وكذلك كان يسأل ربه سبحانه القوت، أى: أن يعطيه بقدر ما يحتاج، فهو لا يريد أكثر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه... بل لو آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مثل جبل أحد ذهباً لما بقى فى بيته منه شىء إلا وهو ينفق هكذا وهكذا وهكذا، إلا شياً يُبقيه لدين صلوات الله وسلامه عليه.

فغاية ما تدل عليه هذه الأحاديث: أن الإنسان إذا أفقره الله ولم يعطه مالاً

فعليه أن يصبر على ذلك، بعد أن يأخذ بالأسباب في طلب الرزق وفي طلب المعاش، ويرضى بقضائه وقدره، ويتصبر بمثل ما جاء عن النبي ﷺ من قوله: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء»، وإذا كان الفقراء أكثر أهل الجنة، فالإنسان المؤمن يحب أن يكون معهم... والفقراء أيضاً أول من يدخلون الجنة، ولذا فالمؤمن يحب أن يدخل الجنة مع هؤلاء الفقراء، وهؤلاء المساكين.

✽ فالفقير الذي هاجر إلى الله ورسوله إذا أمر أن يخرج للجهاد خرج.. وذلك لأن أكثر الذين يقفون على الثغور هم الفقراء.. ولذا قال ﷺ بعدها: (وتتقى بهم المكاره)، أى: هم الجنود دائماً والدروع التى تحمى الأمة من المكاره والأخطار.. ومعلوم أن القائد فى الجيش يكون فى مؤخرة الجيش؛ يحميه الجنود، فهؤلاء تتقى بهم المكاره، ثم قال: (ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً)، فالفقير المسكين قد تشتهى نفسه أن يأكل أكلة معينة، أو يلبس لبساً معيناً، أو يتكلم فى حاجة معينة، لكن بسبب فقره لا يسمع إليه أحد، ولا يجد ما يشتري به هذا الطعام، ولا هذا الشراب ولا هذا اللباس، وأكدها بقوله: (لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله ﷻ لمن يشاء من ملائكته: اتوهم فحيوهم)، أى: أن الله يُدخل الجنة ذلك الإنسان الذى كان فى الدنيا فقيراً، مجاهداً فى سبيل الله، قد عمل الصالحات، وبذل فى الدنيا كثيراً، ولم يأخذ منها إلا القليل حسب الظاهر، ولكن الحقيقة أن الله أعطاه الكثير، إذ يكفيه الإيمان الذى قلبه، والصبر الذى هو عليه ليس منه، بل هو من الله سبحانه الذى أعانه على الصبر على الدنيا، وكانت تكرمته الجنة، فإذا أدخله الله ﷻ الجنة أمر الملائكة أن يأتوا إليه، وأن يسلموا عليه ويحيوه هو وإخوانه من الفقراء المجاهدين، فتقول الملائكة لربها سبحانه وتعالى: (ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك! أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟)، والملائكة خلق

من خلق الله، خلقهم من نور، وهذا شيء أعظم مما خلق منه الإنسان، فهو مخلوق من طين... وكان الملائكة نظروا إلى أن الله كرمهم وخلقهم من نور، وجعلهم أهل سماواته سبحانه وتعالى، وجعلهم خيرته، وهؤلاء عباد مخلوقون من طين، وقد أذنبوا في الدنيا، وأصابهم فيها ما أصابهم، فكيف نذهب إليهم؟ - يستفهمون من ربهم سبحانه وتعالى - فيقول الله ﷻ: «إنهم كانوا عباداً يعبدونى، ولا يشركون بى شيئاً، وتُسدُّ بهم الثغور»، فيذكر الله الملائكة كيف كان هؤلاء على خير في هذه الدنيا، وكيف أنهم كانوا عباداً لله، يعبدون الله ولا يعبدون أحداً إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يشركون به شيئاً وتُسدُّ بهم الثغور... وفي الحديث صورة لائقة لهؤلاء في قوله: «تُسدُّ بهم» فلو أن قربة مغلقة انخرقت ثم نزل منها الماء وأخذ يُخرب في الدنيا فمن سيقوم بسدِّ هذا الخرق؟ لقد كان هؤلاء هم الذين تُسدُّ بهم هذه الثغور يعنى: الشرور التى تأتى من أعداء الإسلام عن طريق الثغور... فالله ﷻ جعل هؤلاء أسباباً لسدِّ الثغور وكفِّ الشرور... قوله: وتُتقى بهم المكاره، يعنى: أمة الإسلام تتقى بهؤلاء المكاره فهم في المقدمة دائماً، يدفعون ويدافعون ويموتون شهداء في سبيل الله سبحانه وتعالى، أو يموتون على فرشهم قد طلبوا فضل الله ورحمته سبحانه.

قوله: (ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء)، وبذلك عرفت الملائكة فضل هؤلاء، فأتتهم عند ذلك، ودخلوا عليهم من كل باب، هؤلاء في الجنة في قصورهم، في أماكنهم يُنعمون والملائكة تأتى عليهم أفواجا من كل باب من أبواب قصورهم ومنازلهم في الجنة يحيونهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(١)، أى: سلام عليكم، بسبب صبركم.. فأنتم تستحقون السلام، والأمن، وتستحقون أن تحيوا في هذا المكان فلا تموتون أبداً.

(١) سورة الرعد: الآية: (٢٤).

فالله قال: (حيوهم)، يعنى: سلّموا عليهم وادعوا لهم بالحياة الكريمة عند الله والخلود فى هذه الحياة... فيدعون ويحيونهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيَّ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا مع هؤلاء الأبرار (١).

﴿سَلِّمُوا عَلَيَّ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

(١٢٠) فضل الصبر على البلاء والأمراض

✽ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فَلَانٌ قَدْ حَبَسْتَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: اخْتَمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ»^(١).

✽ وَعَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنَعَانِيِّ، أَنَّهُ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَهَجَرَ بِالرَّوَّاحِ، فَلَقِيَ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ وَالصَّنَابِحِيَّ مَعَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدَانِ رَحِمَكُمَا اللَّهُ؟ فَقَالَ: نُرِيدُ هَاهُنَا إِلَى أَخٍ لَنَا مَرِيضٍ نَعُودُهُ. فَاذْطَلَقْتُ مَعَهُمَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبَشِرْ بِكِفَارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمَدَنِي وَصَبَرَ عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَفْظَةِ: إِنِّي أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ وَهُوَ صَحِيحٌ»^(٢).

✽ وَقَالَ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ، فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عَوَادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنَفُ الْعَمَلَ»^(٣).

✽ (لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ) يُطْبَعُ عَلَيْهِ بِطَابَعِ اللَّهِ أَعْلَمُ بِكَيْفِيَّتِهِ. (فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ) الَّذِي سَبَقَ لَهُ عَمَلٌ طُبِعَ عَلَيْهِ. (قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ)

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٢).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو يعلى، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٠٠).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٠١).

يحتمل الكاتبان، ويحتمل غير ذلك. (يا ربنا، عبدك فلان قد حبسته، فيقول الربُّ: اختمواله على مثل عمله) فضلاً من الله ومِنَّة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

﴿حتى يبرأ أو يموت﴾ فينبغي للمؤمن أن يستكثر من أعمال البر أيام صحته لينال ذلك في مرضه... وقد ورد في الحديث الآخر: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^{(٢) (٣)}.

﴿وفي الحديث الثاني: «قَالَ تَعَالَى: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي وَصَبَرَ عَلَيَّ مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَفَظَةِ: إِنِّي أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ وَهُوَ صَاحِحٌ».

قال الغزالي: إنما نال العبد هذه المرتبة لأن كل مؤمن يقدر على الصبر على المحارم وأما الصبر على البلاء فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس... فلما قاسى مرارة الصبر جُوزى بهذا الجزاء الأوفى.

وفيه ترغيب في الصبر وتحذير من الشكوى لكن ليس من الشكوى قول المريض: إني وجع أو وارأساه إذا اشتد به الوجع ونحو ذلك... وقد ترجم البخاري باب ما رخص للمريض أن يقول إني وجع... قال الطبري: وقد اختلف في ذلك والتحقيق أن الألم لا يقدر أحدٌ على دفعه والنفوس مجبولة على وجدان ذلك فلا يُستطاع تغييرها عما جُبلت وإنما كُلف العبد أن لا يقع منه حال المرض أو المصيبة ما له سبيل إلى تَرْكِهِ كالمبالغة في التأوه ومزيد الجزع

(١) سورة الحديد: الآية: (٢١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٣) التنوير بشرح الجامع الصغير (٩/٢٧٧).



والضجر وأما مجرد الشكوى فلا^(١).

❁ وفي الحديث الثالث: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِذَا ابْتَلَيْتَ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ) أَىِ اخْتَبَرْتَهُ وَامْتَحَنْتَهُ (فَلَمْ يَشْكُنِي) أَىِ لَمْ يُخْبِرْ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَلَمِ (إِلَىٰ عُوَّادِهِ) أَىِ زُوَّارِهِ فِي مَرَضِهِ ... وَكُلٌّ مِّنْ أَتَاكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ فَهُوَ عَائِدٌ لَكِنَّهُ اشْتَهَرَ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ (أَطْلَقْتَهُ مِنْ أَسَارِي) أَىِ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ (ثُمَّ أَبْدَلْتَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ) الَّذِي أَذْهَبَهُ الْأَلَمُ (وَدَمًّا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ) أَىِ يُكْفِرُ الْمَرَضَ عَمَلَهُ السَّيِّئَ وَيَخْرِجُ مِنْهُ كَيَوْمَ وَلَدْتَهُ أُمَّهُ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ.... وَفِيهِ أَنَّ الشُّكْوَى تُحْبِطُ الثُّوَابَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ لِمَرِيضٍ لَا تَشْكُ مَنْ يَرْحَمُكَ إِلَىٰ مَنْ لَا يَرْحَمُكَ... وَمَحَلُّهُ إِذَا كَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الضُّجْرِ وَالتَّسَخُّطِ أَمَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْإِنْخِبَارِ بِالْوَاقِعِ فَلَا.

قيل: شكا سُفْيَانٌ فَقِيلَ لَهُ: أَتَشْكُو اللهُ؟

قَالَ: بَلِ إِذْكَرَ قَدْرَةَ اللهِ عَلَيَّ... وَقِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَيْفَ أَنْتَ؟ قَالَ: بِشَرٍّ. قِيلَ: أَمْثَلُكَ يَقُولُ ذَلِكَ؟. قَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ فَالْخَيْرِ الصِّحَّةُ وَالشَّرُّ الْمَرَضُ^(٢).

❁ أَلَا فَلْنَحْرُصْ جَمِيعًا عَلَىٰ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي طَاعَةِ اللهِ (جَلًّا وَعِلًّا) فِي أَيَّامِ الْعَافِيَةِ حَتَّىٰ إِذَا سَافَرْنَا أَوْ أَصَابْنَا مَرَضٌ كُتِبَ لَنَا مِثْلُ مَا كُنَّا نَفْعَلُهُ فِي أَيَّامِ الْعَافِيَةِ... وَلْنَحْرُصْ كُلَّ الْحُرُصِ عَلَىٰ أَنْ نَحْمَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَعَلَىٰ أَلَّا نَشْكُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ عِبَادِهِ.. وَلَا مَانِعَ مِنَ التَّوَجُّعِ مَا لَمْ يَصْحَبْهُ شَيْءٌ مِنَ الضُّجْرِ وَالتَّسَخُّطِ.

(١) فيض القدير (٤/٤٧٩).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/١٩+).

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ لِي وَلِكُمُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْ يَعَافِنَا
فِي أَسْدَانِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَنْفُسِنَا وَأَوْطَانِنَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١) البهنة لمن فقد بصره فصبر واحتسب

❁ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبِيهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ» يُرِيدُ عَيْنَهُ^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر الله ﷻ أنه إذا ابتلى عبداً من عباده بإطفاء نور حبيبيه - أى عينيه - فصبر واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد سَمَّى الله العينين بهذا الاسم (حبيتيه) ؛ لأن الإنسان من خلالهما يحب الدنيا ويحب ما فيها...

ولذا فإن العبد إذا وُلِدَ أعمى لا يرى شيئاً فإنه لا يحزن على فوات أى شىء من الدنيا؛ لأنه لم يرها أصلاً.. وإنما يكون الألم الشديد لمن وُلِدَ مُبصراً ورأى الدنيا وزينتها الفانية، ثم فقد بصره بعد ذلك.

ولأن العينين هما أعلى شىء عند الإنسان فإن الله ﷻ إذا قبضهما وحرم العبد من نعمة البصر فصبر واحتسب لم يجعل الله له جزاءً من الحسنات ولو كانت كثيرة وإنما جعل ثوابه الجنة مباشرة ؛ لأنه حُرِمَ من جنته فى الدنيا - نعمة البصر - فصبر واحتسب فكان الجزاء جنة بجنة... وشتان ما بين الجنتين.

❁ واعلم أن الله إذا حرم عبداً من نعمة البصر فإنه يعوضه فى بقية الحواس بما يُخفف عنه ألم الحرمان من تلك الحاسة التى فقدها... بل لقد رأيت أن أكثر الذين حُرِموا من نعمة البصر قد منحهم الله قوة فى الحفظ وطهارة فى القلب لانعدام الذنوب التى تأتى أكثرها من النظر إلى المحرمات.. فيصبح القلب طاهراً ويصبح العقل حاضرًا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٥٣) كتاب المرضى.

وقد رأينا منهم الكثير والكثير من العلماء وحفظة القرآن... فهذا من لطف الله ورحمته بأهل البلاء في الدنيا والآخرة.

❖ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ فِيهِ قَيْدٌ آخَرٌ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُنْفَرِدِ» بِالْفِطْرِ: «إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتِيكَ فَصَبْرْتُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى وَاحْتَسَبْتُ» فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنَّ الصَّبْرَ النَّافِعَ هُوَ مَا يَكُونُ فِي أَوَّلِ وَقْعِ الْبَلَاءِ فَيَفْوُضُ وَيُسَلِّمُ، وَإِلَّا فَمَتَى تَضَجَّرَ وَتَقَلَّقَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ثُمَّ يَيْئَسُ فَيَصْبِرُ لَا يَكُونُ حَصَلَ الْمَقْصُودِ... وَقَدْ مَضَى حَدِيثُ أَنَسٍ فِي الْجَنَائِزِ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ الْعَرَبِ بَاضٍ فِيمَا صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِيهِ بَشْرُطٌ آخَرَ وَلَفْظُهُ: «إِذَا سَلَبْتُ مِنْ عَبْدِي كَرِيمَتِيهِ وَهُوَ بِهِمَا ضَنِينٌ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ إِذَا هُوَ حَمَدَنِي»، وَإِذَا كَانَ ثَوَابٌ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ الْجَنَّةُ فَالَّذِي لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ أُخْرَى يُزَادُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢) فضل شهادة الجيران الأقربين وثنائهم

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَهْلُ أَبِيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأَذْنِينَ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا خَيْرًا، إِلَّا قَالَ اللَّهُ: قَدْ قَبِلْتُ عِلْمَكُمْ فِيهِ، وَعَفَرْتُ لَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^(١).

قال الشيخ الألباني رحمته الله مُعلقًا:

«اعلم أن هذه الشهادة لا تختص بالصحابة، بل هي أيضًا لمن بعدهم من المؤمنين الذين هم على طريقتهم في الإيمان والعلم والصدق، وبهذا جزم الحافظ ابن حجر في «الفتح»... هذا، وأما قول بعض الناس عقب صلاة الجنازة: «ما تشهدون فيه، اشهدوا له بالخير» فيجيبونه بقولهم: صالح.. أو من أهل الخير، ونحو ذلك، فليس هو المراد بالحديث قطعًا، بل هو بدعة قبيحة؛ لأنه لم يكن من عمل السلف، ولأن الذين يشهدون بذلك لا يعرفون الميت في الغالب، بل قد يشهدون بخلاف ما يعرفون استجابة لرغبة طالب الشهادة بالخير، ظنًا منهم أن ذلك ينفع الميت، وجهلاً منهم بأن الشهادة النافعة إنما هي التي توافق الواقع في نفس المشهود له، كما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ لَمْ يَلْقَ مَلَائِكَةً تَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَةِ بَنِي آدَمَ بِمَا فِي الْمَرْءِ مِنَ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ»^(٢).

❁ فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَنْفَعُ الشَّاءَ عَلَى الْمَيِّتِ بِالْخَيْرِ وَإِنْ خَالَفَ الْوَاقِعَ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاءَ عَلَيْهِ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ؟ قُلْتَ: فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ أَصَحَّهُمَا أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ، وَإِنْ لَمْ يُطَابِقِ الْوَاقِعَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَا يَنْفَعُهُ إِلَّا بِالْمُوَافَقَةِ لَمْ يَكُنْ لِلشَّاءِ فَائِدَةٌ... وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ ابْنُ عَدَى فِي (الْكَامِلِ) عَنْ ابْنِ عَمْرِو رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ

(١) حسن لغيره: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٥١٥).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (١/٥٣٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في شعب

الإيمان (٧/٢٢)، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في السلسلة الصحيحة (١٦٩٤).

ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ سِيرَزَقَ الثَّنَاءِ وَالسُّتْرَ وَالْحُبَّ مِنَ النَّاسِ حَتَّى تَقُولَ الْحَفْظَةَ: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ وَنَعْلَمُ غَيْرَ مَا يَقُولُونَ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَقَبِلْتُ شَهَادَتَهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ».

قَالَ الدَّائِدِيُّ: الْمُعْتَبَرُ فِي ذَلِكَ شَهَادَةُ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالصُّدُقِ لَا الْفَسَقَةَ لِأَنََّّهُمْ قَدْ يُثْبِتُونَ عَلَى مَنْ يَكُونُ مِثْلَهُمْ... وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَيِّتِ عَدَاوَةٌ لِأَنَّ شَهَادَةَ الْعَدُوِّ لَا تُقْبَلُ.

قال النووي: قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ الثَّنَاءَ بِالْخَيْرِ لِمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْفَضْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

❁ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَلَى عُمُومِهِ وَإِطْلَاقِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ مَاتَ فَأَلْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ أَوْ مُعْظَمَهُمُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَوَاءً كَانَتْ أَعْمَالُهُ تَقْتَضِي ذَلِكَ أَمْ لَا... إِذِ الْعُقُوبَةُ غَيْرُ وَاجِبَةٍ بَلْ هُوَ فِي خَطَرِ الْمَشِيئَةِ، فَإِذَا أَلْهَمَ اللَّهُ النَّاسَ الثَّنَاءَ اسْتَدَلْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ شَاءَ الْمَغْفِرَةَ لَهُ.

وبهذا تظهر فائدة الثناء، وإلا فإذا كانت أفعاله مقتضية للجنة لم يكن للثناء فائدة. وقد أثبت النبي ﷺ له فائدة.

❁ وليس شرطاً أن يشهد للميت كل الناس، بل يصح من بعض الناس أيضاً، فقد يكون حال هذا الإنسان غائباً عن الكثير، ولكن بينه وبين الله خيرٌ كثير، والأقربون يرون منه هذا الخير، فيرون أنه كثير التقوى كثير الصلاة كثير الصدقة لكن لا يشتهر عنه ذلك، وإنما عرف الأقربون ذلك فأثنوا عليه خيراً، فيُنطق الله على ألسنتهم ملائكة حتى يستوجب جنة الله ﷻ.

❁ فهنا الإنسان الذي يموت فيثنى عليه الأقربون من جيرانه، وذلك لخلقهم الحسن معهم، ولذا تجد الأقربين يحبونه، ويثنوا عليه بالطيب، وأنه لا يتعرض لأحد، ولا يؤذى أحداً، فيثنى عليه جيرانه الأقربون بخير... فإذا وُجد أربعة من



أهل جيرانه يُثنون عليه بذلك استحق من الله ﷻ الجنة والثواب... والله سبحانه يقول: (قد قَبِلتِ علمكم فيه) أى: قبلت منكم هذه الشهادة.

قال: (وغفرت له ما لا تعلمون) أى: أنتم لا تعلمون أخطاءه، والله يعرفها فيغفر له ذلك؛ لأنه كتم على نفسه، وستر نفسه، ولم يُجاهر بالمعصية بين الناس، فكانت سيئته بينه وبين ربه، فهذا جدير بأن يغفر الله له؛ لأنه ستر نفسه... يقول النبي ﷺ: «من ستر نفسه ستره الله»، وبالمقابل: مَنْ فضح نفسه استحق العقوبة من الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٣) إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

عَنْ أَبِي وَقْدِ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ إِذَا أُنزِلَ عَلَيْهِ، فَيَحَدِّثُنَا فَقَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ، لِأَحَبِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ، لِأَحَبِّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

✽ إِنْ اللَّهُ ﷻ يُوَضِّحُ لَنَا الْغَايَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُنزِلَ الْمَالَ: أَلَا وَهِيَ إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ.

وليس معنى ذلك أن المال لا يصلح لغير هذا، ولكن المقصود أن أعظم وظيفة لهذا المال أن نستعين به على طاعة الله ولا نستعمله في معصية الله.

وإذا استعملنا المال في شراء الطعام والغذاء والمسكن، وغير ذلك من متاع الدنيا، فهذا نوعٌ من الطاعة أيضًا؛ لأننا نستعمل تلك الأشياء لتكون عونًا لنا على طاعة الله (جلَّ وعلا).

✽ يعنى: أن الله سبحانه وتعالى أنزل المال، وأوجده، وجعله بين يدي خلقه؛ ليقيموا به شعائر الدين، ويظهروا معالم الشرع من صلاة، وزكاة، وغيرهما لا أن يضعوا ما رزقهم الله من المال في غير موضعه، ويصرفوه في الملاهي والملذات، وفي غير طاعة الله، وإحياء سنة نبيه ﷺ... وذلك لأن قيام العالم بإحياء قوانين دينهم، وسلوك نهج كلياته، وإبراز مفروضاته، وسنته، ومستحباته، ففي ذلك سعادتهم دنيا وأخرى، ويكون وضع الشيء في محله المشروع له... وما تأخرت الأمم وانتشر الفساد فيها إلا ببذ تعاليم الرسل

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨١).



والأنبياء، وطرح ما أتوا به من المحاسن والمشروعات، والأخذ بما تسوله لهم أنفسهم من السوء، والفحشاء، والانقياد لما تزينه لهم شياطينهم من المعتقدات الباطلة والأعمال الفاسدة... فأرجو الله تعالى أن يوفق الأمم أجمع إلى الأخذ بدين الإسلام... دين العز، والقوة، والرحمة، والرأفة، والسلام، والأمان لكل إنسان!

ولما كان الإنسان بطبعه ميّلاً إلى حب المال، لا يشبع، وليس له حدُّ ينتهي إليه قال الله تعالى في الحديث: «لو كان لابن آدم وادٍ - أي: من ذهب، أو فضة - لأحب أن يكون له ثانٍ، ولو كان له واديان لأحب أن يكون له ثالث...»^(١).

❁ وفي رواية:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(٢).

ففي هذا الحديث يُخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن آفة الطمع الذي يملأ قلوب أكثر بنى آدم.. وأن ابن آدم لا يشبع من المال والذهب أبداً حتى أنه لو كان يمتلك وادياً من الذهب الصافي.. وذلك الوادي قد يكفي أهل الأرض جميعاً ومع ذلك فهو لا يكتفى بذلك بل يتمنى أن يمتلك واديين من الذهب.

ثم يوضح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.. وذلك إذا مات ودُفن تحت التراب وترك الدنيا بما فيها ففي هذه اللحظة يُدرك حقيقة الدنيا... ومع ذلك فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحث الناس على التوبة من الطمع والجري وراء حُطام

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (٤٦/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة.

الدنيا الفانى... وذلك لأن الطمّاع قد لا يحترز عند جمع المال فيجمع الحلال مع الحرام.. فيخبر النبي ﷺ أن دواء ذلك في التوبة والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٢٤) طيبت وتبوات من الجنة منزلاً

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا زَارَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فِي اللَّهِ أَوْ عَادَهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: طَيْبَتْ، وَتَبَوَّاتُ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً» (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَّصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ» (٢).

لقد كان هذا الرجل طيب القلب يحب الناس من حوله ويتمنى لهم الخير... فإذا سمع أن أحد إخوانه قد مرض فإنه يزوره... وإذا علم أنه يحتاج إلى المال أعانه وساعده.

وفي يوم من الأيام تذكّر أحد إخوانه في إحدى البلاد البعيدة.
فقد انقطعت عنه أخباره منذ فترة طويلة.

فقرر أن يسافر إليه ليطمئن عليه على الرغم من طول المسافة ومشقة السفر.
خرج هذا الرجل في هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزيارة أحد إخوانه الذين يحبهم في الله.. وعندما اقترب من القرية قابله مَلَكٌ في صورة رجل فقال له
المَلَكُ: إلى أين أنت ذاهب أيها الرجل؟

فقال له: ذاهب لزيارة أحد إخواني الذين أحبهم في الله.

(١) رواه أحمد بإسنادٍ حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.

يُقَالُ: «أَرَّصَدَهُ» لِكَذَا: إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ - وَ «الْمَدْرَجَةُ» بفتح الميم والراء: الطَّرِيقُ.

ومعنى «تَرُبُّهَا»: تَقُومُ بِهَا، وَتَسْعَى فِي صَلَاحِهَا.

قال له المَلِكُ: هل لك مصلحة تريد أن يقضيها لك ..

قال له: لا.. ليس لى مصلحة..

قال له المَلِكُ: هل لك دين تريد أن تأخذه منه..

قال له: لا.. ليس لى دين عنده..

قال له المَلِكُ: إذا لماذا تريد أن تذهب إليه؟

قال له: إنه صديقى.. وأنا أحبه حبًا شديدًا.. فقد جئت من قريتي لأطمئن

عليه..

قال له المَلِكُ: إذا أبشر أيها الرجل الطيب.. فإن الله يحبك كما تحب أنت

صاحبك..

فأنا رسول الله من الملائكة وقد أمرنى ربي أن أخبرك بهذا.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ عَبْدَهُ هِيَ رَحْمَتُهُ لَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِرَادَتُهُ لَهُ الْخَيْرَ وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِ فِعْلَ الْمُحِبِّ مِنَ الْخَيْرِ... وَأَصْلُ الْمَحَبَّةِ فِي حَقِّ الْعِبَادِ مَيْلُ الْقَلْبِ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى الْعَبْدَ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَصْحَابِ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَدَمِيِّينَ قَدْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ^(١).

أقول: بل ثبت لله ﷻ صفة الحب وأنه يحب عبده محبة حقيقية بلا تشبيه ولا تكيف ولا تمثيل ولا تعطيل.. فهي ليست كمحبة المخلوقين؛ لأنه ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٥) الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد

✽ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفَرُ. وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

✽ معنى الحديث أن العبد إذا عمل حسنة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يُضاعفها إلى عشر أمثالها بل يزيد على ذلك بفضلله وكرمه وجوده... وأما إن عمل سيئة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يأمر ملك السيئات أن يرفع القلم عنه لمدة ست ساعات فإن تاب لم تكتب عليه سيئة وإن لم يتب كتبت سيئة واحدة.. ثم هو في مشيئة الله.. إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه عليها.. ورحمته سبقت غضبه ورحمته غلبت غضبه..

✽ ثم قال الله تعالى: «وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

فلقد ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول عَزَّ وَجَلَّ... فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَزَّ وَجَلَّ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب... فهو أمر ترجع كلفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن

بمعناه ونفوض كيفيته إلى الله ﷻ^(١).

﴿وَمَنْ لَقِيَ بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيَتْهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً﴾
 قراب الأرض خطيئة: أى ما يُقارب ملاءها من الخطايا... وهنا يخبر الحق (جل
 وعلا) أن مَنْ لقيه بذنوبٍ تملأ الأرض كلها ولكنه على التوحيد والإيمان فإن
 الله ﷻ يلقاه بمثلها مغفرة لتلك الذنوب.... وليس هذا حصًّا على المعصية
 ولكنه حصٌّ على الثبات على الإيمان والتوحيد والبُعد عن الشرك بأنواعه كلها.

بِقُرَابِ الْأَرْضِ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٧٥).



﴿ ١٢٦ ﴾ استغفر لأبيك لترفع درجته في الجنة

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ».

✽ وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى لِي هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(١).

✽ قد يكون الإنسان مؤمناً عابداً طائعاً لله عَزَّ وَجَلَّ ولكن أعماله لا تجعله إلا في أدنى درجات الجنة أو أوسطها... فإذا كان له ولدٌ صالح وكان يُكثر الاستغفار لأبيه بعد موته أو لأمه بعد موتها فإنه يكون سبباً لرفعة درجة أبيه أو أمه في الجنة.

✽ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة... فالأصل أنه إنسانٌ صالح وإلا لما كان يدخل الجنة أبداً... فبعد أن يدخل الجنة يرفع الله درجته فيها فيتعجب هذا الرجل الصالح ويقول: «يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟» أي من أين لي هذا وأنا لم أعمل أي عمل يقتضى أن أرفع لتلك الدرجة في الجنة.. فإذا بالحقِّ (جَلَّ وَعَلَا) يقول له: «بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ».

وفي الرواية الأخرى: «فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ» أي تقول له الملائكة أنك رُفعت في الجنة باستغفار ولدك لك.. ولا مانع من أن يقول الملائكة له ذلك ثم يقول الله له ذلك لتصل البشارة إلى ذروتها.

✽ ولو لم يكن في النكاح وإنجاب الولد الصالح فضلٌ إلا هذا لكفى... فاحرص على اختيار الزوجة الصالحة التي تربي لك أولادك على الصلاح حتى إذا رحلت عن الدنيا يقبض الله عَزَّ وَجَلَّ أولادك ليستغفروا لك فترفع درجتك في

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٧).

الجنة.

❁ وقيل إن الابن إذا كان أرفع درجة في الجنة من أبيه سأل الله عز وجل أن يرفع له أباه فيُرفع إليه.. وكذلك الأب إذا كان أرفع درجة في الجنة من ابنه سأل الله عز وجل أن يرفع له ابنه فيُرفع إليه.. وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقَّانِ وَمَا آلَتْهُمْ وَمَا آلَتْهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٢٧) كثرة النوافل .. وإكمال الفرائض

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ أَنْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيُكَمَّلُ مِنْهَا مَا أَنْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ؟ ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا»^(١).

✽ أى أن أول ما يُحَاسَبُ عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة... وهذا بالنسبة لحق الخالق (جل وعلا) فإن صلحت الصلاة فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر.

وهذا لا يتعارض مع قوله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدَّمَاءِ»^(٢) لأن الأول محمولٌ على حق الخالق والثاني محمولٌ على حق الخلق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدَّمَاءِ»^(٣).

✽ «فإن انتقص من فريضته شيئاً» يُنظَرُ في أعماله هل له نوافل فإنها تُكَمَّلُ بها الفرائض... ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات وقبلها وفي كل وقت إلا الأوقات المنهى عنها وذلك لأن الإنسان لا بد أن يكون في صلاته خلل فيكمل الخلل بهذه النوافل. كل هذه النوافل يزداد بها أجر المصلى ويكمل بها النقص الذى حصل في الفريضة... وهذه من نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق - ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

(٣) فتح البارى (٣٩٦/١١) - والحديث رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع

قال القاضي أبو بكر بن العربي في العارضة: «يحتمل أن يكون يكمل له ما نقص من فرض الصلاة، وأعدادها بفضل التطوع ويحتمل ما نقصه من الخشوع والأول عندي أظهر لقوله: ثم الزكاة كذلك وسائر الأعمال وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل ... فكما يكمل فرض الزكاة بفضلها كذلك الصلاة.

وفضل الله أوسع ووعدته أنفذ وعزمه أعمّ وأتم».

قال الشيخ أحمد شاكر: «وهذا هو الظاهر والصواب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٢٨) وسطية أمة النبي محمد ﷺ

✽ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِئَكُونَ أَشْهَادًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١) « وَالْوَسْطُ: الْعَدْلُ^(٢) .

✽ لقد أرسل الله ﷻ الرسل لكي يدعو الناس إلى عبادة الله ﷻ وتوحيده... قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣). وليأخذوا بأيدي الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة... فلقد كانت دعوتهم جميعًا دعوة واحدة وهي الدعوة إلى الإسلام وإن كانت قد اختلفت شرائعهم.

✽ ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن أمرين، يكونان بين نوح عليه الصلاة والسلام، وبين أمة النبي محمد ﷺ.

الأمر الأول: هو استشفاعهم بنوح ﷺ... فعندما يكونون في أرض الموقف، يُعانون أهوال الحشر... يأتون إلى آدم ﷺ، يستشفعون به، فيحيلهم إلى نوح ﷺ.

(١) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٨٧) كتاب التفسير.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٥).

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى حديث الشفاعة الطويل، أنه قال:

«.. فيقول لهم آدم عليه السلام اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبّله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة، دعوت بها على قومي، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام..» (١).

ويبقون يذهبون إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، يستشفعون بهم، حتى يصلوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع لهم عند الله؛ لأنه صاحب مقام الشفاعة! الأمر الثانى: شهادة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لنوح (عليه الصلاة والسلام)، أنه بلغ قومه، وذلك بعد أن يكذب قومه، وينكروا تبليغهم لهم.

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى الأمة الوسط العادلة، هى أمة العدالة والشهادة، التى تحب الأنبياء السابقين جميعًا، ولذلك تشهد لهم بالصدق والعدل، بأنهم بلغوا أقوامهم، ولكن أقوامهم يُنكرون ويكذبون.

ومن هذه الشهادات الصادقة العادلة، هذه الشهادة التى يقدمونها لنبى الله نوح (عليه الصلاة والسلام) يوم القيامة، وقد علموا ذلك من كتاب الله، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمّنوا به وصدّقوه، وشهدوا به (٢).

﴿عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (يُجَاءُ) أَى: يُؤْتَى (بِنُوحِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ). وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

(٢) القصص القرآنى / د. صلاح الخالدى (١/٢١٢-٢١٤) بتصرف كبير.



﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ﴾^(١)
 لِأَنَّ الإِجَابَةَ غَيْرُ التَّبْلِيغِ، وَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ لَا يُحِيطُ بِكُنْهِهِ إِلَّا عِلْمُهُ
 سُبْحَانَهُ، بِخِلَافِ نَفْسِ التَّبْلِيغِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْعُلُومِ الصَّرُورِيَّةِ الْبَدِيهِيَّةِ (فَتَسْأَلُ أُمَّتَهُ)
 أَى: أُمَّةَ الدَّعْوَةِ (هَلْ بَلَّغْتُمْ)؟ أَى: نُوحَ رِسَالَتَهُ (فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ)
 أَى: مَا جَاءَنَا مُنْذِرٌ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، مُبَالِغَةً فِي الْإِنْكَارِ، تَوْهَمًا أَنَّهُ يَنْفَعُهُمُ الْكَذِبُ
 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَنِ الْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ... وَتَنْظِيرُهُ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ: ﴿وَاللَّهُ
 رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٢)، (فَقَالَ) أَى: لِنُوحٍ (مَنْ شُهِدُوكَ)؟ أَوْ «مَنْ يَشْهَدُ لَكَ»
 وَإِنَّمَا طُلِبَ مِنْ نُوحٍ شُهَدَاءٌ عَلَى تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ أُمَّتَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ
 وَتَوْضِيحًا لِمَنْزِلَةِ أَكْبَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، (فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ): وَالْمَعْنَى أَنَّ أُمَّةَ النَّبِيِّ
 مُحَمَّدٍ ﷺ شُهَدَاءٌ وَهُوَ مُزَكٌّ لَهُمْ، وَقَدَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي الذِّكْرِ لِلتَّعْظِيمِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنَّهُ
 ﷺ يَشْهَدُ لِنُوحٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ النُّصْرَةِ، وَقَدْ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾^(٣) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾^(٤)،
 (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: فَيَجَاءُ بِكُمْ): وَفِيهِ تَنْبِيهُ نَبِيِّهِ أَنَّهُ ﷺ حَاضِرٌ نَاطِرٌ فِي ذَلِكَ
 الْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، فَيُؤْتَى بِالرُّسُلِ وَأَوْلُهُمْ نُوحٌ، وَيُؤْتَى بِشُهُودِهِ وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ
 (فَتَشْهَدُونَ) أَى: أَنْتُمْ (أَنَّهُ) أَى: أَنَّ نُوحًا (قَدْ بَلَغَ) أَى: قَوْمَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَبِيِّكُمْ
 مُزَكٌّ لَكُمْ، أَوْ أَنْتُمْ وَنَبِيِّكُمْ مَعَكُمْ تَشْهَدُونَ، فَفِيهِ تَغْلِيْبٌ، (ثُمَّ قرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ):
 اسْتِشْهَادًا بِالْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٥)، أَى: عُدُولًا
 وَخِيَارًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَغْلُوا غُلُوَّ النَّصَارَى، وَلَا قَصُرُوا تَقْصِيرَ الْيَهُودِ فِي حَقِّ

(١) سورة المائدة: الآية: (١٠٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٢٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (٨١).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٨١).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

أَنْبِيَاءِهِمْ بِالْكَذِبِ وَالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ... وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
 تَفْسِيرُ الْوَسْطِ بِالْعَدْلِ... فَفِي النَّهْيَةِ يُقَالُ: هُوَ مِنْ وَسَطِ قَوْمِهِ أَيْ خِيَارِهِمْ،
 ﴿لَنْ كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ^(١) أَيْ: عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، ﴿وَيَكُونُ
 الرَّسُولُ﴾ أَيْ: رَسُولَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أَيْ: مُطَّلَعًا وَرَقِيًّا عَلَيْكُمْ،
 وَنَاطِرًا لِأَفْعَالِكُمْ، وَمُرَكَّبًا لِأَقْوَالِكُمْ.

أَقُولُ: الْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ أَنَّ الْأُمَّةَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، وَأَنَّهُ
 ﷺ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ بِأَجْمَعِهِمْ يَشْهَدُونَ عَلَى الْكُلِّ، وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ... وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قَوْلِهِ:
 لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
 بِمَا عَمِلْتُمْ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح.



﴿ ١٢٩ ﴾ بل عبداً رسولاً

﴿ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلِكَ مَا نَزَلَ مِنْذُ يَوْمِ خَلْقِ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعُ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»^(١).

﴿ ففى هذا الحديث أنه (جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملكٌ ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة).

يعنى: فى يوم من الأيام وجبريل جالس مع النبي ﷺ نزل ملك من السماء، وأول مرة ينزل هذا الملك من السماء إلى الأرض من ساعة ما خلقه الله سبحانه وتعالى، فقال جبريل للنبي ﷺ: (هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد! أرسلنى إليك ربك: أم ملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟)، يعنى: نزل الملك يُخیر النبي ﷺ يقول: أنت مقامك عالٍ عند رب العالمين، وهو يحب أن يخير نبيه ﷺ.

والحكمة من أن ينزل ملكٌ آخر غير جبريل لكى يكون جبريل للنبي ﷺ وزيراً وناصحاً ومُشيراً، فنزل الملك الآخر يخير النبي ﷺ: أتريد أن تصبح ملكاً رسولاً أم تبقى عبداً رسولاً؟ فنظر جبريل إلى النبي ﷺ وأشار إليه: تواضع لربك يا محمد! فربنا يخيرك، فإذا تواضعت فإنه ما زاد الله عبداً بتواضع إلا عزاً... فاختار النبي ﷺ وقال: (بل عبداً رسولاً)، يعنى: أكون عبداً رسولاً.

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٠٢).

ولذلك كان يجلس جلسة العبيد، ويقعد على الأرض ولا يقعد على الكرسي أو على عرش، وينام على السرير، وكانت حبال السرير تُؤثّر في جنب النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، فهنا كان ﷺ غاية في التواضع ليرى الناس أن الدنيا لا تساوي شيئاً.

قال ابن مسعود: (نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه)، أى: أعواد الحصير أثرت في جنبه ﷺ، فقالوا للنبي ﷺ: (يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاءً) أى: فراشاً ليناً، فقال ﷺ: (مالى وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).

هذا هو النبي ﷺ يضرب هذا المثل العظيم الذى يُحدث الناس به حتى يزهّدوا في الدنيا، فيقول: أنا مثلى مع هذه الدنيا كراكب نزل تحت ظل شجرة... وفي رواية أخرى قال: (كراكبٍ سار في يومٍ صائفٍ فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها) الذى يسير في الصيف ينزل تحت شجرة في أثناء الطريق ليرتاح قليلاً ثم يكمل سيره مرة أخرى^(١).

✽ هكذا يُعلمنا النبي ﷺ أن نتحلّى بخلق التواضع لنفوز بمحبة الله ﷻ وليرفع الله قدرنا في الدنيا والآخرة.

وفي الحقيقة إن نعمة التواضع من أجلّ وأعظم النعم التى يمتن الله بها على عباده...

ولقد كان نصيب النبي ﷺ من هذا الخلق هو النصيب الأعظم... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله ﷻ قال بعدها: «ولا فخر» وهذا من فرط تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحدٌ أن النبي ﷺ يقول ذلك تفاخراً.

(١) شرح الترغيب والترهيب للشيخ أحمد حطية بتصرف.



قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ... وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مُشفَع ولا فخر»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٨)، وأصله فى الصحيحين بلفظ: «أنا سيّد النَّاسِ يومِ القِيَامَةِ» رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

(١٣٠) اللَّهُمَّ بِكَ أَحْوَلُ وَبِكَ أَصْوَلُ وَبِكَ أَقَاتِلْ

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ، لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ نَكُنْ نَفْعَلُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي تُحَرِّكُ شَفْتَيْكَ؟ قَالَ: «إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَعْجَبْتُهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: لَنْ يُرُومَ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ خَيْرُ أُمَّتِكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ، أَوْ الْجُوعَ، وَإِمَّا أَنْ أُرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَشَاوَرَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا الْعَدُوُّ، فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ... فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَنَا أَقُولُ الْآنَ - حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُمْ - : اللَّهُمَّ بِكَ أَحْوَلُ، وَبِكَ أَصْوَلُ، وَبِكَ أَقَاتِلْ» ^(١).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحْوَلُ، وَبِكَ أَصْوَلُ، وَبِكَ أَقَاتِلْ» ^(٢).

وهنا يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا غزا يدعو بهذا الدعاء العظيم ويقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي» أي: أنت الذي تقوى عضدى حتى أمسك السيف لأجاهد وأقاتل أعداءك.. فأنت الذي أعطيتني القوة والتفكير والقدرة على مواجهة أعدائك.. «ونصيرى» أي: معينى ومُعِشَى وناصرى «بِكَ أَحْوَلُ» أي: بك وحدك أنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ.. ومن حالٍ إلى حالٍ بحولك وقوتك وعونك ونصرتك.. «وبِكَ أَصْوَلُ» على أعداء الدين.. يُقال صال القرن على قرنه إذا وثب عليه.. أي: بحولك وقوتك وقدرتك أثب على أعدائك وأكّر عليهم وأنتصر عليهم.

(١) رواه أحمد بإسنادٍ صحيح.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع



«وَبِكْ أَقَاتِلْ» أى: بحولك وقوتك أقاتل أعداءك حتى لا يبقى إلا مسلمٌ أو مُسلم... فهذا هو طريق النصر.. وهو الخروج والانخلاع من الحول والقوة إلى حول الله وقوته بالاعتماد والتوكل على الله.. وهذا هو معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله... وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١) النهي عن الشحناء والخصام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَتُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، إِلَّا الْمُتَشَاحِنِينَ، يَقُولُ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ذَرُوهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا»^(١).

وفي رواية:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا .. أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا»^(٢).

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أبواب الجنة تفتح يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع وتعرض فيهما الأعمال.. فإذا فتحت أبواب الجنة وأنعم الله على عباده بهذه النعمة العظيمة قرن ذلك بنعمة أعظم منها ألا وهى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً.. فلا يحرم الله عبداً موحداً من نعمة المغفرة أبداً... لكن هناك صنف يحرمه الله من نعمة المغفرة مؤقتاً فيا ترى من هو؟.. إنه العبد الذى بينه وبين أخيه خصام وتشاحن فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحرمه من المغفرة مؤقتاً حتى يتصالح مع أخيه.. فإذا تصالح مع أخيه غفر الله له ولأخيه... ولذا جاء فى الحديث أن الله يأمر ملائكته ويقول لهم: «أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا» أى: أَجِّلُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا... فدل ذلك على أنه يجب على المسلم أن يبادر بإزالة الشحناء والعداوة بينه وبين أخيه المسلم...

فإن كان الأمر ثقیلاً على النفس فلا مانع أن يوسِّطَ بينهما رجلاً ليمهد لذلك

(١) حسن: رواه أحمد (٢/٢٦٨) بإسناد حسن - وأصله فى صحيح مسلم.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب.



الصُّلح دون أن يسبب حرجًا لأي طرفٍ من الطرفين ويكون له الأجر والثوبة... فإذا حصل التصالح فاز الاثنان بمغفرة الرحمن (جل وعلا) لأن الله عزَّ وجلَّ قال: «أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا» وقد اصطلحا... وأما الذي أصلح بينهما فقد فاز بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة.. كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يُصلح بين الناس ويترك الصيام والصلاة والصدقة.. فالنبي ﷺ لا يتكلم عن أفضلية العمل وإنما يتكلم عن أفضلية الدرجة... لأن الإصلاح بين المسلمين يقوى شوكة المسلمين ويتعدى نفعه إلى الغير.. وقد يكون المقصود أن درجة الإصلاح بين الناس أفضل من نوافل تلك العبادات.. والله أعلم.



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٩٥).

﴿ ١٣٢ ﴾ شَرُّ الْبُلْدَانِ أَسْوَاقُهَا

✽ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرُّ؟ قَالَ: فَقَالَ: «لَا أَدْرِي» فَلَمَّا أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: «يَا جَبْرِيلُ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرُّ؟» قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. فَاَنْطَلَقَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكِّثَ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرُّ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرُّ؟ فَقَالَ: أَسْوَاقُهَا ^(١).

✽ من المعلوم أنه لا يُشَبَّه المسجد بالسوق أبداً... فالمسجد بيت الله عَزَّ وَجَلَّ يجب عليك أن تحترمه وتُعظمه... والسوق مكان الشيطان وفيه يرفع رايته.

ففى السوق الكذب، والغدر، والخداع، والغش، والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل، وفيه هيشات وصخب وضجيج... أما المسجد فلا يكون كذلك أبداً، ولذلك نهانا النبي ﷺ عن البيع والشراء فى المسجد وقال لنا: (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، فإن المساجد لم تُبنَ لهذا).

فالمسجد لا يُشَبَّه بالسوق أبداً، فلا تُرفع فيه الأصوات، ولا تكون فيه عقود البيع والشراء والإجارة ونحوها، ولا يكون فيه أمور تؤذى المصلين، كما أن الأسواق فيها الرائحة الكريهة... والمساجد يجب أن يكون فيها الروائح الطيبة، فلا تؤذ أحدًا فى المسجد لا بصوتٍ ولا بكلامٍ ولا بضجيج، ولا ترفع صوتك إلا محتاجاً إلى ذلك، سواء كنت عالماً أو متعلماً سائلاً أو مستولاً... وقد ترفع صوتك بالقراءة كصلاة الجماعة مثلاً، أو فى مجلس علم بشرط ألا تؤذى أحدًا من المسلمين.

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧٩٠)، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧)، والمشكاة (٦٩٦) - وأصله فى صحيح مسلم.



وبعض الإخوة يدخل المسجد وقد ضبط ساعته على وقتٍ مُعين فيرتفع صوت الساعة في المسجد وهذا تشبيه لها بالأسواق لأنه لم يحترمها، وكذلك الهاتف المحمول قد يدخل به المسجد وينسى أو يتعمد بأن يتركه ولا يغلقه أو يجعله صامتاً حتى يدخل في الصلاة، ثم يتصل به أحد أقرابه أو أصدقائه فإذا بالهاتف يشغل المصلين... والهواتف أصبحت كلها موسيقى وأشياء تجعل الملائكة تنفر من المكان التي هي فيه؛ فلا تأتِ المسجد بالهاتف حتى لا تطرد الملائكة من المسجد، وحين تأتى إلى المسجد ضع هاتفك في بيتك ولا تأتِ به إلى المسجد وإذا جئت به فأغلقه.

وقد يقول قائل: إذا كانت نغمة الهاتف موسيقى لكن على لحن الأذان؟

الجواب: الأذان لا يصلح فيه هذا أصلاً، والذي يؤذن ويتغنى في الأذان واقع في الحرام... فقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل مسجداً فسمع المؤذن يتغنى في الأذان، فلما سمع المؤذن يتغنى لم يصل في المسجد الذي فيه ذلك، فلحقه المؤذن وقال: ما هذا يا أبا عبد الرحمن والله إنى لأحبك في الله.

قال أبو عبد الرحمن: والله إنى لأبغضك في الله.

فقال: ولمَ يا أبا عبد الرحمن؟ -وعبد الله بن عمر صحابي فاضل وهذا المؤذن تابعي - فقال له: لأنك تتغنى بالأذان وتأخذ عليه أجراً.

والتغنى يكون في قراءة القرآن وليس في الأذان... فكأنه يقول له: تريد أن تشبه الأذان بالقرآن؟ والتغنى لا يكون إلا في قراءة القرآن فقط... فقد جاء عن النبي ﷺ: (ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن).

فلا تقنّت في الصلاة أو تدعو في الصلاة وتغنى في الدعاء وتقول: إن الناس يعجبهم هذا، وإلا فكل إنسان سيفعل مثل ذلك حتى يُشبه الكلام العادي بكتاب الله ﷻ.

فالتغنى فقط بالقرآن لا بالأذان ولا بالدعاء ولا بغيره.

جاء عن أحد السلف أنه دخل المسجد ثم خرج وقال: أخرجتني البدعة وذلك لأنه سمع المؤذن يتغنى بالأذان.

فإذا كان التغنى بالأذان ممنوع منه فما بالك بالموسيقى التي على صوت الأذان، وليست بأذان أصلاً، فلا يجوز لك أن تدخل بها بيت الله سبحانه وتعالى... وقد تكون معذوراً بأن تكون محتاجاً لهذا الجهاز وفيه نغمات الموسيقى، لكن ليس معنى ذلك أن تدخل به المسجد والله أعلم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿١٣٣﴾ النهى عن قتل النمل

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل، فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم نسبح الله»^(١).

وفي رواية:

«نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة»^(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه (قال: قال رسول الله - ﷺ: قرصت): أي لسعت ولدغت. قال الطيبي: القرص الأخذ بأطراف الأصابع، وهنا يراد به العض، فالمعنى عضت (نملة) واحدة (نبيًا من الأنبياء): قيل: موسى، وقيل: داود عليهما السلام (فأمر بقرية النمل): أي مسكنها ومنزلها... سُمي قرية لاجتماعها فيه، ومنه القرية المتعارفة لاجتماع الناس فيها... والمعنى فأمر بإحراق قرية النمل (فأحرقت)؟ قيل المعنى أمر بإحراق شجرة فيها تلك النملة... وقد روى الطبراني عن ابن عباس: «أنه ﷺ نهى عن قتل كل ذي روح إلا أن يؤذى»، ولا يخفى أن هذا نظير لفعليه تعالى؛ لأنه سبحانه يفرق بين المطيع، والعاصي، ولا يكون تعذيبه تشفيًا بخلاف المخلوق، بل فعله ﷻ من باب القضاء والقدر الذي يعجز عن كنهه علم البشر... فسبحانه سبحانه أن يقع منه إلا العدل أو الفضل ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٣) (فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠١٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٤٨) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣١٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٤٩) كتاب السلام.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

نَمْلَةٌ): أَيْ وَاحِدَةٌ (أَحْرَقْتَ أُمَّةً): أَيْ أَمَرْتَ بِإِحْرَاقِ طَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ (مِنْ الْأُمَّمِ): حَالُ كَوْنِهَا (تُسَبَّحُ).

قَالَ الطَّبِيُّ: أَيْ أُمَّةٌ مُسَبَّحَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا وُضِعَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ (تُسَبَّحُ) مَوْضِعَ مُسَبَّحَةٍ لِيَدُلَّ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ وَمَزِيدًا لِلإِنكَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾، وَيُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: أَحْرَقْتَ أُمَّةً جَوَازُ إِحْرَاقِ تِلْكَ الْقَارِصَةِ.

❖ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ جَوَازُ قَتْلِ النَّمْلِ وَجَوَازُ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ الْعَتَبُ فِي أَصْلِ الْقَتْلِ وَلَا فِي الإِحْرَاقِ بَلْ فِي الرِّيَادَةِ عَلَى النَّمْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَمَّا فِي شَرْعِنَا فَلَا يَجُوزُ إِحْرَاقُ الْحَيَوَانِ بِالنَّارِ إِلَّا فِي الْقِصَاصِ بِشَرْطِهِ، وَكَذَا لَا يَجُوزُ عِنْدَنَا قَتْلُ النَّمْلِ... لِحَدِيثِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي السُّنَنِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ قَتْلِ النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ». وَقَدْ قَيَّدَ غَيْرُهُ كَالْحَطَّابِيِّ النَّهْيَ عَنِ قَتْلِهِ مِنَ النَّمْلِ بِالسُّلَيْمَانِيِّ.

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: النَّمْلُ الصَّغِيرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الذَّرُّ يَجُوزُ قَتْلُهُ.

وَفِي قَوْلِهِ: أَنَّ الْقَتْلَ وَالْإِحْرَاقَ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ نَظْرًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُعَاتَبْ أَصْلًا وَرَأْسًا إِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْأَذَى طَبَعُهُ.

وَقَالَ عِيَاضٌ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ كُلِّ مُؤَذٍ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبَبًا، وَهُوَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِ أَهْلِهَا فَوَقَفَ مُتَعَجِّبًا فَقَالَ يَا رَبِّ قَدْ كَانَ فِيهِمْ صِيَّانٌ وَدَوَابٌّ وَمَنْ لَمْ يَقْتَرِفْ ذَنْبًا، ثُمَّ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَجَرَتْ لَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ، فَنَبَّهَهُ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) عَلَى أَنَّ الْجِنْسَ الْمُوَذِّيَ يُقْتَلُ وَإِنْ لَمْ يُؤَذِ وَتُقْتَلُ أَوْلَادُهُ وَإِنْ لَمْ تَبْلُغِ الْأَذَى.

وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَإِنْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تَعَيَّنَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمْ يُعَاتَبْ إِنْكَارًا لِمَا فَعَلَ بَلْ جَوَابًا لَهُ وَإِيضًا حَالِيحِكْمَةٍ شُمُولٍ



الْهَلَاكُ لِجَمِيعِ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ فَضَرَبَ لَهُ الْمَثَلَ بِذَلِكَ ... أَى إِذَا اخْتَلَطَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِهْلَاكَ بِغَيْرِهِ وَتَعَيَّنَ إِهْلَاكُ الْجَمِيعِ طَرِيقًا إِلَى إِهْلَاكِ الْمُسْتَحِقِّ جَازَ إِهْلَاكُ الْجَمِيعِ ... وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَتَرَسِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ النَّمْلُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ فَكَيْفَ أُشِيرَ فِي الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهُ لَوْ أَحْرَقَ نَمْلَةٌ وَاحِدَةً جَازَ مَعَ أَنَّ الْقِصَاصَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمَثَلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ثُمَّ أَجَابَ بِتَجْوِيزِ أَنَّ التَّحْرِيقَ كَانَ جَائِزًا عِنْدَهُ ثُمَّ قَالَ يَرُدُّ عَلَى قَوْلِنَا كَانَ جَائِزًا: لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا دُمَّ عَلَيْهِ ... وَأَجَابَ بِأَنَّهُ قَدْ يُدْمُ الرَّفِيعُ الْقَدْرَ عَلَى خِلَافِ الْأُولَى .

وَالتَّعْبِيرُ بِالذَّمِّ فِي هَذَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ النَّبِيِّ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْبَرَ بِالْعِتَابِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ إِنَّمَا عَاتَبَهُ اللَّهُ حَيْثُ انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ بِإِهْلَاكِ جَمْعٍ آذَاهُ مِنْهُ وَاحِدٌ وَكَانَ الْأُولَى بِهِ الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ وَكَأَنَّهُ وَقَعَ لَهُ أَنَّ هَذَا النَّوعَ مُؤَذِّبٌ لِبَنِي آدَمَ وَحُرْمَةٌ بِنِي آدَمَ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَةِ الْحَيَوَانِ فَلَوْ أَنْفَرَدَ هَذَا النَّظَرُ وَلَمْ يَنْضَمْ إِلَيْهِ التَّشْفِي لَمْ يُعَاتَبْ ... قَالَ: وَالَّذِي يُؤَيِّدُ هَذَا التَّمَسُّكَ بِأَصْلِ عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِأَحْكَامِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً .

وَالنَّمْلُ أَعْظَمُ الْحَيَوَانَاتِ حِيلَةً فِي طَلَبِ الرِّزْقِ .

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَيْئًا وَلَوْ قَلَّ أَنْدَرَ الْبَاقِينَ وَيَحْتَكِرُ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ لِلشَّتَاءِ وَإِذَا خَافَ الْعَفْنَ عَلَى الْحَبِّ أَخْرَجَهُ إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ وَإِذَا حَفَرَ مَكَانَهُ اتَّخَذَهَا تَعَارِيجَ لِيَتَلَّأَ يَجْرِي إِلَيْهَا مَاءُ الْمَطَرِ وَلَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ مَا يَحْمِلُ أَثْقَلَ مِنْهُ غَيْرِهِ .. وَالذَّرُّ فِي النَّمْلِ كَالزُّبُورِ فِي النَّحْلِ .

قَوْلُهُ: «أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّمِ تُسَبِّحُ اللَّهَ» اسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْحَيَوَانَاتَ يُسَبِّحُ اللَّهُ تَعَالَى حَقِيقَةً وَيَتَأَيَّدُ بِهِ قَوْلٌ مِنْ حَمَلِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ عَلَى

الْحَقِيقَةِ. وَتُعْقَبُ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ الْحَمْلَ عَلَى الْمَجَازِ بِأَنْ يَكُونَ سَبَبًا
لِلتَّسْبِيحِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٤) سيجعل لهم الرحمن وداً

✽ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِحَبْرِيْلَ: إِنْ فَلَانًا عَبَدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي إِلَّا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فَلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ»^(١).

✽ وَعَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا جِبْرِيْلُ، إِنْ عَبَدِي فَلَانًا يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، فَرِضَائِي عَلَيْهِ». قَالَ: «فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فَلَانٍ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾»^(٢)، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ سَخَطَ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيْلُ، إِنْ فَلَانًا يُسَخِطُنِي. إِلَّا وَإِنْ غَضِبِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ: غَضِبَ اللَّهُ عَلَى فَلَانٍ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ مَنْ دُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ»^(٣).

✽ قوله: (إن العبد) أى الصالح (يلتمس) أى يطلب (مرضاة الله) أى رضاه بأصناف الطاعات والبُعد عن المعاصى والسيئات والرضى بأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ (فلا يزال كذلك) أى فلا يزال يلتمس مرضاة الله مواظباً على طاعته حتى يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لجبريل (إن فلاناً) كناية عن اسمه ووصفه (عبدى) أى المؤمن (إضافة تشریف) (يلتمس أن يرضيني) أى لأن أرحمه (ألا) للتنبيه (وإن رحمتى)

(١) رواه أحمد، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) سورة مريم: الآية: (٩٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط (٥٧/٢).

أى الكاملة (عليه) أى واقعة عليه ونازلة إليه (فيقول جبريل: رحمة الله على فلان) خبر أو دعاء وهو الأظهر. (ويقولها حملة العرش) هذه الجملة: رحمة الله على فلان (ويقولها من حولهم) أى جميعًا (ثم يهبط) أى تنزل الرحمة (له) أى لأجله (إلى الأرض) أى إلى أهل الأرض... قال القارى: يعنى محبة الله إياه ثم يُوضع له القبول فيها... قال الطيبي. هذا الحديث وحديث المحبة متقاربان - انتهى.

✽ ويريد بحديث المحبة ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة: «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانًا فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض»^{(١) (٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد- ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.
 (٢) مرعاة المفاتيح (١٠٨/٨) بتصرف.

(١٣٥) عَجِبَ رَبُّنَا ﷺ مِنْ رَجُلَيْنِ

❁ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا ﷺ مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ تَارَ^(١) عَنْ وَطْأَيْهِ وَلِحَافِهِ^(٢)، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انظُرُوا إِلَى عَبْدِي، تَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطْأَيْهِ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي... وَرَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْهَزَمَ أَصْحَابَهُ، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِي الْأَنْهَزَامِ، وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَبِقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أَهْرَبِقَ دَمُهُ».

وفي رواية قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنَا ﷺ مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَبِقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أَهْرَبِقَ دَمُهُ»^(٣).

❁ من المعلوم أن المجاهد يشري نفسه لله أي: يبيعهها لله... قال تعالى:

❁ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبَعَاءً مَّرْضَاتٍ اللَّهِ كَمَا^(٤)، يعني يبيعهها.

وقال: ❁ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ كَمَا^(٥) أي أنهم باعوها لله، وذلك بتقديمها في سبيل الله ﷻ.

❁ قوله: (عَجِبَ رَبُّنَا ﷺ مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ).
صفة العجب ثابتة لله ﷻ ولكنه ليس عجباً كعجب المخلوقين.. فالله

(١) تار: أي نهض ووثب.

(٢) الوطاء: أي المهاد الوطىء وهو خلاف الغطاء.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٨١).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٠٧).

(٥) سورة التوبة: الآية: (١١١).

عَبْدِي، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقد أخبر النبي ﷺ هنا أن الله قد عجب من رجلين: أما الأول فقد ترك فراشه وزوجته الجميلة من أجل أن يقف بين يدي الله ويصلى قيام الليل فيباهي الله به الملائكة ويقول: «انظروا إليَّ عَبْدِي، تَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، مِنْ بَيْنِ حَبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي» أى من الأجر والثواب «وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي» أى من العذاب والعقاب.

وأما الرجل الثانى الذى عجب الله ﷻ منه فهو رجلٌ خرج مجاهدًا وغازيًا فى سبيل الله ﷻ راجيًا أن يظفر بالنصر أو الشهادة فى سبيل الله فانهمز أصحابه الذين كانوا يُجاهدون معه بسبب قوة العدو أو كثرة عدده أو خوفٍ دَبَّ فى قلوبهم.

﴿قوله: (فعلم ما عليه).﴾

أى: ما يجب عليه من الثبات حتى لا يقضى العدو عليهم... والمقصود بهذا أنه عند الفرار وعندما تحصل هزيمة يحصل ثباتٌ ولو كان العدد قليلاً، وذلك كما ثبت الرسول ﷺ فى غزوة حُنين حين انهزم أكثر أصحابه ولم يبقَ إلا عددٌ قليل، وبعد ذلك رجعوا.

﴿فرجع حتى أهرىق دمه﴾ هذا إنما يكون فيما إذا لم يكن الهلاك مُحَقَّقًا، فإذا كان الهلاك مُحَقَّقًا فليس للإنسان أن يَقدُم... كالذى يقتل نفسه بأى سبب من الأسباب، أو يسعى إلى قتل نفسه بشىء يزعم أن فيه نكاية بغيره، ثم يتسبب فى قتل نفسه، ويحمل العدو على إزهاق نفوس كثيرة بسبب هذا الذى قد حصل منه.

﴿فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى﴾.

أى: انظروا إلى عبدى رجع ليقا تل رغبة فيما عندى من الأجر والثواب،



وشفقة مما عندى من العقاب.

❁ «حتى أُهريق دمه» أى: حتى قُتل، ولكن إذا كان الإنسان لا يقوم بذلك الشيء إلا بأن يهلك نفسه فلا يُلقى بنفسه إلى التهلكة، وأما إذا كان فى ثباته تشجيع لغيره وتثبيت لهم حتى يعودون، ثم تحصل منهم النكاية فى العدو والانتصار عليه، فهذا هو الذى ينبغى أن يُعمَل^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح سنن أبى داود للعباد - بتصرف كبير.

(١٣٦) قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يقرأَ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «أَقْرَأُ بِهَا فِي نَفْسِكَ»؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❁، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ❁، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ❁، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجَدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ❁ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ❁ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ❁ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١).

❁ قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة ... سُميت بذلك؛ لأنها لا تصح الصلاة إلا بها كقوله عَزَّ وَجَلَّ: «الحج عرفة» ففيه دليل على وجوبها بعينها في الصلاة.

قال العلماء: والمراد قسمتها من جهة المعنى؛ لأن نصفها الأول تحميد الله تعالى، وتمجيد وثناء عليه، وتفويض إليه، والنصف الثاني سؤال وطلب وتضرُّع وافتقار.

واحتجَّ القائلون بأنَّ البسملة ليست من الفاتحة بهذا الحديث، وهو من أوضح ما احتجوا به ... قالوا: لأنها سبع آيات بالإجماع، فثلاث في أولها ثناء أولها الحمد لله، وثلاث دعاء أولها اهدنا الصراط المستقيم، والسابعة متوسطة

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.



وهي إياك نعبد وإياك نستعين.

✽ ولقد أورد أبو داود رحمته الله أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج غير تمام» والمقصود بالخداج أنها غير صحيحة، أو أنها ناقصة غير تامة... وأصل الخداج مأخوذ من قولهم: أخذجت الناقة: إذا ألقته ما في بطنها قطعة من الدم قبل أن تتخلق جنيناً، فذلك يكون شيئاً فاسداً لا فائدة منه، فكذلك الصلاة التي لا يُقرأ فيها بأم الكتاب لا فائدة من ورائها، أو أنها لا تصح... إذا فلا بد من قراءة الفاتحة.

فقال له الراوى عنه - وهو أبو السائب مولى بنى زهرة -: «إني أكون وراء الإمام» فقال: «اقرأ بها في نفسك»، أى: لا تترك القراءة وراء الإمام، بل اقرأ بها في نفسك سراً، وليس المقصود من ذلك أنه يقرأ بها في نفسه بدون تحريك الشفتين؛ لأن هذه ليست قراءة، وإنما المقصود بذلك أن يقرأ بها سراً في نفسه، وليس استذكّاراً أو تأملاً في النفس دون أن يُحرك شفتيه ولسانه، فإن القراءة إنما تكون بذلك، قال: «اقرأ بها في نفسك» أى: ولو كان الإمام يقرأ، لكن لا تجهر بها، ولا تُنازعه في القراءة، ولا تُشوش عليه ولكن اقرأ بها في نفسك، سواء أسرّ الإمام أو جهر... ولكنه إذا كانت الصلاة سرية فللمأموم أن يقرأ شيئاً غير الفاتحة، وأما في الجهرية فلا يقرأ إلا الفاتحة ثم يستمع.

ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: «فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول الله عز وجل: حمدنى عبدى.. فإذا قال العبد: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يقول الله عز وجل: أثنى علىّ عبدى.. فإذا قال العبد: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول الله عز وجل: مجّدتنى عبدى» وهذه كلها لله عز وجل؛ لأنها

ثناء عليه سبحانه وتعالى... فهذه ثلاث آيات من أول سورة الفاتحة كلها ثناء وتعظيم وتمجيد لله سبحانه وتعالى، «فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: هذه بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل» فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذه لله؛ لأن العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه طلب العون من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا سؤال، لذلك قال: «ولعبدى ما سأل» إذا: فالآية الرابعة هي بين الله وبين عبده.

ثم قال: «يقول العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يقول الله: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل».

فهذا الحديث ذكره أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مستدلًّا به على أن الإنسان يقرأ الفاتحة في نفسه، وذلك أن الصلاة قُسمت بين العبد وبين الله تعالى قسمان.

والمقصود بالصلاة في قوله سبحانه: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين» المقصود بها القراءة، فقد فسرها بقوله: «فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» وليس المقصود بها الصلاة التى هى أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير ومنتھية بالتسليم، فإن ذلك لله وحده، وإنما الذى يكون لله وللعبد هو ما اشتملت عليه الفاتحة... فبعضها دعاء يرجع إلى العبد، وبعضها ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم له، ولهذا فكون الإنسان يقرأ الفاتحة، أو يدعو بهذا الدعاء الذى فى الفاتحة بعد أن سبقه الحمد لله والثناء عليه هو من أسباب قبول الدعاء.

ثم حُتمت السورة بطلب الهداية: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وحاجة الناس إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأن هدايتهم ليصراط المستقيم فيه خروجهم من الظلمات إلى النور، وفيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة، فلا شك فى أن هذا أهم المهمات، وأعظم المطالب، وأجلُّ شىء



يدعو به الإنسان ربه أن يعطيه إياه.

وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا الدعاء يشتمل على أمرين: التثبيت على الهداية الحاصلة، وطلب المزيد من الهداية... فالهداية منها ما هو موجود فيطلب الإنسان التثبيت عليه، أو يطلب المزيد، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، فهو يطلب بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن يثبته الله على ما حصل له من الهداية، وأن يوفقه لتحصيل زيادة في الهداية.

﴿فَقَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ» الْمَقْصُودُ بِهِ الْقِرَاءَةُ وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِ الصَّلَاةُ، وَأُطْلِقَ عَلَى الْفَاتِحَةِ أَنَّهَا صَلَاةٌ لِأَنَّهَا لِأَمْرٍ وَمَتَعِينَةٌ عَلَى كُلِّ مُصَلٍّ، حَيْثُ تَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ كَوْنَ الْإِنْسَانَ يَقْرَأُ بِهَا يُحْصَلُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ الَّتِي فِي آخِرِهَا -الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْعَبْدِ- وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «هَذِهِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

ثم إن هذا الحديث يدل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة؛ لأنه لما قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ»، وذكر هذه السورة التي تُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ الْفَاتِحَةُ قَالَ: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وَلَمْ يَقُلْ: فَإِذَا قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

قال بعض أهل العلم: فدلَّ هذا على أن البسملة ليست من الفاتحة، فهي آية من القرآن تأتي قبل كل سورة، ولكنها ليست من الفاتحة ولا من غير الفاتحة، إلا بسم الله الرحمن الرحيم التي في وسط سورة النمل، فهي بعض آية من سورة النمل، وإنما الكلام في الآيات التي تكون في أوائل السور، فهي آية من القرآن ولكنها ليست من السور، ولم يُرَوَّ عن الصحابة رضي الله عنهم في المصحف إلا ما هو قرآن، ولو كانت غير قرآن لما وضعوها في وسط المصحف، ولميزوها عن غيرها، ولبيّنوا أنها ليست قرآناً، فما دام أنهم ذكروها في المصحف - ولا يكون

في المصحف إلا القرآن - فهي قرآن، ولكنها ليست من الفاتحة^(١).

✽ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذَا النَّصِّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مُنْقَسِمَةٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ وَأَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مُقْتَسَمُ السُّورَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَعَ مَا قَبْلَهُ لِلَّهِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ لِلْعَبْدِ وَلَهُ مَا سَأَلَهُ. وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ، وَنِصْفُهَا مَسْأَلَةٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ دُعَاءٌ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْنَا أَنْ نُنَاجِيَهُ وَنَدْعُوهُ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَهُ، وَأَنْ نَسْتَعِينَهُ؛ إِذْ إِجَابَةُ الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَدُعَاءٌ وَسُؤَالٌ هُوَ إِجَابَةٌ لِمَعْنَاهُ، لَيْسَ إِجَابًا لِمُجَرَّدِ لَفْظٍ لَا مَعْنَى لَهُ... فَإِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ؛ بَلْ إِجَابَةُ ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ إِجَابَةِ مُجَرَّدِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ أَصْلُهُ بِمُجَرَّدِ الْقَلْبِ أَوْ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ... بَلْ أَوْجَبَ دُعَاءُ اللهِ ﷻ وَمُنَاجَاتُهُ وَتَكْلِيمُهُ وَمُخَاطَبَتُهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ الْوَاجِبُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا صُورَةً وَمَعْنَى بِالْقَلْبِ وَبِسَائِرِ الْجَسَدِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح سنن أبي داود للعباد.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/١٤).



﴿١٢٧﴾ يعجب ربك من راعي غنم يؤذن

❁ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَطِئَةِ بَجَبِلٍ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ، وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن، ويُقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة»^(١).

❁ أورد أبو داود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الترجمة، وهي: [الأذان في السفر] كما يكون في الحضر... والإنسان المسافر يؤذن، سواءً أكان في جماعة أم كان وحده... ولذلك إذا أذن يحصل بأذانه ذكرُ الله، ويحصل بأذانه كونه لا يسمعه شيء إلا شهد له، وكذلك -أيضاً- يمكن أنه يسمعه أحدٌ من الناس فيعرف دخول الوقت بهذا الأذان، ويمكن أن يأتي إليه ويصلي معه... كل ذلك من فوائد حصول الأذان في السفر.

فالمسافر يؤذن ويقيم، سواءً أكان في جماعة أم كان وحده.

وقد أورد أبو داود، حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يدل على أذان الفرد إذا كان وحده في السفر، فإنه يؤذن ويصلي.

❁ قوله: «يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شطيئة بجبل».

الشطيئة: قطعة من الجبل أو جزء منه أو ناحية من الجبل.

قوله: «يؤذن بالصلاة ويصلي».

يعنى: يؤذن ويحصل منه الأذان والإقامة، وتحصل منه الصلاة.

قوله: «فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة».

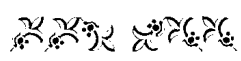
(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١).

هذا يدلنا على فضل هذه الأعمال في السفر... فالصلاة لا بد منها، والأذان كذلك، حيث يشرع للإنسان المسافر أن يؤذن ولو كان وحده، وهذا الأجر مُرَكَّب على مجموع هذه الأمور... وكون الإنسان يؤذن ويقيم الصلاة يدل على أنه يخاف الله عَزَّوَجَلَّ... فالله تعالى يغفر له ذنوبه ويُدخله الجنة جزاءً على ذلك العمل الصالح الذي عمله.

وفي الحديث إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء ذلك في القرآن في إحدى القراءتين لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾^(١)، لأنه على قراءة (بل عجبْتُ)، تكون من آيات الصفات، وعلى قراءة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ لا تكون آية صفة... فالعجب صفة ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ في القرآن في إحدى القراءات المتواترة.

وكذلك -أيضاً- جاء في سنة رسول الله ﷺ في أحاديث عديدة، منها هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه^(٢).

قال الشيخ الألباني رحمته الله: «وإن مما يؤسف له حقاً أن هذه العبادة العظيمة، والشعيرة الإسلامية، قد انصرف أكثر علماء المسلمين عنها في بلادنا، فلا تكاد ترى أحدا منهم يؤذن في مسجدٍ ما إلا ما شاء الله، بل ربما خجلوا من القيام بها، بينما تراهم يتهافتون على الإمامة، بل ويتخاصمون! فإلى الله المشتكى من غربة هذا الزمان»^(٣).



(١) سورة الصافات: الآية: (١٢).

(٢) شرح سنن أبي داود للعباد.

(٣) السلسلة الصحيحة (١/١٠٤).

(١٣٨) مضاعفة الأجر لأمة الإسلام مع قلة عملهم

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:

«إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيَمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أَوْتِيَ أَهْلُ التَّوْرَةِ التَّوْرَةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوْتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوْتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمَلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَي رِبْنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ ظَلَمْتُمْ مَنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مِنْ أَشَاءٍ»^(١).

وعنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجْرَاءً، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ عُدْوَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَانْتَمَ هُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَضْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ أَشَاءً»^(٢).

قوله: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيَمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ، كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ» أي: أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى بقية النهار.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٨) كتاب الإجارة.

قوله: «أوتى أهل التوراة، التوراة» إلى آخره... شرحٌ وبيانٌ لما تقدّم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها.

قوله: «قيراطاً قيراطاً» كرهه ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته، فيقولون: قُسّم هذا المال على بنى فلان درهماً درهماً، أى: لكل واحدٍ درهم^(١).

والقيراط: النصيب المُقدر، وهو في الأصل: نصف دانق، والدانق: سُدس درهم... وقد يُقصد بالقيراط، الشيء الكثير، كما في الحديث: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قَيْرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قَيْرَاطَانٍ»، قيل: وَمَا الْقَيْرَاطَانِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ»^(٢).

✽ قوله: «ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمَلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ» مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو نهاية الدنيا، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل، ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر... وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم: «هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلى أوتيه من أشياء».

وهذا هو المقصود من الحديث، أن مشيئة الله نافذة، لا يحكّمها عُرف أو نظر أو غير ذلك، بل ما شاء فَعَلَهُ فَعَلَهُ، وما لم يشأ لا يقع.

وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة، ومَن سلك طريقهم، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة، بأنه يجب أن يفعل كذا، ويمتنع أن يفعل كذا... كقولهم: يجب أن يعذب العاصي، ويثيب المطيع، بحكم العقل قياساً

(١) الفتح (٢/٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٢٥) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.



منهم على المخلوق... تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً^(١).

❁ قَوْلُهُ: «مِثْلَكُمْ وَمِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِينَ»، الْمُرَادُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى. قَوْلُهُ: «كَمِثْلِ رَجُلٍ» فِيهِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: مِثْلَكُمْ مَعَ نَبِيِّكُمْ وَمِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِينَ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجْرَاءً.... فَالْمِثْلُ مَضْرُوبٌ لِلْأُمَّةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، وَالْمُمَثَّلُ بِهِ الْأَجْرَاءُ مَعَ مَنْ اسْتَأْجَرَهُمْ.... «فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ عُذْوَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ»... فَكَانَ مِقْدَارُ الزَّمَنِ الَّذِي عَمِلَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ.... «ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى» فَكَانَ مِقْدَارُ الزَّمَنِ الَّذِي عَمِلَتْ فِيهِ النَّصَارَى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ أَيَّ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ.

«ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيَبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟» فَاتَمَّ هُمْ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ.

قَوْلُهُ: «عَلَى قِيرَاطٍ» وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ: عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، وَالْمُرَادُ بِالْقِيرَاطِ النَّصِيبِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ نِصْفُ دَانِقٍ، وَالِدَانِقُ سُدْسُ دِرْهَمٍ.... (فَغَضِبَتِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى)، أَي: الْكُفَّارَ مِنْهُمْ... فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقْلَ عَطَاءً؟...

قَالَ الْكُرْمَانِيُّ: كَيْفَ كَانُوا أَكْثَرَ عَمَلًا وَوَقْتُ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ مِثْلَ وَقْتِ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرَبِ؟ وَأَجَابَ بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ أَكْثَرِيَةِ الْعَمَلِ أَكْثَرِيَةُ الزَّمَانِ. فَقَالَ تَعَالَى: «هَلْ نَقَضْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضَلِّي أَوْتِيهِ مَنْ أَسَاءَ»...

قَوْلُهُ: «فَذَلِكَ فَضَلِّي»، فِيهِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ عَلَى

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/٢٦٤).

سَبِيلِ الْإِحْسَانِ مِنْهُ»^(١).

✽ فهم كانوا أكثر عملاً، من الصباح إلى منتصف النهار (مدة طويلة)، ومع ذلك عجزوا، أى: ما أتموا ما فرض الله ﷻ عليهم فأعطوا قيراطاً قيراطاً، أى: وزعوا الأجر على العاملين، ولذلك كرر لفظة القيراط كما لو أردت أن تقول: إنك أعطيت فلاناً حقه كاملاً فتقول: أعطيته حقه درهماً درهماً، أى: ليس له عندك حق... فتكرير القيراط إشارة إلى أن كل عامل أخذ أجره على قدر ما عمل.

✽ وأخذ علماؤنا من هذا الحديث من قوله ﷺ: «ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً» أن المرء إذا كُلف بأمرٍ فعجز لظروفه الخاصة فإنه يأخذ أجره... ففى بنى إسرائيل يأخذ قيراطاً قيراطاً، وعندنا يأخذ أجره كاملاً، وهذا من جملة معاملة الله إيانا بالفضل.

كما قال النبي ﷺ: «إذا سافر العبد أو مرض كُتب له ما كان يعمله صحيحاً مقيماً»، فإذا كان له وردٌ من الليل يصليه، أو كان له قيام، أو كان له صدقة، فإذا سافر العبد فلم يستطع أن يعمل مثلما يعمله في بلد الإقامة كُتب له أجره كاملاً كما لو كان مقيماً... وإذا مرض العبد فعجز عن القيام بما كان يفعله في حال الصحة كتب الله ﷻ له ذلك كاملاً: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾

(١) عمدة القارى (١٢/٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية: (٧٠).



تحریم الانتحار (١٣٩)

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَانَ فَيَمَنُ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزَعٌ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمَ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

روى العالم الصالح الزاهد العابد، الحسن البصرى رحمته الله عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: أنه حدّث في مسجد الكوفة بهذا الحديث الذي معنا: أن النبي صلى الله عليه وسلم حدّث أصحابه عن رجل كان فيمن قبلنا من الأمم الماضية فيه جرح جزع منه، فأيس من رحمة الله تعالى وشفائه، ولم يصبر على ألمه رجاء ثوابه، لضعف داعي الإيمان واليقين في قلبه، فأخذ سكيناً فقطع بها يده، فأصابه نزيف في دمه، فلم يرقأ وينقطع حتى مات.

قال الله تعالى ما معناه: هذا عبدى استبطأ رحمتى وشفائى، ولم يكن له جلدٌ على بلائى، فعجل إلى نفسه بجنايته عليها، وظن أنه قصّر أجله بقتله نفسه، لذا فقد حرمت عليه الجنة.

فكان هذا الهارب من وجع الجرح إلى عذاب النار، كالمستجير من الرمضاء بالنار. فنعوذ بالله تعالى من سوء الخاتمة.

عن حياة الإنسان ليست ملكاً له فهو لم يخلق نفسه، ولا عضواً من أعضائه أو خلية من خلاياه، وإنما نفسه وديعة عنده استودعه الله إياها، فلا يجوز له التفريط فيها فكيف بالاعتداء عليها؟ فكيف بالتخلّص منها؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١١٣) كتاب الإيمان بدون ذكر «بادرنى عبدى بنفسه».

(٢) سورة النساء: الآية: (٢٩).

إن الإسلام يريد من المسلم أن يكون صلب العود قوى العزم في مواجهة الشدائد ولم يُبَحِّ له بحالٍ أن يفر من الحياة، ويخلع ثوبها، لبلاءٍ نزل به، أو أمل كان يحلم به فخاب... فإن المؤمن خُلِقَ للجهاد لا للعود، وللكفاح لا للفرار، وإيمانه وخلقُه يَأْبِيَان عليه أن يفر من ميدان الحياة، ومعه السلاح الذي لا يفلى، والذخيرة التي لا تنفد: سلاح الإيمان المكين وذخيرة الخلق المتين.

لقد أنذر الرسول ﷺ مَنْ يَقْدُم على هذه الجريمة البشعة - جريمة الانتحار - بحرمانه من رحمة الله في الجنة، واستحقاق غضب الله في النار.

فإذا كان هذا حُرِّمَتْ عليه الجنة من أجل جراحة لم يحتمل ألمها فقتل نفسه، فكيف بمن يقتل نفسه من أجل صفقة يخسر فيها قليلاً أو كثيراً، أو من أجل امتحان يفشل فيه، أو فتاة صدَّت عنه؟!

ألا فليسمع ضعاف العزائم هذا الوعيد الذي جاء به الحديث النبوي يهرق ويرعد:

«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^{(١)(٢)}.

✽ يُسْتَفَاد من هذا الحديث:

أ- تغليظ تحريم قتل النفس سواء كانت نفس القاتل أم غيره.

ب- ليس في الحديث متمسك لمن قال بتخليد أصحاب المعاصي في النار، فقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يدحض هذا التوهم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٧٨) كتاب الطب - ومسلم (١٠٩) كتاب الإيمان.

(٢) الحلال والحرام في الإسلام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٨٤-٢٨٥) بتصرف.



عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنِ حَصِينٍ ^(١) وَمَنْعَةٍ؟ ^(٢) فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي ذَخَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا ^(٣) الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ ^(٤) لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ ^(٥)، فَشَخِبَتْ يَدَاهُ ^(٦) حَتَّى مَاتَ، فَرَأَهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَأَهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةً، وَرَأَهُ مُعْطِيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: عَفَّرَ لِي بِهَجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُعْطِيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصَلِّحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاعْفِرْ» ^(٧).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ حُجَّةٌ لِقَاعِدَةٍ عَظِيمَةٍ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ أَوْ ازْتَكَبَ مَعْصِيَةَ غَيْرِهَا وَمَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ فَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا يُقَطَّعُ لَهُ بِالنَّارِ بَلْ هُوَ فِي حُكْمِ الْمَشِيئَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ شَرْحٌ لِلْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَهُ، الْمُؤَهِّمُ ظَاهِرُهَا تَخْلِيدَ قَاتِلِ النَّفْسِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ فِي النَّارِ، وَفِيهِ: إِثْبَاتُ عُقُوبَةِ بَعْضِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي فَإِنَّ هَذَا عُقُوبٌ فِي يَدَيْهِ فَبِهِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجئةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تَضُرُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٨).

(١) أرض دوس وحصن كانت لهم في الجاهلية.

(٢) عزة وامتناع.

(٣) فاجتمعوا: كرهوا المقام فيها لضجر وسقم يصيب الجوف.

(٤) مشاقص: جمع مشقص، وهو سهم فيه نصل عريض.

(٥) براجمه: جمع برجمة، وهي مفاصل الأصابع.

(٦) فشخب يدها: سال دمها بقوة.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١١٦) كتاب الإيمان.

(٨) شرح مسلم (١/١٧٣).

ت- مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ يَتْرُكُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْفَضْلَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ
وَلَا يَصِلُونَ عَلَيْهِ... لِحَدِيثِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ قَتَلَ
نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٨) كتاب الجنائز.

(١٤٠) الإيمان بالقدر

❁ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدْرِ»^(١).

❁ وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يُعَوِّدُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ مِنْ شَارِيكَ، ثُمَّ أَقْرَهُ حَتَّى تَلْقَانِي»؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ، وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى - يَعْنِي بِيَدِهِ الْأُخْرَى - فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أَبَالِي» فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا^(٢).

❁ وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضْرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بِيضَاءَ، كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضْرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا أَبَالِي وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَتِفِهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلَا أَبَالِي»^(٣).

❁ قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن كثيراً من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث - ونحوها أحاديث كثيرة - تفيد أن الإنسان مجبورٌ على أعماله الاختيارية، ما دام أنه حُكِمَ عليه منذ القديم

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩).

وقبل أن يُخلق بالجنة أو النار... وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظٌّ فمن وقع في القبضة اليمنى كان من أهل السعادة، ومن كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة... فيجب أن يعلم هؤلاء جميعاً أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في صفاته، فإذا قبض قبضة فهي بعلمه وعدله وحكمته، فهو تعالى قبض باليمنى على مَنْ عَلِمَ أنه سيُطيعه حين يُؤمَر بطاعته، وقبض بالأخرى على مَنْ سبق في علمه تعالى أنه سيعصيه حين يُؤمَر بطاعته... ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على مَنْ هو مستحقُّ أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس... كيف والله ﴿وَلَنْ يَقُولَ: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

ثم إن كلاً من القبضتين ليس فيها إجبارٌ لأصحابهما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار، بل هو حُكْمٌ من الله تبارك وتعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة، أو كفر يقتضى النار والعياذ بالله تعالى منها. وكُلٌّ من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان، لا يُكره الله تبارك وتعالى أحداً من خلقه على واحدٍ منهما ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾، وهذا مُشَاهَدٌ معلوم بالضرورة، ولولا ذلك لكان الثواب والعقاب عبثاً، والله مُنَزَّهٌ عن ذلك.

ومن المؤسف حقاً أن نسمع من كثير من الناس - حتى من بعض المشايخ - التصريح بأن الإنسان مجبور لا إرادة له! وبذلك يُلزمون أنفسهم القول بأن الله يجوز له أن يظلم الناس! مع تصريحه تعالى بأنه لا يظلمهم مثقال ذرة، وإعلانه بأنه قادر على الظلم ولكنه نَزَّهَ نفسه عنه كما في الحديث القدسي المشهور:

«يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى...» وإذا جُوبهوا بهذه الحقيقة، بادروا إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، مُصْرِّينَ بذلك على أن الله



تعالى قد يظلم ولكنه لا يُسأل عن ذلك!... تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً... وفاتهم أن الآية حُجّة عليهم لأن المراد بها - كما حققه العلامة ابن القيم في شفاء العليل وغيره - أن الله تعالى لحكمته وعدله في حكمه ليس لأحدٍ أن يسأله عما يفعل، لأن كل أحكامه تعالى عدلٌ واضحٌ فلا داعي للسؤال.

وللشيخ يوسف الدجوى رسالة مفيدة في تفسير هذه الآية لعله أخذ مادتها من كتاب الإمام ابن القيم المشار إليه آنفاً.

هذه كلمة سريعة حول الأحاديث المتقدمة حاولنا فيها إزالة شبهة بعض الناس حولها... فإن وُقِّتُ لذلك فيها ونعمت، وإلا فإني أُحيل القارئ إلى المطوّلات في هذا البحث الخطير، مثل كتاب ابن القيم السابق، وكتب شيخه ابن تيمية الشاملة لمواضيع هامة هذا أحدها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) «الصحیحة» (١ / ١ / ١١٥ - ١١٧) رقم (٤٨)، وموسوعة الألبانی فی العقيدة (٩ / ٦٦١ -

(١٤١) أربع ركعات في أول النهار.. ومكافأة آخر النهار

✽ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»^(١).

✽ وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ»^(٢).

✽ قال المبار كفوري رحمته الله: «ابْنَ آدَمَ»: أي يا ابن آدم.
«ارْكَعْ»: أي صَلِّ «لِي»: أي خالصًا لوجهي «مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ»: قيل: المراد صلاة الضحى.

وفي رواية: «إِنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، اكْفِنِي أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِكَ».

«اكْفِنِي أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ»: معنى اكفنى هنا: أدّها لى وافعلها من أجلى.

وإنما عبّر بهذا اللفظ للمشاكلة في قوله أكفك.
«أَكْفِكَ آخِرَهُ»: المراد بكفايته تعالى للعبد أن يقيه السوء ويحفظه من الشرور ويرزقه من حيث لا يحتسب ويسر له أموره.

قال الطيبي: أي أكفك شغلك وحوائجك وأدفع عنك ما تكرهه بعد صلاتك إلى آخر النهار. والمعنى: فرّغ بالك بعبادتي في أول النهار أفرغ بالك في آخره بقضاء حوائجك.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٣٣٩).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى في الإرواء (٤٦٥).



والظاهر من أقوال أهل العلم أن المراد بتلك الركعات هي (صلاة الضحى) فيا ليتنا نحرص عليها فقد قال الحبيب ﷺ: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى أَرْبَعًا وَقَبَلَ الْأُولَى أَرْبَعًا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٤٠).

(١٤٢) فضل الوضوء من الليل

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَا أَقُولُ الْيَوْمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْتًا مِنْ جَهَنَّمَ».

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهْوَرِ وَعَلَيْهِ عُقْدٌ فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انظُرُوا إِلَيَّ عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ وَيَسْأَلُنِي... مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ»^(١).

وهذا الحديث يوضح لنا أن كيد الشيطان يحتاج من المؤمن أن يعتصم بالملك (جلّ وعلا) وأن يُجاهد نفسه بالطاعة ليتخلص من كيد الشيطان.

ومن بين تلك الأسلحة التي يتخلص بها المؤمن من كيد الشيطان (الوضوء)؛ فإن جاهد المؤمن نفسه وشيطانه وقام من الليل فتوضأ للصلاة؛ فإن الله الكريم يكافئ عبده المؤمن بقوله: «مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ».

قوله: «يُعَالِجُ نَفْسَهُ» أي: يُدافع نفسه، والمقصود أن نفسه تميل إلى الراحة والنوم، ولكنه هو يُقاوم ذلك ويتوضأ ويصلي.

قوله: «عليه عُقْدٌ» أي: من فعل الشيطان.

وقد تكاثرت النصوص عن النبي ﷺ بتكفير الخطايا بالوضوء، كما في «صحيح مسلم» عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ

(١) حسن: رواه أحمد (٤/١٥٩)، وابن حبان (١٦٨-١٦٩-١٧٠)، وفي الإحسان (٢٥٤٦)، وقال الأرئؤوط: إسناده صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٣١)، وقال: حسن لغيره.



مِثْلَ وُضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشِيئُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً»^(١).

وفيه أيضاً عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.

(١٤٣) أَنْفِقِ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفِقَ عَلَيْكَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفِقِ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفِقَ عَلَيْكَ»^(١).

عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ» هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ» فَيَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَعْنَى فِي وَجْوهِ الْخَيْرِ وَالتَّبَشِيرِ بِالْخُلْفِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

وهل هناك بشرى أعظم من تلك البشرية.. فالله يأمرك بأن تنفق ويعِدك بأنه هو الذي سينفق عليك ويُعوضك بالحلال الطيب الذي تغمره البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

ولكى تستشعر هذا المعنى فتأمل معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَبِيدُهُ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»^(٣).

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمُ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥٢) كتاب النفقات - ومسلم (٩٩٣) (٣٦) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١١٠ / ٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب التفسير، ومسلم (٩٩٣) (٣٧) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.



(١٤٤) مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي

❁ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ» ^(١).

❁ وليس معنى ذلك أن نترك الدعاء، ولكن معنى الحديث أشمل وأعظم من ذلك... فالذكر هنا هو التشريع كله بكل ما فيه من عبادات وتكاليف: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٢).

فمن انشغل بالتكاليف والعبادات (ومن بينها الدعاء) فهذا أعظم عند الله ممن انشغل بالدعاء فقط، ولذلك وعده الله تعالى بأن يعطيه أفضل مما يعطى السائلين.

وهناك رأى آخر: وهو أن من شغله الذكر والطاعة عن أن يسأل ربه كل ما يحتاج إليه من أمور الدنيا فإن الله يعوضه ويرزقه من كل الخيرات لانشغاله بطاعة رب الأرض والسموات.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ^(٣).

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ^(٤).

(١) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد (ص ١٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٤١٣)، رقم (٥٧٢).

(٢) سورة الحجر: الآية: (٩).

(٣) سورة الشورى: الآية (٢٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية (١٨).

فالله يرزقه الخير كله لانشغاله بالطاعة والعبادة والعمل لهذا الدين ﴿وَمَنْ
 يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١).

بِقَدْرِ عَمَلِهِ يُرْزَقُ



﴿ ١٤٥ ﴾ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

﴿ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴾، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾. أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لِلسَّمَاءِ: أَخْرِجِي شَمْسَكَ وَقَمَرَكَ وَنُجُومَكَ، وَقَالَ لِلأَرْضِ: شَقِّقِي أَنْهَارَكَ وَأَخْرِجِي ثِمَارَكَ، فَقَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ^(١).

﴿ فَمَثَل هَذَا الْحَدِيثِ وَإِنْ لَمْ يَرْفَعِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ... فَمَثَلُهُ لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالْوَحْيِ.

﴿ وَفِيهِ يُذَكَّرُ بَعْضُ التَّفَاصِيلِ عَنِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بَشَىءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي سُورَةِ «فُصِّلَتْ» فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَّا فِيهَا قَوَاتِمًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ وَحَفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾.

يُنْكِرُ تَعَالَى وَيَعْجَبُ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِينَ بِهِ، الَّذِينَ جَعَلُوا مَعَهُ أُنْدَادًا يُشْرِكُونَ مَعَهُ، وَيَبْذُلُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ عِبَادَاتِهِمْ، وَيُسَوُّونَهُمْ بِالرَّبِّ الْعَظِيمِ، الْمَلِكِ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ الْكَثِيفَةَ الْعَظِيمَةَ، فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ دَحَاهَا فِي يَوْمَيْنِ، بَأَنْ جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا، تُرْسِيهَا عَنِ الزَّوَالِ وَالتَّزَلُّزِ وَعَدَمِ الْاسْتِقْرَارِ.

فَكَمَّلَ خَلْقَهَا، وَدَحَاهَا، وَأَخْرَجَ أَقْوَاتِمَهَا، وَتَوَابَعُ ذَلِكَ ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

(١) رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) سورة فصلت: الآيات: (٩-١٢).

لَسَّالَيْنِ ﴿١﴾ عن ذلك، فلا يُنبئك مثلُ خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص ^(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهى بهيئة الدخان ... قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ^(٢) ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى استجبيا لأمرى طائعتين أو مكرهتين ﴿فَأَلْتَأَا أَنِينَا طَائِعِينَ﴾ أى قالت السموات والأرض: أتينا أمرك طائعين... أى: ليس لنا إرادة تُخالف إرادتك.

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيتته صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق.

فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة.... واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى فى النازعات، لما ذكر خلق السموات قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يظهر منهما التعارض، مع أن كتاب الله، لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك، ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السموات كما هنا، ودحى الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا﴾ ^(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿ متأخر على خلق السموات كما فى سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ^(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا ﴿ إلى آخره ... ولم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها ^(٣).

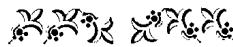
(١) تفسير السعدى (ص ٨٨٢).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٧).

(٣) تفسير السعدى (ص ٨٨٢).



﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى أوحى فى كل سماء ما أرادته، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أى رتب فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيْنًا لِّلسَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا﴾ أى وزيناً السماء الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز فى ملكه، العليم بمصالح خلقه^(١).



(١) صفوة التفاسير (٣/١٠٩).

(١٤٦) فضل يوم عرفة

❁ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمَ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»^(١).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُنَّ أَفْضَلُ أَمْ عِدَّتُهُنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ عِدَّتُهُنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ: يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاءُوا شُعْنًا غُبْرًا حَاجِّينَ جَاءُوا مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي... فَلَمْ يَرِ يَوْمٌ أَكْثَرَ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ، يَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْنًا غُبْرًا»^(٣).

❁ فقولُه: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة) لا يتعارض مع حديث: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة)، ووجه الجمع بين الحديثين: أن خير أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، وخير أيام السنة هو يوم عرفة.

والدنو دنو حقيقى يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ... والإمام النووى عليه رحمة الله كان يقع فى التأويل أحياناً، وتلاميذه من فحول أهل العلم اعتذروا عن النووى بأنه لم

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٨) كتاب الحج.

(٢) حسن: رواه ابن حبان (٣٨٤٢-موارد)، والبزار (١١٢٨-كشف الأستار).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٦٨).



يُتقن مسائل العقيدة، وتصدّر للتصنيف والتأليف في الفقه والأصول وغير ذلك قبل أن يستيقن من مسائل الاعتقاد، فكلما مرت عليه المسألة في أثناء تصنيفه تكلم فيها ونقل فيها عن أهل العلم... فتارة ينقل، وتارة يسكت، وتارة يوافق المتأولة.

وله تأثر بعلماء زمانه ومشايخه، وأنهم كانوا متأولة، فقد كانوا في العقيدة أشاعرة، فقد قال النووي في شرحه لهذا الحديث:

قال القاضي عياض: قال المازري: معنى (يدنو) أي: تدنو رحمته وكرامته، لا دنو مسافة ومُماصة.

وهذا تأويل أيضاً، لأن دنو الرحمن صفة فعل لله عَزَّوَجَلَّ، وصفة أفعاله لا يعلم كيفيتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، كما لا يعلم صفات ذاته إلا هو سبحانه.

فأهل السنة يثبتون جميع الصفات لله عَزَّوَجَلَّ على المعنى اللائق به، ولا نخوض فيها بكيف ولا تأويل، إنما نؤمن بها كما جاءت ونُمرها كما أمرها سلفنا رضي الله عنهم... وهذا أسلم وأحكم وأعلم^(١).

❁ ودنوه - جل وعلا - لا ينافي علوه تعالى... قال شيخ الإسلام في الفتاوى: «وأصل هذا أن قُربه سبحانه ودُنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش، ويقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال ذلك من قاله من السلف».

❁ وبلاغة التعبير بالأفضلية في الحديث الشريف في قوله ﷺ: «ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة»، بما فيها يوم عرفة، فهي عند الله أفضل من الجهاد في سبيل الله لأنها من أفضل أيام السنة.

وبلغ التصوير الفني قمته حين اقتصرت على المفاضلة بين أيام السنة لا بين

شهورها، لأن رمضان أفضل شهورها على الإطلاق، ثم ما أروع التقييد بالتنصيص على لفظ الجلالة «عند الله» الكريم ذى الفضل العظيم، والله لا يُخلف الميعاد... ثم تأكدت الأفضلية بتفضيل يوم عرفة على بقية العشر، في صور بلاغية أخرى في قوله: «وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة» لأن مَنْ فاته الوقوف بعرفة في اليوم التاسع وليلة العاشر؛ فقد فاته الحج... للأحاديث الشريفة: «الحج عرفة»، «من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك» ووضح الحديث الشريف أسباب الأفضلية وهي أنه: «ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادي، جاءوني شعناً غُبْرًا حاجين، جاءوا من كل فجٍّ عميق، يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي فلم يُرَ يومٌ أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة».

✽ وبلاغة التصوير الفنى في التعبير عن مباهاة الله بالحجيج في يوم عرفة بصورة فنية بلغت القمة في بلاغة الأسلوب النبوى الشريف، فعبر عن قرب الله ﷻ، وسرعة استجابته لهم، وقبول مناسك الحج ومشاعره، بنزوله إلى السماء الدنيا؛ فيباهى بهم الملائكة وغيرهم من العوالم الأخرى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ معجبًا بعباده وهو يقول: «انظروا إلى عبادي» بإضافة عبوديتهم إليه، وهو أعظم تشريف للحجيج فقد رضى عنهم، وكذلك بلاغة التصوير الفنى بالكناية عن اشتغالهم بمشاعر الحج صادقين في إتقان مناسكهم مخلصين، غير مهتمين بمظاهر الحياة والتفاخر بمتاع الحياة الدنيا، حتى طالت شعورهم وأظافرهم، واغبرّت بالتراب والعرق أبدانهم وملابس إحرامهم، فلا يُؤبّه لهم وقد ضحوا في سبيل ذلك بأوطانهم وأهليهم وأصدقائهم، ومُضحين بدماء النُّسك، وذبائح الهدى والأضحية كما في الحديث الشريف: «جاءوني شعناً غُبْرًا ضاحين»، وكذلك بلاغة التصوير لقدم الحجيج من كل حدبٍ وصوب على سبيل الكناية المعجزة، التي اقتبسها النبي ﷺ من التصوير القرآنى المعجز في



سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

✽ والتصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن شدة عقاب الله ﷻ وشدة عذابه، مع تقديم رحمته التي وسعت كل شيء، في قوله تعالى: «يرجون رحمتي ولم يروا عذابي»، فقدّم الرحمة على العذاب، مما جعل الحجيج يستحقون المغفرة والرضوان من الله ﷻ...

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: وقف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات وقد كادت الشمس أن تثوب، فقال: «يا بلال أنصت لى الناس»، فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنصت الناس فقال: «يا معشر الناس أتانى جبريل عليه السلام أنفاً، فأقرأني من ربي السلام وقال: إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات، وأهل المشعر الحرام، وضمن عنهم التبعات»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، هذه لنا خاصة؟ قال: «هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة»، فقال عمر رضي الله عنه: كثر خير الله وطاب.

وعبر مع الرحمة بالرجاء، وهو حاصل ومتوقع من الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء... وعبر مع العذاب بعدم الرؤية «ولم يروا عذابي» للدلالة على رفع العذاب عن الحجيج، وأن الله لا يرضى لعباده الكفر ولا العذاب، فهو منفي عنهم «بلم» الجازمة، وأن المغفرة والرحمة وجبت لهم كما ورد في الأحاديث الشريفة: «والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، «ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدر ولا أعظم منه في يوم عرفة»^(١).

«فَلَمْ يَرِ يَوْمَ أَكْثَرُ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ».. ومع أنه في شهر رمضان

(١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف (١/ ١٢٤-١٢٧).

في كل ليلة «الله عتقاء من النار» لكن ذلك لا يوازي مقدار العتق الذي يُغدق الله به على عباده في يوم عرفة... فهو أكثر يومٍ في العام يعتق الله فيه عباده من النار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٤٧) أجر العبد كاملاً إذا مرض أو سافر

❁ عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ الْآخِرَةِ وَهُوَ يُحْتَمُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فُلَانٌ قَدْ حَبَسَتْهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ»^(١).

❁ وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الإنسان إذا كان من عادته أن يكون مواظباً على أى عملٍ صالحٍ ثم مرض أو سافر فإنه يُكتب له الأجر كاملاً.

فإذا كان الإنسان مواظباً على الصلوات الخمس فى المسجد.. وكان محافظاً على السنن الرواتب الخاصة بالصلوات الخمس.. وكان يصلى قيام الليل ويقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء من القرآن ويكثر من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ...

فإذا مرض هذا الإنسان أو سافر فلم يُصلِّ إلا الصلوات الخمس فقط فإنه يُكتب له ما كان يعملهُ وهو صحيحٌ مقيمٌ دون أن ينقص أى شىءٍ من أجره.

❁ وفى هذا تنبيه على أنه ينبغي لنا أن نجتهد فى طاعة الله ما دُمنا فى حال الصحة والفراغ حتى إذا عجزنا عن ذلك لمرضٍ أو سفرٍ كُتِبَ لنا الأجر كاملاً.

ولهذا قال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٣٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

والفراغ»^(١).

وقال ابن عمر: «وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق، موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما.



(١٤٨) لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: «لَا يَتَّبِعِي لِعَبْدٍ لِي أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ» ^(١).

✽ قال الإمام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ... فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» وَلَمْ يَقُلْ هُنَا: إِنَّ يُونُسَ أَفْضَلُ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا زَجْرًا عَنْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ شَيْئًا مِنْ حَطِّ مَرْتَبَةِ يُونُسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ مَا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ مِنْ قِصَّتِهِ ^(٢).

✽ ويونس بن متى (عليه الصلاة والسلام) أحد المرسلين الذين جاء ذكرهم في القرآن في عدة مواضع، وذكره الله باسمه، وذكره بوصفه في موضعين، فقال: ﴿وَذَا التُّونِ﴾ ^(٣) يعنى: صاحب الحوت، والنون: اسم للحوت، وجمعه: نينان، كالحوت جمعه: حيتان... وقال في وصفه: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ^(٤).

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا لما جاء في القرآن عنه من أنه لم يصبر على ما حصل من قومه؛ فذهب مُغاضباً وحصل له ما حصل... والواجب توقير رسل الله

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤١٦) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٣٧٦) كتاب الفضائل.

(٢) شرح مسلم للنووى (١٤٥/٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٨٧).

(٤) سورة القلم: الآية: (٤٨).

(عليهم الصلاة والسلام) ومحبتهم والثناء عليهم وذكرهم بما يليق بهم، ولا يُقال في حق يونس أى شىء وقد حصل منه ما حصل، وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن يُقال: إنه خيرٌ منه، فقال: «ما ينبغي لعبيد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن مَتَّى» ومَتَّى هو اسم أبيه ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح سنن أبى داود للعباد.

﴿١٤٩﴾ من وساوس الشيطان

﴿عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا؟ مَا كَذَا؟ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ»^(١).

وقد يسأل سائل ويقول: ماذا أصنع إذا جاءني الشيطان بهذا الوسواس؟
وهنا تأتي الإجابة في هذا الحديث العظيم.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدَكُمْ، فَلْيَقْرَأْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ»^(٢).

وفي رواية أخرى: «فَقُولُوا: اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ... ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلِيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وفي رواية: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَتَّبِعْ».

﴿قال الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ﴾

دلَّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَنْ وسوس إليه الشيطان بقوله: مَنْ خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث المذكورة.

وخلاصتها أن يقول: «آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. ثُمَّ يَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ يَنْتَهِي عَنِ الْإِنْسِيَاقِ مَعَ الْوَسْوَسَةِ».

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٦) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٦).

وأعتقد أن مَنْ فعل ذلك طاعة لله ورسوله، مخلصًا في ذلك أنه لا بد أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: «فإن ذلك يذهبُ عنه».

وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية، فإن المجادلة قلَّمَا تنفع في مثلها... ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرّفوا إلى سنة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعزكم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٠) كراهة قول الرجل: هلك الناس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ رَجُلًا يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ، يَقُولُ اللَّهُ: إِنَّهُ هُوَ هَالِكٌ»^(١).

لفظ (الرجل) هنا لا مفهوم له، فالمرأة إذا قالت ذلك فإنها مثل الرجل. وقوله: «إِذَا سَمِعْتُمْ رَجُلًا يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» يعني: أنه أسبقهم إلى هذا، وهو أولهم في الهلاك... وهذا الوصف للناس هو أولى الناس بالاتصاف به، أو: هو أولى من غيره، أو: هو أول من يتصف به.

وقد ذكر مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن من قال ذلك تحزناً على ما يرى من الناس، فإن ذلك لا بأس به... ولكن كونه يرى لنفسه ميزة على غيره ويتصاغره ويحتقره، فإن هذا هو الذي يكون مذموماً، ولا شك أن تجنب ذلك هو الذي ينبغي.

هناك رواية لكلمة: (أَهْلَكُهُمْ) بالنصب، يعني أنه تسبب في هلاكهم، وأن من قال ذلك ييأس من الناس وييأسون هم بسبب مقالته^(٢).

وجاء في حديث النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»، وكان من علامات المغرور أن يقول: كل الناس عُصاة، وكل الناس في النار.

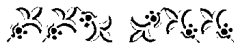
فأنت ترى مجموعة من الناس ولا ترى كل الناس، ولا حضرت كل الناس، ولا عرفت كيف ستكون نهايتهم، لذلك لا يجوز لإنسان أن يقول: كل الناس هلكوا وسيدخلون النار، ولكن الإنسان يدعو لغيره برحمة رب العالمين، وأن يهديهم الله سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أنه يرى المنكر ويتركه، ولكن يرى المنكر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليكن سبيله إليه التغيير برفق

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٧٢) بإسناد حسن - وأصله عند مسلم.

(٢) شرح سنن أبي داود للعباد.

وليس بعنف^(١).

✽ وبعض الناس مُعَرِّمٌ بِالتَّشَكِّي، ولا ينظر إلى الواقع إلا بعينٍ واحدة، ينظر إلى المساوئ فقط، ويدب إليه اليأس، فتجده دائماً يندر الناس ويحذرهم، ويقول: الناس هلكوا وما عاد فيهم خير... وبالمقابل بعض الناس لا ينظر إلا بالعين الأخرى، فلا ينظر إلا إلى المحاسن، ولا ينظر إلى شيء من المساوئ، فهو يُطمئن الناس... لكنه لا بد من التوسُّط، ولا بد من النظر بالعينين كليهما... لا ينظر إلى المساوئ فقط، ويُقنط الناس، ولا ينظر إلى المحاسن فقط، فيجعل الناس يأمنون من مكر الله، ولا يتوبون، ولا يثوبون، ولا يرجعون... بل عليه أن يكون بين هذا وهذا... عليه أن ينظر إلى المحاسن وإلى المساوئ... ينظر إلى المحاسن فيشيد بها ويذكرها، ويُشجع أهلها.. وينظر إلى المساوئ فيحذر منها، لأنه ليس من الإنصاف أن تنظر إلى المساوئ فقط، ولا تذكر إلا المساوئ، وأيضاً ليس من النصح للراعي ولا للرعية، ألا ينظر إلا إلى المحاسن؛ لأنه إذا لم ينظر إلى المساوئ متى يرعوى الناس؟ ومتى يرتدعون؟ إذا آمنوا من مكر الله، قد يُؤخِّذون على غرة وهم لا يشعرون... وكُلُّ من الأمن من مكر الله، واليأس والقنوط من رحمة الله من عظام الأمور - نسأل الله السلامة والعافية-، فلا بد من التوسُّط... ينظر إلى المساوئ ليعالجها، وينظر إلى المحاسن ليشجع فاعلها، ويقتدى به^(٢).



(١) شرح الترغيب والترهيب لحطية.

(٢) شرح الموطأ لعبد الكريم الخضير - بتصرف.



(١٥١) كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُؤَلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْوًا أَحَدٌ»^(١).

وفي رواية: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَشْتُمُنِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَمَنِي، وَيَكْذِبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ... أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي»^(٢).

✽ قوله: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ» المراد به بعض ولد بنى آدم، وهم مَنْ أنكر البعث من العرب وغيرهم من عبّاد الأوثان والدهرية^(٣).

✽ قوله: «يَشْتُمُنِي ابْنُ آدَمَ»: والشتم هو الوصف بما يقتضى النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله يستلزم الإمكان المستلزم للحدوث، وذلك غاية النقص فى حق البارئ سبحانه وتعالى^(٤).

وإنما سَمَّاهُ شَتْمًا لما فيه من التنقيص؛ لأن الولد يكون عن والدة تحمله ثم تضعه، ويستلزم ذلك سبق النكاح... والناكح يستدعى باعثًا له على ذلك، والله سبحانه مُنَزَّهٌ عن جميع ذلك.

✽ «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ» أى: نسبني إلى الكذب.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٩٧٤، ٤٩٧٥) كتاب التفسير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣١٩٣) كتاب بدء الخلق.

(٣) فتح البارى (٨/٦١٢).

(٤) فتح البارى (٦/٣٣٦).

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ) أَي مَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ التَّكْذِيبُ.

(وَشَتَمَنِي): الشَّتْمُ تَوْصِيفُ الشَّيْءِ بِمَا هُوَ إِزْرَاءٌ وَنَقْصٌ فِيهِ.

(وَلَمْ يَكُنْ) لِأَيْقَانًا، وَحَقًّا (لَهُ ذَلِكَ) الشَّتْمُ (فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ): تَفْصِيلٌ لِمَا أَجْمَلَهُ، (فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي) (الإِعَادَةُ هِيَ الإِيْجَادُ بَعْدَ الْعَدَمِ الْمَسْبُوقِ بِالْوُجُودِ... فَالْمَعْنَى لَنْ يُحْيِيَنِي بَعْدَ مَوْتِي (كَمَا بَدَأَنِي) أَي كَمَا أَوْجَدَنِي عَنْ عَدَمٍ وَخَلَقَنِي ابْتِدَاءً، أَي كَالْحَالَةِ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا حِينَ بَدَأَنِي، أَوْ إِعَادَةً مِثْلَ بَدْئِهِ إِيَّايَ، أَوْ لَنْ يُعِيدَنِي مُمَاتِلًا لِمَا بَدَأَنِي عَلَيْهِ، أَوْ لِيَدْتِي لِي مِنْ تُرَابٍ... أَي لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ... وَكُلُّ ذَلِكَ كُفْرٌ وَتَكْذِيبٌ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الإِعَادَةِ الْجُسْمَانِيَّةِ خِلَافًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْحَمَقِيُّ؛ وَلِذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: (وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ) أَي: لَيْسَ الْخَلْقُ الْأَوَّلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ لَيْسَ أَوَّلُ خَلْقِ الْخَلْقِ، (وَالْخَلْقُ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ، بِأَهْوَنَ) (البَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَي لَيْسَ أَسْهَلَ (عَلَى مَنْ إِعَادَتِهِ) أَي الْمَخْلُوقِ أَوْ الشَّيْءِ، بَلْ هُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي قُدْرَتِي.

(وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) أَي اخْتَارَهُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾^(١) وَقَالَتِ الْعَرَبُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ^(٢). (وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ).

(الواحد الأحد) الذي لا شريك له في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله، لا ضِدُّ له ولا نِدٌّ ولا شبيهه ولا كُفُوُّ ولا عدِيل.

(الصمد) الذي يَصْمُدُ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ فَهُوَ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ فِي الرِّغَائِبِ الْمُسْتَعَاثِ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، فَإِلَيْهِ مَنْتَهَى الطَّلِبَاتِ،

(١) سورة التوبة: الآية: (٣٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩٥ / ١).

ومنه يُسأل قضاء الحاجات، وهو الذى لا تعتريه الآفات، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(الَّذِي لَمْ أَلِدْ) أَيْ لَمْ أَكُنْ وَالِدًا لِأَحَدٍ؛ (وَلَمْ أُولَدْ) أَيْ: وَلَمْ أَكُنْ وَكِدًا لِأَحَدٍ... لِأَنَّهُ أَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءٍ كَمَا أَنَّهُ آخِرُ بِلَا انْتِهَاءٍ.

فهو عَزَّوَجَلَّ من كماله أنه (لم يلد ولم يُولد) وذلك لكمال غناه.

«ولم يكن لى كفوًّا أحد» أى ليس له مثل فى أسمائه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله (جَلَّ وعلا).

❁ معنى الحديث: أن الله تعالى يقول فى الحديث القدسى: يتجرأ على هذا الإنسان بما لا أستحقه منه، وقد خلقتة ورزقتة، وأنعمت عليه بشتى النعم، فلم يقابل ذلك بالإيمان بالله وتوحيده، وتقديسه وتنزيهه عما لا يليق به، وإنما قابل هذه النعم العظيمة بالشرك والكفر والنكران... فبعض هؤلاء البشر شتمنى، والبعض منهم كذبنى. فأما الذين شتموا الله عَزَّوَجَلَّ فقد نسب إليه اليهود والنصارى وبعض المشركين الولد، وهو لا يليق به عَزَّوَجَلَّ حيث إنه يقتضى المجانسة والمشابهة، وهو عَزَّوَجَلَّ الواحد الأحد الذى لم يلد، ولم يُولد، ولم يكن له كفوًّا أحد... وأما الذين كذبوا الله فقد أنكروا البعث، واستبعدوه مع علمهم بأن الله هو الذى خلقهم على غير مثالٍ سابق، فكيف يخلقهم ابتداءً، ثم يعجز عن إعادتهم مرة أخرى، مع أن الإعادة أسهل كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

❁ فقه الحديث: دَلَّ هذا الحديث على ما يأتى:

أولاً: أن نسبة الولد إلى الله تعالى شتيمة وإنكار لوحدانيته، وتشبيه له بغيره، وهو شركٌ به، لأن الولد يشبه أباه، وهو عَزَّوَجَلَّ واحدٌ أحدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله، فكيف يكون له ولد يشبهه.

ثانياً: أن إنكار البعث تكذيب لله ولوعده.

ثالثاً: أن الله هو الذي بدأ الخلق، وهو الذي يعيده، وفي ذلك إثبات لحدوث العالم وإعادة الإنسان بعد موته، وأن الله هو الذي يعيده يوم القيامة لمجازاته على أعماله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٢) النفس تكره الموت

﴿عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّفْسِ: اخْرُجِي، قَالَتْ: لَا أَخْرُجُ إِلَّا كَارِهَةً. قَالَ: اخْرُجِي وَإِنْ كَرِهْتِ»^(١).

﴿هذا الحديث يُبين كراهية النفس للموت وشدة تعلقها بالحياة، وأنها مُرغمة عليه وإن كرهته... قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.﴾

ولكن ما بال ما ورد في الصحيحين وغيرهما من أن الله يحب لقاء عبده إذا أحب عبده لقاءه، ويكره لقاء عبده إذا كره عبده لقاءه.

والجواب فيما رواه الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكْرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَكُنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٢).

والمعنى: أن النفس البشرية تكره الموت الذي هو مفارقة الحياة، والانقطاع عما تحب، ولكنها حين النزاع تتكشف لها حقائق الأمور... فإذا كانت النفس برة مؤمنة، رأت مقعدها من الجنة، وما أعدَّ الله لها من نعيم دائم، وثواب كريم، فحينذاك تفرح بلقاء الله، وتحب الموت، فيُحب الله لقاءها.

وإذا كانت النفس فاجرة خبيثة، رأت مقعدها من النار، وما أعدَّ الله لها من عذابٍ بئيسٍ، وعقابٍ شديدٍ، فحينذاك تكره لقاء الله، وترهب الموت، فيكره الله لقاءها.

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأذب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

﴿ ١٥٣ ﴾ إثم القاتل بغير حق

﴿ قال رسول الله ﷺ: «يجيء الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فيقول: يا رب! هذا قَتَلَنِي فيقولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيقولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ.. فيقولُ: فَإِنَّهَا لِي.. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فيقولُ: أَيُّ رَبِّ! إن هذا قَتَلَنِي فيقولُ اللهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيقولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفلَانٍ! فيقولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفلَانٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ»^(١).

﴿ لا يشك عاقل في أن القتل قد انتشر في هذا الزمان بصورة لا تخطر على قلب بشر... فلا تكاد تمر ساعة إلا وتطالعنا النشرات الإخبارية والصحف المحلية والعالمية بأخبار العشرات والمئات من المقتولين... ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه لم يصبح هناك أي حُرمة للدماء (وبخاصة الدماء المسلمة).

﴿ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ» قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ الْقَتْلُ»^(٢).

﴿ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، يَزُولُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ» قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ^(٣).

﴿ وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرْجُ». فَقَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ... إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا». قَالُوا: وَمَعَنَا عَقُولُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُنزَعُ عَقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخَلَّفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ يَحْسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى

(١) صحيح: رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٦) كتاب الفتن.



شَيْءٍ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ» فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «الْهَرْجُ... الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»^(٢).

وما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث قد وقع بعضٌ منه، فحدث القتال بين المسلمين في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم صارت الحروب تكثُر في بعض الأماكن دون بعض، وفي بعض الأزمان دون بعض، ودون أن تعرف أسباب أكثر تلك الحروب.

وإنَّ ما حصل في القرون الأخيرة من الحروب المُدمِّرة بين الأمم والتي ذهب ضحيتها الألوف، وانتشرت الفتن بين الناس بسبب ذلك، حتى صار الواحد يقتل الآخر، ولا يعرف الباعث له على ذلك.

وكذلك؛ فإن انتشار الأسلحة الفتَّاكة التي تُدمِّر الشعوب والأمم له دورٌ كبيرٌ في كثرة القتل، حتى صار الإنسان لا قيمة له... يُذْبَحُ كما تُذْبَحُ الشاة، وذلك بسبب الانحلال، وطيش العقول... فعند وقوع الفتن يُقتل الرجل، ولا يدرى لماذا قُتِلَ وفيْمَ قُتِلَ، بل إننا نرى بعض الناس يقتل غيره لأسبابٍ تافهة، وذلك عند اضطراب الناس... وَيَصْدُقُ على ذلك قوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُنزَعُ عَقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ»، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن.

وقد جاء أن هذه الأمة أمةٌ مرحومةٌ، ليس عليها عذابٌ في الآخرة، وأنَّ الله تعالى جعل عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل.

ففى الحديث عن صدقة بن المُثنى قال: حدثنا رباح بن الحارث عن

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى صحيح الجامع (٢٠٤٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٨) كتاب الفتن.

أبى بُرْدَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوقِ فِي إِمَارَةِ زِيَادٍ إِذْ صَرَبْتُ بِإِحْدَى يَدَيَّ عَلَى الْأُخْرَى تَعَجُّبًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - قَدْ كَانَتْ لِي وَالِدِهِ صُحْبَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -: مِمَّا تَعَجَّبُ يَا أَبَا بُرْدَةَ؟ قُلْتُ: أَعْجَبُ مِنْ قَوْمٍ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَنَسَبُهُمْ وَاحِدٌ وَدَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَحَجُّهُمْ وَاحِدٌ وَغَزْوُهُمْ وَاحِدٌ يَسْتَحِلُّ بَعْضُهُمْ قَتْلَ بَعْضٍ، قَالَ: فَلَا تَعَجَّبُ فَإِنِّي سَمِعْتُ وَالِدِي، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الْقَتْلِ وَالزَّلَازِلِ وَالْفِتَنِ».

وفي رواية عن أبى موسى: «إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ. إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْقَتْلُ وَالْبَلَابُ وَالزَّلَازِلُ»^(١) (٢).

❁ وفي هذا الحديث الذى بين أيدينا يخبر النبى ﷺ عن ذلك المشهد العجيب.. وهو أنه فى يوم القيامة يجىء الرجل الذى قُتِلَ فى الدنيا ظلمًا وعدوانًا آخذًا بيد القاتل الظالم ويقول: يارب هذا قتلنى.. ولا يستطيع القاتل أن ينكر ذلك أبدًا لأنه واقفٌ بين يدي الله ﷻ.. ولو أنكر لأنطق الله جوارحه لتشهد عليه.

فيسأل الله ﷻ ذلك الرجل القاتل ويقول له: لِمَ قتلته؟

فيقول القاتل: قتلته لتكون العزة لك.

فيقول الله ﷻ: فَإِنَّهَا لِي... أى أن العزة لله سواء قتلت أخاك أو لم تقتله، فلماذا قتلته ظلمًا وعدوانًا.

❁ ثم يخبر النبى ﷺ أنه يجىء رجلٌ آخر قد قُتِلَ فى الدنيا، وقد أخذ بيد من

(١) صحيح: رواه أبو داود والطبرانى والحاكم، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٩٦).

(٢) يتصرف من أشرط الساعة.



قتله، ويقول: يا رب إن هذا قتلنى .

ولا يستطيع القاتل أيضًا أن يُنكر ذلك أبدًا فيسأله الله ﷻ ويقول له: لِمَ قتلته؟

فيقول القاتل: قتلته لتكون العزة لفلان - أى من البشر- .

فيقول الله ﷻ: إنها ليست لفلان... أى أن العزة لله ﷻ وليست لفلان...
 فيبوء القاتل بإثمه لأنه قتل أخاه ظلمًا بغير حقّ.. ولأنه فسد اعتقاده عندما قتله
 لتكون العزة لفلان من البشر.. ألا فلنحذر من الوقوع فى الدماء التى حرمها الله
 ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

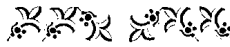
(١٥٤) أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي

عَنْ أَبِي حَلْبَسٍ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، تَقُولُ: سَمِعْتُ
 أَبَا الدَّرْدَاءِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: - مَا سَمِعْتُهُ يُكْنِيهِ قَبْلَهَا، وَلَا
 بَعْدَهَا - يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِيسَى إِنِّي بَاعْتُ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا
 يُحِبُّونَ، حَمِدُوا اللَّهَ وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ، احْتَسَبُوا، وَصَبَرُوا، وَلَا
 حِلْمَ، وَلَا عِلْمَ... قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ وَلَا حِلْمَ، وَلَا عِلْمَ؟! قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ
 حِلْمِي، وَعِلْمِي»^(١).

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعْتُ (أَيُّ: خَالِقٌ وَمُظْهِرٌ. (مِنْ
 بَعْدِكَ أُمَّةً) جَمَاعَةً عَظِيمَةً، أَوْ أُمَّةً لِنَبِيِّ... وَالْمُرَادُ بِهِمْ صُلَحَاءُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (إِذَا أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا اللَّهَ) (أَيُّ: عَلَيْهِ. (وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا
 وَصَبَرُوا) (أَيُّ: طَلَبُوا الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ. (وَصَبَرُوا) (أَيُّ: عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.
 (وَلَا حِلْمَ) (أَيُّ: وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا حِلْمَ لَهُمْ. (وَلَا عِلْمَ) (الَّذِي يَعْلَمُونَ مِنْ خِلَالِهِ
 كَيْفَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَكَيْفَ يَصْبِرُونَ عَلَى قَضَائِهِ فِي الضَّرَّاءِ. (فَقَالَ) (أَيُّ:
 عِيسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (يَا رَبِّ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا) (أَيُّ: مَا ذَكَرَ مِنَ الْكَمَالِ لَهُمْ. (وَلَا حِلْمَ
 وَلَا عِلْمَ؟! (!) لِأَنَّ الْحِلْمَ هِيَ الصِّفَةُ الْمُعْتَدِلَةُ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعَجَلَةِ،
 وَتَبْعُثُهُ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي الْقَضَايَا وَالْأَحْكَامِ، حَتَّى يَقُومَ بِمُقْتَضَى الْمَقَامِ، فَيَشْكُرُ
 عِنْدَ الْإِنْعَامِ، وَلَا يَبْطُرَ عَنِ الْإِنْعَامِ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمِحْنَةِ، وَلَا يَجْزَعُ عِنْدَ
 الْمُصِيبَةِ.... وَالْعَقْلُ أَوْ الْعِلْمُ يَمْنَعُهُ وَيَعْقِلُهُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، فَيَكُونُ مَانِعًا لَهُ مِنَ
 الْكُفْرَانِ، وَحَامِلًا وَبَاعِثًا لَهُ عَلَى حَمْدِ الْمَلِكِ الْمَنَّانِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبِهِ يَعْلَمُ

الْإِنْسَانَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَالْخَيْرَ فِيمَا اخْتَارَهُ اللَّهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ... وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حِلْمٌ وَلَا عَقْلٌ فَأَمْرُهُمْ غَرِيبٌ، وَحَالُهُمْ عَجِيبٌ. (قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي) أَيْ: عِنْدَ الْمِنْحَةِ وَالْمِنْحَةِ، لِيَشْكُرُوا حَالَ السَّرَّاءِ، وَيَصْبِرُوا حَالَ الصَّرَاءِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ، وَيَكُونُوا جَامِعِينَ لِمَظْهَرِيَّةِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: قَوْلُهُ: وَلَا حِلْمَ وَلَا عَقْلَ. قِيلَ: هُوَ مُؤَكَّدٌ لِمَفْهُومِ احْتِسَابِهَا وَصَبْرُهَا؛ لِأَنَّ الْإِحْتِسَابَ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ لَا الْحِلْمَ وَالْعَقْلَ، وَحِينَئِذٍ يَتَوَجَّهُ السُّؤَالُ أَيْ: كَيْفَ يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ مَنْ لَا عَقْلَ وَلَا حِلْمَ لَهُ؟! فَأَجَابَ: بِأَنَّهُ إِنْ فَنِيَ حِلْمُهُ وَعَقْلُهُ يَتَحَلَّمُ وَيَتَعَقَّلُ بِحِلْمِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، وَفِي وَضْعِ (عِلْمِي) مَوْضِعِ الْعَقْلِ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ نِسْبَةِ الْعَقْلِ إِلَيْهِ - تَعَالَى اللَّهُ عَنِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهُوَ الْقُوَّةُ الْمُتَهَيِّئَةُ لِقَبُولِ الْعِلْمِ اهـ. (١).



(١٥٥) واحدة لى.. وواحدة لك.. وواحدة بينى وبينك

✽ عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ قَالَ: يَا آدَمُ وَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدْنِي وَلَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا... وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ جَزَيْتَكَ بِهِ، وَإِنْ أَغْفِرُ فَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ... وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنِكَ: فَمِنْكَ الْمَسْأَلَةُ وَالِدُعَاءُ وَعَلَى الْإِجَابَةِ وَالْعَطَاءُ^(١).

✽ (قال الله تعالى: يا آدم أو يا ابن آدم) الخطاب في هذه الأحاديث للجنس أو يكون الخطاب لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.... وذريته تبع له، (واحدة لى) عليك. (وواحدة لك وواحدة بينى وبينك) منك سببها ومنى مسببها. (فأما التى لى) عليك واجبة. (فتعبدنى ولا تشرك بى شيئاً) بأن تخصنى بالعبادة وتخلصها لى وتعيش على الإيمان والتوحيد. (وأما التى لك) علىّ فضلاً منى وعِدّة صادقة لا أخلفها. (فما عملت من عمل) أى عمل خير وبرٍّ كما يرشد إليه السياق. (جزيتك به) ويحتمل العموم كما يرشد إليه قوله. (فإن أغفر فأنا الغفور الرحيم) صفتى تقتضى ذلك.... وفى الاقتصار على هذا الطرف وإهمال ما يقابله دليل على سعة عفوه ورحمته. (وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء والمسألة) أى عليك أن تُكثر من الدعاء ولا تسأل غير الله وعليك أن تحسن الظنّ بالله عَزَّ وَجَلَّ (وعلىّ الإجابة والعطاء) كذلك ويحتمل أن الدعاء أُريد به استدفاع المكروه، والمسألة استئزال المحبوب والاستجابة فى مقابلة الأول والعطاء فى مقابلة الثانى.

فإن قلت: العمل والجزاء بين العبد وربّه أيضاً كالدعاء والإجابة.. وهل الدعاء إلا من جملة الأعمال والإجابة من الجزاء.

(١) رواه أحمد فى كتاب الزهد بإسناد صحيح موقوفاً على سلمان، ولكن مثل هذا لا يُقال بالرأى فهو فى حكم المرفوع.



قلت: هذا دليل على أنه أريد بالعمل أعم من الخير والشر كما أشرنا إليه فعطف الدعاء عطف الخاص على العام^(١).

فاحرص على أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ وتُوحده وأن تتجنب الشرك بكل أنواعه لتكون بذلك قد أدّيت حق الله عَزَّوَجَلَّ .. واعلم أنك لا تفعل أى طاعة أو تقوم بأى خير إلا وتجد ذلك عند الله أعظم ما يكون.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾^(٢).... وأكثر من الدعاء ولا تسأل غير الله، «وإذا سألت فاسأل الله» وتحلّى بحُسن الظن بالله «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِن الظن بالله» وستجد الإجابة والعطاء الذى لا يخطر على قلب بشر من رب السموات والأرض (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٨ / ٣٢) بتصرف كبير.

(٢) سورة المزمّل: الآية: (٢٠).

(١٥٦) فليبلغ الشاهد منكم الغائب

✽ عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ أَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أَوْلَاءِ أَنْ لَا آتِيكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ، - وَجَمَعَ بَهْزُ بَيْنَ كَفَيْهِ - وَقَدْ جِئْتُ أَمْرًا لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ: بِمَ بَعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «بِالْإِسْلَامِ». قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ. كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ: أَحْوَانٍ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، وَتَفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ... مَا لِي أُمْسِكُ بِحُجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ؟ أَلَا إِنَّ رَبِّي دَاعِيٌّ وَإِنَّهُ سَائِلِي: «هَلْ بَلَغْتُ عِبَادِي؟» وَإِنِّي قَائِلٌ: رَبِّ إِنِّي قَدْ بَلَغْتُهُمْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَدْعُوُونَ مُقَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ، ثُمَّ إِنْ أَوَّلَ مَا يُبَيِّنُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخْذُهُ وَكَفُّهُ». قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: هَذَا دِينُنَا؟ قَالَ: «هَذَا دِينُكُمْ وَأَيْنَمَا تَحْسِنُ يَكْفِكَ»^(١).

✽ لا بد أن نعلم أولاً أن العبادة لا تكون إلا بكمال الحب لله سبحانه، وبكمال الخوف والذل بين يديه، وبكمال الرجاء فيما عنده (سبحانه وتعالى)، كما في المسند عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أنه قال للنبي ﷺ: والله يا

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧١٣).

(تخليت): تخلى عن الأمر، ومنه أى تركه... والمعنى تخليت عن كل ما سوى الله وأسلمت وجهك لله وحده.

(حُجْزِكُمْ): جمع حُجْزَة وهو موضع شد الإزار من الوسط، وموضع التكة من السراويل. (مُقَدَّمَةٌ): أى مُغْطَاة أو مشدود عليها بالفدَام.

(وَالْفِدَامِ): ما يُشَدُّ عَلَى فَمِ الْإِبْرِيْقِ أَوْ الْكُوْزِ مِنْ خِرْقَةٍ لِتَصْفِيَةِ الشَّرَابِ.



رسول الله! ما أتيتك إلا بعدما حلفت عدد أصابعي هذه ألا أتيك.

فلقد كان الكفرة يُحذرون الناس من الذهاب للنبي ﷺ، فكان أحدهم يمنع نفسه من الذهاب إلى النبي ﷺ.. بل ويحلف على ذلك عدة أيمان.

فيحكى بهز هنا أنه عدَّ على أصابع يده أنه لن يذهب للنبي ﷺ ومع ذلك ذهب، والله عزَّ وجلَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاء.

يقول: أتيت النبي ﷺ حين أتته فقلت: والله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عدد أولاء ألا أتيك ولا أتى دينك - وجمع بهز بين كفيه - يعني حلف بعدد أصابعه العشرة أنه لن يدخل في هذا الدين - قال: وقد جئتُ أمراً لا أعقل شيئاً إلا ما علمني الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ يعني: مَنْ يَهْدِي اللهُ فلا مُضِلَّ له... فقد أراد الله به الهداية مع أنه حلف هذه الأيمان، ومع ذلك ذهب إلى النبي ﷺ فاهتدى ودخل في هذا الدين.

ثم قال: إني سائلك بوجه الله - يعني: أسألك وأغلظ عليك في اليمين - بِمَ بعثك الله إلينا؟ فقال النبي ﷺ: «بالإسلام».

قال: قلت: وما آيات الإسلام؟، أي: ما هي العلامات والآيات التي فيها الإسلام.

قال النبي ﷺ: «أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخلَّيتُ».

وفي الرواية الأخرى: «أن تُسلم قلبك وأن تُوجه وجهك إلى الله».

الإسلام: أن تُسلم قلبك لخالقك سبحانه تعالى، وتُوجه وجهك وتستقيم على هذا الدين.

فلا تتوجه ولا تلتفت عنه إلى غيره سبحانه.

فقول النبي ﷺ: «أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخلَّيتُ»... هي كقوله تعالى:

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ (١).

فالإسلام تخلية من الشرك وتخليية بالإيمان والتوحيد

وهذا هو معنى كلمة لا إله إلا الله، أى: لا معبود بحق إلا الله... أى: أسلمت لله، ووجهت وجهى لله... آمنت بالله، وتخليت عن غيره من الآلهة، أى: تركت جميع الآلهة والأنداد من دون الله سبحانه وتعالى.

فتقول: لا إله إلا الله يعنى: تركت جميع الآلهة فلا أعبد إلا إلهًا واحدًا.

قال النبى ﷺ: «أن تقول: أسلمت وجهى لله وتخليت، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة... كل مسلم على مسلم مُحَرَّم».

يُعلمه النبى ﷺ هذا الدين العظيم، وأن المسلم أخٌ للمسلم لا يخذله، ولا يتركه، «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ثم فقال ﷺ بعدما ذكر التوحيد والصلاة، والزكاة: (كل مسلم على مسلم محرم، أخوان نصيران، لا يقبل الله من مشرك أشرك بعدما أسلم عملاً).

فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ (٢).

ثم قال ﷺ: «وتفارق المشركين إلى المسلمين».

يعنى: إذا أسلمت فاترك ديار الشرك وائتِ دار الإسلام وعش مع المسلمين لتعبد الله تعالى بينهم، ولا تُكثِر سواد المشركين.

ثم قال النبى ﷺ فى الحديث نفسه: «مالى أمسك بحُجْزكم عن النار؟» يعنى: العجيب من أمرهم وأمره ﷺ أنه خائفٌ عليهم ويمسك بحُجْزهم، والحُجْزة

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

(٢) سورة الزمر: الآيتان: (٦٥-٦٦).



هى موضع ربط الحزام -يعنى: كأنه أمسكهم من المكان الذى لا يفلتون منه- ومع ذلك يتفلتون بشركهم وبمعاصيهم فيقعون فى النار فيُعذَّبون... يعنى: أنا أدلكم على الخير، وأحذركم من الشر، وأخذ بحُجركم حتى أبعدكم عن النار، ومع ذلك أنتم تُصرون على الوقوع فيها.

ثم قال ﷺ: (ألا إن ربي عز وجل داعي وإنه سائلي) أى: أن الله داعى النبي ﷺ يوم القيامة وسائله: «هل بلغت عبادي؟» أى أنه عز وجل سيسأل النبي ﷺ هل بلغ الناس ما أرسله الله به أم لا... وهو أعلم سبحانه وتعالى.

وأخبر النبي ﷺ أنه سيقول لله عز وجل: ربّ إني قد بلغتهم.. وذلك حتى يُلقى الله الحُجة على الناس فلا يستطيع أحد أن يُنكر أن رسالة الإسلام قد وصلت إليه.

ثم قال ﷺ: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون مُقدّمة أفواهكم بالفِدام».

ومعنى: إنكم مدعوون أى: بين يدي الله عز وجل ليسألكم.

والفِدام: الرباط الذى يُوضَع على فم السِّقاء أو الإناء حتى لا ينسكب ما بداخله أو لتصفية الشراب الذى فيه.

و(مقدمة أفواهكم) يعنى: مغلاق على (أفواهكم) يوم القيامة حتى تنطق جوارحكم... أى أنهم يُمنعون من الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم وتشهد عليهم.

قال: (ثم إن أول ما يُبين عن أحدكم لَفِخْذُهُ وَكَفُّهُ)، أى: أن أول ما ينطق فخذ الإنسان وكفه... الفخذ يُنبئ ويخبر أنه عمل كذا وكذا، ووقع فى الحرام بكذا وكذا... وَكَفُّ الإنسان أخذ ما لا حراماً، وسفك دمًا حراماً، وتعاطى حراماً بكذا وكذا، فينطق هؤلاء ولسانه لا ينطق.

قال: قلت: (يا نبي الله! هذا ديننا؟ قال: هذا دينكم، وأينما تُحسن يكفك) أى: فى أى مكانٍ وكيفما أحسنت يكفّيك إحسانك عند الله ﷻ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١٥٧ ﴾ سيئات العبد وحسناته

✽ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ عن الروح الأمين - جبريل عليه السلام - قال: قال الرب تبارك وتعالى: «يُؤْتَى بِسَيِّئَاتِ الْعَبْدِ وَحَسَنَاتِهِ فَيُقْتَصَّرُ أَوْ يَقْضَىٰ فَيُنْفِقَ بَقِيَّتُهَا لَهُ حَسَنَةً وَسِعَتْ لَهُ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يُخبر الحق (جلّ وعلا) أنه يُؤْتَى يوم القيامة بسَيِّئَاتِ الْعَبْدِ وَحَسَنَاتِهِ.. وقبل أن تُوزَن يُقْتَصَّرُ من هذا العبد لكل مَنْ ظلمهم حتى يأخذ كل واحدٍ ممن ظلمهم حقه كاملاً من حسنات ذلك العبد... فإن بقيت له حسنة دخل الجنة ووسع الله عليه فيها من صنوف النعم التي لا تخطر على قلب بشر... وهذا يجعلنا نحذر من ظلم العباد حتى لا تضيع حسناتنا يوم القيامة وتذهب للمظلومين لأنه إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فويت حسناته، فإنه يُؤْخَذُ من سيئاتهم فُطْرَحَ فوق ظهره.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ نَظْمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجَعَلَتْ عَلَيْهِ»^(٢).

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سمَّاه الرسول ﷺ... ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟». قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

(١) رواه البزار.. وإسناده حسنٌ لغيره.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا. وَأَكَلَ مَالَ هَذَا. وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٨) عَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلَاتِي

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ، غَدَّتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: عَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلَاتِي، فَقَالَ: «كَبَّرِي اللَّهَ عَشْرًا، وَسَبَّحِي اللَّهَ عَشْرًا، وَاحْمَدِيهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلِي مَا شِئْتِ»، يَقُولُ: نَعَمْ نَعَمْ ^(١).

في هذا الحديث يُخبر أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمه (أم سليم) ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتقتبس من علمه وهديه فقالت له: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلَاتِي... أي دُبر الصلوات المكتوبات.. فأرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن تكبر الله عَشْرًا وتُسبحه عَشْرًا وتحمده عَشْرًا.. ثم أخبرها أنها إذا قالت هذا الذكر ثم سألت الله ما شاءت من خير الدنيا أو الآخرة فإن الله عز وجل يستجيب لها ويقول: نعم نعم.

قَوْلُهُ: (كَبَّرِي اللَّهَ عَشْرًا وَسَبَّحِي اللَّهَ عَشْرًا وَاحْمَدِيهِ عَشْرًا).

قَالَ الْعِرَاقِيُّ: إِيْرَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي بَابِ صَلَاةِ التَّسْبِيحِ فِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّهُ وَرَدَ فِي التَّسْبِيحِ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ لَا فِي صَلَاةِ التَّسْبِيحِ، وَذَلِكَ مُبَيَّنٌ فِي عِدَّةِ طُرُقٍ مِنْهَا فِي مُسْنَدِ أَبِي يَعْلَى وَالِدُعَاءِ لِلطَّبْرَانِيِّ فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا صَلَّيْتَ الْمَكْتُوبَةَ فَقُولِي: سُبْحَانَ اللَّهِ عَشْرًا وَاحْمَدِي اللَّهَ عَشْرًا، وَكَبَّرِي اللَّهَ عَشْرًا... إِلَى آخِرِهِ.

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَدَنِيُّ: أَجَابَ عَنْهُ بَعْضُ الْفَضَلَاءِ بِأَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ عَلَّمَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تَقُولَ فِي الصَّلَاةِ وَأَنْ تَقُولَ بَعْدَهَا، وَهُوَ الَّذِي فَهَمَهُ الْمُصَنِّفُ وَبِهِ يَحْصُلُ التَّوْفِيقُ مَعَ بَقَاءِ كُلِّ رِوَايَةٍ عَلَى ظَاهِرِهَا.

قَالَ: وَيُؤَيِّدُ أَنَّهُ عَلَّمَهَا صلى الله عليه وسلم أَنْ تَقُولَهَا فِي الصَّلَوَاتِ.

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٧٩).

❁ قولها: «أقولهنَّ في صلاتي» لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي صَلَاةِ التَّسْبِيحِ... فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بِحَذْفِ الْمُضَافِ أَيْ أَقُولُهُنَّ فِي دُبُرِ صَلَاتِي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٩) النهي عن الحلف بالله كاذباً

❁ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكَ قَدْ مَرَّقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ! فِيرُدُّ عَلَيْهِ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا»^(١).

❁ (إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكَ) أى عن عظمة جثة ديك من خلق الله تعالى... يعنى عن ملكٍ فى صورة ديك وليس بديكٍ حقيقة كما يصرح به قوله فى رواية إن الله تعالى مَلَكًا فى السماء يُقال له الديك... إلخ (قد مرقت رجلاه الأرض) أى وصلتا إليها وخرقتها من جانبها الآخر... قال فى الصحاح: مرق السهم خرج من الجانب الآخر (وعنقه مثنية تحت العرش) أى عرش الإله (وهو يقول) أى هُجِيراه وشعاره قوله: (سبحانك ما أعظمك) أى: أنزهك يا رب عن كلِّ النقائص والعيوب (فيرد عليه) أى فيجيبه الله الذى خلقه بقوله (لا يعلم ذلك) أى لا يعلم عظمة سلطاني وسطوة انتقامي (مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا) فإنه لو نظر إلى كمال الجلال وتأمل بعين بصيرته فى عِظَم المخلوقات الدالة على عِظَم الخالق لم يتجرأ على اسمه ويقسم به على خلاف الواقع... فالجراحة على اليمين الكاذبة إنما تنشأ عن كمال الجهل بالله تعالى ومن ثمَّ كانت اليمين الغموس من أكبر الكبائر وإن كانت على قضيبٍ من أراك^(٢).

❁ **الدروس المستفادة من الحديث:**

(١) تحريم الحلف بالله كاذباً.

(١) صحيح: رواه أبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧١٤).

(٢) فيض القدير (٢٠٨/٢) بتصرف.

(٢) أنه ينبغي على كل من حلف بالله أن يكون صادقاً.. وينبغي على من حلف له بالله أن يكون راضياً بذلك.

✽ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصِدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ»^(١).

وضرب رسول الله ﷺ في هذا الباب مثلاً حسناً بكلمة الله وعبده وروحه عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام)... ففي حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قَالَ: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسْرَفْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتَ عَيْنِي»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٤٤) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٣٦٨) كتاب الفضائل.

﴿١٦٠﴾ هذا هو المحروم

﴿عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَا يَفِدُ إِلَيَّ لِمَحْرُومٍ»^(١).

﴿(لا يفد): أى لا يأتى إلى الحج.

وفى هذا الحديث عتاب من الله ﷻ لكل من رزقه الله نعمة الصحة والمال ثم لا يأتى للحج... فهذا هو المحروم.

﴿الوفد: هم القوم يجتمعون، ويردون البلاد... واحدهم: وافد. وكذلك الذين يقصدون الأمراء لزيارة، وغير ذلك... والمعنى -والله أعلم-: أن العبد إذا كان صحيح الجسم، كثير الرزق، فحق عليه أن يتذكر ذلك، ويعلم أن هذا من مولاه تفضل منه وإحسان، فيقوم ببعض حق الشكر له تبارك وتعالى بالزيارة إلى بيته - وهو الكعبة- ومن لم يفعل ذلك، وتناهى، وكسل؛ فهو محروم من نعم الله ﷻ، وإحساناته، ولا يخفى أن من كان هذا حاله لتحقيق الحرمان... والله أعلم^(٢).

﴿ولكى تحرص على الحج فأليك بعض فضائل الحج لتعرف قدر تلك الفريضة.

قال ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٣).
وقال ﷺ: «الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ»^(٤).

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٩).

(٢) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (١/٤٤) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٢١) كتاب الحج - ومسلم (١٣٥٠). كتاب الحج

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: « العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ » (١).

وقال ﷺ: « تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالدُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكَبِيرُ حَبَثَ الحَدِيدِ، وَالدَّهَبِ، وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ » (٢).

وعن أبي هريرة رَوَى اللهُ أَنَّ النَبِيَّ ﷺ قَالَ: « ثَلَاثَةٌ فِي ضَمَانِ اللهِ ﷻ: رَجُلٌ خَرَجَ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ اللهِ ﷻ، وَرَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ خَرَجَ حَاجًّا » (٣).

قال المناوي: « في ضمان الله ﷻ » أي: في حفظه وكلاءته ورعايته. اهـ (٤).

وقال ﷺ: « الحُجَّاجُ وَالعُمَّارُ وَفَدُّ اللهُ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ » (٥).

وعن ابن عمر رَوَى اللهُ عَنِ النَبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَا تَرَفَعُ إِبِلُ الحَاجِّ رِجْلًا وَلَا تَضَعُ يَدًا إِلَّا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهَا حَسَنَةً أَوْ مَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً أَوْ رَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً » (٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣) كتاب الحج - ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٢٠٠)، وصحيح الجامع (٢٩٠١).

(٣) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥١).

(٤) فيض القدير للمناوي (٣/٣١٩).

(٥) حسن: رواه البزار عن جابر، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٣).

(٦) حسن: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٥٩٦).

(١٦١) أَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ.. وَغِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا

✽ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، أَمَا إِنِّي لَمْ أَقْلَهَا وَلَكِنْ قَالَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» ^(١).

✽ قوله: «أسلم سالمها الله - الحديث - ما أنا قلته، ولكن قالها الله»: ظاهره أن هذا اللفظ أوحى إليه، ويحتمل معناه دون لفظه ^(٢).

✽ قَوْلُهُ ﷺ: (أَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: مِنَ الْمُسَالَمَةِ وَتَرَكَ الْحَرْبَ. قِيلَ: هُوَ دُعَاءٌ، وَقِيلَ: خَبَرٌ. قَالَ الْقَاضِي فِي الْمَشَارِقِ: هُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ، مَا أُخِذَ مِنْ سَالِمَتِهِ إِذَا لَمْ تَرْمِنْهُ مَكْرُوهًا، فَكَأَنَّهُ دَعَا لَهُمْ بِأَنْ يَصْنَعَ اللَّهُ بِهِمْ مَا يُوَافِقُهُمْ، فَيَكُونُ سَالِمَهَا بِمَعْنَى سَلَمَهَا ^(٣).

وإذا أردت أن تعرف تأثير الأسماء في مُسمياتها فتأمل الحديث: عندما قَدِمَ (حَزَن) على رسول الله ﷺ وهو جَدُّ سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فغَيَّرَ رسول الله ﷺ اسم حَزَنَ إلى سهل، فقال ذلك الرجل: لا أُغَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهَ أَبِي... فيقول سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما زالت تلك الحزونة فينا بعد» والحزونة هي الشدة والصلابة والعُسْر قال: لا زالت تلك الشدة معروفة في عائلتنا وأسرتنا لقاء عصيان ذلك الرجل تسمية رسول الله ﷺ له باسم سهل وإصراره على اسم حزن مع ما يتضمنه ذلك الاسم من القُبْح، فصارت تلك الغلظة في طبيعتهم وأخلاقهم موجودة لقاء ذلك العصيان.

✽ وَمَنْ تَأْمَلِ السُّنَّةَ وَجَدَ مَعَانِي فِي الْأَسْمَاءِ مَرْتَبُطَةً بِهَا، حَتَّى كَأَنَّ الْمَعَانِي

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١٦) كتاب فضائل الصحابة.

أسلم: اسم قبيلة - غِفَار: اسم قبيلة.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٥٧/٧).

(٣) شرح النووي على مسلم.

مأخوذة من تلك الأسماء، وكأن الأسماء مشتقة من تلك المعانى ... فتأمل قوله ﷺ مثلاً: (أسلمَ سالمها الله، وغفار غفر الله لها - ولكن قبيلة عَصِيَّة قال: - عَصِيَّة عصت الله ورسوله) فالأحداث التاريخية تخبر بأن أسلم وغفار تلكم القيلتين قد أسلمتا لله رب العالمين وجاء أفرادهما إلى رسول الله ﷺ، أما عَصِيَّة فإنها حاربت رسول الله ﷺ واشتركت مع رعل وذكوان في قتل أصحابه (عليه الصلاة والسلام)، فتأمل كيف جرى ذلك القدر أن يكون أسلم وغفار ممن جاءوا إلى رسول الله ﷺ منيين مهتدين... وأما عَصِيَّة فقد عصت الله ورسوله ﷺ.

✽ ولما نزل الحسين ﷺ وأصحابه في كربلاء سأل عن اسمها، ف قيل له: كربلاء، فقال: كربٌ وبلاء... وكان ذلك فعلاً.

ولما وقفت حليلة السعدية على (عبد المطلب) تسأله رضاع رسول الله ﷺ وهو صغير قال لها: ومن أنت؟ قالت: امرأة من بنى سعد، قال: ما اسمك؟ قالت حليلة السعدية. قال: بخ بخ سعدٌ وحلمٌ هاتان خلتان فيهما غناء الدهر. ولأجل هذا كان من الأسباب التي تدفع إلى اختيار الاسم الطيب الذي يحمل من المعانى أشياء حسنة... فيسمى به الوالد ولده من ذكرٍ أو أنثى، والله سبحانه بحكمته في قضائه وقدره يلهم النفوس أن تضع الأسماء على حسب مسمياتها.... ولتناسب حكمة الله بين اللفظ ومعناه كما تتناسب بين الأسباب ومسبباتها.

قوله: (أسلمَ سَالَمَهَا الله)، هو من المُسَالمة وترك الحرب، ويحتمل أن يكون دُعَاءَ لَهَا أن يُسَالمها الله تَعَالَى، وَلَا يَأْمُر بحربها، أو يكون إِيْحَابَارًا بِأن الله قد سَالَمَهَا وَمَنع من حربها.

وَإِنَّمَا حُصِّت هَاتَانِ الْقَبِيلَتَانِ بِالِدُّعَاءِ لِأَن غِفَارًا أَسْلَمُوا قَدِيمًا، وَأَسْلَمَ سَالَمُوا النَّبِيَّ ﷺ.



وَفِيهِ: الدُّعَاءُ بِمَا يُشْتَقُّ مِنَ الْإِسْمِ، كَمَا يُقَالُ لِأَحْمَدَ: أَحْمَدُ اللهُ عَاقِبَتَكَ، وَلَعَلِّيْ أَعْلَاكَ اللهُ وَهُوَ مِنْ جِنَاسِ الْإِشْتِقَاقِ... وَفِيهِ الدُّعَاءُ عَلَى الظَّالِمِ بِالْهَلَاكِ وَالِدُّعَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّجَاةِ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ كَانُوا مِنْتَهَكِينَ لِحُرْمَةِ الدِّينِ يُدْعَى عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَإِلَّا يُدْعَى لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسَا وَائْتِ بِهِمْ». وَرَوَى أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَزَوْجَتَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَا يَدْعَوَانِ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِهِمَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالْهَلَاكِ إِذَا حَمَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا أَدْبَرَ يَدْعَوَانِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٢) الطاعون.. ودرجة الشهداء

عَنْ الْعَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخْتَصِمُ الشُّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرْشِهِمْ إِلَى رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنَ الطَّاعُونَ، فَيَقُولُ الشُّهَدَاءُ: إِخْوَانُنَا قُتِلُوا كَمَا قُتِلْنَا، وَيَقُولُ الْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرْشِهِمْ: إِخْوَانُنَا مَاتُوا عَلَى فُرْشِهِمْ كَمَا مِتْنَا عَلَى فُرْشِنَا، فَيَقُولُ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ: انظُرُوا إِلَيَّ جِرَاحِهِمْ، فَإِنْ أَشْبَهَتْ جِرَاحُهُمْ جِرَاحَ الْمُقْتُولِينَ، فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ، فَإِذَا جِرَاحُهُمْ قَدْ أَشْبَهَتْ جِرَاحَهُمْ»^(١).

ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن هذا المشهد المهيّب فيقول: (يختصم الشهداء) أى الذين قُتلوا فى سبيل الله (والمتوفون) بتشديد الفاء المفتوحة (إلى ربنا) أى رافعين اختصاصهم إلى الله، ومتحاكمون إليه (فى الذين) متعلق بـيختصم (يتوفون من الطاعون) أى بسببه (فيقول الشهداء) بيان الاختصام (إخواننا) خبر لمبتدأ هو (هم) أى المطعونون إخواننا (قُتلوا كما قُتلنا) بيان المشابهة، ولا شك أن مقصود الشهداء بذلك إلحاق المطعون معهم ورفع درجته إلى درجاتهم. وأما الأموات على الفُرش فلعلّه ليس مقصودهم أصالة أن لا تُرفع درجة المطعون إلى درجات الشهداء، فإن ذلك حسدٌ مذموم، وهو منزوع عن القلوب فى تلك الدار. وإنما مرادهم أن ينال الذين ماتوا فى الطاعون درجات الشهداء... وأن ينال الذين ماتوا على فُرشهم درجة الشهداء كما نال المطعون مع موته على الفراش أيضاً... فمعنى قولهم: إخواننا ماتوا على فُرشهم كما متنا أى فإن نالوا مع ذلك درجات الشهداء ينبغى أن ننالها أيضاً. وعلى هذا فينبغى أن يُعتبر هذا الخصام خارج الجنة وإلا فقد جاء

(١) حسن: رواه أحمد، وحسنه الحافظ فى الفتح (١٠/١٩٤)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

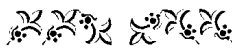


فيها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وإذا اشتهاوا أي شيء فقد قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُي أَنفُسُكُمْ﴾، فينبغي أن ينال درجة الشهداء من يشتهيها في الجنة... والظاهر أن الله تعالى ينزع من قلب كل أحد في الجنة أن يشتهي درجة من فوقه ويرضيه بدرجته والله تعالى أعلم.

﴿فَيَقُولُ رَبَّنَا ۖ إِنَّا نُنْزِلُكَ﴾ (انظروا) أي تأملوا ليتبين لكم الحكم وأبصروا (إلى جراحهم) ويفتح الخطاب للملائكة أو للفريقين المختصمين. (فإن أشبهت جراحهم) جمع جراحة. (جراح المقتولين؛ فإنهم منهم) يعنى ملحق بهم في ثوابهم. (ومعهم) أي: في حشرهم ومقامهم، وإن لم تشبه فإنهم من الميتين على فرشهم... فنظروا. (فإذا جراحهم) أي: جراح المطعونين. (قد أشبهت جراحهم) أي: جراح المقتولين... زاد في رواية أحمد: فيلحقون معهم... وفيه إشارة لقوة القياس والاعتبار حتى في دار القرار.

﴿وله شاهد من حديث عتبة عن النبي ﷺ أنه قال:

«يَأْتِي الشُّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ بِالطَّاعُونَ فَيَقُولُ أَصْحَابُ الطَّاعُونَ: نَحْنُ شُهَدَاءُ. فَيُقَالُ: انظُرُوا فَإِن كَانَتْ جِرَاحُهُمْ كَجِرَاحِ الشُّهَدَاءِ تَسِيلُ دَمًا كَرِيحِ الْمِسْكِ فَهُمْ شُهَدَاءُ»^(١).



(١) بتصريف من (مرقاة المفاتيح).

(١٦٣) عبدى يحمدنى وأنا أنزع نفسه

❁ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ كُلِّ خَيْرٍ، يَحْمَدُنِي وَأَنَا أَنْزَعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنَبِيهِ»^(١).

❁ وفي رواية قال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنِّي بَعْرَضٍ كُلِّ خَيْرٍ إِنِّي أَنْزَعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنَبِيهِ وَهُوَ يَحْمَدُنِي»^(٢).

❁ (قال الله تعالى: إن المؤمن منى بعرض) أى معرض (كل خير) فكل ما يناله فهو خير له كما بينه بقوله: (إنى أنزع نفسه من بين جنبيه) أقتصها والمراد بالنفس هنا الروح^(٣) ومنه خرجت نفسه، ومن بين جنبيه كناية عن ذاته أو أن النزاع يقع بين ذلك حقيقة بعد جمع الروح من أجزاء بدنه إليه. (وهو يحمدنى) وذلك من أعظم الخير له أن يناله أعظم الأشياء وهى مصيبة الموت وهو حامد الله تعالى وكل ذلك بفضل الله عليه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾^{(٤)(٥)}.

قال الإمام الرازى: حكمة سؤال الملكين أن الملائكة لما طعنت فى بنى آدم بعث الله إليه ملكين يسألانه عن ربه ودينه فيقول ربه ودينى الإسلام فيقول الله ﷻ: انظروا إليه أخذت روحه وماله وزوجته: فماله لعدوه وزوجته تحت غيره ومع ذلك هو مُقَرَّبٌ بتوحيدي وتنزيهى لتعلموا أنى أعلم ما لا تعلمون^(٦).

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحكيم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٨).

(٣) القاموس المحيط (ص ٧٤٥).

(٤) سورة النور: الآية: (٢١).

(٥) التنوير شرح الجامع الصغير للأمير الصنعانى (٢٣/٨).

(٦) فيض القدير للمناوى (٤/٤٩٣).



✽ والمقصود هنا أن المؤمن الذي امتلأ قلبه بحب الله ﷻ يعيش حياته كلها راضيًا عن قضاء الله ولا يعترض أبدًا؛ لأنه يعلم أن حلاوة الأجر والثواب تُنسى مرارة الألم.. فيظل المؤمن راضيًا بقضاء الله مُشتاقًا للقاء الله ﷻ حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة في حياته كلها ودخل عليه ملك الموت لينزع روحه فإنه يجده حامدًا شاكرًا راضيًا بقضاء الله مُحبًا للقاءه... وهذا الحديث هو الترجمة الحقيقية لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقلتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمَوْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

(١٦٤) الحثُّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

✽ عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكَرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللَّهُ الْعَبْدَ حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ»^(١).

أى: خفت من الناس.

✽ (إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة) أى عن كل شىء (حتى يسأله ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره) فإنه فرض عليك إنكاره فلم تترك ما فرض عليك (فإذا لقن الله) من التلقين التفهيم أى فهم (العبد حُجته) بُرهانه فى جوابه على ربه.. أى ألهمه إياها (قال يا رب رجوتك) أن تغفر لى ولا تؤاخذنى بترك النكير (وفرقت) خِفت لفظاً ومعنى (من الناس).

إن قلت: يعارضه حديث أبى سعيد الماضى قريباً: «ألا، لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه».

قلت: لعل الأول فى مهابة لا تقضى إلى شىء ينزل به وهذا فى خوفٍ حصل منه ظن إنزال المكروه به... ولذا عبّر هنالك بتهاب وهنا بفرق.. وفيه دليل على أنه لا يسقط الإنكار مخافة شر من ينكر عليه إذ لو سقط لما سُئل عنه وعُوقب على تركه^(٢).

✽ ومن المعلوم أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ لنزول العقوبات ولعدم إجابة الدعوات.

عَنْ حذيفة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ،

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨١٨).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/٣٤٤).



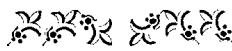
وَلْتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُشَكِّنَ اللَّهُ أَنْ يُبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

✽ قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» أى أن النبى ﷺ يُقسم بالله ﷻ وَرَبِّكَ... وكان النبى ﷺ يُقسم أحياناً ويقول: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» لأن نفس النبى ﷺ هى أطيب الأنفس... وفي هذا الحديث أقسم النبى ﷺ وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وذلك لأن أنفس العباد بيد الله ﷻ.. يهديها إن شاء، ويُضلها إن شاء، ويُميتها إن شاء، ويُبقيها إن شاء... فالأنفس بيد الله هدايةً وضلالةً، وإحياءً وإماتةً.

✽ ثم ذكر النبى ﷺ المُقسَم عليه وهو: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» لأننا إن لم نفعل ذلك فسوف يبعث الله علينا عقاباً شديداً ثم إذا دعونا (سبحانه وتعالى) أن يرفع عنا هذا العقاب وذلك العذاب فلن يستجيب دعاءنا.

✽ وقد ذكرنا قبل ذلك الأحاديث التى تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحذير من تركه.. فالواجب علينا جميعاً أن نأمر بالمعروف - ولكن بكل معروف - وأن ننهى عن المنكر - ولكن بغير منكر.. فإذا رأينا أحاً لنا قد ترك واجباً أو قصر فيه أمرناه بالمعروف وحذرناه من ترك ذلك الواجب.. وإذا رأيناه قد أتى منكراً نهيناه عن ذلك ولكن بكل رحمة.

حتى نكون أمة واحدة.. لأننا إذا لم نفعل ذلك فسوف تتفرق الأمة وسوف يبعث الله عليها عذاباً ثم لا يستجيب دعاءنا إذا دعوناه بأن يرفع عنا هذا العذاب. ولا بد أن يكون قصدنا هو إصلاح مَنْ نأمره بالمعروف أو نهناه عن المنكر.. ولا يكون قصدنا الانتقام منه أو الاستئثار عليه.



(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٠).

﴿ ١٦٥ ﴾ غفرت له ولا أبالي

﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أَبَالِي، مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئًا»^(١).

﴿ فالمراد أن مَنْ عَلِمَ أن الله تعالى غفورٌ رحيمٌ عفوٌ كريمٌ.. وأنه لا يقدر على مغفرة الذنوب إلا هو فإنَّ الله يغفر له ذنوبه ولا يبالي... ولماذا لا يبالي؟.. لأنه سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾^(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: دَلَّ عَلَى أَنَّ اعْتِرَافَ الْعَبْدِ بِذَلِكَ سَبَبٌ لِلْغُفْرَانِ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِ بِي».

وقد عَيَّرَ اللهُ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ ﴾^(٣) ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْئًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾^(٤).

(ما لم يُشْرِكْ بِي شَيْئًا) الحديث مشتق من الآية ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^{(٥) (٦)}.

رَوَى أَنَّ حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ عَادَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: أَتَرَى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِمِثْلِي؟ فَقَالَ حَمَّادٌ: لَوْ خَيْرْتُ بَيْنَ مُحَاسِبَةِ اللَّهِ إِيَّايَ وَبَيْنَ مُحَاسِبَةِ أَبِيي لَأَخْتَرْتُ مُحَاسِبَةَ اللَّهِ عَلَى مُحَاسِبَةِ أَبِيي؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ بِي مِنْ أَبِيي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٣) سورة فصلت: الآية: (٢٣).

(٤) سورة الفتح: الآية: (١٢).

(٥) سورة النساء: الآية: (٤٨).

(٦) التنوير شرح الجامع الصغير (٢٣/٨).

(١٦٦) وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْخَيْرَةِ﴾ ^(١) قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عز وجل: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أَتَّقَىٰ، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِيَ إِلَهًا آخَرَ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَعْفِرَ لَهُ» ^(٢).

عَنْ قَالَ اللَّهُ عز وجل: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أَتَّقَىٰ) أَي أَخَافُ وَأُحْذِرُ... فَالْحَذَرُ أَنْ أُوصَفَ بِمَا وَصَفَنِي بِهِ الْمُشْرِكُونَ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ورأس الاتقاء اتقاء كلمة الكفر كما قال (فلا يجعل معي إلها) لأنه لا إله غيري (فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها آخر فأنا أهل أن أعفر له) هذا على نسق التنزيل نسب الأهلية إلى نفسه في الفعلين لأنه شكور ولا يضيع أجر المحسنين... فمن زعم أن أحداً من الموحدين يُخلد في النار فقد أعظم الفرية ونسب ربه إلى الجور (تعالى الله عن ذلك).

وقول بعض السلف بخلود أهل الكبائر أراد به طول المُكث وأهمه زَجْرًا وتخويفًا فلم يفهم أولئك مراده فضلُّوا وأضلُّوا....

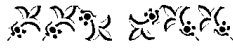
قال الإمام الرازي: سَمَّى نَفْسَهُ أَهْلَ التَّقْوَى وَسَمَّى المَوْحِدِينَ أَهْلَ كَلِمَةِ التَّقْوَى فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أَكُونَ مَذْكُورًا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَأَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تَكُونَ ذَاكِرًا... فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الشَّرْفَ...

وقال الطيبي: أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين ثم تجوز واستعمل في معنى الخليق والجدير فليل: فلان أهل لكذا أي خليق به وهو

(١) سورة المدثر: الآية: (٥٦).

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في السنة لابن أبي عاصم (٢/٩٦٩).

المعنى بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فأخبر بأنه حقيق بأن يتقى منه
وخليق بأن يغفر لمن اتقاه^(١).



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

- ٥..... مقدمة الناشر ❁
- ٧..... بين يدي الكتاب ❁
- ١١..... الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي ❁
- ١٦..... (١) رحلة أرواح المؤمنين والكافرين
- ٣٤..... (٢) فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ
- ٣٩..... (٣) لقاء إبراهيم عليه السلام أباه يوم القيامة
- ٤٤..... (٤) قصة موسى مع الخضر عليه السلام
- ٥٥..... (٥) قصة موسى عليه السلام والسامري وعجل بنى إسرائيل
- ٦٢..... (٦) المسيح الدجال... ويأجوج ومأجوج
- ٧٦..... (٧) المُجَاهِد فِي سَبِيلِي هُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ
- ٨٢..... (٨) موسى عليه السلام.. وعجوز بنى إسرائيل
- ٨٧..... (٩) قصة موسى مع ملك الموت عليه السلام
- ٩٢..... (١٠) قصة شفاء أيوب عليه السلام
- ٩٩..... (١١) أيوب عليه السلام.. وجراد من الذهب
- ١٠٤..... (١٢) إِنْ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ أَمْرًا يَحْيِي بِنَاصِيَةِ زَكَرِيَّا عليه السلام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ
- ١٢٦..... (١٣) تَوْبَةٌ قَاتِلُ الْ(٩٩) نَفْسًا
- ١٣٢..... (١٤) رحلة الإسراء والمعراج.. وفرض الصلوات الخمس
- ١٤٢..... (١٥) فضل الخوف من الله عز وجل وخشيته
- ١٤٦..... (١٦) ثُمَّ لُتْسَأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ

- ١٥٠ (١٧) حُسن الخاتمة.. وسوء الخاتمة
- ١٥٧ (١٨) طلوع الشمس من المغرب
- ١٦١ (١٩) أنا الملك... أين ملوك الأرض
- ١٦٣ (٢٠) يا آدم... أخرج بعث النار
- ١٦٩ (٢١) يوم يُكشف عن ساق
- ١٧٤ (٢٢) سُبْحَانَكَ ما عبدناك حق عبادتك
- ١٧٩ (٢٣) شهادة الجوارح والأركان على جرائم الإنسان
- ١٨٦ (٢٤) يا ليتنى كنتُ تُرابًا
- (٢٥) اتباع كل أمة ما كانت تعبد.. وسقوط الكفار في النار.. والمرور على الصراط.. وشفاعة النبيين والملائكة والمؤمنين وشفاعة أرحم الراحمين.. ورؤية المؤمنين ربهم عَزَّوَجَلَّ في الآخرة
- ١٨٩ (٢٦) أربعة يحتجون يوم القيامة
- ١٩٩ (٢٧) البطاقة والسجلات
- ٢٠٢ (٢٨) هذا فكاكك من النار
- ٢٠٦ (٢٩) أهون أهل النار عذابًا يريد أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهبًا..
- ٢١٠ (٣٠) فضل الشهداء
- ٢١٤ (٣١) مشهد ذبح الموت
- ٢١٩ (٣٢) ادخلوا الجنة أنتم وأبائكم
- ٢٢١ (٣٣) ما أعدَّه الله لعباده الصالحين في الجنة
- ٢٢٣ (٣٤) حُفَّت الجنة بالمكاره.. وحُفَّت النار بالشهوات
- ٢٢٩



- ٢٣٣ (٣٥) احتجاج الجنة والنار
- ٢٣٧ (٣٦) أول مَنْ تُسعر بهم النار ثلاثة
- ٢٤٠ (٣٧) حوض النبي ﷺ
- ٢٤٤ (٣٨) رجلٌ من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع
- ٢٤٧ (٣٩) الشَّفاعة
- ٢٥٤ (٤٠) إلى الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب
- ٢٦٢ (٤١) غمسة في الجنة.. وغمسة في النار
- ٢٦٦ (٤٢) الشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرزقون
- ٢٧١ (٤٣) طوبى لك منزل الملوك
- ٢٧٣ (٤٤) أدنى أهل الجنة
- ٢٧٥ (٤٥) آخر مَنْ يدخل الجنة
- ٢٧٩ (٤٦) بيت الحمد في الجنة
- ٢٨١ (٤٧) يوم المزيد.. وأعياد المؤمنين في الجنة
- ٢٨٩ (٤٨) لذة النظر إلى وجه الله تعالى
- ٢٩١ (٤٩) ورضوانٌ من الله أكبر
- ٢٩٣ (٥٠) إخراج أهل التوحيد من النار
- ٢٩٥ (٥١) نزول الله ﷻ إلى السماء الدنيا كل ليلة
- ٣٠١ (٥٢) الله يفرح بتوبتك
- ٣٠٤ (٥٣) خطر الشرك.. وذمُّ الرياء
- ٣١٠ (٥٤) إِنَّ الله كتب الحسنات والسيئات

- ٣١٤ (٥٥) الترهيب من مُعادة أولياء الله ﷻ
- ٣٢٤ (٥٦) فضل الحب في الله ﷻ
- ٣٢٧ (٥٧) تحريم قطع الأرحام
- ٣٣٢ (٥٨) لا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها
- ٣٣٨ (٥٩) تحريم الظلم
- ٣٥٢ (٦٠) تحريم الكبر ومغبته
- ٣٥٥ (٦١) فيم يختصم الملائ الأعلی
- ٣٧٣ (٦٢) خطر دعوى الجاهلية
- ٣٧٨ (٦٣) سأل موسى ﷺ ربه ﷻ عن ست خصال
- ٣٩٠ (٦٤) فنطار من الحسنات لمن قرأ عشر آياتٍ في ليلة
- ٣٩٤ (٦٥) تعجيل الصدقة قبل الموت
- ٣٩٩ (٦٦) ما سَيَلِغُه مُلكُ أمة الإسلام
- ٤٠٨ (٦٧) سبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾
- ٤١٠ سببُ نزولِ آخرِ للآية السابقة
- ٤١٣ (٦٨) ليس الخبر كالمعاينة
- ٤١٨ (٦٩) تحريم سبِّ الدهر
- ٤٢٢ (٧٠) إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الحُطْمَةُ
- ٤٢٧ (٧١) لا يأتى النذر بخير
- ٤٣٢ (٧٢) هل أول خلق الله (القلم)؟



- ٤٣٨ (٧٣) استشهاد عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه
- ٤٤٢ (٧٤) باب التوبة والرحمة
- ٤٤٦ (٧٥) كلمة ابتدرها اثنا عشر مَلَكًا
- ٤٤٨ (٧٦) الصلوات الخمس.. وعهدٌ بدخول الجنة
- ٤٥١ (٧٧) أصحاب الجنة.. وأصحاب النار
- ٤٥٣ (٧٨) أهل الجنة ثلاثة... وأهل النار خمسة
- ٤٦١ (٧٩) الصبر عند الصدمة الأولى
- ٤٦٣ (٨٠) علامة حُب الله للعبد
- ٤٦٦ (٨١) رحمتي سبقت غضبي
- ٤٦٩ (٨٢) أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني
- ٤٧٢ (٨٣) مَنْ أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
- ٤٧٤ (٨٤) لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين
- ٤٧٧ (٨٥) ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة
- ٤٨٠ (٨٦) ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم
- ٤٨٤ (٨٧) أذنب عبدٌ ذنبًا
- ٤٨٦ (٨٨) ستر الله على المؤمن في الدنيا والآخرة
- ٤٨٨ (٨٩) مهما بلغت ذنوبك.. فالله يغفرها
- ٤٩٥ (٩٠) فضل صلاة الفجر وصلاة العصر
- ٤٩٨ (٩١) فضل المُكث في المسجد لانتظار الصلاة
- ٥٠٢ (٩٢) فضل الصيام

- ٥٠٧ (٩٣) فضل الذكر ومُجالسة الصالحين
- ٥١١ (٩٤) الذى يذكر ربه عَزَّوَجَلَّ حَى .. والذى لا يذكره ميت
- ٥١٣ (٩٥) فضل المداومة على التوبة والاستغفار
- ٥١٩ (٩٦) شفقة النبى ﷺ على أمته
- ٥٢٣ (٩٧) فضل الصلاة على النبى ﷺ
- ٥٢٦ (٩٨) البُشرى بالنبى ﷺ فى التوراة
- ٥٢٩ (٩٩) مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
- ٥٣٣ (١٠٠) فضيلة أهل بدر
- ٥٣٦ (١٠١) كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ
- ٥٣٨ (١٠٢) نعمة التواضع
- ٥٤٠ (١٠٣) فَضْلٌ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ تَجَاوَزَ عَنْهُ
- ٥٤٣ (١٠٤) فضل عيادة المريض
- ٥٤٦ (١٠٥) كلمات .. مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَمْسَهُ النَّارُ
- ٥٤٨ (١٠٦) إِنْ اللَّهُ طِيبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طِيبًا
- ٥٥٠ (١٠٧) اللَّهُ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ
- ٥٥٢ (١٠٨) الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر
- ٥٥٤ (١٠٩) تحية المسلمين
- ٥٥٧ (١١٠) فضل من مات صَفِيَّهُ فَصَبْرٌ وَاحْتِسَابٌ
- ٥٦٠ (١١١) التحذير من التألَّى على الله .. وتقنيط الناس من رحمته عَزَّوَجَلَّ
- ٥٦٣ (١١٢) تحريم الرياء



- (١١٣) ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل ٥٦٦
- (١١٤) النهى عن قول الإنسان: مُطرنا بنوء كذا ٥٧٠
- (١١٥) تحريم تصوير ذوات الأرواح ٥٧٣
- (١١٦) الحمى نصيب المؤمن من النار ٥٧٧
- (١١٧) يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك ٥٧٩
- (١١٨) مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا ٥٨١
- (١١٩) فضل فقراء المؤمنين ٥٨٢
- (١٢٠) فضل الصبر على البلاء والأمراض ٥٨٧
- (١٢١) الجنة لمن فقد بصره فصبر واحتسب ٥٩١
- (١٢٢) فضل شهادة الجيران الأقربين وثنائهم ٥٩٣
- (١٢٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ٥٩٦
- (١٢٤) طِبَّتْ وَتَبَوَّاتُ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا ٥٩٩
- (١٢٥) الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد ٦٠١
- (١٢٦) استغفر لأبيك لترفع درجته في الجنة ٦٠٣
- (١٢٧) كثرة النوافل.. وإكمال الفرائض ٦٠٥
- (١٢٨) وسطية أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ٦٠٧
- (١٢٩) بل عبدًا رسولاً ٦١١
- (١٣٠) اللَّهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ وَبِكَ أُصَاوِلُ وَبِكَ أُقَاتِلُ ٦١٤
- (١٣١) النهى عن الشحناء والخصام ٦١٦
- (١٣٢) شَرُّ الْبِلْدَانِ أَسْوَاقُهَا ٦١٨

- ٦٢١ النهى عن قتل النمل (١٣٣)
- ٦٢٥ سيجعل لهم الرحمن وُدًّا (١٣٤)
- ٦٢٧ عَجِبَ رَبُّنَا ﷻ مِنْ رَجُلَيْنِ (١٣٥)
- ٦٣٠ قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين (١٣٦)
- ٦٣٥ يعجب ربك من راعى غنم يؤذّن (١٣٧)
- ٦٣٧ مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ مَعَ قَلَّةِ عَمَلِهِمْ (١٣٨)
- ٦٤١ تحريم الانتحار (١٣٩)
- ٦٤٥ الإيمان بالقدر (١٤٠)
- ٦٤٨ أربع ركعات في أول النهار.. ومكافأة آخر النهار (١٤١)
- ٦٥٠ فضل الوضوء من الليل (١٤٢)
- ٦٥٢ أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفِقْ عَلَيْكَ (١٤٣)
- ٦٥٣ مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي (١٤٤)
- ٦٥٥ اتَّبِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا (١٤٥)
- ٦٥٨ فضل يوم عرفة (١٤٦)
- ٦٦٣ أجر العبد كاملاً إذا مرض أو سافر (١٤٧)
- ٦٦٥ لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ ﷺ (١٤٨)
- ٦٦٧ من وساوس الشيطان (١٤٩)
- ٦٦٩ كراهة قول الرجل: هلك الناس (١٥٠)
- ٦٧١ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ (١٥١)
- ٦٧٥ النفس تكره الموت (١٥٢)



- ٦٧٦ (١٥٣) إثم القاتل بغير حق
- ٦٨٠ (١٥٤) أُعطيهم من حلمي وعلمي
- ٦٨٢ (١٥٥) واحدة لي.. وواحدة لك.. وواحدة بيني وبينك
- ٦٨٤ (١٥٦) فليُبلغ الشاهد منكم الغائب
- ٦٨٩ (١٥٧) سيئات العبد وحسناته
- ٦٩١ (١٥٨) علّمني كلمات أقولهن في صلاتي
- ٦٩٣ (١٥٩) النهي عن الحلف بالله كاذبًا
- ٦٩٥ (١٦٠) هذا هو المحروم
- ٦٩٧ (١٦١) أسلم سألها الله.. وغفار غفر الله لها
- ٧٠٠ (١٦٢) الطاعون.. ودرجة الشهداء
- ٧٠٢ (١٦٣) عبدي يحمدني وأنا أنزع نفسه
- ٧٠٤ (١٦٤) الحثُّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٧٠٦ (١٦٥) غفرت له ولا أبالي
- ٧٠٧ (١٦٦) وتزودوا فإن خير الزاد التقوى
- ٧٠٩ فهرس الموضوعات ❁

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رابع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شرح رياض الصالحين

من كلام سيّد المرسلين ﷺ

مستخرج
مطبعة الشيخ الاستاذ
مجمع الرياضيين
أبو عاصم



لا إمام أبي ذكريا
يحيى بن شرف النووي

- | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| ٧ | ٦ | ٥ | ٤ | ٣ | ٢ | ١ |
|---|---|---|---|---|---|---|



E_mail :
elmarwahprint@yahoo.com

١٢٢ ميدان الأزهر، أمام جامع الأزهر، القاهرة ٢٠١٤٧٣٢٠
أدربيا لأتراك، خلف جامع الأزهر، ١٤٣١١١٤-٠٠، ليكاش ٢٠١٤٧٩٧٤



زوروا صفحتنا على الفيس بوك
مكتبة العصفاء للنشر والتوزيع

